الموازنة

بين اعتبار و عدم اعتبار
الأعمال الحسنة للمشركين و الكفرة
في الدنيا و الآخرة

جمع و ترتيب و دراسة

محمد أبو سليمان بن فرج الحسيني

يحتوي البحث على ثلاث دراسات :

- الدراسة القرآنية
- الدراسة الحديثية
- الدراسة الأصولية و الفقهية

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

المجلد الثاني

الباب الأول

الدراسة القرآنية

الفصل الثاني
دخولهم في عموم الأعمال الحسنة وجزاؤها

في الفصل الأول تعرضنا للآيات التي لها علاقة مباشرة لأعمال الكفار أو المشركين الحسنة سواء بذكر العمل نفسه أو نسبته إليهم أو ما يترتب عليه من مقتضى دال على حسنه في سياق الحديث عنهم أو لهم، أما في هذا الفصل الثاني فستكون الآيات و دلالتها على الأعمال الحسنة عامة و مطلقة بحيث يدخل فيها أي إنسان مكلف، لأنها لم تأت مخصصة أو مقيدة أو مستثناة أو مقصورة على المؤمنين فقط، و سواء كانت هذه الأعمال أو الجزاء عليها في الدنيا أو في الآخرة، أو حتى غير مقيدة بالجزاء.

و لشدة تداخل الآيات و دلالتها مع بعضها و ابتناء بعضها على غيرها في سياقات أخرى قد يحدث تكرار لبعض المواضع و هذا ليس تكرارا محضا بل هو تكرار من النظرة الجزئية فقط، أما بدلالة هذه الجزئية مع كليتها فلا يمكن حينها القول بالتكرار، بل هو من تتميم و تكميل الصورة و التصور العام لمسألة البحث، لأن مسائل المخاطبة و التكليف و الأداء، و الصحة و الحبط و الإضلال و الإبطال، و الحسنة و السيئة و الصالح، و الشرك و الكفر و النفاق، و الجزاء و الثواب و الجنة و النار، و الكتابة و الحساب و الموازين و الوزن و غيرها كلها منوطة ببعضها البعض.

الآية رقم ١

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨]

و من قرائن الدلالة العامة ذكر (الناس) و الجمع في (أعمالهم) يدل على تنوع المتعلق لكل واحد من الناس، و ليس الجمع في أعمالهم لكلا نوعي الناس أي المؤمنين و الكافرين، لأنه من الممكن ان يتبادر للذهن أن الناس فريقين و لكل فريق أعمال تتنوع بالتخصيص لكلا الفريقين، أي الأعمال الحسنة فقط تكون للمؤمنين، و الأعمال السيئة فقط تكون للكافرين، و من يختار هذا التأويل بالطبع سيميل لتأويل العمل و المثقالية و الخيرية فيقصرها فقط على المؤمنين و العكس للكافرين، فكأنه يقول أن أعمال المؤمنين حسنة و أن الله لا يضيع عليهم مثقال ذرة من خير و وعدهم برؤية خيرية هذا المثقال، و العكس للكافرين.

و لكن ظاهر المعنى و دلالات التركيب و الصيغ و الأوزان تتجه نحو التعميم و التجريد المتعلق بالذات المجردة أي الذات المكلفة (مَن)، و من دلالة الشرطية التي تفيد التعميم و الاستقبال من الأمر، و التجديد و الاستمرارية بالمضارع (يعمل) يدلان على اتحاد المتعلق (مَن) و أن النسبية متجهة له بالخيرية و الشرية و برؤية كلاهما على نوعية أعماله المتفاوتة، فالمعنى لترسيخ العدل و المساواة في الحساب و الجزاء، و التفاوت العظيم في دار القرار ناتج عن نوعية العمل، فالإيمان يكون استحقاقه الجنة، و الكفر النار، ثم بمقرونية الأعمال يتدرج المقيم في الجنة في نعيمها و درجتها، و المقيم في النار بدركتها.

و نكتة الاستنباط من دلالة المضارعة بالتجديد في (يعمل) على كلا الجانبين (خيرا – شرا) أن المضارعة تدل على الاستقبال من الأمر فتترك مساحة للجواز و الإمكان لأن يعمل الإنسان خيرا أو شرا على قدر إيمانه و كفره بآيات الله، هذه الإمكانية المحتملة في علمنا نحن البشر بالنسبة لأنفسنا و للغير أما في علم الله فهي مقطوع بها، و مسألة أن يوجد إنسان لا يعمل إلا السوء فقط و أخر لا يعمل إلا الخير فقط غير واردة، و بوجودها في الدنيا فلا يعلمها إلا الله و قد أعلمنا الله بوجود نوعية معينة من البشر بالنسبة للكفر و الإيمان في القرآن و لكن لا يمكن الوقوف عليهم يقينا لنا كبشر لأنه بالنسبة لنا يوجد الكافر الذي يصبح مؤمنا و العكس، أما فعلم الله فمقطوع به ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٧﴾ [يس: ٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٦﴾ [البقرة: ٦] ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝١٠﴾ [يس: ١٠]

و لو فرضنا التأويل بأن الخير و الشر هنا المقصود به الإيمان و الكفر لكي يناسب الثنائية التأويلية أي الكفار و المؤمنين و النار و الجنة، فيكون معنى التبعيض أو التقدير لدرجة مثقال الذرة يدل على التدرج و هذا بدوره يدل على تنوع الإيمان و الكفر سواء على حسب العمل المعين أو الأعمال المعينة، و الشاهد شيوع الإيمان و الكفر في الأعمال لكلا الفريقين في الكم و النوع ليطول العمل ذاته أو نوعية الأعمال.

و من القرائن التركيبية أن رؤية الخير أو الشر قد اسند لعمل مثقال الذرة من الخير أو الشر، و بالنسبة لدار القرار لا يوجد إلا دارين فقط إما جنة أو نار، و عليه لا يمكن تصور جزاء مثقال الذرة من الخير هو الجنة و مثقال الذرة من الشر هو النار، و هذا يدفع ثنائية الجزاء و ثنائية

العامل بل يعطي دلالة الطيف و النطاق العام لكلا الفريقين و يدل على أن هذه المرحلة هي مرحلة الحساب و الموازنة و ليست مرحلة رؤية الجزاء بمعنى تداركه الفعلي، لأن من دخل الجنة فلن يرى فيها شرا لمثقال ذرة عملها من شر، و هكذا من دخل النار فلن يرى فيها خيرية على مثقال ذرة من خير عملها، فلذلك هذه مرحلة المحاسبة و الموازنة.

يبقى معرفة الخيرية و الشرية من أين تأتي هذه المعرفة؟ هل تُعلم باسم الفاعل أي كل عمل يقع من مؤمن فهو خيرا، و كل عمل يقع من كافر فهو شرا؟ أم هل تُعلم من خلال تطلب الصفات المميزة للأعمال من شرع الله؟.

و من الصفات الشرطية لتمييز العمل شرطان أحدهما قلبي لا علم به لنا و لم يكلفنا الله تحسسه و التجسس عليه لأنه تكليف بما لا يطاق لأنه من علوم الغيب، و أخر ظاهري و هذا هو الذي نستطيع الوقوف عليه بمقارنة العمل بما أتي في شرع الله من أوصاف و شروط ظاهرية و هذا هو ما كلفنا به، فالواجب من أمرنا تجاه هذه المعرفة أن نستدل على الباطن بالظاهر مع معرفتنا يقينا أننا لا نصيب أو نخطأ يقينا بل هو مجرد ظنون معتبرة في الدنيا من الناحية الشرعية في المعاملات ما بين البشر، و نكل الباطن لله فهو الذي يعلم و يحاسب و يجازي.

دلالة اسم الفاعل

فهل في كتاب و شرع الله شرطية اسم الفاعل (كافر – مؤمن) لاعتبار العمل الصادر منه بدون موافقته لشرع الله أو بموافقته لشرع الله؟ بالطبع باعتبار موافقة و مخالفة شرع الله نميز الحق من الباطل، نأتي لفرضية اسم الفاعل على شرطيته لاعتبار الأعمال بعد استفراغ موافقة

الشروط الشرعية الخاصة بالعمل.

و يتبادر السؤال هل اسم الفاعل مستحق و قائم للذات بنفسه أم بغيره؟ بالتأكيد فمصدر اشتقاقه من مادة العمل الذي هو الإيمان أو الكفر، إذن فأصله الذي لزم صاحبه كان بإتيان عمل الإيمان أو الكفر، و الإيمان أو الكفر بشقه الباطني لا نعلمه و لكن نستدل عليه من خلال الأعمال الظاهرة التي أناط الله بها حكم الكفر و الإيمان، أو جعلها علامة و أمارة عليهما، ثم ننتقل لأول عمل بناء عليه استحق اسم الفاعل (مؤمن – كافر) سواء كان متعينا أو بالحكم فقط كإلحاقه بالكفر تبعية أو بالاستصحاب الزماني و المكاني.

إذن العمدة و الأصل هو العمل أو مظنة العمل، و لكن هل هذا العمل عرض أي يقع أو لا يقع و إذا وقع فهل هو دائم أم يجوز عليه الانقطاع و التبدل للضد، و هل معرفته متوقفة على حدود العمل المتصور الذي وقع منه، فإذا كان له حد عملي و لا بد من ذلك فهو محدود في الزمن و المكان على وجهتي الوقوع و الرصد له من الغير، و ما دام هو محدود و قابل للانتقاض فلا استمرارية فيه لأن يدوم فيشغل حيز التكليف القائم بالنفس الموصوفة به (كافرة أو مؤمنة) لأن محل التكليف قابلة للشغل سواء بنفس العمل الذي استحق به اسم الفاعل أو بعمل غيره، فلا بد من التجدد العملي، و عليه ينتظر للعمل القادم فهل سيُبْقي عليه كافرا أم يتبدل الحال و الاسم لأن يصبح مؤمنا بالعمل الجديد.

و على ما سبق فاسم الفاعل هو اسم أو وصف لنفس مكلفة قد صدر منها ما استحقت عليه اسم الكفر أو الإيمان باستصحاب دلالة القصد و الاستمرارية على سبيل التدين و هذا لأجل تنظيم المعاملة معه في الدنيا على ما يقتضيه شرع الله من خصوصية بعض الأحكام و المعاملات

معه، فإذا وقع منه بعض الأعمال الإيمانية التي تقع من المؤمنين على ظاهر الأمر فهل يصبح مؤمنا أم يكون به إيمان قائم مقرون بهذا العمل ثم ننظر هل يستأهل اسم الفاعل على هذا العمل أم لا؟

و كلا الاتجاهين معمول بهما في شرع الله، فهناك عمل معين يعطيه الحق باسم الفاعل (مؤمن – كافر) إذا صدر منه بشروط فقهية معينة تختلف على حسب حال الفاعل و اعتبار لقصده و مدى علمه، و لكن على ظاهر الأمر يأخذ اسم الفاعل مبادرة منا بتوصيفه الإشاري ثم ينظر فيما يستتبعه من أحكام و شروط تتوقف على الاسم، و لكن هذه الأحكام هي خاصة بنا جماعة المؤمنين لتنظيم المعاملة معه و تحديد موقفنا معه على ما يستتبعه من أحكام، أما على الاتجاه الأخر فهو هل نقبل منه العمل الإيماني أم لا؟ بمعنى هل نعتبر عمله وقع صحيحا فنعلق عليه ما يستتبعه من أحكام شرعية أخرى مع بقاء اسم الفاعل كافر في حقه لأن نوعية العمل الإيماني لا ترقى لدرجة الإيمان العام، كأعمال البر و الإحسان و الأخلاق الحميدة في حال أنها عارية تماما عن قصد موافقة أمر الله فيها؟

أما العمل الذي ظاهره موافقة شرع الله و باستفراغ غلبة الظن أنه يقصد به امتثال أمر الله لأنه معلن إسلامه و إيمانه كدين فهذا العمل إما أنه يصيره مؤمنا في اعتبارنا أو أقل ما يلزمنا منه أن عمله معتبر شرعا، و الأدق في الوصف أنه بهذا العمل قام به أو فيه إيمان فإما أن يتلازم ظاهره بباطنه أو ظاهره فقط، و الذي يلزمنا في الحالين ظاهره، فعلى مستوى الأعمال نقول إنه مؤمن بهذا العمل و كافر بهذا العمل، حتى يتدين أو يعلن التزامه الآني و المستقبلي به فيستحق اسم الفاعل لأنه دلنا على باطنه بظاهره طاعة لله في كل ما أمر و نهى فالأمر على هذا المستوى قد

تجاوز تعيين العمل وقوعا في الوجود لأنه فرع دال على أصل مظنون في حق الذي يعمل مرة إيمانا و مرة كفرا فهو مذبذب ككفر و إيمان المنافقين، و في حال المنافقين يعتبر منهم أعمال الإيمان بل حتى التي تقع على صورتها بالنسبة للمؤمنين مع غلبة ظن المؤمنين بأنها صورة فقط لأن الله أعلمهم بحقيقتها.

و لهذا تجد وصف المنافقين بأوصاف عملية منوطة بأداء العمل كالنفقة و الصلاة و الجهاد و الصدقات و أقوالهم في المواقف المستخرجة لبواطنهم، أي أن العمل هو الأصل لأنه لا يوجد بدون باطن، فالعمل دال على الباطن و لكن ما كلفنا به هو صور الأعمال ما دامت موافقة للشرع، و لو كان اسم الفاعل مؤثرا في نوعية الأعمال الصادرة لاستوجب إذن نسق واحد و وصف واحد، و لكنه ليس كذلك فهو دال فقط على عمل معين أدى لهذا الاسم قد يتكرر أو يتبدل أو يتخلف بعمل أخر، فالعبرة بالعمل الآني الذي يقع و يصدر في حضرة و معية المؤمن لكي ينوط به أحكام أخرى خاصة بالعمل و خاصة بالعامل، فالعمل مقبول و معتبر ما دام مستوفي الشروط الشرعية فإذا قارنه إعلان الدخول في الدين بظنية الاستدامة و الالتزام فقد استحق اسم فاعل منوط بدينه فيكون مؤمنا أو كافرا، أما النظرة العملية فكل عمل مستقل و له نصيب في اسمية الفاعل على حسبه، فإما أن يكون اسم الفاعل منافق و هذا له أوصافه و أحكامه، و إما أن يكون كافر أو مؤمنا.

و أمثل مثال لبيان أصل المسألة في التفريق بين العمل المستقل و المنوط باسم الفاعل مسألة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، فقد حكم الله بالطاعة في استحلاله بالشرك، فالذي أطاع فيه فهو مشرك، لأنه جعل الحرام حلال أو لم يدين بالحرام الذي حرمه الله عليه، أما أكله من الناحية

العملية فلا يعتبر طاعة بل يكون معفو عنه في حال الضرورة بأمر الله نفسه، فأكل الميتة لم يصير الآكل مشركا إلا باعتبار الباطن الذي هو الطاعة، و الطاعة أمر باطني فلا نرى نحن البشر إلا آكل و مأكول فلو كان ضرورة فلا عليه من إثم، أما لو في غير الضرورة فهو إثم، و الشاهد أن صورة العمل الظاهري لا تخولنا أن نحكم على الفاعل بالكفر أو الإيمان إلا بإعلانه ما يستوجب الكفر أو الإيمان.

و الحاصل أن العمل المحرم أو المحلل طبقا لشروطه الشرعية هو ما يلزمنا من النفس المكلفة، و بمحدودية علمنا و كفايته التكليفية نستدل على قيام إيمان أو كفر بالفاعل حين وقوع و صدور العمل مقيد و محدد بهذا العمل في النطاق الزماني الذي وقع فيه، و ما يلزمنا هو صورة متفرعة من الإيمان و هو قصدية توقيع الفاعل للعمل لكونه حلالا شرعيا، بقصد إعلامنا بحلية هذا العمل موافقا لشرع الله بظاهره، فالأولى لو كان هذا الفاعل لم نرى منه غير الحلال فقط.

و لا نشترط في الفاعل الدينونة الإيمانية لأن الأعمال التي تقع من المؤمنين و المنافقين لم يكن لها شرط في قبولها أن يقارنها الإعلان عن هذه الدينونة كل مرة فيكفي فيها مرة واحدة على التعيين و في حالة الكافر سابقا على التعيين، أما جُل المحكوم عليهم فإنهم تبعا و استصحابا و بغلبة الظن و يكفي فيهم الأمارة فقط في ظل المفارقة بين الفريقين بعلم ما هم عليه من كفر و إيمان، فمن أظهر أو ظهر عليه امارة الإيمان فهو مؤمن لأنه يدلنا على اختياره و علمه بدين هذا الفريق الذي يعلن انتماؤه له متدينا بدينه، كإلقاء السلام سواء كان بالتحية أو الخضوع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا

تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴿٩٤﴾ [النساء: ٩٤] **و كما في أحاديث كُثر بأمارة الصلاة و استقبال القبلة و أكل ذبيحة المسلمين.**

و إن كانت هذه المسألة مغايرة لمحل مسألتنا فنحن لا نسعى للحكم على الناس من خلال أعمالهم الظاهرة فهذه مسألة أخرى، فنحن نقصد اعتبار هذه الأعمال الموافقة للشرع حتى من الكافر حكما أو عينا، **و نفك الارتباط بين اعتبار العمل باسم الفاعل، كما هو مشاع لا يقبل عمل إلا من مؤمن، و كل عمل للكافر مهدر و غير معتبر و لا يصح، و نأخذ من مسألة الحكم بالعمل الظاهر مع احتمالية المخالفة بينهما تارة و يقينا تارة أخرى على الفاعل كما وردت في الشريعة ذريعة و توسل لتحقيق مسألتنا، لأننا نستشهد بالربط بين العمل و اسم فاعله في الربط بين العمل و بين اعتباره فقط،** فإذا ثبت الحكم على الفاعل بنوعية العمل فبالأولى يكون قبول العمل الحسن و الصالح من الفاعل، لأننا نستدل بالملازمة بين نوعية العمل و الحاق اسم الفاعل بناء عليه **فنأخذ منها أقل دلالة فيها و هي كافية لمحل مسألتنا، لأن اسم الفاعل مشتق من نوعية العمل** فإذا اعتبر اسمه من عمله فالأولى اعتبار عمله لأنه أسبق في الوجود و هو العامل في التسمية.

فالعمل الذي أثر في اسم فاعله قد تضمن لزوما أصل هذا الاشتقاق، فالعمل الذي سمى فاعله مؤمنا هو بصفة الإيمان أولى و هذا هو محل الاستدلال، **و كما هو معلوم من الشريعة أن اسم الإيمان يقع على كثير من الأعمال بل يتعدى لكل عمل قد أمر الله به عباده سواء طلبا للوجود أو للعدم،** و عليه فكل عمل شرعي يصدر من النفس المكلفة فهو معتبر شرعا **ثم**

ننظر لما يتبع هذا الاعتبار هل يستحق فاعله اسم المؤمن أم لا، فهذه مسألة محل نقاشها و الاستدلال عليها مغاير تماما لمحل مسألتنا، لأنه منوط بالكفاية و عدمها المتحققة في نوعية العمل لأن يلحق بفاعله اسم المؤمن أم لا؛ بحيثية مدى دلالة العمل على الالتزام الآني بدلالته على المستقبلي و التدين القلبي و هي مسألة خاضعة لشق منها للتصور العقلي و شقها الأخر للنص الشرعي المتضمن لعمل العقل في تصويره واقعا أي صورته الواقعية.

مفهوم الحبط و علاقته بالموازنة

مفهوم الحبط هو مفهوم ضمني في مفهوم الموازنة، أي أن الموازنة تتضمن الحبط، فكل وحدة ممثلة للجزاء بنوعية الثواب و العقاب تحبط أحدها الأخرى في الموازنة و يتبقى ما يثقل أو يخف الميزان، فإذا ثقلت موازينه فهو للجنة خالدا فيها، و إذا خفت موازينه فهو للنار خالدا فيها، و الموازنة قد تكون قبل الميزان أو أثنائه على حسب تقديرنا ما في الميزان كمعيار، فلو كان المعيار هو مثاقيل الحسنات الحدية أي التي تفصل بين الخفة و الثقل، فما زاد بمثقال ذرة من خير يثقل الميزان الخاص به فتثقل موازينه، و من خفت مثاقيله الحسنة مقابل المعيار الحدي من المثاقيل الحسنة فتخف موازينه.

أو تكون الحسنات و السيئات لها وحدات معيارية في الثقل، فيكون الحسن منها يثقل و السيئة منها تُخف أي تعكس الاتجاه الثُقلي، و هنا تحدث الموازنة ما بين وحدات الحسنات و السيئات على جانب واحد من الميزان فتحبط أحدها الأخرى بتوازن معين لا يؤثر على عملية الميزان

كأنه محايد، ثم يتبقى وحدات ما بعد الموازنة مقابل الجهة الأخرى من الميزان التي فيها الثقل الحدي الفاصل، فإذا كان ما تبقى و لو ذرة واحدة من الخير أثقلت الميزان، أما إذا كانت وحدات السيئات أكثر فيتبقى منها ما يُخف الميزان فيخف ميزانه ضرورة، و هذا بالضرورة كافر أو مشرك، لأنه لو مؤمن موحد لأقل احتمالاته أن تتكافئي الموازين لأن ما معه من إيمان و توحيد يقابل الجهة الأخرى أي الثقل الحدي المعياري، و لأن الحسنة تتضاعف فلا يمكن تصور أن حسناته المتضاعفة حبطت بسيئاته المفردة.

- و الحبط هو إفساد أو إهلاك وظيفي و ليس ذاتي، أي أن الحسنة المستحقة ثوابا إذا حبطت بسيئة هلك و بطل الثواب أما الحسنة ذاتها فتوازن بسيئة فتهلك ذاتها فكأنها لم تكن و كذلك السيئة كأنها لم تكن، فالحبط متعلقه الاستحقاق الثوابي فقط أما الموازنة فمتعلقها الذات و بالتبعية الاستحقاق، فمثلا الحسنة لها ذات قائمة يترتب عليها استحقاق وظيفي و هو الثواب و محل الثواب هو الجنة، و الجنة مشروطة بالإيمان، فإذا حُرمت الحسنة من ثوابها فهذا دليل على أن صاحبها لن يدخل الجنة التي هي محل الثواب، و حبط الحسنة أي إبطال ثوابها لا يعدمها في ذاتها بل تدخل الموازنة بالسيئات أي ذوات مع ذوات فيتهالكا، ثم يحاسب الإنسان بما تفاضلت به إحدى الجهتين إما حسنات أو سيئات.

و نحن عندما نمثل للموازنة بالوحدات فنقصد أن الوحدة هي قدر معلوم محدود يمثل الحسنة أو السيئة في طور الحساب و الميزان و الموازنة، أما قبل ذلك فالأعمال التي استحقت حسنات أو سيئات فهي تتباين فيما بينها من حيث الكم و النوع، فالإيمان و التوحيد يقابله الكفر و الشرك فهذان ما يمثلان الوصف النوعي الحدي ثم بتكرار الماهية يدخل في الوصف الكمي،

فالتفاضل يكون داخل النوعي و الكمي كل على حده، و بذلك فالوحدة هي اختزال لوصف الكم و النوع معا بحيث يمكن تقدير أي عمل كان بقدر معين من هذه الوحدات.

و لو أحببنا أن نستعمل التعبير القرآني أو بالأحرى المصطلح القرآني و هو الأفضل يمكننا أن نطلق على الموازنة عملية المذاهبة مشتقة من إذهاب الحسنات بالسيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، و هذا القانون العام الإلهي يجب أن نضع في اعتبارنا بأنه حكم الله بمقتضى الحكمة و العدل و الرحمة فيجب تفعيله في تصورنا للموازنة و المذاهبة لأنه على مستوى الوصف الذاتي أي على مستوى الحسنة و السيئة فلم يتعرض لما يستتبعها من ثواب أو عقاب، فهي مرحلة سابقة على مرحلة الجزاء بالثواب أو العقاب، فهذا الإذهاب إما أن يكون قبل الميزان أو أثناء الوزن بالميزان كما سبق و أشرنا، بحيث ما يبقى من هذه المذاهبة هو الذي يثقل أو يخف الميزان، و من ثم إلى الجنة أو إلى النار كدار القرار و هو عين الثواب أو العقاب.

و تحديدنا لنوعية الوحدات الممثلة للحسنات و السيئات كان على أصل أن: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٨﴾ [الأعراف: ٨]،أي الوحدات الممثلة للموازين هي الحق أي الحسنات فهي التي يعاير بها فيوضع بها الثقل الحدي المعياري الذي يفصل بين استحقاق الجنة و النار، فنفترض أن تكون الوحدات هي الممثلة للإيمان و التوحيد فقط، فالمؤمن الموحد بما أنه محقق لهما فهو يمتلك مثل هذه الوحدات في موازينه و لا بد أن يتفاضل و لو بمثقال ذرة من خير فيثقل ميزانه فيكون من المفلحين، أما الكافر المشرك فلا يمتلك مثل هذه الوحدات فلا بد قطعا مهما كان معه من وحدات الحسنات الأخرى فلن يثقل موازينه أبدا بل تخف موازنه فيكون من أهل النار.

و يجب التنبه إلى أن الله لم يذكر إلا الخفة و الثقل تجاه الجنة و النار كحكم عام لنوعية دار القرار، أما تعيين الدرجات و الدركات في الجنة و النار فهو يتعين بقدر الموازين التفاضلية بعد أن خفت أو ثقلت، لأن الخفة و الثقل ما دام ممثل بوحدات فهو حتما يتفاضل في الخفة و الثقل، و عليه يتفاضل قدر الاستحقاق بناء على درجة الخفة و الثقل الذي يمثل في الجزاء في الجنة بالدرجات و نوعية الجنان، و في النار بالدركات و الشدة.

و يمكن استنباط أن المؤمن لا بد أن تثقل موازينه لأن الله لم يذكر إلا حالتين إما خفة أو ثقل و لم يذكر حال ثالث، فعدم الذكر يشير لغياب مثل هذه الحال فلا توجد بإذن الله و أمره، و عليه فإن المؤمن يثقل موازينه، أما إدخال حال ثالث بالفرض العقلي أن يكون هناك توازن بين الجهتين فيكون من أهل الأعراف فالله أعلم، أما لو جوزنا أن يكون خفة موازين المؤمن تؤدي به إلى النار فترة من الزمن ثم يخرج منها بعد أن يعذب على قدر سيئاته ففي هذه الحال سيكون في جهة الوزن الحق ما يمثل وحدات الإيمان و التوحيد مع بعض الوحدات الأخرى التي يشترطها الله كما في كثير من الآيات مقرونين الإيمان و العمل الصالح أو الصالحات، ففهي هذه الحال إن لم يمتلك المؤمن وحدات الصالحات فسيخف ميزانه بعد تحابط الحسنات و السيئات، و الله أعلم.

التحابط و الموازنة و علاقتهما بمسألة التكفير

المرتكز الدلالي الجاذب لروافد الدلالة العامة هو الخلود في النار تارة أو الكفر تارة لشدة الملازمة بينهما من جهة أن الكافر مخلد في النار و لن يخرج منها، و لكن هل كل من يدخل النار هو كافر؟ فهناك من قال أن المؤمن العاصي قد يدخل ثم يخرج بدون أن يكون كافرا بالطبع، فطرفي الجذب في هذه المسألة إما أن يبدأ بكون الذنب المسبب لدخول النار و الخلود فيها تأويلا أو نصا كالقاتل مؤمنا عمدا، هو سبب الكفر و مرتكبه كافر و من هذا المقتضى يكون خالدا في النار، أو يكون طرف الجذب أن يكون هناك ذنبا يخلد صاحبه في نار جهنم فيصير هذا الذنب إما كفرا في ذاته أو أنه يقع به الكفر لكي نستسيغ الخلود في النار به، فالحاصل أن الكافر مخلد في النار، و هناك ذنوب تخلد في النار، إذن هذه الذنوب كفر، و بالتأويل كالخوارج و المعتزلة بعض المعاصي تخلد صاحبها في النار و لم ينص على صاحبها بالكفر فإما أن يقال عليه كافر بها كالخوارج أو أن يلزم عدم التصريح النصي بكفره كالمعتزلة فيقضي بالخلود في النار مع تسميته مؤمن.

فمن كفَّر بها كالخوارج فلا يجد داعي لتأويل كيفية حبط كل أعماله لأنه بسبب الكفر حبطت، أما من أبقى على مسمى الإيمان أو المنزلة بين المنزلتين هو الذي وجب عليه تفسير كيفية حبط أعماله تحت ضغط و تنازع مقتضيات دلالية متنوعة داخلة في عقيدة العدل و الظلم، و تصوير الثواب و العقاب، فأداهم إلى مقولة الحبط و الموازنة لكي يبرروا كيفية هلاك حسناتهم و أعمالهم الصالحة و إيمانهم أو عدم تأثيرها في دفع العذاب عنهم مع عقيدة العدل الإلهي.

أما مسألتنا فبمعزل عن هذا الصراع و الجدال لأنها لا تُدخل مرتكب الكبيرة كسبب استحقاق

الخلود في النار و لا تدخله في مسمى الكفر، و أيضا لا تدخل بعض الذنوب في مسمى الكفر كالخوارج، و لا تعطي تصنيف لنوعية المعاصي التي تدخل صاحبها في مسمى الكفر أو الخلود إلا ما جاء منصوصا عليه نصا، فتنحصر مسألتنا على حسنات الكافر المستحق الخلود في النار لموته على الكفر، و تفسير احباط أو إهلاك أو إبطال أو إضلال حسناته فلا تنفعه و لا يجد عليها ثوابا، و لتداخلها مع مسألة الحساب و الميزان و الموازين يجب بيانها في ظل هذه القضايا فيدخل معها من هذا الباب قضية الإحباط و الموازنة كأحد أعمدة التفسير و البيان لما يقع بين الحسنات و السيئات بدون مخالفة أو معارضة لأي نص من النصوص و الدلائل الظاهرة.

و من هنا بدى أهمية آيات سورة الزلزلة في إثبات وعد الله برؤية خير مثقال الذرة لو كانت خيرا كيف يحدث ذلك في ظل قول المعتزلة بإحباط أي عمل صالح و حسنة لمرتكب الكبيرة الغير تائب منها لأنه سيدخل النار خالدا فيها فأين رؤيته لخير حسناته؟ فلزم هذا أن يبرروا عدم منفعته لحسناته لا في إثبات ثوابا و لا في دفع عقابا، فكان تبريرهم هو في مسألة التحابط و الموازنة.

و خيرية الحسنة لها وجهان يختلفان باختلاف صاحبها، فحسنة المؤمن له وجه الحبط للسيئة، و الثاني وجوه استحقاق ثواب ما بقي من تضاعيف هذه الحسنة في الجنة، أما حسنة الكافر فليس لها إلا وجه واحد و هو التحابط مع سيئاته فقط، و بهذا تكون خيرية حسنات الكافر التي يراها صاحب الحسنات هو في التحابط لأنها تدفع عنه شر العقوبة، و رؤية شر أعمال الكافر تتمثل في وجهين، أحدهما أن يراها تحبط حسناته، و الثاني استحقاقها العذاب في النار، أما بالنسبة للمؤمن فرؤية شر سيئاته تتمثل في حبطها قدر من حسناته.

و على هذه الرؤية يكون أي معصية أو ذنب دل النص و الدليل على خلود صاحبها في النار يجب أن تكون كفرا أو يلزم منها الكفر لكي نفسر سبب الخلود، أما دخول النار فيمكن تأويله بتوقيت معين يتناسب مع قدر استحقاق العذاب على السيئات التي دون الشرك و الكفر، و عليه يكون الإيمان في حقه عاصم من الخلود في النار و هذا ثواب الإيمان هو الخلود في الجنة كما أن جزاء الكفر هو الخلود في النار، ثم تتفاضل الدرجات في الجنة و الدركات في النار على حسب قدر الحسنات و السيئات الباقية بعد الموازين و الحساب المتضمنة الموازنة أو التحابط و المغفرة و التكفير على ما يقتضيه علم و حكمة و رحمة الله بعباده.

و لتقريب وجهة نظر الخيرية بأنها لا يلزم منها التنعم بمعنى الإثابة فقط بل هي تجري على وفق فقه الموازنات و المقاربات فلا يلزم منها آنية التمتع بالمُحَب بل غرضها حصيلة الأمر بما يتخلله من مجاذبات و مشادات بين الحب و الكره الفرعي كما في قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، فالخيرية قد تكون فيما لا نحب أو تستهواه أنفسنا لأن الله يعلم و نحن لا نعلم، و كذلك يمكن تأويل رؤية الخير على أعمال الصلاح و الحسنات في كونها تذهب السيئات و تخفف من قدر الشر، فلا يلزم إذن من رؤية الخير أن يكون هو ما نحب أي ثواب التنعم فقط بل قد يكون مكمن الخير في تقليل العذاب المستحق، فقد يكره الإنسان رؤية حسناته تذهب بسيئاته و لكن هذا يكون الخير له، فبالنسبة للكافر فتخفيف قدر استحقاق العذاب، و بالنسبة للمؤمن تخليصه من موانع التنعم في الجنة، و بالطبع رؤية الشر الجامعة للإثنين تكن في ذهاب الحسنات فللمؤمن كانت سترفعه في الدرجات و للكافر كانت ستحط عنه قدر العذاب، و ما

يخص الكافر من رؤية الشر هو استحقاقه شدة العذاب و قدره على سيئاته الباقية.

- و أحد المعايير الأصلية في الخلاف بين نظرتي المعتزلة و غيرهم، أن معنى الحبط (الإفساد – الإهلاك –...) هو متفق عليه مفهوما و لا أي أثر خلافي في هذا المفهوم المجرد، يبدأ الخلاف في متعلقه من العمل، فالمعتزلة تقرر المباينة الزمنية للأفعال فلا مانع عندها إن لم يكن هو القول ذاته أن العمل الصالح المستحق ثوابا يبطل و يحبط بعمل سيء مستحق عقابا، اما الأشاعرة مثلا يقرروا أن العمل نفسه لم يقع صالحا و لم يستحق ثوابا كي يتسنى لنا إلحاقه بعمل أخر سيء مستحق عقابا لكي نقول أن هذا أحبط هذا، بل العمل لم يقع صحيحا ابتداءً.

فالكل متفق على حبط الكفر كعمل سيء مستحق عقاب لكل ما سبقه من عمل صالح بدءا بالإيمان فما دونه، و العكس صحيح فالإيمان كعمل صالح استحق ثوابا يحبط أو يجب كل عمل سيء سبقه استحق عقابا، يبدأ الخلاف بإدخال المعتزلة الكبيرة كأنها تجب ما قبلها من عمل صالح و ثوابا مثلها مثل الكفر بجامع الخلود في النار، ثم يتفرع الاختلاف بين المعتزلة أنفسهم في كيفية حدوث ذلك على أصول التحسين و التقبيح و العدل مع الوعد و الوعيد، فمنهم من قرر مبدأ المكافئة أي الحسنات تكافئ السيئات فيتحابطا كما و الذي يبقى هو الذي يحدد مصير مرتكب الكبيرة، فإن كان الباقي حسنات فإنها تخفف عليه العقاب، لأنه مخلدا في النار على مبدأهم و سمي هذا المبدأ بالموازنة، و منهم من جعل الأكثر يحبط الأقل و سمي هذا مبدأ الحبط المحض، و بما أنه مرتكب كبيرة فأكثريته حتما تكون السيئات.

و مبدأ ثان لاختلاف المعتزلة في مدى معقولية الجمع بين الثواب و العقاب أو الحسنات و السيئات، لأنهما يتعارضا في موجباتهم فيكون ظاهرا جدا في الثواب و العقاب فكيف يجتمعا

في حق محل واحد، و بالزوم تكون مسألة الجمع بين الحسنات و السيئات، **فوجب على أصولهم تغليب جانب واحد فقط ليمكن تصوره عقلا، و كان منهم كما سبق الإشارة إليه من تأويلات لكيفية التخلص من هذا التعارض و لبيان وجه كيفية الجمع.**

و الواجب أن يكون حاضرا في الذهن و متمثلا في تصور المسألة أن الله خصص عمل الشرك أو الكفر بخصوصية قاطعة و ظاهرة البيان أن من مات كافرا أو مشركا ففي النار مخلدا فيها، و خصصه أيضا أن المغفرة قد تطول أي ذنب أو معصية كانت إلا الشرك، و ما يجب أيضا هو أن يكون مبدأ العدل و عدم الظلم و البخس حاضرا متمثلا أيضا في التصور، و كذلك كتابة كل ذرة عملية و حفظها في كتاب أو صحيفة، و كذلك مبدأ تكافؤ الحساب و الميزان و الموازين، ثم أخيرا مبدا تكافؤ الجزاء مقيدا بما سبق من خصوصية الشرك و الكفر في الخلود في النار و عدم جواز مغفرته.

ينتج تصور ممثل لكل هذه المبادئ مجتمعة بدون تعارض مع أي منها و بدون نقض أي أصل أو مبدأ منها، بأن كل الأعمال تُمَثَّل بوحدات معيارية تسمى الحسنة و السيئة يتم تضمين فيها كم و نوع العمل فكما سبق الإيمان و الكفر و مسألة الخلود و عدم المغفرة، فيلزم منها أن الإيمان و الكفر لهم وحدات نوعية خاصة تتمثل فيها لو اعتبرنا الكم بأنه هو المعيار الوحيد ليتناسب معناه مع المعنى الظاهر للثقل و الميزان و الموازين، سيكون نوعه ممثلا بكم عظيم جدا لكي يظهر قدر أهميته و معياريته في استحقاق الجنة و النار، ثم نتصور أن أحد كفتي أو جهتي الميزان يوضع فيها وحدات الإيمان مع أقل حد من وحدات الحسنات ارتضاه الله بحكمه و عدله.

ثم يأتي بوحدات النفس الممثلة لِكَم و نوع حسناته و سيئاته إما بعد الموازنة الذاتية فيما بين وحدات الحسنات و السيئات أو حدوث الموازنة أثناء الوزن، فلو كانت مؤمنة فتمتلك وحدات الإيمان و قدر من غيرها فتثقل موازينه، أما الذي لا يمتلك وحدات الإيمان فلن تثقل موازينه أبدا حتى و لو كان معه وحدت حسنات كثيرة الكم لأنها متدنية النوع فلا ترقى أبدا لها، و لكن وحدات حسناته تجعل خفة ميزانه الدالة على وجوب الخلود في النار متفاوتة على قدر ما يمتلكه من وحدات لها ثقل معين، فيشير قدر الخفة لقدر معين من العذاب (الدركة)، و كذلك مع المؤمن الذي ثقلت موازينه فالثقل دال على الخلود في الجنة و مقدار مؤشر الثقل هو الذي يحدد (الدرجة) في الجنة.

- و تصور عملية الموازنة يمكن تخيله بأن وحدات السيئات تعمل كسوالب و وحدات الحسنات كمواجب، فإذا وضعوا مع بعضهما البعض في جهة الميزان صفروا بعضهم البعض، و عليه بالنظر لجهة العقاب سيقل قدره مع كل تصفير و يكون سببه خيرية الحسنة التي يراها تفعل ذلك، ثم بالنظر لجهة تصفير وحدات الحسنات يكون رؤية الشر لأنه هو ما يبقى للكافر من وحدات تحدد دركته من النار.

و بهذا يكون حتمية وقوع وعد الله برؤية خيرية مثقال الذرة و شريتها تام التصور و ممثل بظهور معناهما لكل نفس، فالكافر قد رأى خيرية حسناته بدفعها عنه قدر من عقابه على جهتي الحسنة ذاتها و ما يتعلق بها من إثابة هو من عينها مسبقا بموته على الكفر، لأن إثابة الحسنات موضوعة للجنة، و هو لن تبقى له حسنة يثاب عليها لأنها استهلكت كلها في الموازنة، أي أن الله لم يمنعه إثابة بحسناته بل هو الذي أحدث المانع بكفره فأحبط كل حسناته في الموازنة، و بهذا فإن الله لم

يخلف وعده معه بقوله أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، لأنه لم يبقى له ذرة من خير ليرى ثوابها، و على الجانب الأخر فإنه يرى شر مثاقيله من أعمال الشر كما توعد الله به، فيراها تهلك حسناته و ما تبقى منها يراها و هي توجب له العذاب في النار خالدا فيها بما أوجبه على نفسه بالشرك أو الكفر الذي مات عليه. و بمعنى آخر أن الذي بقي له مثقال ذرة واحدة من خير يكون قد فاز بالنجاة لأن معنى هذا أنه قد فرغ من الحساب و الميزان و الموازنة فيدل هذا المثقال على درجته في الجنة، و بالعكس فالذي بقي له في حقه مثقال ذرة من شر فيدل هذا على أنه مر بالحساب و الميزان و الموازنة و هذا المثقال هو الدال على دركته في النار، لأنه يعين في حقه غلبة سيئاته و يدل على غياب الإيمان و الأعمال الصالحات لأنه لو موجودين لم يقوى كم سيئاته على احباطهم.

ففكرة لزوم استحقاق الثواب و العقاب على كل مثقال ذرة كما تصورها المتكلمون ليست صائبة بهذا التصلب لأن الله أعد الموازن و الميزان و الوزن ليتعين من يذهب للجنة و من يذهب للنار أي أن الجزاء هو تحصيل نهائي لِكَم و نوع الحسنات و السيئات و ليس لكل حسنة ثوابها المحتم رؤيته و السيئة المحتم رؤية عقابها كأنها مسألة عينية و هذا لا يجوز افتراضه بعد أن أعلمنا الله بالميزان، لأن ما يحدث في الوزن هو تمثيل للحصيلة أو المتحصل عليه بعد الموازنة (إذهاب الحسنات للسيئات) فمعنى هذا الإذهاب أن هناك حسنة و سيئة كان يجب أن يكون لها ثواب و عقاب متعينين و مع ذلك فقد أذهب الله بالحسنة السيئة فيلزم من ذلك ذهاب العقاب المتعين بإزاء السيئة، و لأن الله وعد على الحسنة بضعف و الأضعاف و إلى ما شاء الله فإن الحسنة لا تذهب مع السيئة لأن ما بقي من مضاعفاتها ماثل مستحق للثواب و جاهزة

لتذهب سيئة أخرى و هكذا.

فلا يوجد ثواب إلا في الجنة و لا يوجد عقاب إلا في النار، و لا يوجد ثواب إلا على الحسنات و لا يوجد عقاب إلا على السيئات، و ما دام السيئات و الحسنات يتمثلوا في الوزن و ينتهوا بهما المطاف إلى نتيجتين اثنتين فقط و هما الخفة أو الثقل، و معلوم ما يستحق على الخفة و على الثقل، فإما النار أو الجنة، و من هنا يتضح ضعف تصورهم لمسألة الثواب و العقاب الذي يمكن الجمع بينهم و تخيل أن هناك تعارض ينتج من هذا الجمع، لأنه لا جمع في استحقاق الثواب و العقاب لذات واحدة لأنه إما ثواب أو عقاب و هذا مقتضى ظاهر القرآن و دلالته البينة بالنسبة لموضعي الثواب و العقاب بإزاء الحسنات و السيئات.

و من الفرض أن نستحضر أن الله الذي يحكم ما يريد بما يريد قد حكم أن الحسنة تتضاعف أضعافا و أن السيئة تظل واحدة كما هي، فلما نستحضر تحكما تصوريا أن يكون هناك تساوي للحسنات و السيئات في أهل الأعراف أو خفة الموازين لعصاة المؤمنين ثم نحكم عليهم دخول النار فترة من الزمن على قدر سيئاتهم ثم يخرجون للجنة لنقف في وجه دلالة الآيات و ظهور معانيها بأن الذي يدخل النار هو الكافر أو المشرك سواء تصريحا أو لزوما بشرطية صفات لا تليق بالمؤمن عموما و نضطر للتأويلات و الردود على الخوارج و المعتزلة أو ما يسمون بالوعيدية. فإذا نظرنا لمدى كثرة و تنوع عوامل تعظيم قدر حسنات المؤمن مثل: التكفير، التجاوز، العفو، المغفرة، الشفاعة، تضاعيف الحسنات، مع شرطية عمل الصالحات المقرون مع الإيمان كشرط لدخول الجنة، يصعب على التصور مزاحمة السيئات للحسنات لدرجة إهلاكها كلها في حق المؤمن.

سيكون غرضنا من النقول التفسيرية كل ما يثبت أن الرؤية **هي لما يكتب في الصحف لما عمله الإنسان من** خير، **و أن** تأويل الخير هنا ليس لنوعية الجزاء المتمثل بالجنة و النار، **بل** صفة الخيرية عائدة على نوعية العمل الذي كان في الدنيا **و لا** بأس من تضمين ما يؤول إليه هذا العمل من خير في الحساب و الميزان.

و أيضا من غرضنا كل ما من شأنه أن يصرح أو يلمح للعموم الراجع إلى الأعمال لكل إنسان **على حدة بأن فيه** الخير **و الشر**.

- عبد الله بن عباس: (**في قوله: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) قال**: ليس مؤمن ولا كافر عمِل خيرا ولا شرا في الدنيا، إلا آتاه الله إياه. **فأما المؤمن فيريه حسناته وسيئاته، فيغفر الله له سيئاته**. وأما الكافر فيردّ حسناته، ويعذّبه بسيئاته.) [1]

- محمد بن كعب القرظي: («**أما المؤمن فيرى حسناته في الآخرة، وأما** الكافر فيرى حسناته في الدنيا») [2]، **و قال**: (من يعمل مثقال ذرَّة من خير من كافر ير ثوابه في الدنيا في **نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عنده خير**) [3]

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٥٠). و البسيط للواحدي (٢٤/ ٢٢٩). تفسير البغوي - إحياء التراث (٥/ ٢٩٣).

[2] تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (٨/ ١٧٩). و تفسير الطبري (٢٤/ ٥٥٢). تفسير البغوي - إحياء التراث (٥/ ٢٩٣).

[3] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٥٠). و البسيط للواحدي (٢٤/ ٢٢٩).

تأويل محمد بن كعب يتجه نحو الجزاء، و فيه إثبات الحسنة و اسنادها للكافر، و فيه اثبات المجازاة على حسنات الكافر.

- سعيد بن جبير: (في قول الله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة، وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضا بكل واحد عشر ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فإذا زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة.) [1]

- طاووس: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ من أهل الأديان غير الإسلام، ما عمل منهم أحد مثقال ذرة من خير إلا كوفئ بها في الدنيا في بدنه وماله وأهله حتى يموت وما بقي له مثقال ذرة من خير،...، فهذا يجعل الآيتين في المجازاة في الدنيا.)[2]

- مقاتل بن سليمان: (ليروا أعمالهم الخير والشر، يعني لكي يعاينوا أعمالهم،...

من يعمل في الدنيا مثقال ذرة...، خيرا في التقديم يره يومئذ يوم القيامة في كتابه أيضا....

وأيضا فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة قدر نملة شرا يره يوم القيامة في كتابه،...)[3]

- يحيى بن سلام: (قال يحيى:...، ولا يزاد على الكافر من سيئات غيره، ولا يجازى في الآخرة

[1] الأثر من تخريج ابن أبي حاتم و هو في تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٤٤). تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦١٩ - ٦٢٠).

[2] الهداية الى بلوغ النهاية (١٢/ ٨٣٩٨). تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٣٢١). تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ٤٧٨).

[3] تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٧٩١). و انظره للواحدي نقلا عنه في البسيط (٢٤/ ٢٣٠).

بحسنة قد استوفاها في الدنيا./ قال يحيى: وبلغني في الكافر أنه ما عمل في الدنيا من مثقال ذرة خيرا يره في الدنيا، وما عمل من مثقال ذرة شرا يره في الآخرة.)[1]

في تأويل يحيى بن سلام يُشعر بأن أعمال الكافر الحسنة لها جزاء حسن عليها في الدنيا فإن لم يكن قد استوفاها ففي الآخرة، أما تأويل ما بلغه هو و نقله عن غيره أنه يستوفى كل أعماله الحسنة في الدنيا، و يحتمل فيه أيضا أن تأويل ما بلغه أنه فسر رؤية الخير على أن الخير الجزاء و ليس العمل المكتوب في صحائف الأعمال. و هو كما في حديث حسنات الكافر كما في صحيح مسلم.

- الشافعي: (فكان مثقال ذرة قليلا، وقد جعل الله تعالى لها حُكْمًا يُرَى في الخير والشر. (الأم: ٤/ ٩٠)... فإذا كوفئ على مثقال ذرة في الخير والشر...)[2]، و قال أيضا: (وما روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله - ﷺ -: إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه الحديث. أشبه أن يكون محفوظاً عنه - ﷺ - بدلالة الكتاب، ثم السنة فإن قيل فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله - عز وجل -: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى الآية وقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)، وقوله: لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥).)[3]

من دلالة الاستدلال بهذه الآيات في معرض الرد على عذاب النفس بعمل نفس أخرى

---

[1] تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣١٨). تفسير الهواري (٢/ ٤٠٠، بترقيم الشاملة آليا).

[2] تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٤٥٨).

[3] نفسه (٣/ ١٤٦٠).

نستطيع القول أن الشافعي يتأول الشر الذي في الآية بالعذاب، و هو بهذا قد تخطى تأويل رؤية العمل مكتوبا في الصحيفة لرؤية العذاب على عمله السيء أي أن الرؤية أصبحت رؤية عين بحضور النفس العذاب، و لزوما فإن تأويل الخير يجب أن يكون كذلك، و منه استشعارا يكون الكافر الذي استحق عذابا على عمله السيء يستحق تخفيفا على عمله الحسن، خاصة إذا استجلبنا قوله في سياق استدلاله بالآية في موضع أخر فيقول: (فإذا كوفئ على مثقال ذرة في الخير والشر) فعبر عن متعلق الرؤية بالمكافأة، و نحن نستحضر هذا المعنى على مثقال الذرة من الخير التي سيراها الكافر و لا نجد له مكافأة إلا تخفيف قدر استحقاقه العذاب.

- الهواري: (وقال بعضهم: وبلغني في الكافر أنه ما عمل من مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، وما عمل من مثقال ذرة شرّاً يره في الآخرة.) [1] و قال: (لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ أي: وزن ذرة خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ أي وزن ذرة شَرّاً يَرَهُ أي يراه في ميزانه فيسوءه ذلك.)[2]

و تأويل الهواري أن الرؤية موضعها هو عند الميزان.

- الطبري: (يقول: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ يقول: ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك،.../ ... في قوله: (يَعْمَلْ) حث لأهل الدنيا على العمل بطاعة الله، والزجر عن معاصيه،....

[1] تفسير الهواري (٢/ ٤٠٠، بترقيم الشاملة آليا).

[2] نفسه (٤/ ٢٤٧).

وبنحو الذي قلنا من أن جميعهم يرون أعمالهم، قال أهل التأويل. ...

فقال بعضهم: أما المؤمن، فيعجل له عقوبة سيئاته في الدنيا، ويؤخِّر له ثواب حسناته، والكافر يعجِّل له ثواب حسناته، ويؤخر له عقوبة سيئاته.) (١)

و قال الطبري أيضا: (...، أن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنُ حَسَنَةً/ يُثابُ عَلَيْها الرّزْقَ فِي الدنْيا، ويُجْزى بِها فِي الآخِرَةِ؛ وأَمَّا الكافِرُ فَيُعْطِيهِ بها فِي الدنْيا، فإذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ".

...، عن محمد بن كعب الْقُرَظي، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أَحْسَنَ مِنْ مُحْسِنٍ، مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ إلا وَقَعَ ثَوَابُهُ عَلى الله فِي عاجِلِ دُنْيَاهُ، أَوْ آجِلِ آخِرَتِهِ".

...

فهذه الأخبار عن رسول الله ﷺ تُنبئ عن أن المؤمن إنما يرى عقوبة سيئاته في الدنيا، وثواب حسناته في الآخرة، وأن الكافر يرى ثواب حسناته في الدنيا، وعقوبة سيئاته في الآخرة، وأن الكافر لا ينفعه في الآخرة ما سلف له من إحسان في الدنيا مع كُفره.) (٢)

و الطبري صرح بأن الكافر يُسند إليه توصيف الحسن و الحسنة لبعض أعماله، و ترتب على ذلك استحقاق ثواب على حسناته، و لكن قصر محل الثواب على الدنيا فقط، للأخبار النبوية التي صُرح فيها بنفي المنفعة في الآخرة بأعمالهم الحسنة و هذا إما لأنها استوفيت في الدنيا، أو استوفي وجه ثوابها الدنيوي، ثم في الآخرة لا يستحقوا وجه ثوابها الأخروي لأن محله الجنة

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٤٩ – ٥٥٠).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٥٢ – ٥٥٣).

و الجنة محرمة عليهم **و** هذا وجه نفي المنفعة عنهم، **أي أن النفي متوجه لمعنى** مخصوص من ثواب الحسنات **و هو الوجه الذي جعله الله لها في محلها الجنة، فإذا انتفى المحل انتفى معه وجه الثواب المنوط به،** فلم يبقى إلا وجه آخر يكون في الموازنة و الحساب.

و عليه يوجه نطاق دلالة توجيه السؤال للنبي ﷺ عن بعض من ماتوا كفارا أنه في سياق المنفعة المحدودة بثنائية الجنة و النار، **فهذه منفعة منتفية تماما، أما لو كان السؤال تصريحا بنوعية المنفعة المسؤول عنها كأن يقال في السؤال** هل تخفف عنهم هذه الأعمال من العذاب، **فلو نُفيت المنفعة في هذا السياق لكانت قاطعة على المعنى النفعي بكل وجه، و يجب التنبه أن المسؤول عنه كابن جدعان كان لا يؤمن بثواب و لا عقاب و لا الآخرة، فهذا يدل على أن أعماله** الحسنة **ليس لها بُعد** أُخروي **أو** مخلصة لله **بل كانت على وجه التخلق بالخلق الحسن و المكارم، و قد يحتمل المقام العام أنه كان يُخلص لله بهذه الأعمال ليُثاب عليها في الدنيا فلما أثابه الله بها في الدنيا لم يبقى له ما يثاب عليه في الآخرة** و لهذا حسن نفي المنفعة عنه بها، و هذا أقوى وجوه التأويل، أما أحكمها و أحسنها أن نفي المنفعة مخصوص بصفة النفع الوضعية من الله لثواب الأعمال الحسنة أنها تكون في الجنة و هذا منفي عن من مات كافرا.

و كذلك يمكن تأويل تفسير ابن عباس: (وأما الكافر فيردّ حسناته، ويعذّبه بسيئاته) ففيه أولا أن الكافر مر بحسناته **من الدنيا للآخرة، و لكن الله ردها عليه و هنا يمكن تأويل كلامه ان الرد المقصود به الرد التام على ما وضعه الله لشأن الحسنات في تدرج الجنان، و الكافر لن يدخل الجنة فلذلك ردت حسناته أن تسلك به هذا المسلك، فتبقى لتوضع في الميزان و تهلك بسيئاته فيقل قدر استحقاق عذابه.**

- الزجاج: (يحصيه، وإذا أحصاه جازى عليه، كما قال: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره). أي يرى المجازاة عليه) [1]، (واللهّ يعلم ما في قلوب الخلق أجمعين. ومثله قوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ليس الفائدة أنه يرى ما عمل، إنما يرى جزاء مَا عَمِلَ.) [2]، (ومعنى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ تأويله أن اللهّ جلَّ وعزَّ قد أحصي أعمال العباد من خير، وكل يرى عمله، فمن أَحَبَّ اللهّ أن يغفر له غَفَر له. ومن أحب أَنْ يُجَازِيَه جَازَاهُ.) [3]

و معلوم قطعا و يقينا أن كل مكلف له حفظة يحصوا و يكتبوا كل صغيرة و كبيرة، فإذا أحصاه الله جازى عليه، و مر آنفا أن الحسنة تسند للكافر و يستحق عليها ثوابا في الدنيا و هذه هي رؤية المجازاة على حسناته في الدنيا لأنها تماثل المجازاة بالنسبة للمؤمن و من هذه الحيثية فإن المجازاة على حسنات الكافر منفية عنه في الآخرة لأن مجازاة حسنات المؤمن تكون نعيما مقيما في الجنة و الكافر محرم على الجنة فلن يرى ثواب حسناته في الآخرة، و هذا لا يلزم منه أن لا يرى موازنة سيئاته بحسناته لأنها تجري على الكل، فهي منفعة عامة تكون نتيجتها للكافر و المؤمن أن يقل عنده السيئات فيقل بناء عليها استحقاق العذاب بالنسبة للكافر.

و يقول الزجاج أيضا: (وقوله عزَّ وجلَّ: وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُّ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ آل عمران (١١٥)، قرئت بالياءِ والتاءِ وكلاهما صواب - كما قال اللهّ عزَّ وجلَّ: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - فالخطاب لسائر الخلق ومن قال فلن تُكْفَروه فهو لِهُؤلاءِ المذكورين

---

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٢٨٧).

[2] نفسه (٥/ ١٩٢). و انظره نفسه عند الواحدي في البسيط (٢٢/ ١٥).

[3] نفسه (٥/ ٣٥٢). زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٤٣٢).

وسائر الخلق داخل معهم في ذلك.)[١]، (وهذا مثل لأعمال العِبَادِ أَنَ الله يأتي بأعمالهم يومَ القيامة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) لقمان.)[٢]

لا يوجد أصرح من هذا خاصة إذا أضيف مع قوله السابق معا.

و يقول أيضا: (وقيل مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ في الدنيا. **وكذلك** شَرًّا يره في الدنيا. والله أعلم.) [٣]

و الزجاج يرى أن الرؤية تكون للجزاء، و أنها عامة لكل الخلق و عباد الله، و جعل رؤية الجزاء في الدنيا على الخير و الشر مصدرة بـ (قيل) فهو يمرضها فكلامه يُشعر بأنه يرجح أن يكون الجزاء يوم القيامة.

- الماتريدي: (**يحتمل صدور الناس من وجهين**: أحدهما:...؛ ليروا كتابة أعمالهم،...، ويحتمل...؛ ليروا جزاء أعمالهم...[٤]

وقوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره:

قَالَ بَعْضُهُمْ: يرى الكافر **ما عمل من** خير **في الدنيا، وأما في الآخرة فلا يرى**؛ لأنه لا يؤمن بها،

---

[١] نفسه (١/ ٤٦٠).

[٢] نفسه (٤/ ١٩٧). و نفسه في معاني القراءات للأزهري (٢/ ٢٧١).

[٣] نفسه (٥/ ٣٥٢).

[٤] انظر أيضا: تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني. و تفسير أبي بكر الحداد -كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٣٢٨٦).

ولا يعمل لها؛ [1] من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد (الإسراء: ١٨)،...

/ وجائز أن يكون قوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره على الإحصاء والحفظ، كقوله تعالى: ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها أي لا يذهب عنه شيء قليل ولا كثير حتى الذرة.

ويحتمل وجها آخر، وهو أن قوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره أي من يعمل من المؤمنين مثقال ذرة خيرا يره في الآخرة ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ومن يعمل من الكفار مثقال ذرة شرا يره في الآخرة، لأن الله تعالى قد أخبر في غير آية من القرآن أنه يتقبل حسنات المؤمنين ويتجاوز عن سيئاتهم كقوله تعالى: والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (العنكبوت: ٧) ونحو ذلك من الآيات.)[2]

نكتة الحفظ و الإحصاء للأعمال برؤية الله لأعمال عباده ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أو بكتابتها في الكتب ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] لا تدفع رؤية العبد كتابه و عمله حاضرا لأن هناك مرحلة أخذ الكتب و قراءتها ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥] التي فيها حضور و رؤية الأعمال المكتوبة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ

[1] انظر أيضا تفسير ابن برجان (٣/ ٥٠٥).

[2] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (١٠/ ٥٩٨ – ٥٩٩).

مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، و هذه المرحلة تسبق مرحلة تكفير السيئات التي أشار إليها الماتريدي ليبرر احتمالية أن يكون رؤية الخير لحسنات المؤمن فقط لأن الله كفر عنه سيئاته، و رؤية الشر لسيئات الكافر فقط لأن الله لا يقبل منه حسنة، و من هنا يبرز ضعف هذا التوجيه لأن المواضع التي فيها ذكر وقوف كل عبد على ما عمله من خير و شر ثابتة حتى في حق المؤمن لأنه لو لم يقف عليها فكيف يعلم تكفير السيئات و التجاوز عنها و مغفرتها من الله.

و ننوه مرة أخرى أن عمدة استنباطنا قائم على أنه قد ثبت أن عمل الكافر يوصف بالحسنة و السيئة، و أنه يثاب على الحسنة في الدنيا، في ظل أنه كافر بالحساب و بالآخرة، و أنه وارد على أعماله أنها لم تكن خالصة لله بل كانت للدنيا رياء و شهرة، و مع ذلك يثبت لهم حسنات و ثوابا عليها، فما بالك و بقياس الأولى أن تكون حسنة الكافر الخالصة لله و المعمولة للآخرة لجلب الثواب و دفع العقاب أن تكون أثبت و أحق في وصفها بالحسن و استحقاق الثواب في الدنيا، و رؤية خيريتها في الآخرة، فيريد الباحث استصحاب هذه اللافتة أثناء قراءة البحث كله لاختلاف نوعية و حيثيات الكافر موضع الدراسة و البحث.

- السمرقندي: (ويقال: هذا مثل لأعمال العباد يَأْتِ بِهَا اللهُ يعني: يعطيه ثوابها عز وجل

كقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) [الزلزلة: ٧] يعني: يرى ثوابه.)[1]، (لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ يعني: ثواب أعمالهم)[2]

- الثعلبي: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ أي (ير) ثوابه. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ قال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرًا ولا شرًا في/ الدنيا؛ إلاَّ أراه الله إياه،...، وأما الكافر فيرُدّ حسناته ويعذبه بسيئاته.

وقال محمد بن كعب في هذِه الآية: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ير ثوابه في الدنيا، في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير.....)[3]

- مكي: (ليروا أعمالهم، يرى المحسن جزاء حسناته، والمسيء عقاب سيآته.)[4]، (أي: فمن يعمل في الدنيا وزن ذرة من خير يرى ثوابه في الآخرة. ومن يعمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه في الآخرة.

قال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر يعمل خيراً ولا شراً في الدنيا إلا أراه الله إياه..... وأما الكافر فيرد حسناته ويعذبه على سيئاته.

وقال محمد بن كعب القرظي: من يعمل مثقال ذرة من خير يره، هذا في الدنيا. يعني أن كل كافر يرى الثواب عمله الحسن في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٢٥). و تفسير أبي بكر الحداد -كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٣٢٠٤).

(٢) نفسه (٣/ ٦٠٧).

(٣) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٣٠/ ١٥٢ - ١٥٣).

(٤) الهداية الى بلوغ النهاية (١٢/ ٨٣٩٢).

له عند الله خير،.... (ثم ذكر خبر أبو بكر و عائشة ابن جدعان)) [١]

و قال: (وإنما قال تعالى ذكره: فَمَن يَعْمَلْ وهو خبر عما في الآخرة، لأن السامع قد فهم المعنى، ومعناه: فمن عمل. ودل على أن ذلك إنما هو في الآخرة قوله: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ.

وقيل: إنما جاء يعمل بلفظ المستقبل للحث لأهل الدنيا على العمل بطاعة الله [والزجر] عن معصيته.) [٢]

و قد رجح مكي أن سياق الآية في الآخرة و هذا يحتم أن رؤية الخيرية ستكون في الآخرة أيضا، مع تضمين أن الخطاب لأهل الأرض حثا للطاعة، و هو قد صرح أن رؤية الخير هو رؤية الجزاء على الحسنات، فلا بد عن هذا التركيب أن رؤية الكافر ثواب حسناته في الآخرة تتمثل في الموازنة للإجماع على حرمة دخوله الجنة أو دفع العذاب عنه بالكلية.

- الماوردي: (لِيُرَوْا أَعْمالَهم يعني ثواب أعمالهم يوم القيامة. ويحتمل ثالثاً:... على اختلافهم في الأمم والمعتقد... ليروا أعمالهم في/ موقف العرض من خير أو شر فيجازون عليها بثواب أو عقاب.

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه في هذه الآية ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن معنى يَرَه أي يعرِفْهُ. الثاني: أنه يرى صحيفة عمله. الثالث: أن يرى خير عمله

[١] نفسه (١٢/ ٨٣٩٤).

[٢] نفسه (١٢/ ٨٣٩٧).

ويلقاه. وفي ذلك قولان: أحدهما: يلقى ذلك في الآخرة، مؤمناً كان أو كافراً، لأن الآخرة هي دار الجزاء.[1]

الثاني:... وإن كان كافراً رأى جزاء حسناته في الدنيا، وجزاء سيئاته في الآخرة حتى يصير إليها وليس له حسنة، قاله طاووس.

ويحتمل ثالثاً: أنه جزاء ما يستحقه من ثواب وعقاب عند المعاينة في الدنيا ليوفاه في الآخرة.

ويحتمل المراد بهذه الآية وجهين: أحدهما: إعلامهم أنه لا يخفى عليه صغير ولا كبير. الثاني: إعلامهم أنه يجازي بكل قليل وكثير.)[2]

قد فرَّع الماوردي على جواز رؤية خير العمل في الآخرة أنه ثابت في حق المؤمن و الكافر على حد سواء، و هذا تصريح قوي لا له من قائل قد سبق الماوردي لأنه أورده على أنه قول و لم يورده على أنه من قوله هو، و الشاهد أن تأويل الآية غني و ثري لأن يتسع لكل هذه التأويلات و الاحتمالات الدلالية.

- الطوسي: (إخبار من الله تعالى بأن ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتا، أي مختلفين. ليروا أعمالهم أي ليجازوا على أعمالهم، أو ليريهم الله جزاء أعمالهم. وقيل:... المعرفة بها...، ويجوز... رؤية العين، بمعنى ليروا صحائف أعمالهم، يقرؤن ما فيها... وقيل: ليروا جزاء أعمالهم حسب ما

---

[1] و هو قول العز بن عبد السلام في تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ٤٧٨).

[2] تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٣٢٠ – ٣٢١). و انظر زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٧٩). تفسير الأعقم – زيدي (٢/ ٣٠٤، بترقيم الشاملة آليا).

قدمناه. وقيل: يرى الكافر حسناته **فيتحسر عليها، لأنها محبطة، ويرى المحسن سيئاته مكفرة وحسناته مثبتة.**

... **قال** أبو عبيدة: **مثقال ذرة شرا يره أي يرى ما يستحق عليه من العقاب،** ويمكن أن يستدل بذلك على بطلان الإحباط، **لأن عموم الآية يدل أنه لا يفعل شيئا من طاعة أو معصية إلا ويجازي عليها، وعلى مذهب القائلين بالإحباط بخلاف ذلك، فإن ما يقع محبطا لا يجازى عليه، ولا يدل على أنه لا يجوز أن يعفى عن مرتكب كبيرة، لأن الآية مخصوصة بلا خلاف، لأنه إن تاب عفي عنه)** [١]

يمكن قيام معنى الإحباط مع ظاهر الآية بلا تعارض إذا نظرنا للخيرية على أنها إذهاب السيئة بالحسنة أي مثقال ذرة الخير يحبط مثقال ذرة الشر، و عليه يكون رؤية العمل الذي هو المثقال قد تكون ما تبقى بعد الحبط من مثاقيل فيرى عمله المستحق عليه الجزاء، فرؤية خيرية مثقال ذرة الخير هو في احباطه لمثقال ذرة الشر، و رؤية شرية مثقال ذرة الشر هو في احباطه مثقال ذرة الخير لأنه يستهلكه فيبطله ثم ما يبقى يستحق عليه العذاب، و بهذا التأويل يتحقق دلالات الإحصاء و الحفظ، أخذ و قراءة الكتب، و عرض الأعمال و إحضارها، رؤية العمل عينا و علما سواء به أو بجزائه.

- القشيري: («لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» ليحاسبوا.) [٢]

---

[١] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (١٠/ ٣٧٥، بترقيم الشاملة آليا).

[٢] لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ٧٥٦). تفسير أبي بكر الحداد -كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٣٢٨٦).

- الواحدي: (قال أبو علي: هذا يثبت أن المظالم لا تخفى عليه، وأن الله تعالى يأت بها، ولن يدع أن يثيب أو يعاقب عليها إن لم تكن قد كفر عنها أو أحبط.) [١]، (أي: يجازيهم، وهو أعلم بما في قلوب الخلق أجمعين. ومثله قوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [الزلزلة: ٧]، أي: يرى جزاءه،...)[٢]، (وقال أهل المعَاني: يُري جزاؤه، ألا ترى أن ما عمله قد سلف لا يجوز له أن يراه، وهذا في حذف المضاف)[٣]، (ليروا أعمالهم أَيْ: ثوابهافمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره يرى المؤمن ثوابه في الآخرة والكافر في الدُّنيا يراه في نفسه وأهله وماله)[٤]

و الواحدي من القائلين بالتكفير و الحبط و عليه فإن المجازاة لن تكون إلا بعد الموازنة و بطبيعة الحال فإن الكافر لن يبقى له إلا السيئات فيجازى عليها بالخلود في النار على قدر سيئاته بالدركة التي تناسبه، و المؤمن يجازى على حسناته لأنه لن يبقى له إلا حسناته حتى و لو حسنة واحدة كي يجازى عليها في الجنة بالدرجة التي تناسبه، و هذا عين القول بالتخفيف عن الكافر بحسناته من قدر استحقاقه العذاب بعد أن تذهب بعض سيئاته بحسناته و هذا الإذهاب هو في حقيقة الأمر من منظور المنفعة الموضوعة لثواب الحسنة هو حبط و إضلال و إبطال للحسنات، و بهذا التأويل تتضح الصورة الكاملة للمسألة فلا يحيد عنها أي قول إلا دخل فيها.

---

[١] التفسير البسيط (١٨/ ١١١).

[٢] نفسه (٢٢/ ١٥).

[٣] نفسه (٢٤/ ٢٣١).

[٤] الوجيز للواحدي (ص: ١٢٢٤).

- السمعاني: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره أي: يرى الجزاء على العمل) [(١)]

- الكرماني: (لِيرَوا أعمالهم. أي: جزاء أعمالهم.... الغريب: ليروا أعمالهم مكتوبة في كتاب الحفظة، وقيل: صحائف أعمالهم، فحذف المضاف.) [(٢)]

- ابن برجان: (الأعمال الصالحة للمتلوثين بالمعاصي يكفر عنهم بها من سيئاتهم فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧).) [(٣)]، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨). في الخاصة والعامة.) [(٤)]

و قال أيضا: (وربما رأى الكافر عملاً صالحًا قد عمله، وقد أعلم بأنه محبوط فهو لا ينتفع به؛ إذ لم يؤمن بالرجعة والعرض على الله - جل ثناؤه - والثواب فيعمل له وإن كان في الكفار من قيل فيه: وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨). فإنه - والله أعلم - لا بد من أن يراها خيرها وشرها ليتأكد أسفه وندمه،...) [(٥)]

إضافة ابن رجان؛ علاوة على ما سبقه من مفسرين في إثبات صفة الحسن أو الصلاح لأعمال الكفار الموافقة للشريعة و أنها تكتب له و يستتبعها ثوابا و أنها سيراها يوم القيامة و لكنها ستحبط، هو ما صرح به ابن برجان أن علة حبطها و عدم انتفاعها هو أن الكافر كان لا

[(١)] تفسير السمعاني (١/ ٢١٥).

[(٢)] غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ١٣٧٤).

[(٣)] تفسير ابن برجان (٣/ ٥٠٥).

[(٤)] نفسه (٥/ ٥٣٠).

[(٥)] نفسه (٥/ ٥٣٢).

يؤمن بالقيامة و لا بالحساب و لا بالثواب، **و كما نوهنا مرارا أن الكافر في مسألتنا مغاير تماما لأنه مؤمن بكل هذا.**

- ابن المنير الإسكندري (ت ٦٨٣): (قال محمود [1]: «**إن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر... الخ**»

قال أحمد: السؤال مبنى على قاعدتين،

إحداهما: **أن** حسنات الكافر محبطة بالكفر، **وهذه فيها نظر، فان** حسنات الكافر محبطة، أي: لا يثاب عليها ولا ينعم. **وأما** تخفيف العذاب بسببها، فغير منكر، **فقد وردت به الأحاديث الصحيحة. وقد ورد أن حاتما يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، وورد ذلك في حق غيره كابى طالب أيضا، فحينئذ** لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، **فيمكن أن يكون** المرئي هو ذلك الأثر، **والله أعلم.**) [2]

و تأويل الزمخشري[3] مستقيم المعنى على اعتبار أنه قد تميزوا إلى فريقين، فريق للجنة و

---

(1) أي الزمخشري، و قوله كاملا: (فإن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشر؟ قلت: المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا: من فريق السعداء. ومن يعمل مثقال ذرّة شرا: من فريق الأشقياء، لأنه جاء بعد قوله يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٨٥).

(2) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٨٥).و أنظر الرد على الزمخشري أيضا للنيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٤٨).

(3) انظره كاملا في الهامش رقم ١ بالأعلى.

فريق للسعير، فالذي للجنة سينعم بكل مثقال ذرة من خير عملها، و العكس لفريق النار بأنه سيشقى على كل مثقال ذرة من شر عملها، و هذا يكون بعد الحساب و الميزان و لا بد من ذلك لأنه على قدر هذه المثاقيل التي زادت عن قدر التخليد في الدار يكون التنعيم و العذاب، أي المؤمن لا بد له من الخلود في الجنة و يتدرَّج فيها على قدر مثاقيله من الخير، و الكافر لا بد له من الخلود في النار لكفره و يتدرَّك في النار على قدر مثاقيله من الشر، و لكن هذا سببه الكفر و الإيمان في حد ذاته و ليس كما تصور الزمخشري أن المؤمن سيكفر عنه كل سيئاته باجتنابه الكبائر، و أن الكافر لا حسنة له لأنها ستحبط لكفره المجرد.

بل الأمر أن كل مثقال ذرة من الخير و الشر هو معتبر لكل نفس لأجل التدرج و التقدير، و خلوده في دار الجنة أو النار هو لأجل إيمانه أو كفره، و موطن الاستشكال أن الزمخشري تأول الآية على حيثية الخلود بالإيمان و الكفر ثم استعمل هذا في تفسير حبط الحسنات للكافر و تكفير سيئات المؤمن باجتناب الكبائر، أي جعل الخلود في الدار بدلالة الكفر و الإيمان مُفَسِّرا لمصير مثاقيل الخير و الشر بالنسبة للمؤمن و الكافر، فعليه يُكفَّر كل مثاقيل الشر للمؤمن، و يحبط كل مثاقيل الخير للكافر، أما رؤية ابن المنير الإسكندري تلتقي مع الزمخشري في مصير المؤمن و الكافر في دار الخلود لأجل إيمانهم و كفرهم، و لكن الاختلاف في التفسير التفصيلي لحبط الحسنات بالنسبة للكافر و تكفير السيئات بالنسبة للمؤمن، و ما يهمنا مسألة حبط حسنات أو مثاقيل الخير بالنسبة للكافر.

فالزمخشري يرى الحبط بمجرد الكفر، و ابن المنير يراها بالموازنة أي أنه يخفف عنه مقدار العذاب بميزان مثاقيل الخير التي عملها، و معتمده في ذلك أن معنى الحبط أنه لن يرى ثوابا و

تنعما على مثاقيل خيره لأنها تذهب لتخفيف قدر عذابه، أي يمكننا القول أن وعد الله بالإثابة على الحسنات تنعما في الجنان هو للكل، و لكن لأجل أن الكافر لن يبقى له حسنة واحدة بعد التحابط و لأجل عدم التكافؤ ما بين ذنب الكفر و الشرك مع أي عمل أخر حسن و صالح ما دام لم يكن توحيدا و إيمانا، فمن الناحية العملية فكل كافر مشرك هو مخلد في النار، لا لأجل أن الله لم يُنَفِّعَه بحسناته بل لأجل أنه لم يبقى له شيء ينتفع به.

و هذا المصير المحتوم القاطع عند كل مسلم و مفسر هو الذي يعود بالأثر التفسيري و التأويلي عند النظر لأي آية فيها ذكر للحسنات و السيئات تشير لتعميم الكل و دخوله تحتها سواء نصا أو لزوما أو تضمنا و اقتضاء، و أسلم و أحكم التأويلات هي التي تأخذ بظواهر النصوص و تؤدي معناها كما جاءت في نظمها ما دام الكل متفق على الأصول العامة و القاطعة، فكل من مات مشركا أو كافرا فهو مخلد في النار، و كل من مات مؤمنا موحدا فهو مخلد في الجنة، إذن حسنات الكافر لن تترجم لتنعم في الجنة ثم بعد استقرار هذه القضية يلجأ المفسر لتبرير و تفسير أين تذهب حسنات الكافر؟

و عندما يصطدم بوضوح و ظهور معنى يخالف ذلك كمثل آياتنا بأن من عمل مثقال ذرة خير يره، يجد نفسه مضطرا لأن يفسر الشتات بأنه تفريق ففريق للجنة و فريق للسعير، أو يؤول الرؤية أو يقصرها على فريق المؤمنين فقط أو غير ذلك، المهم أنه يتسق مع نفسه أن الكافر لا حسنة له يراها كجزاء، فإما أن تكون رؤية كتابية للتحسر و وقوفه على حبطها فقط أو رؤية قلبية علمية بحبطها، أو ابتداء يتكئ على مبدأ التفريق لفريقين لكي يسهل عليه أن يخصص رؤية الخير للمؤمنين فقط و بهذا لا حرج عليه أي تفسير للرؤية سواء كتابة أو علما أو رؤية

جزاء أو مصير لأنه كله ثابت في حق المؤمن.

مع أنه لو أخذ بظهور المعنى و أجراه كما هو فله أصول كبار منها العدل و عدم البخس، الحفظ و الكتابة و الحساب و الميزان لكل نفس، مع الحفاظ على الأصول المتفق عليها من مصير الكافر و دار الخلد، فالأخذ بظاهر المعنى لن يتعارض أو يؤثر عليها فهو متسق معها.

- ابن عطية: (... **وقال ابن عباس وبعض المفسرين: رؤية هذه الأعمال هي في** الآخرة، **وذلك** لازم من لفظ السورة **وسردها**، فيرى الخير كله من كان مؤمنا، **والكافر لا يرى في الآخرة خيرا**، لأن خيره قد عجل له في الدنيا، **وكذلك المؤمن أيضا تعجل له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها فيجيء من مجموع هذا أن من عمل من المؤمنين مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خير أو شر رآه، ويخرج من ذلك أن لا يرى الكافر خيرا في الآخرة.**) [١]

تقرير أن رؤية خيرية الأعمال في الآخرة، ثم خرَّج الكافر من رؤية الخيرية، فخصص الرؤية للمؤمن دون الكافر و هذا تخصيص بدون مخصص، و الأولى تأويل رؤية الخيرية بحيث تثبت للمؤمن و الكافر على حد سواء احتكاما للآية، بحيث يكون إثبات خيرية الرؤية على الحسنات للكافر لا تعارض خلوده في النار أو تعطيه حق التنعم في الجنة، و قد توصل لهذا الحل ابن المنير الإسكندري و غيره أن رؤية الخيرية بالنسبة للكافر تتمثل في تخفيف العذاب عنه لأن حسناته تُذهب سيئاته بالموازنة فيقل استحقاق العذاب على قدر الباقي من سيئاته، و كذلك رؤية المؤمن ذهاب سيئاته التي تستوجب العقاب بحسناته و يبقى له حسنات يجازى عليها نعيما في الجنة.

---

[١] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١١).

- ابن العربي: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية القائلون بالعموم ومن لم يقل به، وقد بين ما فسرنا به أن الرؤية قد تكون في الدنيا بالبلاء كما تكون في الآخرة بالجزاء، وقد بينا ذلك في كتاب المشكلين.) [١]

- ابن الأنباري: (قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. مَن، شرطية في موضع رفع بالابتداء. ويره، خبره. وكذلك قوله تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. واللهّ أعلم.) [٢]

الشاهد أن (مَن) الشرطية تفيد العموم.

- ابن الجوزي: (وهذا مَثَل لأعمال العباد، والمراد أنَّ الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة، مَنْ يعمل مثقال ذَرَّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذَرَّة شرّاً يره.) [٣]

- الرازي:

(قول أبي علي الجبائي فهو أيضا باطل لأن العقاب الطارئ لما أزال الثواب السابق، وذلك الثواب السابق ليس له أثر البتة في إزالة الشيء من هذا العقاب الطارئ، فحينئذ لا يحصل له من العمل الذي أوجب الثواب السابق فائدة أصلا لا في جلب ثواب ولا في دفع عقاب وذلك

---

[١] أحكام القرآن لابن العربي (ط التراث) (ن حواشي) (٤/ ٤٠٧). تفسير القرطبي (١/ ٤٦٦).

[٢] البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري ت ٥٧٧ هـ (٢/ ٥٢٧). و هو نفس كلام المنتجب الهمذاني في كتابه الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٦/ ٣٦٨). التفسير من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨) (٣/ ٢٨٦). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١١/ ٧٧). تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١).

[٣] زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٤٣٢).

على مضادة النص الصريح في قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧] ولأنه خلاف العدل حيث يحمل العبد مشقة الطاعة، ولم يظهر له منها أثر لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة.) [١]

بدون الولوج لمثار الجدال ما بين أصحاب الرازي و بين بعض المعتزلة حول قضية الإحباط، فيكفي فقط الاستدلال بدلالة الآية التي في الزلزلة (رقم ٧) التي استدل بها الرازي ليدفع قول المعتزلة في التحابط خاصة الحبط المحض، فالآية بتقرير الرازي تدل على أن الحسنات يجب أن تجلب منفعة أو تدفع مضرة، و بقولنا فجلب المنفعة الموضوعة بإزاء الحسنات المقرونة بالإيمان منتفية في حق الكافر لأنه محرم على الجنة، فيكون منفعته من حسناته هي بدفع عنه مضار سيئاته بالموازنة فيكون في هذا النفع وجهان أحدهما رؤية خيرية عمله الحسنات، و من جهة أخرى رؤية شرية سيئاته بها تستهلك به حسناته من جهة و من جهة أخرى رؤية أثر ما يبقى من سيئاته لكثرتها بإزاء حسناته مع الكفر المقتضي الخلود في النار.

و يقول الرازي أيضا:

(كل مكلف فهو عند الرجوع إلى الله لا بد وأن يصل إليه جزاء عمله بالتمام، كما قال: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧، ٨] وقال: إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله [لقمان: ١٦] وقال: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل

[١] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٧/ ٤٤).

أتينا بها وكفى بنا حاسبين [الأنبياء: ٤٧]) [١]

في هذا الموضع استدل بالآية على عمومها الظاهر منها بأنها يتعلق بها كل مكلف فلم يخصص مكلف عن مكلف، و أن كل مكلف سيصله جزاء عمله تاما.

و يقول أيضا:

(**احتج القائلون** بالموازنة من الذاهبين إلى الإحباط **بهذه الآية فقال: صريح هذه الآية يدل على أنه** لا بد من وصول أثر فعل العبد إليه، **فلو انحبط ولم ينحبط من المحبط بمقداره شيء لبطل مقتضى هذه الآية،** ونظير هذه الآية قوله تعالى: **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧، ٨].)**

و في هذا الموضع يذكر استدلال أصحاب الموازنة بآية الزلزلة (٧ – ٨) على أنها دالة على التحابط بالموازنة لأن الآية دالة على أن كل نفس مكلفة سترى جزاء عملها مهما كان صغيرا.

و يقول أيضا: (درجات أهل الثواب متفاوتة، ودرجات أهل العقاب أيضا متفاوتة على حسب تفاوت أعمال الخلق، **لأنه تعالى قال: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره/ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧، ٨] فلما تفاوتت مراتب الخلق في أعمال المعاصي والطاعات** وجب أن تتفاوت مراتبهم في درجات العقاب والثواب.) [٢]

---

[١] نفسه (٧/ ٨٨). و نقل بعض كلامه ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب (٤/ ٤٧٤). و كذلك النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ٦٩).

[٢] نفسه (٩/ ٤١٦ – ٤١٧) و (١٠/ ١٨٤)، و (١٣/ ١٨). و انظر أيضا لتقرير دلالة العموم لسعي الإنسان (٢٩/ ٢٧٦).

و في هذا الموضع جاء الاستدلال بالآية في التأصيل للـ (الدرجات) كما في قوله تعالى: هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون (١٦٣) آل عمران، لأن كل مثقال ذرة من عمل سواء كان خيرا أو شرا قد وعد الله برؤيته سواء مكتوبا أو جزاءً، و على ذلك فالناس متفاوتة في أعمالها كما و نوعا ما بين حسنا و سيئا و ذلك يقتضي التفاوت بينهما في التقدير فاستوجب تمثيل ذلك بما يسمى بالدرجات.

و قال الرازي:

(المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على أن شيئا من أعمال البر لا يكون مقبولا عند الله مع الكفر بالله.

فإن قيل: فكيف الجمع بينه وبين قوله: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧].

قلنا: وجب أن يصرف ذلك إلى تأثيره في تخفيف العقاب، ودلت الآية على أن الصلاة لازمة للكافر، ولولا ذلك لما ذمهم الله تعالى على فعلها على وجه الكسل.) [١]

و الآية موضع إثارة الاستشكال هي: وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون (٥٤) التوبة، مع آية الزلزلة: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره الشاهد منه هو كيفية استدلاله بآية الزلزلة ليدفع مقولة عدم قبول أعمال البر من الكافر، فوجه أثر عمل البر كما يقتضيه عموم آية الزلزلة في تخفيف العقاب عن الكافر، لأن استحقاقه ثوابا على حسناته منقوض بكفره لأن الجنة محرمة

---

[١] نفسه (١٦/ ٧٠). و نقل بعض كلامه ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب (٤/ ٤٧٤). و كذلك النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٤٨٤).

عليه و مثواه النار خالدا فيها، فيكون وجه منفعته من حسناته كما وعده الله بأن تكون مخففة عنه قدر سيئاته فينتج في النهاية تقليل قدر السيئات التي تحدد قدر العذاب فيخف عنه العذاب المقدر فرضا بدون منفعة حسناته في الموازنة.

و يقول في هذا الصدد أيضا:

(**السؤال الثالث**: ظاهر الآية يقتضي **أن** العمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان، فظاهر قوله: **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره** يدل على أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الإيمان أو كان مع عدمه.

والجواب: **أن إفادة العمل الصالح** للحياة الطيبة **مشروط بالإيمان**، أما إفادته لأثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان.)[1]

و الآية المعنية بهذه المسألة هي قوله تعالى: من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٧) النحل، فاستدلاله ظاهر بجعله (الحياة الطيبة) هي حاصل الإيمان المقرون بالعمل الصالح، و هذا هو التنعم في الجنة، و لأن الجنة محرمة على الكفار فلا يمكن أن يؤثر عملهم الصالح أو حسناتهم فيكون أثره في الجنة فلا بد بمقتضى ظاهر آية الزلزلة أن يكون له أثر و بالجمع بين الآيتين يكون أثر حسنات الكفار في تخفيف قدر العذاب **فهذه هي المنفعة الخيرية المستوجبة لحاله لأنه فاقد لشرط الإيمان المستوجب لدخول الجنة و الخلود فيها.**

و قال أيضا:

---

[1] نفسه (٢٠/ ٢٦٧). و انظر أيضا (٢٨/ ٣٢). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٣٠٣).

(قوله تعالى: فهل يهلك إلا القوم الفاسقون [الأحقاف: ٣٥] فإن قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧]

/ فإن قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها؟ نقول إن الإبطال على وجوه

أحدها: يوازن بسيئاتهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقي لهم سيئات محضة، لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات

وثانيها: أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل قال تعالى: من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن [غافر: ٤٠] وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود...، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل، وقد أخبر أني لا أقبل إلا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى

وثالثها: لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧]....

الوجه الثاني: الإضلال هو جعله مستهلكا...

الوجه الثالث: أضله أي أهمله وتركه، كما يقال أضل بعيره إذا تركه مسيبا فضاع.) [1]

و هنا أيضا تم استحضار الاستشكال الخاص بوعد الله برؤية خيرية كل مثقال ذرة خير

---

[1] نفسه (٢٨/ ٣٢ – ٣٣).

مع ما يقتضي ظاهره إهلاك أو إبطال الأعمال الصالحة و الحسنة كالفاسقين كما في الآية من سورة محمد.

و قد بدأ بالموازنة كأحد الوجوه التي يفسر بها كيفية إبطال حسنة بعد وجودها، و في الثاني نستطيع أن نحيل الرازي نفسه على ما سبق من تأويله لنفس ظاهر هذه الآية التي تقتضي شرطية الإيمان لقبول العمل الصالح حيث قال أن الشرطية مشروطة للحياة الطيبة أو الجنة، و كذلك هنا، و ثالثا فما قاله لأبطال العمل فهو لازم سواء كان العامل مسلما أو كافرا لأن العمل لم يقع حسنا أصلا في نفسه و هذا خارج عن محل الاستشكال، و بهذا فإن حاصل كلامه يتمثل في الموازنة لأنها هي التي تثبت الحسنة كما هي ثم يبطل ثوابها المشروط لها بالإيمان لكفر صاحبها و لأن الله وعد بإيصال جزاء العمل لصاحبه فسيكون عن طريق الموازنة فيخف عنه عقابه.

ثم هنا في هذا الموضع كان الشاغل له التخلص من التعارض الماثل بين إيجاد الشيء و عدمه الممثل بوجود الحسنة ثم إبطالها فلذلك كان مواضع استدلاله و رده مختلفة قليلا عن المواضع السابقة لكي يتسق مع القضية العقلية أكثر بدلالة الشرع كما أظهره في تأويل الآيات المتبادر عليها التعارض، و الشاهد أن ايراده الوجه الثاني هو نفسه من رد عليه في موضع سابق من تفسيره كما سبق و أشرنا لذلك، و الثالث خارج محل النقاش تماما لانهما يتحدثان على صورة لا تسمى حسنة لأن العمل يقع باطلا أصلا فلا يدخل في موضع الاستشكال أصلا.

و قال الرازي أيضا:

(المسألة الثالثة: في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة، إما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرة من الخير والشر؟

واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه:

أحدها: قال أحمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة، وليس له فيها شيء، وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي أنه عليه السلام قال لأبي بكر: «يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاها يوم القيامة»

وثانيها: قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته

وثالثها: أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره، وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحا في عموم الآية

ورابعها: أن تخصص عموم قوله: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ونقول: المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شرا يره.)[١]

نرى أن أسلم هذه الوجوه هو الموازنة أي الوجه الثالث، ففي الوجه الأول تخصيص رؤية الخير و الشر على مثاقيل الأعمال بالدنيا تخصيص بدون مخصص، لأنه بمقتضى ظاهر القرآن متروك لمشيئة الله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا١٨﴾ [الإسراء: ١٨]

و في الوجه الثاني لا بد من تأويل كلمة ابن عباس لو صح عنه ذلك و هي (ترد) فلو معنى الرد هو رد استحقاق حسناته لمقتضاها من الثواب الموضوع لها إذا قارنها الإيمان لأنه لم يؤمن فهو

[١] نفسه (٣٢/ ٢٥٧). تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٤٥٩).

كافر، فمقبول لكي نترك فرجة تأويلية مع دلالة وعد رؤية الخير لمثاقيل الأعمال الخيرية.

و الوجه الرابع فيه تخصيص بدون مخصص فهو من باب التحكم بلا دليل، و تقدير ما لا يدل عليه شاهد من نص أو دليل أو حتى قرائن محتفة و امارات ملتفة.

- العز بن عبد السلام: (يَرَهُ **يعرفه** أو يرى صحيفة عمله أو يرى جزاءه **ويلقاه في الآخرة مؤمناً كان** أو كافراً **أو يرى المؤمن جزاء سيئاته في الدنيا وجزاء حسناته في الآخرة ويرى الكافر جزاء حسناته في الدنيا وجزاء سيئاته في الآخرة قاله طاووس**) [١]

- القرطبي: (قوله تعالى: وما الله بغافل عما تعملون... عما تعملون أي عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم،فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [٢]، (ليروا أعمالهم يعني ثواب أعمالهم.)[٣]، (وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به.)[٤]

وما الله بغافل عما تعملون و هذا في سياق تناول الآية لأعمال اليهود، و هم من جملة الكفار.

- القرافي: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُوَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (من) تعم كل عمل.)[٥]، و قال أيضا: (بعض عامل الخير لا يرى خيرا؛ لأنه ارتد أو ظلم فأخذ منه ذلك

---

[١] تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ٤٧٨).

[٢] تفسير القرطبي (١/ ٤٦٦).

[٣] (٢٠/ ١٥٠).

[٤] (٢٠/ ١٥٢).

[٥] (العقد المنظوم: ١/ ٤٩١).

الخير في ظلمه، ومن عمل شرا قد لا يرى شرا.)[1]

- البيضاوي: (يومئذ يصدر الناس من مخارجهم من القبور إلى الموقف. أشتاتا متفرقين بحسب مراتبهم.

ليروا أعمالهم جزاء أعمالهم، وقرئ بفتح الياء.فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره تفصيل ليروا ولذلك قرئ «يره» بالضم، وقرأ هشام بإسكان الهاء ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة، أو "من"""" الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله أشتاتا.) [2]

واضح أن اختيار البيضاوي مواز للقول بالموازنة لأنه يجتمعا على تأثير حسنة الكافر في نقص العقاب و إن لم يقطع به أو يؤكده بل أسبقه بقوله (لعل) و لكنه لم يمرضه بقول (قيل) كسائر التأويلات، فهو أرجحهم عنده.

- النسفي: (لِّيُرَوْاْ أعمالهم أي جزاء أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة نملة صغيرة خيرا تمييز يره أي يرى جزاؤهوَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ قيل هذا في الكفار والأول في المؤمنين)[3]

و حتى مع التسليم بمن حدد الأشتات لفريقين فريق للجنة و أخر للسعير، و مع

---

[1] (شرح التنقيح: ٢١٥).

[2] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٣٣٠).

[3] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٦٧٠).

من جعل (من) التي مع الخير خاصة بالمؤمنين و (من) التي مع الشر للكفار، فلا مانع يمنع من أن يكون فريق النار على درجات فيدخل تحت التشتيت بناء على مثاقيل الشر بعد موازنتها بمثاقيل الخير، لأنه لا بد من دخوله النار بدون أي حسنة، و بهذا يجتمع تأويلهم مع تأويل غيرهم بمن قال بالموازنة.

- نجم الدين الطوفي: (**الآية** اقتضت أن من عمل خيرا أو شرا رآه، أي: جوزي به) [1]

- ابن تيمية: (**لفظ مّن: أبلغ صيغ العموم، لاسيما إذا كانت** شرطًا **أو استفهامًا، كقوله: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه [الزلزلة: ٧، ٨]**)[2]

- الطيبي: (**يومَ نَضَع** الموازينَ القِسْطَ، **يومَ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧ - ٨]**) [3]

فيه إشارة لأن تأثير حسنات الكافر في الموازنة مع سيئاته تكون عند وضع الموازين القسط ليوم القيامة، و تؤول الرؤية للخيرية و الشرية بدءً من رؤية الموازين بعد الموازنة و عمل الحسنات مع السيئات ثم رؤية مآل هذه الموازين بمعرفة القلب و الوقوف على الحق يومئذ ثم برؤية الجزاء نفسه في النار أو الجنة.

و يقول الطيبي أيضا:

(**وقلت**: الآية تحتمل معنيين: **أن يراد بإحدى القرينتين السعداء وبالأخرى الأشقياء** لتكرير

---

[1] الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٦٨٨).

[2] التفسير من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨) (٣/ ٢٨٦).

[3] فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٢/ ١٩٤).

الموصول، وأن يراد العموم في كل قرينة كما يقال: **فمن يعمل مثقال ذرة من المؤمنين** والكافرين خيراً يره، **ومن يعمل مثقال ذرة من المؤمنين والكافرين** شراً يره. **وعلى الأول ورد كلام المصنف، وما روى محيي السنة والإمام عن محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو** كافر، **فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا....** ...

وعلى الثاني **ما رواه الواحدي عن مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً،/ يره يوم القيامة فيفرح به، وكذلك الشر فيراه في كتابه، فيسوءه ذلك. وروى محيي السنة والإمام عن** ابن عباس: **ليس من مؤمن ولا** كافر **عمل** خيراً **كان أو شراً، إلا أراه الله تعالى إياه؛ فأما المؤمن فتغفر له سيئاته ويُثيبه بحسناته، وأما الكافر فتُرد حسناته ويعذب بسيئاته.** وهذا الاحتمال يساعده النظم والمعنى والأسلوب.

أما النظم، **فإن قوله فَمَن يَعْمَلْ** كما سبق، **تفصيل لما عقب به من قوله يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فيجب التوافق.** والأعمال جمع مضاف يفيد الشمول والاستغراق، **يَصْدُرُ النَّاسُ مقيد بقوله أَشْتَاتًا، فيفيد أنهم على طرائق شتى للنزول في منازلهم من الجنة والنار، بحسب أعمالهم المختلفة،** ومن ثم كانت الجنة ذات درجات، والنار ذات دركات.

وأما المعنى، فإنها وردت لبيان الاستقصاء في عرض الأعمال والجزاء عليها، **لقوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء: ٤٧].**

وأما الأسلوب، **فإنها من الجوامع الحاوية لفوائد الدين أصولاً وفروعاً،....)**[١]

---

[١] نفسه (١٦/ ٥٤٣ – ٥٤٤).

لا يُلجأ إلى التأويل أو التقدير إلا عند تولد التعارض أو المخالفة لأننا مؤمنون بأن كلام الله كالكلمة الواحدة و هو من عند الله فلا اختلاف فيه، و لا به عوج، و نؤمن بأنه بلاغ يجب أن نحتكم إليه و نكون في طواعية ما يدل عليه في ضوء بلاغته و حكمته و كفايته البيانية، و كل هذا يحتم علينا عند فقهه و تدبره أن نلتزم الطاعة و نكون له طواعية أي يتشكل عقلنا بما أداه المعنى و الدلالة؛ لا أن نُسارع لنجعله هو طواعية لنا لكي يتسق مع مفهوم سابق حتى و لو كان ظاهرا في هذا الموضع السابق، لأنه ليس لأحدهما حق زائد استوجبه عن الأخر و إظهار أحدهما على الأخر بدون وجه حق يشفع لنا يكون تحكم بلا دليل، لأننا إذا بدى لنا تعارض أو مخالفة فهي ليست كذلك بل هي لنعمل كلا الموضعين معا و نسلم لهما جميعا ما لم يؤدي في عقولنا لتناقض أو تعارض، و الشاهد من قولنا أن الآيتين في الزلزلة تعطينا دلالة ظاهرة بعموم العمل و بعموم العامل و أن التقسيم الثنائي هو لنوعية العمل و ليس لنوعية العامل، فمقتضى حاكمية القرآن أن نقول أن الكافر لو له مثقال عمل خير سيراه، ثم نرى هل هذا المعنى يناقضه موضع قرآني آخر؟.

فإن كان و هذا هو الغالب الأعم، أن كل موضع فيه ذكر لحبط أو إضلال أو إهلاك أو إبطال أو ما ضُرب له المثل لهذا المعنى في سياق الكفار أو المشركين أو المرتدين أو حتى غيرهم لبعض الذنوب أو المعاصي، فما يخص الكافر عموما تجد أن السياق تارة و القرائن تارة و الإثنين تارة تشير أن أعمال الكفار المعني بها: أعمالهم السيئة المظنون فيها منفعتهم و أن حبطها في الدنيا / و الآخرة، و لو أدخلنا أعمالهم الحسنة في العموم فالمراد بها مخالفة ما يظنونه منها بأنها عاصمة لهم من الله لو كان هناك بعث و آخرة و حساب، و قد تجد أن عامل الحبط هو لصور الأعمال الحسنة

لأنها وقعت فاسدة بالرياء أو بالشرك، ثم نأتي على أخص دلالة من أعمالهم الحسنة و هي السالمة من المفاسد و الموانع تجد أن حبطها هو في الحساب و الميزان و الموازين فتهلك كالهباء المنثور لأنها لا تبقى لتستحق عليه ثواب بعد الموازنة.

فبعد هذا العرض الموجز الذي لم يدخله تأويل أو تقدير الجامع لكل المواضع القرآنية و المحقق للإحكام و الاتساق تجد لرؤية خيرية العمل الحسن للكافر و رؤيته له؛ موضعه من منظوم الإحكام و البلاغة القرآنية و أصولها العامة و الخاصة، فلا هو تعارض أو خالف فضلا عن يناقض موضع آخر، بل على العكس نجده يتآزر مع مواضع إقرار العدل و عدم البخس و نفي الظلم، و محقق لعلم الله و حفظه و ما كتب في صحائف الأعمال، و محقق لمواضع المحاسبة و العرض و الميزان و الموازين، و محقق تفاضل أهل النار و أهل الجنة بالدرجات و الدركات، و أخيرا محقق للمواضع التي يتوهم معارضتها له فهو يحقق و يجلي معنى الإحباط و الإهلاك و الإضلال و الإبطال لكل أعمالهم سواء التي في الدنيا أو في الآخرة.

و الحاصل أن الآية تعطي الدلالة أن كل نفس واحدة سترى ما عملته من خير و كل ما عملته من شر، هكذا فلم نزد في البيان إلا تبديل (من) بكل نفس و هذا بيان قرآني في مواضع كثيرة جدا، و لا لزوم دلالي يأتي من كلمة (أشتاتا) بأنهم فريقين فمن أين أتت دلالة الثنائية؟ لا يوجد لها ذكر، و لكن معناها صحيح لو القصد تضمينه بإزاء دار الاستقرار أي الجنة و النار و ما يلزم منهما من اقتضاء كونهما كانا كفار و مؤمنين، و لكن دلالة التشتيت تحتمل وجوبا أنه مستغرق و عام لكي يكافئ دلالة الدرجات و الدركات، أي الفريق الواحد يكون أشتاتا أيضا كل على قدر موازينه.

- أبو حيان: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٧) النحل،...

والإيمان شرط في العمل / الصالح مخصص لقوله: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره أو يراد بمثقال ذرة من إيمان، كما جاء في من يخرج من النار من عصاة المؤمنين...) [١]

قد جعل أبو حيان الأندلسي الإيمان شرطا في العمل ليكون صالحا، ثم جعل هذا المفهوم التركيبي مُخصِّصا لعموم قوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره كأحد وجوه بيان التعميم في آية الزلزلة، و هذا الاحتمال التوجيهي يتوقف قوته و ضعفه على ما بُني عليه و تأسس، فإنه قد بُني على أن الأجر أو الحياة الطيبة أو الخير، و هي المحددات الأساسية لانطلاق تأويله جعلها تشير لجزاء خاص بأهل الجنة أي المؤمنين، و هذا فيه مغالطة لأن الجزاء بالحياة الطيبة و بالأجر الحسن منوط بكون العامل مؤمن و هذا لا نزاع فيه و محل اتفاق، و لكن موضع التفصيل الذي يكشف نكتة المسألة الاستشكالية أن الخير وصف عام لا يمكن تخصيصه أو تقييده بأهل الجنة فقط أو بأهل الإيمان فقط أو بالإيمان فقط بل هو يعم و يشمل كل هذه الصور، و لأن موضع ذكر الخير لم يناط بصفة المؤمن أو اسمه أو الإيمان كما وقع في سورة النحل آية ٩٧، فضلا على أنه لا يوجد أسلوب حصر أو قصر أو تخصيص أو تقييد أو حتى استثناء في سياق ذكر الخيرية.

ثم ثنى جواز الاحتمالية التأويلية بذكر حال العامل في سياق الشرطية بقوله: (أو يراد بمثقال ذرة من إيمان) و هو بهذا قد اقترب من التأويل المستقيم و المتوغل في الصحة و الإحكام، فقد

---

[١] البحر المحيط في التفسير (٦/ ٥٩١ – ٥٩٢).

جعل الإيمان يتجزأ أو يتبعض و الأصح أن يُقال أن الإيمان ماهية تحل في كل عمل يقع مشروط به، فكأنه مصداق و دال على الإيمان المصحح للعمل و الموفي شروطه التي تجعله مقبولا و معتبرا و مستحقا للجزاء عليه، و هو بهذا التصور يجوز أن يقع من أي نفس في أي عمل، كإخلاص الدين لله بالدعاء من المشركين ثم رجوعهم للشرك في عمل غيره أو نفسه، و الشاهد استقلالية الإخلاص المنوط بوقوع العمل الكافي في اعتباره و المحقق لصفة الإخلاص و الإيمان المقيد بالعمل.

و إذا ضممنا مع ما سبق التسليم بصحة الفصل بين مفهوم الجزاء الثنائي (الجنة و النار) و بين أعيان الأعمال يتضح الأمر جليا، أي أنه يجب الإقرار بفك اللزوم الحتمي المتبادر على الذهن الشرعي ما بين نوعية الجزاء (الجنة و النار) و بين عمل ما بل يجب أن يناط لمجمل الأعمال فقط، فحصيلة الأعمال هي التي تؤدي للجنة أو النار، و هذه الحصيلة هي نتاج الموازين ما بين الحسنات و السيئات، فلا نرجع هذه الثنائية على أعيان الأعمال التي كانت في الدنيا، لأنه يقع من الكافر حسنات ثم تذهب بالسيئات فلا يبقى إلا السيئات كحصيلة تستلزم الجزاء الذي هو النار، و لكن لا معنى يتحتم من ذلك أنه لم يعمل حسنة قط، أو أنه لو عملها لا تقبل، هذا هو محل تصوير المسألة الكاشف لضعف هذا التبادر بالنظر للنتيجة النهائية (النار) و ربطه بكونها موضع الجزاء على السيئات، فالقائل قد قفز متجاوزا دلالة و أهمية مرحلة الميزان و الموازنة و الحساب التي تقتضي وجود أو شرعية وجود الحسنات من الكافر و الداخلة في أركان التصور الحسابي و الميزاني.

و الشاهد أن رؤية المفسر أو المؤول تبدأ من تمام تصوره عن المفردة الداخلة في التركيب أو

السياق و الدخول لعملية التأويل محملا مسبقا أو من ناتج التركيب بمفهوم يجب أن يتسق مع حصيلة ما سبق من مواضع، فهنا مثلا رؤيته لدلالة الحياة الطيبة و الجزاء الحسن مع شرطية حال العامل (مؤمن) قد جعلته يخصص عموم رؤية الخيرية على مثقال الذرة من الخير، فنقل شرطية حال العامل (مؤمن) إلى موضع أخر فخصص به، بدون اضطرار أو داع، لأن السياقان كل منهما يعطي ما سيق لأجله، فيكون الخيرية التي جاءت في سياق العموم بدون شروط تبقى كما هي ثم نفسر الخيرية باتساع طيف دلالتها لتعم المؤمن و الكافر، فيكون الأجر الحسن و الحياة الطيبة مخصوصة فقط على المؤمن، أما ما عداها من وجوه الخير فتناسب غير المؤمن فلا داع لنفيها عنه بل الواجب التسليم لإثباتها له لأنه مقتضى النص القرآني الذي نتعبد الله به فنطيعه و لأنه هو موطن التبليغ الكاشف عن موضعنا بالنسبة لكلام الله و لا موضع لنا إلا الخضوع و الطاعة و العبادة به.

و قال أبو حيان أيضا:

(ويحتمل أن يكون أشتاتا، أي كل واحد وحده، لا ناصر له ولا عاضد، كقوله تعالى: ولقد جئتمونا فرادى.) [1]

و من دلالة التفريق الآتية من (أشتاتا) لا بد لهذا التفريق من عامل فيه على أساسه وقعت الفرقة و التمييز بينهم، فلو التفريق جاء من دلالة الجنة و النار فهو يختزل ضمنا في دلالته أنهم قد حوسبوا و وزنت أعمالهم فلا يبقى لهم إلا أن يروا جزاء أعمالهم، و يلزم من هذا أن يفسر (يصدر) بأن الناس آتين من المحشر إلى الجنة أو النار، فالظاهر من القول أن الفرقة آتية من

[1] نفسه (١٠/ ٥٢٤).

تداخل لوازم الزلزلة من الأرض، و من الناس، و من تأخير رؤية الأعمال بملحوظية المثاقيل أي أصغر وحدة عملية تدخل في الحساب و الميزان تقتضي رؤية خيرا أو شرا، فكأن المدلول من كل هذا أن الناس تخرج من الأرض متفرقين كل على حدة أي فرادى كما خلقهم الله أول مرة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]

و قال أيضا:

(والظاهر تخصيص العامل، أي فمن يعمل مثقال ذرة خيرا من السعداء، لأن الكافر لا يرى خيرا في الآخرة، وتعميم ومن يعمل مثقال ذرة شرا من الفريقين، لأنه تقسيم جاء بعد قوله: يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم.) (١)

و هذا مثال على مدى تحكم الدلالة الخارجية المصحوبة لسياق آخر لتعمل فيه تخصيصا كما جاء هنا، فيتصرفوا في المعاني و الدلالات بما استصحبوه، و الملفت للنظر ظهور هذه الازدواجية التأويلية فيعمل في نفس القالب التركيبي تأويلا مخالف لنفس القالب التأويلي بتأويل آخر، فيدعي في أحدهم الخصوص و الآخر العموم، و هو مثال حي آخر لِيُظْهِر مدى قوة التأسيس التأويلي المعتمد على محورية اللفظة القرآنية، فكل هذا التأويل من تخصيص و تعميم قد جاء من تأثير دلالة كلمة واحدة يلزم منها دلالات أخرى تأتي بعد اعتمادها، فهنا (أشتاتا) هي المتحكمة في توجيه الدلالات من تخصيص و تعميم و قيد و إطلاق، فانطلاقا من

---

(١) نفسه (١٠/ ٥٢٤).

مُسَلَّمَة أن هناك فريقين (أهل الجنة و أهل النار) أو على اعتبار ما سيكون فيبرز السبب في هذا؛ الذي هو (الأعمال) فيكون التفريق على أساس الأعمال المؤدي إلى تفريق الجزاء فنرجع إلى (الجنة و النار).

و بالطبع يدخل في الاستدلال ما ورد من أخبار في هذا الشأن كتدعيم لما اختير من تأويل على تأويل، فالتخصيص في جانب رؤية الخير قد جاء للمؤمنين فقط لأن هناك أخبارا تؤيد ذلك بأن الكافر سيرى كل خير على كل عمل حسن قد عمله في الدنيا فقط فيذهب للآخرة بدون أي حسنة، و عليه تكون هذه الآية خاصة بالمؤمنين فقط، على اعتبار مؤَسَّس على أنها في الآخرة فقط، و على اعتبار أن الجزاء له محل واحد فقط و هو الدنيا، و إلا فما المانع أن تكون للحسنة جزاء في الدنيا و آخر في الآخرة، فيتفاضلوا فيما بينهم على حسب مشيئة الله و حكمته، فقد يكون الجزاء في الدنيا و الآخرة أو يدخر ما في الدنيا للآخرة أو يوفى كله في الدنيا، و بما أنه لا دليل قاطع على هذه الاعتبارات يظل الاحتمال قائم على توفر القرائن و الأمارات.

فالأول و الأسلم من حيث إخلاء ذمة المفسر و المؤول أن يجري المعنى و الدلالة على ظاهر ما جاء فيها من ألفاظ و على ما تعطي من دلالات، ثم يفسر بعض القرآن ببعض، فإذا سلم من المخالفة و المعارضة أو المناقضة فقد لزم الجواز و هو أقل فضيلة ينالها إن لم يكن قد أصاب الحق المكلف به تجاه القرآن الذي هو كلام الله، و عليه تكون الآيتين عامة لكل نفس أوقعت عملا من جهة التكليف، و يكون رؤية الخير للكافر في الآخرة قطعا و يقينا لا يكون الجنة و لا يكون كل صفة أو عمل قد حكاه الله و أثبته كرامة للمؤمن و حرمه على الكافر و هي عديدة في القرآن، ثم لا يبقى إلا حل إشكالية ماهية الخيرية هذه التي ينالها الكافر الذي مصيره النار

و الخلود فيها و لا يخفف عنه العذاب.

قد يأتي الحل من مبدأ حكمة الله و عدله فيما حكم و قدر في موضع غيبي عنا فلا ندركه على حقيقة أمره و لا تطيله عقولنا و لا قياسا على حِسِّنا هذه واحدة، و الثانية أن الله هو الذي يبلغنا في قرآنه بأن الكافر يدخل في هذا العموم و بمجرد ورود ذلك بلاغا من الله لعباده فقطعا هذا خيرا للكافر نؤمن به و نسلم له، ثم الثالثة تأتي عقلا المشفوع بالحس فإن الإنسان لو محتم عليه ضررين أحدهما أكبر من الأخر فبكل تأكيد سيختار الأقل و يناله به فرحا نسبيا و ليس مطلقا لأنه سيتضرر على كل حال، و لكن بالمقابلة بين الضررين سيتولد فرحا و رضا بالأقل، و هذا يقابله في كلام الله الحساب و الميزان و الموازين و ما يقابلها من دركات في النار.

- ابن القيم: (فيحكم الله سبحانه بين عباده بحكمة الذي يحمده عليه جميع أهل السماوات والأرض وكل بر وفاجر ومؤمن وكافر وتوفى كل نفس ما عملت،فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.)[1]، و قال أيضا: (قوله تعالى: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى... والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى: وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وهذا يعم الشر والخير قطعا، ويتناول البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كقوله تعالىفمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.) [2]

---

[1] مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية (١٣/ ٧، بترقيم الشاملة آليا).

[2] نفسه (١٧/ ٣٤٥).

- ابن كثير: (يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧- ٨])[١]، (وقوله سبحانه وتعالى: لتجزى كل نفس بما تسعى أي أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧- ٨])[٢]، (وقوله تعالى: يومئذ يصدر الناس أشتاتا أي يرجعون عن موقف الحساب أشتاتا أي أنواعا وأصنافا ما بين شقي وسعيد مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار)[٣]

و قال أيضا: (وقال ابن أبي حاتم:... عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة، وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضا بكل واحد عشر ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فإذا زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة.)[٤]

---

[١] تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/ ٤٧). تفسير الجلالين (ص: ٨١٨).

[٢] نفسه (٥/ ٢٤٦).

[٣] نفسه (٨/ ٤٤٢). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٦١٦).

[٤] نفسه (٨/ ٤٤٤).

- ابن عادل الحنبلي:

(دلت الآية على أن شيئا من أعمال البر لا يقبل مع الكفر بالله تعالى.

فإن قيل: كيف الجمع بينه وبين قوله: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧]؟ فالجواب: أن يصرف ذلك إلى تأثيره في تخفيف العقاب) [١]

و قال أيضا: (وهذه الآية [٢] تدل على أن الإيمان مغاير للعمل الصالح؛ لأنه - تعالى - جعل الإيمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب، وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء.

فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي أن الإتيان بالعمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان، وظاهر قوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧] يدل على أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الإيمان أو عدمه.

فالجواب: أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان، أما إفادته لأثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العذاب؛ فإنه لا يتوقف على الإيمان.)[٣]

و موجب الاستشكال هو تعيين كنه الشرط و تصور طرفي المشروط عليه (العامل) و المشروط له (الأثر)، فهذه العلاقة الثلاثية تؤتي ثمارها الدلالية على تنوع تعيين الشرط و كل من طرفي العلاقة أو القضية، فشرط الإيمان ظاهر و لا يحتمل الاختلاف عليه، و لكن يبقى تعيين ماهية العامل هل هو المؤمن فقط أم المؤمن و الكافر، و بالنسبة للأثر المترتب على التزام الشرط

---

[١] اللباب في علوم الكتاب (١٠/ ١١٦).

[٢] من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٧)

[٣] نفسه (١٢/ ١٥٣).

هل هو كون العمل يصير صالحا أم يقتضي جزاؤه الذي هو هنا الحياة الطيبة و الأجر الحسن، و تصور مناط الشرطية يغير من المعنى أيضا، بمعنى هل الشرطية التي بالإيمان المعني بها الإيمان العام أو الخاص بالعمل فقط.

و بالنظر للسياق و النظم فهو يفيد أن شرطية الإيمان المقصود بها المقرونة بالعمل لأن العمل الموصوف هنا هو العمل (الصالح) أي الشرط هو الإيمان الخاص، و يكون الأثر مترتب على كون العمل صالح و عامله مؤمن (شرطي قبول العمل: موافقة الشرع و الإخلاص فيه) و يكون الأثر ما عين ذكره و هو الحياة الطيبة و الأجر الحسن المتفرع على الحياة الطيبة و هو ظاهر أنها الجنة و التنعم فيخرج الكافر من هذا الأثر لأنه ليس ممن تطيب حياته في الآخرة، يبقى معرفة أثر العمل الصالح المقرون بالإيمان في العمل المعين الواقع من الكافر بعد أن عُلم بأنه لا يترتب عليه الحياة الطيبة و الأجر الحسن، **فالدلالة تحتم أن أثره سيكون مغايرا و قد قطع الله الوعد بأم من عمل مثقال ذرة من خيرا يره، و نحن نقطع أنه سيرى خيرا على عمله الحسن دون أن يكون هذا الخير هو الحياة الطيبة و الأجر الحسن.**

- ابن رجب الحنبلي:

(... **عن** سعيد بن جبير **في قول الله عز وجل: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره)... قال: يكتب لكل بر** وفاجر **بكل سيئة سيئة واحدة،** وبكل حسنة عشر حسنات، **فإذا كان يوم القيامة، ضاعف الله حسنات المؤمن أيضا بكل واحده عشرا، فيمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذر، دخل الجنة.**

وظاهر هذا أنه تقع المقاصة بين الحسنات والسيئات، ثم تسقط الحسنات/ المقابلة للسيئات، وينظر إلى ما يفضل منها بعد المقاصة، وهذا يوافق قول من قال: بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحد أثيب بتلك الحسنة

خاصة، وسقط باقي حسناته في مقابلة سيئاته، خلافا لمن قال: يثاب بالجميع، وتسقط سيئاته كأنها لم تكن.) (١)

قول صريح في الموازنة (المقاصة) ما بين الحسنات و السيئات، و هو يتضمن لزوما اعتبار حسنات الكافر بل و مضاعفتها أيضا.

- المهايمي: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أي يخرجون عن قبورهم إلى اماكن تلك الأعمال (أَشْتاتاً) أي متفرقين لتفرق تلك الاماكن لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ في تلك الاماكن ويسمعوا اخبارها قبل أن يروها في الصحف والموازين لئلا ينكروها فيخرجوا إلى الصحف والموازين فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ أي نملة...خَيْراً يَرَهُ وإن كان محبطا وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ وإن كان معفوا عنه إذ لا يخلوا عن أثر في التخفيف أو نقص الدرجة أو رفعها بالندم عليها)(٢)

و نرى هنا تأويل للأشتات مغاير تماما عن المتبادر عند كثير من المفسرين، فهو لم يُحَمِّله أي تمايز بين الناس فهو مجرد ذهابهم لأماكن أعمالهم، ثم ليروا الصحف و الموازين، و أهم نكتة

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦١٩ - ٦٢٠).

(٢) تفسير المهايمي المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان ت ٨٣٥ هـ (٢/ ٤١٠). و نفسه للنيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٤٨).

عند المهايمي أنه جعل الحسنة المحبطة لها تأثير في تخفيف العذاب، و هذا يبين أن حسنة الكافر قد تكون تم المجازاة عليها في الدنيا بحيث لم يصبح له أي حسنة للآخرة، و لكن هذه الحسنة ما زالت مكتوبة في الصحف لتؤدي عملها في الميزان، و بهذا قد حقق معنى الحبط مع المجازاة في الدنيا مع تأثيرها في التخفيف ببلاغة دقيقة و حكمة عميقة.

- النيسابوري:

(قال بعض العلماء: **وجه الجمع بين قوله فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ [الزلزلة: ٧] وبين مضمون هذه الآية وهو أن شيئا من أعمال البر لا يكون مقبولا عند الله مع الكفر، هو أن يصرف ذلك إلى تأثيره في تخفيف العقاب.**

ولقائل أن يقول: لو لم يكن مقبولا بوجه لم يكن له في التخفيف أيضا أثر.)[١]

بل يمكن توجيه اعتراض هذا القائل بمزيد من التفصيل و الإحكام، و هو أن القبول مفضول عن التقبل، فالقبول أعم من التقبل هذا من جهة التصرف في المعاني على الأوزان في المباني، و من جهة أخرى متفرعة عن هذا التأصيل يكون القبول ليس من مقتضياته ترتب الثواب عليه بمعنى حكاية الحال الواقع للكفار إزاء حسناتهم لأنهم لن تبقى لهم حسنة باقية بعد الحساب، و القدر المنتفع به في الحساب من الموازنة هو ما يدل عليه دلالة كلمة (القبول)، أما (التقبل) فهو يتضمن استحقاق و رؤية الثواب على الحسنات و هذا لا يكون إلا للمؤمن الذي تفاضلت حسناته على سيئاته فلا بد لها من ثواب في الجنة و نعيمها.

---

[١] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٤٨٤).

فيكون مراد المعترض بالقبول هو التقبل على إرادته الترادف بينهما بدون ملحوظية الفرق بينهما في التفاضل الدلالي و متعلقاته، و من جهة أخرى يمكن تقويض وجه الاعتراض بقولنا أنه لا مانع من إثبات أثر التخفيف مع إثبات عدم القبول بتخصيص القبول بوجه معين قد منعه مانع و هو الكفر، أما إذا نظرنا لمعنى القبول فقط فهو إقرار صدور العمل الصالح أو الحسن من الكافر و دخوله في حيز المجازاة العامة، و من العامة التخفيف.

و يقول النيسابوري أيضا:

(ظاهر الآية[1] يقتضي أن العمل الصالح إنما يفيد الأثر المخصوص بشرط الإيمان وظاهر قوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ [الزلزلة: ٧] يدل على أن العمل الخير مطلقا يفيد أثرا مطلقا فلا منافاة بينهما.)

أي أن ما ينفى عن الكافر هو الأثر المخصوص (الحياة الطيبة) لانتفاء شرطه و هو الإيمان و يبقى له أثرا أخر غير هذا و هو ما ثبت من الخيرية التي يراها على عمله الحسن.

و يقول أيضا:

(قال جار الله: إن حسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن مكفرة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء لمثاقيل الذر من الخير والشر؟ وأجاب على مذهبه بأن المعنى فمن يعمل من فريق السعداء مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل من فريق الأشقياء مثقال ذرة شرا يره. وذلك أن الحكم جاء بعد قوله يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً

[1] النحل ٩٧ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

والأولى في جوابه ما روي عن ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله تعالى إياه. فأما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثاب بحسناته وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته.

وقيل: إن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره لكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره، وكذا القول في الجانب الآخر.

وعن محمد بن كعب القرظي: معناه فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا....) [١]

و قد أضاف تفصيلا عن ابن الإسكندري و المهايمي أيضا فقد صرح النيسابوري بالقول بالموازنة كمصطلح في حق حسنات الكافر و دورها في تخفيف استحقاق العذاب رغم حبطها بكفره، و من الفوائد أيضا أن رؤيته للموازنة بحسنات الكافر المحبطة لا يعارض قول ابن عباس بأن حسنات الكافر مردودة عليه، فمعنى الرد هنا أنها لا تستحق ثوابا كثواب حسنات المؤمن لأنها لن تبقى بعد الموازنة فإن الله لا يظلم أحدا.

- ابن التمجيد: (قوله: ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. نظر رحمه الله إلى عموم الآية فذهب إلى أن حسنة الكافر تؤثر في نقص عقابه وسيئة المؤمن المتجنب عن الكبائر تؤثر في نقص ثوابه، والمعتزلة لما لم يذهبوا إلى هذا مستدلين بأن

[١] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٤٨).

حسنة الكافر محبطة بكفره **وسيئة المجتنب عن الكبائر مغفورة** خصصوا الآية الأولى بالسعداء والثانية بالأشقياء بقرينة (أشتاتا) **كما قال صاحب الكشاف**

.../...

قال صاحب الانتصاف سؤاله مبني على قاعدتين [إحداهما] أن حسنات الكافر محبطة بالكفر، وفيه نظر فإن أريد أنه لا يثاب بها فصحيح، وأما تخفيف العذاب فغير مسلم،....

وقال الإمام: **يجوز أن يقال: [إن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره** ولكن الموازنة معتبرة **فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره، وكذا القول في الجانب الآخر** فلا يكون ذلك قادحا في عموم الآية].)[١]

و في تمرير أقوال البيضاوي، و صاحب الانتصاف، و الإمام الرازي، **أمارة على قبوله أقوالهم و بهذا فابن التمجيد ممن يرى الموازنة، و منفعة حسنات الكافر المحبطة من جهة و المنقصة من عقابه من جهة أخرى فلا تعارض بينهما عنده و عند من نقل أقوالهم، فتجتمع في حق حسنات الكافر الحبط و التخفيف.**

- البقاعي: **(أعمالهم فيعلموا جزاءها** أو **صادرين عن الموقف كل إلى داره ليرى جزاء عمله،... فمن يعمل من محسن أو مسيء مسلم أو** كافر **مثقال أي مقدار وزن ذرة خيراً أي من جهة الخير يره أي حاضراً لا يغيب عنه شيء منه لأن المحاسب له الإحاطة علماً وقدرة،** فالكافر

---

[١] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٨٨٠) (٢٠/ ٣٩٥ - ٣٩٦).

يوقف على/ أنه جوزي به في الدنيا أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان، فهو صورة بلا معنى...)[1]

و البقاعي قد اعتمد أن الرؤية تكون للجزاء على الأعمال، و أقر أن الآية عامة لكل مسلم أو كافر قد عمل خيرا أو شرا، ثم عند رؤية جزاء الخير بالنسبة للكافر جعلها رؤية كتابية فقط لا تتعدى لأي جزاء من أي نوع لا بالمنطوق و لا بالمفهوم في الآخرة، أما في الدنيا فإنه قد جوزي بحسناته كلها، أما في الآخرة سيكون سبب حبطها أنها لم تكن من مؤمن و هذا تلميح صريح بأن المنفي عنه هو خيرية تماثل خيرية حسنات المؤمن، فلا يتضمن كلامه تصريحا بنفي التخفيف عنه بالموازنة، فقوله: (صورة بلا معنى) و (أحبط) كانا من الممكن أن يكونوا لرؤيته جزاء حسناته تهلك و تضل في موازنة سيئاته فلا ينتفع بها كما ينتفع بها المؤمن، و يثبت دلالة الخيرية بأن يرى أن استحقاق عذابه يخف و يقل بوجود هذه الحسنات حتى في حال هلاكها.

- الكوراني: (أي: يرى جزاءه. وتفصيل؛ لقوله (أَشْتَاتًا). وحسنات الكافر لها مدخل في التخفيف كما أنَّ زيادة سيئاته توجب ضعف العذاب. ولا ينافي حبوط عمله، لأنَّ ذاك معنى آخر.) [2]

و قول شهاب الدين الكوراني هو عين ما قيل سابقا أنه لا منافاة بين إثبات حبوط

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٠٧ – ٢٠٨). و بحرفه في السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ٥٧٤ – ٥٧٥).

[2] تفسير الكوراني – غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني ت ٨٩٣ هـ (٢/ ٤٢٥).

حسنات الكافر و بين تأثيرها في تخفيف قدر استحقاق عذابه على السيئات.

- الإيجي: (وفي إحباط بعض أعمال الخير، والعفو عن بعض أعمال الشر، إشكال، اللهم إلا أن يقال: الآية مشروطة بعدم الإحباط، والعفو، وما ذكره النسائي، وابن ماجه إنه لما نزلت قال أبو بكر: إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال عليه السلام: ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة، فلا يخلو عن إشكال لأن قوله: فمن يعمل مترتب على قوله: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ، فالظاهر أن رؤية جزاء الأعمال في الآخرة لا في الدنيا، اللهم إلا أن يقال: قد تم الكلام عند قوله: ليروا أعمالهم، وقوله: فمن يعمل ابتداء كلام وحكم على حياله)[1]

و نأخذ من صنيع الإيجي أن الإشكال هو الدافع لتقدير الشرط، و الإشكال متولد من الأفهام و التصرف في المعاني و إزالة التخالط و التشاجر ما بين دلالات الألفاظ و التراكيب، فمن حد و قطع و التزم الظاهر بان له أنه لا إشكال في الآيات مع بعضها البعض و كل متحقق في موضعه و مع غيره، و قول الإيجي دليل واضح على بواعث التأويل لدى المفسرين، فإنه لما تولد عنده اشتباه و إشكال أراد أن يحله، و ظاهر النظم لا يسعفه في حله بل هو عنده السبب في الإشكال، فلجأ إلى التقدير و الافتراض لدلالات أخرى زائدة عن أصل النظم تقيد و تخصص المعنى لكي يتسق مع رؤية المفسر بناء على موضع قرآني آخر، و قد يُعذر لو قام له الدليل و القرائن أما و الجمع و التأليف متيسر فلا عذر له.

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٥٢٠).

- زكريا الأنصاري: (قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه الآيتين. ليس بتكرارٍ لأن الأول متَّصلٌ بقوله تعالى خيْراً يَرَهُ والثاني متصِلٌّ بقوله تعالى شَرّاً يَرَهُ.

فإن قلتَ: كيف عمَّم فيهما مع أن حسناتِ الكافر محبطةٌ بالكفر، وسيئاتُ المؤمن الصغائر مغفورة باجتناب الكبائر؟

قلتُ: معناه فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ من فريق السعداء خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ من فريق الأشقياء شراً يره.) [1]

و أيضا في كلام زكريا الأنصاري تأكيد على أن الآيتين دلالتهما هو العموم، و لأن هذه الدلالة يتولد عنها إشكال بُني على فهم معين للحبط بالنسبة لحسنات الكافر لجأوا لوضع التخصيص لكي يردوا دلالة العموم إلى دلالة الخصوص بتقدير كلمتي (الأشقياء و السعداء)، و كما سبق هذا التقدير يجب أن لا يكون من أصل النظم لأنه من باب التعدي و التحكم، و لكن يمكن أن يسمح به في باب التوضيح و استخراج الدلالات المستنبطة من الآية، فكان يصح تقديرهم على أن الأشقياء و السعداء بعد الفراغ من الحساب و الميزان و الموازنة، لأن المؤمن ينجوا بزيادة حسناته على سيئاته و لو بحسنة واحدة، و الكافر يخسر بزيادة سيئاته على حسناته، فالمؤمن لا يوجد له مستحق لتقدير الجزاء إلا الحسنات، و الكافر لا يوجد له مستحق للجزاء إلا السيئات، و بهذا يكون تقديرهم له وجه من الصحة.

أما أن يجعلوه من أركان دلالة النظم لكي لا يعطي إلا دلالة التخصيص فهو تحكم و مطاولة بلاغية و استدراك ممجوج خاصة أنه مبني على أصل لا يقوم له قائمة و لا يسانده دليل و لا

---

[1] فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٦٢٣). فتح القدير للشوكاني (٥/ ٥٨٥).

يسعفه قرينة و لا يأخذ بيده أمارة، لأن إثبات الحبط و الإضلال و الإبطال لأعمال الكفار متناول بالأولوية السياقية الخاصة و العامة لأعمال السوء التي في الدنيا لأنها هي جُل أعمالهم خاصة و أنهم كافرون بالآخرة و أقله على شك منها، فتصدير أعمالهم هذه على أنها هي الأعمال الحسنة هو تسطيح للمسألة و مَدْرَجَة للتخليط، فالحبط هو إبطال للمنفعة المرصودة من وراء العمل، و هكذا تحققت لأعمالهم الدنيوية لمكايدة الإسلام و إعلاء كلمة الله، و بالنسبة لأعمالهم الحسنة فقد بطلت لأنها لن تدخلهم جنة أو تدفع عنهم العذاب، فهذا معنى مغاير تماما لمعنى العدل في رؤية خيرية أعمالهم الحسنة يوم القيامة في الحساب و الميزان و الموازنة فتتحابط حسناتهم بسيئاتهم.

- مجير الدين الحنبلي: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فيرى الخير كلَّه من كان مؤمنا، والكافر لا يرى في الآخرة خيرًا؛ لأنّ خيره قد عجل له في دنياه، وكذلك المؤمن أيضًا تعجل له سيئاته الصغائر في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها.) (١)

و كما سبق فإن هذا التأويل يصح على وجه معين بالنسبة للمراحل التراتبية في مسير أوقات يوم القيامة، فإن هذا التأويل يكون صحيحا عند الفراغ من الحساب و الميزان و الموازنة، اما أن يُجعل هو التأويل الوحيد للآية فهذا اقتضاب بلاغي و تآكل دلالي، لأن الآية مسوقة لتمام العدل و المساواة بين كل البشر في كيفية الحساب و الجزاء، و أن التفاضل بينهم يرجع لكثرة مثاقيل أعمالهم فقط، و هو تفصيل آخروي و هذا متفق عليه بين كل المفسرين، فلا يمكن دفع

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٧/ ٤١٧).

رؤية الخير بالنسبة للكافر على عمله الحسن يوم القيامة لأنه إهدار لدلالة التعميم، **خاصة لو كان اختيار المفسر أن الإصدار من الحساب لرؤية الجزاء، فعليه أن يتم ما بدأ به و بنى عليه ليظهر رؤية الكافر خيرية جزاؤه على عمله الخير، فأقل تقدير يمكن أن يجد له فرجة في سلك البلاغة و الإحكام أن يقول أنه يرى عمله الخير في كتابه مع أنه ليس جزاء و لكنه أثبت رؤية خير ما على عمله الحسن بدلا من إهداره تماما.**

أما الإحكام التام أن نثبت رؤية خير على عمله الخير من منظور الفائدة و التأثير **لأن رؤية العمل أو كتابته لا تفيد شيئا لأنه تحصيل حاصل** و لا يتوقف على الرؤية بهذا المعنى ترتب جزاء الذي هو عمدة أيجاد الإصدار و توصيف الناس على أنهم أشتاتا، **فالغرض هو بيان و إظهار مدى العدل في الجزاء على قدر الأعمال ليتحقق التفريق بكون أحدهم فريق السعداء للجنة و فريق الأشقياء للنار،** فإلزامنا بإثبات رؤية الخير للكافر على أعماله الخيرة لا يمنع و لا يدفع إثباتنا لإحباط حسناته و أنه للنار خالدا فيها، و لا أنه لا يخفف عنه العذاب، **و في ذات الوقت يثبت نفي إثابته لأنه لن يدخل الجنة و لن يرى تنعم و لن يدرأ عنه العذاب،** و بهذا نكون قد حققنا طواعية عقولنا لمدلولات ظواهر الآيات كلها، **و حققنا صفة البلاغ القرآني لأن المُبَلغ ليس له التصرف في المعاني بتقديرات لفظية يفرضها على النص لأنه يعتبر استدراك و ندية في موضع يجب إظهار فيه** العبودية و التسليم.

- محي الدين زاده: **(كل واحد من أهل الثواب والعقاب وكذا مجموعهما درجات على حسب أعمالهم. ...**

... **ويؤيد رجوعه** إلى الكل **أن** مراتب الخلق في المعاصي والطاعات متفاوتة فوجب أن تتفاوت مراتبهم في درجات العقاب والثواب لقوله تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**) [1]

و قال أيضا:

(**إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق** الثواب وإنما المتوقع عليها تخفيف العقاب. ...

... **كون الأعمال الصالحة مؤدية إلى الحياة الطيبة وثواب الآخرة مشروط بالإيمان**.

فإن قيل: **كيف يكون مشروطا به مع أن قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ [الزلزلة: ٧] يدل على أن العمل الصالح يفيد الأجر مطلقا؟**

قلنا: لا نسلم ذلك فإن رؤيته لا تستلزم كون العامل مثابا بعمله لجواز أن يكون فائدة عمله تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان. وإليه أشار المصنف بقوله: «وإنما المتوقع عليها تخفيف العقاب».) [2]

و قال أيضا:

(قوله: (ولعل حسنة الكافر) جواب عما يقال: إن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن معفوة إما ابتداء وإما بسبب اجتنابه الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر؟ وحاصل الجواب الأول أن حسنات الكافر **وإن كانت** محبطة **بمعنى أنه** لا يستحق بها ثوابا **إلا أن ذلك لا ينافي أن يرى** جزاء تلك الحسنات **بأن** ينقص من عقاب كفره **بمقدار تلك**

---

[1] حاشية محي الدين زاده على تفسير القاضي البيضاوي ت ٩٥٠ هـ (٣/ ٢٠٣).

[2] نفسه (٥/ ٣٢١).

الحسنات، وكذا سيئات المؤمن وإن كانت معفوة بأن لا يعذب بسببها إلا أن ذلك لا ينافي أن يرى جزاءها بأن ينقص من ثواب إيمانه وصالح أعماله بمقدار تلك السيئات.) [1]

- أبو السعود: (وأيا ما كان فمعنى رؤية ما يعادلها من خير وشر إما مشاهدة جزائه فمن الأولى مختصة بالسعداء والثانية بالأشقياء كيف لا وحسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة وما قيل من أن حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب يرده قوله تعالى وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وأما مشاهدة نفسه من غير أن يعتبر معه الجزاء ولا عدمه بل يفوض كل منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر وإثابته بجميع حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه فالمعنى ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله تعالى إياه أما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته وأما الكافر فيرد حسناته تحسرا ويعاقبه بسيئاته)[2]

و الذي دعا أبو السعود إلى تخصيص (من) الأولى للسعداء و الثانية للأشقياء هو ما استدل به من قوله تعالى: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا و هو كما ترى لا منافاة بينهما لعدم تماثل المناط الذي في كل آية منهما، أي أنهم لا يلتقوا في محل أو موضع واحد

---

[1] نفسه (٨/ ٦٦٣).

[2] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩/ ١٨٩). روح البيان (١٠/ ٤٩٤). التفسير المظهري (١٠/ ٣٢٤). و بنحوه مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٦٥٦).

مرة بالسلب و مرة بالإيجاب كي نقول أنهما يتعارضان فيجب أن نعمم واحدة و نُخصص الأخرى، أو أن نَفهم واحدة بفهمنا الأخرى على ما يقتضيه التبادر للأذهان من المعارضة أو المخالفة حتى، بل كل آية تعطي معناها الخاص بها على ما يقتضيه دلالة نظمها، ثم يلتقيان في موضع لا معارضة فيه تكون فيه آية الزلزلة قاضية بالعدل في المجازاة و المحاسبة بلا تعارض مع ما قررته آية الفرقان ٣٢؛ بتفسير مصير الحسنات التي ستجعل هباء منثورا لأن رؤية شره غالب على رؤية خيره، فكأن المعنى الحاصل بعد الإدماج أن حسنات الكافر ستكون هباء منثورا يوم يجازى كل منهم على ما فعله من خير فلا ينال ثوابا عليها لأنها ستحبط و تضل في خضم السيئات بالموازنة، و تكون خيرية حسناته في تخفيف عقابه فقط لأنها لن يبقى منها حسنة واحدة ينال بها ثوابا على ما اقتضاه الله من عدل و حكمة.

- الشهاب الخفاجي:

(**قوله:(وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب)** قيل إنما عبر بالمتوقع لتعارض الأدلة، والنصوص في تخفيف عذاب الكفرة بسبب أعمالهم الحسنة **كقوله: وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ [سورة النحل، الآية: ٨٥] وقوله: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [سورة الزلزلة، الآية: ٧] وحديث أبي طالب أنه: أخف الناس عذاباً** [1]**ورد بأنّ هذا الحديث لا يدل إلا على تفاوت عذاب الكفرة بحسب تفاوت شرورهم زيادة ونقصانا ولا نزاع فيه**، وليس بشيء لأنه لا شيء أشد من الكفر المستحق صاحبه للعذاب الأليم، **وقد ورد في حق أبي طالب إنه لمحبته**

[1] أخرجه مسلم ٣٦٢ - ٢١٣ وأحمد ٢٦٣١ والحاكم ٤/ ٥٨١ كلهم من حديث ابن عباس ولفظه: «أهون الناس عذابا أبو طالب وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه». وصححه الحاكم.

وحمايته للنبيّ ﷺ خفف عذابه، وفي البخاري ما معناه إنه في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه [1]فقال الإمام الكرماني في شرحه فإن قلت أعمال الكفار كلها هباء منثوراً يوم القيامة فكيف انتفع أبو طالب بعمله حتى شفع له ﷺ قلت ليس هذا جزاء لعمله بل هو لرجاء غيره أو هو من خصائص نبينا مجتبي! وبه يظهر التوفيق وسيأتي له تفصيل إن شاء الله تعالى.) [2]

و قول الشهاب الخفاجي حاكيا قول من يجعل تفاوت عذاب الكفار يكون بإزاء تفاوت شرورهم زيادة و نقصانا و لا يكون على قدر أعمالهم الحسنة بقوله: (وليس بشيء لأنه لا شيء أشد من الكفر المستحق صاحبه للعذاب الأليم) و يمكن التوفيق بين القولين بأن جزاء الكفر هو الخلود في النار، و دركات النار تكون على تفاوت السيئات كما و نوعا، و حسنات الكافر تقلل من قدر السيئات المستحقة لهذه الدركات، فيكون الحاصل أن حسناته تخفف من قدر استحقاق عذابه فيكون له دركة أخف من دركة، و لا منافاة بين قوله تعالى وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ [سورة النحل، الآية: ٨٥]، و بين تخفيف قدر استحقاق العذاب، لأنه حين الميزان و الموازنة و عند رؤية الخير و الشر لم يكن حينها قد حل بهم العذاب، فعندما يدخلوا النار للعذاب فلا يخفف عنهم، و حتى عند وقت رؤيتهم للعذاب يكون قد فرغوا من الموازنة التي فيها تخفيف قدر استحقاق العذاب، ففي هذا الوقت أيضا يتحقق فيهم قول الله أنه لا يخفف عنهم العذاب لأنه قد علم قدر عذاب كل منهم و دركته في النار.

---

[1] أخرجه البخاري ٣٨٨٥ - ٦٥٦٤ من حديث أبي سعيد الخدري ولفظه «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه أم دماغه».

[2] حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٥/ ٣٦٦).

و قال الشهاب أيضا:

(... وأمّا تفسيره بصدورهم من مواقفهم إلى الجنة، أو إلى النار فلا يناسب ما بعده،... والصدور الخروج للبعث،...)[1]

و هذا ما تقرر في تأويلنا بأنه يجب أن يكون جريان التعاقب الدلالي عقلي متفق مع النظم، فلا بد أن تكون المرحلة التي تسبق رؤية الخير و الشر كجزاء على الأعمال هي مرحلة البعث و ليس مرحلة ذهابهم أشتاتا إلى دار القرار أي الجنة و النار، لأن الجنة و النار كدار قرار لا تكون إلا بعد الحساب و الميزان و الموازنة و رؤية الخير و الشر من الأعمال.

و قال أيضا:

(قوله: (ولعل حسنة الكافر الخ) وقد ورد في الأحاديث ما يؤيده كما هو مشهور في حديث أبي طالب، وفي الانتصاف كون حسنات الكافر لا يثاب عليها، ولا ينعم بها صحيح وأما تخفيف العذاب بسببها فغير منكر وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن حاتماً يخفف الله عنه لكرمه لكنه قيل على المصنف رحمه الله تعالى أنه نسي ما قدّمه في تفسير قوله تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا [سورة الفرقان، الآية: ٢٣] وفي تفسير قوله: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ [سورة هود، الآية: ١٦] وهو المصرّح به في قوله: فلا يخفف عنهم/ العذاب وبه صرّح المصنف رحمه الله تعالى أيضاً لأن أعمال الكفرة محبطة قال في شرح المقاصد بالإجماع بخلاف أصحاب الكبائر إذا لم يتوبوا فإن الخلاف في إحباط عملهم بين أهل السنة، والمعتزلة معروف

[1] نفسه (٨/ ٣٨٨).

(قلت) يرد عليه أن الكفار مخاطبون بالتكاليف في المعاملات، والجنايات اتفاقا، واختلفوا في غيرها ولا شك أنه لا معنى للخطاب بها إلا عقاب تاركها وثواب فاعلها وأقله التخفيف فكيف يدعي الإجماع على الإحباط بالكلية، وهو مخالف لما صرّح به في سبب نزول هذه الآية والذي يلوح للخاطر بعد استكشاف سرائر الدفاتر أنّ الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه فليس عذاب أبي طالب كعذاب أبي جهل ولا عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهية ويعذب على المعاصي غير الكفر أيضاً وقد صرّح به الإمام في سورة الماعون مفصلاً،

وقوله: يضاعف له العذاب أي عذاب الكفر والمعصية لقوله: (زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) فما يقابل الكفر من العذاب لا يخفف لأنه لا يغفر أن يشرك به أي بكفره، وما في مقابلة غيره قد يخفف بالحسنات، ومعنى الإحباط المجمع عليه أنها لا تنجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم وهذا معنى كونه سراباً وهباء، وما في التبصرة وشرح المشارق وتفسير الثعلبي من أنّ أعمال الكفرة الحسنة التي لا يشترط فيها الإيمان كإنجاء الغريق، واطفاء الحريق واطعام أبناء السبيل يجزي عليها في الدنيا ولا تدخر لهم في الآخرة كالمؤمنين بالإجماع للتصريح به في الأحاديث

فإن عمل في كفره حسنات، ثم أسلم اختلف فيه هل يثاب عليها في الآخرة أم لا بناء على أنّ اشتراط الإيمان في الاعتداد بالأعمال، وعدم إحباطها هل هو بمعنى وجود الإيمان عند العمل أو وجوده، ولو بعد لقوله في الحديث: أسلمت على ما سلف لك من خير غير مسلم؛ ودعوى الإجماع فيه غير صحيحة لأن كون وقوع جزائهم في الدنيا دون الآخرة كالمؤمنين لأن ما في

الدنيا كمؤنة السيد لعبده المطيع له، وتعهده بلوازمه بخلاف عبده العاصي له فلا يلزمهم ذلك بمقتضى الفضل، والكرم مذهب لبعضهم

وذهب آخرون إلى الجزاء بالتخفيف وقال الكرماني: إنّ التخفيف واقع لكنه ليس بسبب عملهم بل لأمر آخر كشفاعة النبيّ ﷺ ورجائه وقال الزركشيّ من أنواع الشفاعة التخفيف عن أبي لهب لسروره بولادة النبيّ ﷺ وإعتاقه لثويبة جاريته حين بشرته بذلك فاحفظه فإنك لا تجده في غير هذا الكتاب، ولذا رخينا له عنان البيان وبه سقط ما أورد على المصنف رحمه الله تعالى من تناقض كلامه فتدبر.

قوله: (وقيل الآية الخ) لما كان الأوّل جواباً عما قيل: إنه كيف يرى كل أحد جزاء ذرات الأعمال خيرها وشرها، وأعمال الكفرة محبطة وسيئات المؤمنين منها ما يغفر، وهذا ينافي الكلية المذكورة، دفعه أوّلاً بأن الإحباط بالنسبة للثواب والنعيم لا بالنسبة للتخفيف فالمراد برؤية جزاء السيئة ظهور استحقاقه له، وإن لم يقع[1] وعلى هذا العموم غير مقصود لأن فيه قيدا مقدرا ترك لظهوره، والعلم به من آيات أخر فالتقدير مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ إن لم يغفر أو الموصول الأول عبارة عن السعداء والثاني للأشقياء، فلا ينافي ما ذكر أيضاً ومرضه لأنه

---

[1] انظر بيانه في حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ٢١٩٦، بترقيم الشاملة آليا) حيث قال الصاوي: (المعنى يرى كل من المؤمن والكافر حسناته وسيئاته مكتوبة في الصحف، ولا يلزم من رؤيتها جزاؤه عليها، لما ورد عن ابن عباس: ليس من مؤمن وكافر عمر خيراً كان أو شراً، إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته تحسراً ويعذب بسيئاته، وهذا يساعده النظم الكريم.). و قد يكون مقصوده أن الكافر لا يثاب عليها ثواب الحسنات و في هذا القدر لا منافاة مع موازنة حسناته بسيئاته.

خلاف الظاهر لا لما قيل من أنه لا يناسب مذهب أهل الحق لأنه لم يصرّح بأن الإحباط لأصحاب الكبائر حتى ينافي المذهب الحق لجواز إرادة الكفار بقرينة السياق فتأمل.

قوله: (لقوله أشتاتاً) الظاهر أنه تعليل لكون المراد بمن الأولى السعداء، وبالثانية الأشقياء فان الأشتات فسر بما محصله فريق في الجنة وفريق في السعير فالظاهر أن ترجع كل فرقة لطائفة ليطابق المفصل المجمل ولأن إعادة من تقتضي التغاير الحقيقي، وقيل: إنه تعليل لقوله: تفصيل قبل ولو أريد برؤية الأعمال إنها تجسم لترى ظلمانية ونورانية، أو ترى كتبها أو ترى نفسها لأنه يجوز رؤية كل شيء عرضاً وغيره فحين يراه حسنا أو مغفوراً يزداد سروره وحين يراه غير ذلك يزداد حزنه، وغمه وقد ورد في الحديث ما يؤيده فلا حاجة لما مر من الأجوبة ولا يخفى أنه خلاف الظاهر المتبادر من السياق.)[1]

و قد ذكر الشهاب الخفاجي ما قيل عن البيضاوي أنه نسي فجوَّز أن حسنات الكافر تخفف عنه العقاب و هو قد سبق و قال في تفسير سورتي الفرقان ٢٣ و هود ٦ ما حاصله أنهم لا يخفف عنهم العذاب و أن حسناتهم محبطة، و شرع في بيان ما يدفع به نسيان البيضاوي بتقديم ما بين يدي كلامه بأن هناك أحاديث صحيحة تؤيد التخفيف و ذكر قول صاحب الانتصاف بأن التخفيف غير منكر مع تسليمه بأن حسنات الكفار محبطة، فقال الشهاب الخفاجي ما مفاده أن الكفار مخاطبون ببعض التكاليف على ما اتفق عليه العلماء و لا معنى للتكليف إلا الإثابة عند الامتثال و العقاب عند العصيان، و من هنا رد دعوى الإجماع بحبط كل حسنات الكافر من هذه الجهة، ثم انتقل لتفاوت عذاب الكفار على كفرهم و على

---

[1] نفسه (٨/ ٣٨٨ – ٣٨٩). و روح المعاني لمحمود الألوسي (١٤/ ٢٢٦)، (٣٠/ ٢١٢)، (٣٠/ ٢١٣).

معاصيهم بما يقتضي بالحكمة و العدل الإلهي، و أن عذابهم على كفرهم قد يزيد و يتضاعف و لكن لا يخفف أبدا لأن الله لا يغفر أن يشرك به، أما ما دون الكفر قد يطوله التخفيف بالحسنات بمقتضى منطوق الآية من جواز المغفرة، و المغفرة بمقايضة الحسنات بالسيئات أدل على معنى المغفرة من التجاوز عنها بالتفضل لأنه في سياق الكافر، و إن غفر الله لهم فلا معقب لحكمه و نتأدب بأدب عيسى ﷺ بقوله لرب العالمين ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝﴾ [المائدة: ١١٨].

ثم ذكر الإجماع على معنى الإحباط أن حسناتهم لا تنجيهم من الخلود في العذاب و لا يتنعموا بها كغيرهم من المؤمنين و هذا هو معنى كون أعمالهم سرابا و هباء، ثم ذكر دعوى الإجماع الثانية بأن الكافر يجازى على حسناته في الدنيا و لا يدخر له في الآخرة أي حسنة، و قد رد هذا الإجماع أيضا كالأول، ثم ذكر قول بعض العلماء باشتراط الإيمان عند العمل أو قبله و استدلالهم بحديث أسلمت على ما سلف لك من خير و عقب بقوله أنه غير مُسَلَّم.

و في رد دعوى الإجماع و عدم التسليم به احتماليه أن يعود على اشتراط الإيمان مع العمل أو قبله كي لا يحبط و يعتد به في المجازاة، و على هذا فهو يرى اعتبار الأعمال الحسنة من الكافر بدون شرطية الإيمان مع التسليم بأنه مخلد في النار و أنه لن ينال تنعم بثواب الحسنات التي عملها، فينحصر الثواب أو الجزاء في التخفيف فقط و هذا ما انتصر له في بداية كلامه بتقرير بعض الأحاديث الصحيحة على التخفيف مع أنهم كانوا كفارا و ماتوا كفارا، و كذلك أثناء عرض ردوده على من نقل عنهم المخالفة و ادعاء النسيان على البيضاوي في شأن الحبط الكلي و التخفيف بالحسنات من العقاب المستحق عليهم.

و قد ختم الشهاب الخفاجي كلامه بقوله: (فاحفظه فإنك لا تجده في غير هذا الكتاب، ولذا رخينا له عنان البيان وبه سقط ما أورد على المصنف رحمه الله تعالى من تناقض كلامه فتدبر.)، و هذا ينبهك على عظم هذه المسألة و وعورتها و تشعب أوجه الخلاف فيها و أن الجمع بين الآراء ممكن بعد التحقيق و التحرير.

ثم انتقل لمعالجة التعارض المتبادر بين العموم الكلي الذي يقتضي رؤية كل نفس لكل ما عملته من خير وشر، و أن الكافر محبط كل حسناته و المؤمن قد يغفر له سيئاته بأسباب شرعية، فكيف يرى الكافر خير حسنته و حسناته كلها محبطة؟ و قد تخلص الخفاجي من هذا التعارض بأن المقصود من حبط حسنات الكافر هو حرمانه من الثواب و التنعم بها فقط أما التخفيف بها فهو غير ممتنع و **بهذا فإن موازنة سيئاته بحسناته هو من باب رؤية خير حسناته، و لا إشكال في رؤية شر سيئاته، ثم بين معنى رؤيته لجزاء سيئاته كلها ليتحقق وقوع العموم الكلي** بأنه يرى جزاء ما يستحقه على كل سيئة عملها و إن لم يقع هذا الجزاء لأنه سيذهب بعض سيئاته بحسناته بالموازنة و التحابط، و على الجهة الأخرى فإنه يرى جزاء كل حسنة عملها و إن لم يقع جزائها ثوابا و تنعما لأنها ستحبط كلها في الموازنة بإذهاب قدرها من السيئات، **وبهذا يتحقق العموم الكلي لرؤية الكافر جزاء كل حسنة عملها و كل سيئة عملها قبل التوقيع الفعلي لتقدير استحقاقه على كل منها، ففي هذا الجانب العملي يتحقق أيضا العموم الكلي لأنه سيرى خيرية عمله الحسن بأنه قد أزال عنه بقدره عملا سيئا كان سينال عليه عذابا و قد سقط عنه، و بالمقابل يرى شرية كل سيئة عملها بمنظورين: الأول أنها أذهبت عنه حسنة يرى ثوابها عند الغير، و الثاني يرى جزاء السيئة بما استحقته من عذاب لا يخفف عنه أبدا.**

و بهذا التأويل لا نحتاج لتقدير كما قال الخفاجي عند قوله: (وعلى هذا العموم غير مقصود لأن فيه قيدا مقدرا ترك لظهوره، والعلم به من آيات أخر فالتقدير مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ إن لم يغفر أو الموصول الأول عبارة عن السعداء والثاني للأشقياء) لأننا قد حققنا بيان العموم الكلي لكل من الكافر و المؤمن على حد سواء في رؤية كل منهم لكل مثقال ذرة من حسنة أو سيئة على مستويين الرؤية العلمية بما يستحقه كجزاء على كل مثقال ذرة من عمل سواء كان خيرا أو شرا قبل أن تقع الموازنة، ثم على المستوى الثاني و هو الموازنة و التحابط بين الحسنات و السيئات، فيخلص لكل من المؤمن و الكافر بعد الموازنة أن يكون للمؤمن حسنات فقط يستحق عليها تقدير جزاؤه ثوابا و تنعما في الجنة خالدا فيها، و للكافر سيئات فقط يستحق عليها جزاؤه عذابا في النار خالدا فيها، و لتحقيق العموم الكلي في هذا المستوى هو رؤية كل منهم الحسنة و هي تذهب السيئة فتهلك و هو رؤية شر ما عمله من سوء أن يهلك حسناته، و رؤية كل سيئة و هي تهلك بالحسنة فيرى خيرية الحسنة التي أزالت من عليه استحقاق عذاب على السيئة، و بهذا فيرى كل واحد منهم خير الحسنة فيما تذهبه من سيئات يستحق عليها العذاب و للمؤمن خاصة لكونها تبقى فيجازى عليها التنعم في الجنة خالدا فيها، و يرى كل منهم شر السيئة التي تُذهب الحسنة بلا منفعة من الحسنة و ما تستحقه من ثواب و تنعم، و للكافر خاصة لأنها ما يبقى له فيجازى عليها العذاب في النار خالدا فيها.

و عند وصوله لنكتة التعليل لـ (أشتاتا) جعل الظاهر أنها تعليل لكون المراد بـ (من) الأولى السعداء و الثانية الأشقياء مستقويا بأن إعادة من تقتضي التغاير الحقيقي، و هو كما سبق جعل هذا التقدير لا يخالف أو يمانع تخفيف العقاب على الكفار بحسناتهم، و بيانه أن الحاصل من

هذا اليوم أن يتمايز الناس الصادرون إلى فريقين، فريق في الجنة و فريق في السعير، و مؤدى هذا التفريق هو رؤية الخير و الشر كجزاء على الأعمال الخيرة و الشريرة، و هذا هو الحاصل بعد الحساب و الميزان و الموازنة لأنه لا يكون للكافر إلا سيئات يجازى عليها فهو من فريق الأشقياء، و المؤمن لا يكون له إلا حسنات يجازى عليها فيكون من فريق السعداء، أي أنه لا تناف بين تقرير حبط الحسنات للكافر و بين تخفيف العقاب عنه لأنها نتيجة مباشرة للموازنة، ثم يستتبعها الجزاء على حسنات المؤمن و سيئات الكافر.

- القونوي: (قوله: (إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العقاب) والصحيح عدم تخفيف العذاب وتخفيف عذاب أبي طالب من خصائص نبينا عليه السلام، ولذا قال: وإنما المتوقع ولم يجزم به؛ إذ النصوص الدالة على عدم التخفيف أكثر من الدالة على التخفيف مثل قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) وقد قال بعضهم بأن من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء أو المشروطة بعدم الإحباط فلا دلالة فيه على التخفيف فالصحيح عدم التخفيف.) [(١)]

و التخفيف مبني على رؤية شر سيئاته فلم يكن التخفيف عن مغفرة أو تكفير أو تجاوز كي نرده بظواهر و دلائل أخرى، بل كان بذهاب حسناته لسيئاته و هذا أثر حسناته و رؤية خيرها، فالبيضاوي كان أطوع لدلالة الظاهر من القونوي الذي قدر قيودا و شروطا لم تذكر

[(١)] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١١/ ٣٧٧). و انظر تفسير اطفيش - إباضي (٥/ ١٦٠، بترقيم الشاملة آليا).

في الآية ليخرجها عن ظاهرها لتتسق مع رؤيته و مفهومه لآيات أخرى يمكن التوفيق و الجمع بينهما بدون تكلف و تقدير مقدرات مفترضة على السياق، و التخفيف المنفي عنهم هو بعد الحساب و الميزان، أي أن التخفيف المنفي هو من باب التفضل و هذا محرم عليهم أما التخفيف المستحق بالحساب و الميزان فلا وجه لإنكاره بذريعة أنه تفضل عليهم بلا استحقاق مسبق لأن الوعد للمؤمنين فقط.

و يقول القونوي أيضا:

(والصدور الخروج للبعث،....

قوله: (متفرقين بحسب مراتبهم)... ولم يقيد التفرق بالقيد إشارة إلى التعميم.

قوله: (جزاء أعمالهم) قدر المضاف؛ إذ الأعمال لا ترى ولو ترى لا فائدة في رؤيتها وإنما المراد الجزاء خيرا أو شرا، والرؤية بصرية أو قلبية والأعمال شاملة للتروك.

قوله: (تفصيل ليروا...) أي الفاء في (فمن يعمل) تفصيلية لأن هذا تفصيل لرؤية جميع أعمالهم صغيرة أو كبيرة؛....

قوله: (ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب) ولعل الخ.... وهذا بناء على عموم من"" البر والفاجر/ ...، وإنما الاشتباه في رؤية جزاء حسناته وفي رؤية المجتنب عن الكبائر جزاء سيئته الصغيرة فحاول المصنف بيانه فقال ولعل الخ. بالترجي لأنه لا جزم في الأول لكن بعض الأخبار يدل على أن الكفار ينتفعون بحسناتهم بتخفيف العذاب؛ إذ لا سبيل بالمنفعة بالثواب كما هو مشهور في حديث أبي طالب وحاتم طي، لكن شراح الحديث كـ علي القاري صرحوا بأن هذا مختص بأبي طالب لإعانته عليه

السلام، وحاتم طي لكمال [جوده] وليس بعام بسائر الكفار لقوله تعالى: (لا يخفف عنهم العذاب) والنفي لعموم الأوقات والأشخاص لكنه خص بأبي طالب وحاتم طي والمخصص هو الخبر الشريف، والمراد بعدم التخفيف عدم تخفيف عذاب يستحق الكافر به فلا يقال عذاب أبي طالب ليس كعذاب أبي جهل ولا عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب مشيرا به إلى تخفيف العذاب لأنه ليس من باب التخفيف كيف لا وقد قال تعالى: (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) ولا ريب في تفاوت دركات السبعة فلا يقال إنه تخفيف، ولو سلم أنه تخفيف فليس هذا التخفيف المتنازع فيه.

وقيل إن الكفار مخاطبون بالتكاليف في المعاملات والجنايات اتفاقا، واختلفوا في غيرها فلا شك أنه لا معنى للخطاب بها إلا عقاب تاركها وثواب فاعلها وأقله التخفيف انتهى.

ولا نزاع في تعذيبهم بالمعاصي، وإنما النزاع في ثوابهم بالحسنات والحسنات يشترط في صحتها الإيمان فلا ثواب حتى يخفف بها العذاب المقابل للمعاصي سوى الكفر كما ادعى القائل المذكور، فما هو موافق لقوله تعالى: (فلا يخفف عنهم العذاب) عدم تخفيفه مطلقا سواء كان المقابل للكفر أو للمعصية، والمجوزون لهم منع عموم الأوقات كما منع عموم الأشخاص لكنه ضعيف؛ لأن مثل هذا الاحتمال لو صح بلا قرينة يرفع الأمان ويؤدي إلى تشويش البيان فالواجب بقاء قوله تعالى على ظاهره، والقول بأنه [فيما] يقابل الكفر من العذاب لا يخفف لأنه لا يغفر أن / يشرك به وما في مقابلة غيره قد يخفف بالحسنات، ومعنى الإحباط المجمع عليه أنه لا تنجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم، وهذا معنى كونه سرابا وهباء بعيد جدا؛ لأن قوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم) إلى قوله: [(لا يقدرون مما كسبوا على شيء)] نص

صريح في الإحباط بالكلية، واعتبار المعنى المذكور فيه خارج عن الإنصاف لأنه نص في السلب الكلي.

قال المصنف لحبوطه فلا يرون ثوابها وهذا يقطع التأويل بالمرة فضلا عن التأويل المذكور، وما نقل عن شرح المقاصد من أنه ثابت بالإجماع كلام حق لا يحسن المناقشة فيه، وما نقل [عن] التبصرة وشرح المشارق وتفسير الثعلبي من أن أعمال الكفرة التي لا يشترط فيها الإيمان كإنجاء الغريق وإطفاء الحريق وإطعام أبناء السبيل يجزى عليها في الدنيا ولا يدخر لهم في الآخرة كالمؤمنين بالإجماع للتصريح به في الأحاديث انتهى. صريح فيما ذكرناه لكن قولهم لا يشترط فيها [الإيمان] الخ. مخالف لما صرح به عامة العلماء من أرباب الأصول وغيرهم من أن الإيمان شرط في صحة الأعمال الحسنة ولم يستثنوا شيئا منها من تلك القاعدة فهي مطلوبة البيان،

وإن عمل في كفره حسنات ثم أسلم اختلف فيه هل يثاب عليها في الآخرة أم لا؟ بناء على أن اشتراط الإيمان في الاعتداد بالأعمال وعدم إحباطها هل هو بمعنى وجود الإيمان عند العمل أو وجوده ولو بعده؟ لقوله عليه السلام في الحديث أسلمت على ما سلف لك من خير كذا قيل. وشراح الحديث كزين العرب وعلي القاري صرحوا في قوله عليه السلام ثلاثة لهم أجران. رجل من أهل الكتاب آمن [بنبيه] وآمن بمحمد عليه السلام الحديث بأنه جعل الإيمان به عليه السلام سببا لقبول أعمال أهل الكتاب نصرانيا كان أو يهوديا. وقيل النصراني فقط وإن كان منسوخا كما ورد في الخبر إن مبرات الكفار وحسناتهم مقبولة بعد [إسلامهم] انتهى.

والكفار في قوله إن مبرات الكفار عام لأهل الكتاب والمشركين، وهذا لطف من الله تعالى وإلا فالشرط لا بد وأن يوجد عند وجود المشروط ووجوده بعد وجود المشروط غير مفيد وكونه مفيدا في غير هذا المحل غير مسموع أصلا فالشارع جعل المبرات موقوفة عند وجودها فإذا وجد الشرط بعد وجودها اعتبر وجوده مقدما على وجودها كما هو شأن الشرط، وله نظائر في الشرع، ونقل عن الكرماني أنه قال: إن التخفيف واقع لكنه ليس بعملهم بل لأمر آخر كشفاعة النبي عليه السلام. وهذا عجب منه لأن قوله تعالى: (ولا يقبل منها شفاعة) وقوله: (ولا شفيع يطاع) نص في عدم قبول الشفاعة لهم، إلا أن يقال أنه خاص لأبي لهب كما نقل عن الزركشي أنه قال من أنواع الشفاعة التخفيف عن أبي لهب لسروره بولادة النبي عليه السلام وإعتاقه لثويبة جاريته حين بشرته بذلك، وليكن هذا مني رسالة للعاشقين.

/ قوله: (وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط) وحسنات الكفار محبطة فلا يعم الكلام لها وهذا مناف للجواب الأول؛ لأنه يشعر بعدم الإحباط بالنسبة إلى نقص العقاب لكن القائل هذا القول غير ذلك القائل فلا تناقض.

قوله: (والمغفرة) أي مشروطة بعدم المغفرة فإن صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر مغفورة بالنص فلا [تتناول] الآية جميع سيئاته. وحاصله أن المحبط عمله وهو الكافر والمغفور له مخصوصان من عموم الآيتين لدلالة النصوص على الإحباط والمغفرة.

قال المحشي: مرضه لأنه لا يناسب مذهب الحق، ولعل مراده أن النص وإن دل بحسب الظاهر على أن صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر مغفورة لكن علماء علم الكلام صرحوا بأنه يجوز

العقاب على الصغيرة ولو مع اجتناب الكبائر ردا للمعتزلة فالنص الكريم مقيد بقيد (لمن يشاء).

قوله: (أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء) فالعموم في بابه فلا إشكال لأن السعيد يرى جزاء كل عمل خير والشقي يرى جزاء عمل شر كله، ولا محذور فيه سوى أنه لا يفهم رؤية السعيد جزاء سيئة صغيرة كانت أو كبيرة لوجود لفظ الخير وما ذكر مفهوم من موضع آخر فليس هذا بمحذور، والجواب الثاني والثالث متحدان في المآل فلا تغفل. هذا إما من مقول الأول أو ابتداء كلام من المص وهو الظاهر الموافق لما ذكره في تفسير قوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقوله الأول ليس بمرضي عنده، ولهذا قال ولعل إشارة إلى ضعفه، فلا وجه لما قيل إنه نسي ما قدمه في تفسير قوله تعالى، (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) الآية.) [1]

قد استشكل القونوي بقوله: (إنما الاشتباه في رؤية جزاء حسناته) أن يكون للكافر جزاء على حسناته و أكده مرة أخرى بقوله: (إذ لا سبيل بالمنفعة بالثواب) كما في حديث أبي طالب و حاتم طي، ثم ذكر عن بعض الشراح لهذه الأحاديث قولهم: (وليس بعام بسائر الكفار لقوله تعالى: (لا يخفف عنهم العذاب) والنفي لعموم الأوقات والأشخاص لكنه خص بأبي طالب وحاتم طي والمخصص هو الخبر الشريف) و قد دفع القونوي هذا الاشتباه بقوله: (المراد بعدم التخفيف عدم تخفيف عذاب يستحق الكافر به... وقد قال تعالى: (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) ولا ريب في تفاوت دركات السبعة فلا يقال إنه تخفيف، ولو

---

[1] نفسه (٢٠/ ٣٩٥ – ٣٩٦ – ٣٩٧ – ٣٩٨).

سلم أنه تخفيف فليس هذا التخفيف المتنازع فيه).
و هو كما ترى يُفصِّل العموم المتبادر من قوله تعالى: (لا يخفف عنهم العذاب) بأنه ليس هو المعني بالتخفيف المتنازع فيه بل هو أن كل كافر له عذاب مستحق على قدر سيئاته و هم متفاوتون في هذا بمقتضى تنوع الدركات في النار، و أن هذا لا دلالة فيه على أنهم ينتفعون بثواب حسناتهم بل تقليل قدر العذاب لبعضهم عن بعض على قدر سيئاتهم، و تقرير كلامه هذا لا يمنع أيضا جواز أن يكون هذا التفاوت في قدر استحقاق العذاب كان بعد حساب حسناتهم مع سيئاتهم، الذي أدى بدوره لتفاوت قدر استحقاق كل واحد من الكفار على ما نتج من الموازنة بين حسناتهم و سيئاتهم، أي أن تقريره هذا لا يعتبر ردا لمسألة انتفاعهم بحسناتهم، بل كل ما فيه هو بيان معنى العموم في نفي تخفيف العذاب عنهم بعد استحقاقه.
أما الاتفاق على عدم انتفاعهم بثواب حسناتهم فلأنهم مُحَرمون على الجنة، و الجنة هي محل رؤية ثواب الحسنات كما وضعها الله لذلك، و أيضا لأن الكافر بعد الحساب و الميزان لن يبقى له حسنة كي يتسنى لنا دفع انتفاعه بها فكل حسناته تذهب سدى و هباء لأنها تضل بسيئاته و تبطل منفعتها الموضوعة لها، فلا استشكال بتقرير منفعتهم بالحسنات في الميزان و الحساب، و إن قلنا منفعتهم و ثوابهم فمن باب التجوز لأنها تقلل عنهم قدر استحقاق عذابهم على مجمل سيئاتهم و هذا من باب العدل و الخير؛ و ليس من باب العفو أو المغفرة كي ندفعه عنهم.
و بهذا يتبين أن قوله: (إنما الاشتباه في رؤية جزاء حسناته) ينحصر الاشتباه في كيفية و نوعية رؤية الكافر جزاء حسناته في ضوء الجزاء الموضوع من الله على الحسنات في الجنة و نعيمها، إما أن يقال أنه لن يبقى له حسنه تستوجب رؤية جزاء ثوابها بعد الموازنة، و إما أن يقال أن رؤية

الخيرية في الآية تغاير رؤية جزاء الثواب، فالخيرية أعم و المقصود بها تقليل قدر استحقاق العذاب على قدر ما لهم من حسنات تذهب بها، و على الوجهين ينجلي الاشتباه و يندفع موضع الاستشكال و نلتقي معه فيما قرره أن عدم التخفيف هو لما يستحقوه من عذاب و هذا يكون بعد الحساب و الميزان و الموازنة، و بمعنى آخر عدم التخفيف يتعلق بأمرين: الأول كما سبق و هو نفي تخفيف قدر ما استحقوه على قدر سيئاتهم، و الثاني نفي التخفيف بعد دخولهم النار.

- ثم ذكر القونوي قولا لبعض العلماء سيشرع في نقده و مفاده أن الكفار مخاطبون بالتكاليف بين ما هو متفق عليه كالمعاملات و الجنايات و ما هو مختلف فيه كالعبادات، و (أنه لا معنى للخطاب بها إلا عقاب تاركها وثواب فاعلها وأقله التخفيف)، فاعتمد على رد هذا القول؛ بعموم نفي التخفيف بقوله تعالى (فلا يخفف عنهم العذاب) أي أن عموم النفي يعم الشرك و ما هو دون الشرك فلا مجال للتخفيف مطلقا، و اعتمد أيضا على أن (الحسنات يشترط في صحتها الإيمان فلا ثواب حتى يخفف بها العذاب المقابل للمعاصي سوى الكفر كما ادعى القائل المذكور)

أما مسألة نفي التخفيف فقد سبق بيانها و أن معنى العموم متفق عليه و لا خلاف فيه بمعنى نفي التخفيف بعد الدخول للنار أو بما استحقوه بعد الموازنة، أما مسألة شرط الصحة فيبين بمناقشة معرفة الصحة لأنه لو ورد هنا بتضمين لزومه الثواب المستحق على الحسنات فهو كلام لا خلاف فيه، لأن الكافر لا يدخل الجنة التي هي محل الجزاء على الثواب، و أيضا لأن الكافر لن يبقى له حسنة واحدة بعد الموازنة يستحق عليها ثوابا، و بهذا يستبين وجه صحة نفي إثابتهم على حسناتهم لأنه ممثل لحقيقة الواقع في الآخرة لا أن الله يمنعهم الإثابة على

حسناتهم.

و ذكرهم الإيمان كشرط لصحة الإثابة على الحسنات ظاهر جدا في تخصيصه بالمؤمنين لأن من حقق الإيمان فهو مؤمن، و المؤمن يدخل الجنة، و الجنة محل الجزاء على الثواب المستحق على الحسنات، و بهذا اللزوم و الاقتضاء يصح نفي الثواب عن الكافر، أولا لأنه ليس مؤمن و ثانيا لأنه لن يدخل الجنة، وثالثا لأنه لن يبقى له حسنة، و كذلك يمكن الجمع بين الأقوال باستحضار هذه المقيدات خاصة الواقعية منها (لن يبقى له حسنة)، و بهذا يتضح مدى وهن الاشتغال بمثل هذه المعارضات على شيء لن يحدث و مقطوع به يقينا، فما الفائدة من قول أن الكافر لا ثواب له على حسناته و من المعلوم قطعا أنه في النار و لن يدخل الجنة، لأن القائل يشترط الإيمان في صحة الإثابة على الحسنات، و هذه الإثابة المشروطة بالإيمان لن تكون إلا للمؤمنين الداخلين الجنة المتنعمين بنعيمها.

فالحق أن لا ندخل مثل هذه الاستدلالات على مواضع لا تليق بها لاستحالة تحقق موضوعها على محل المسألة المتباحث فيها، فأصل المسألة هو كيفية رؤية الخيرية على الحسنات بالنسبة للكافر، فلا ندخل تصورات مقطوعة على المؤمن يقينا و هو المناقض تماما للكافر يقينا، فهذا محله الجنة و هذا محله النار، و هذا يتنعم في الجنة و هذا يتعذب في النار، لأنه من المحتم أن لا يكون للكافر على حسناته ثوابا بهذه الصورة الخاصة بالمؤمن، و في نفس الوقت قد ثبت له بالعموم أنه سيرى خيرية أعماله الحسنة فلن تكون هذه الخيرية هي الثواب المشترط له الصحة بالإيمان فلا بد من تغايرهما مع ثبوت كل منهما، لا أن نعارض بينهما فنثبت التي للمؤمن و ننفي ما للكافر فنؤولها و نتكلف لها المخارج و هما ثابتان بنص القرآن و على قدر واحد من

الحجاجية و اللزوم و الطاعة.

و بالنظر لعموم ما يكتب من أعمال صغير و كبير للكافر و المؤمن، و بوضع الوزن الحق في الميزان بتقدير الموازين لكل من المؤمن و الكافر، يتضح بلا مجال للشك أن اعتبار الأعمال كلها واحد بالنسبة للكافر و المؤمن، و أن معنى الصحة و التقبل يتضمن الاعتبار؛ و ما بعد الاعتبار من ثواب في الجنة، فإذا كان مثبوتا للمؤمن فيكون له كل دلالته، و إن كان منسوبا للكافر فله دلالة الاعتبار و القبول بمعنى كتابته في صحفه و كتابه، و وضعه في الميزان و وزنه بوزن الحق و القسط، و لأجل كفره فلن يقوى كم و نوع حسناته أن يداني حسنة الإيمان من جهة، و من جهة أخرى لن يوازن به كفره فلا بد له من خفة موازينه و بطلان حسناته كلها، فلا معنى إذن من قولنا بنفي إثابته على حسناته لأنه لا يوجد له حسنات كي يثاب عليها كإثابة المؤمن.

- و قول القونوي ردا على القائل بمثل قول الباحث: (والمجوزون لهم منع عموم الأوقات كما منع عموم الأشخاص لكنه ضعيف) يقصد أن الآية (فلا يخفف عنهم العذاب) عاما في جميع الأوقات و الأشخاص، و المعترض يخصصها بأوقات معينة قياسا على تخصيصها بأشخاص معينة (كأبو طالب و عدي و أبو لهب)، و الأمر ليس كذلك فهو يفند رؤية ليست مطروحة بهذا الاعتبار المأخوذ عليها، فحقيقة الأمر أن الآية باقية على عمومها، و لكن عمومها يبدأ مذ وقوع مقتضى العموم أي بمعلومية قدر العذاب الذي يكون بعد المحاسبة و الميزان، و يكون أيضا كما هو ظاهر القرآن بعد دخول الكفار للنار و طلبهم التخفيف أو بعض أرزاق المؤمنين، و بهذا فلا منافاة و لا تعارض لاختلاف متعلق التعميم في الآية عن موضوع الموازنة بالحساب و الميزان، و أيضا الباحث لم يقيس و لم يعتمد في تأصيله الأخبار الواردة في شأن أبي طالب و

عدي و أبو لهب.

ثم انتقل لرد دعوى أخرى نصها كالآتي على لسان المعترض عليه: (معنى الإحباط المجمع عليه أنه لا تنجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم) فرد هذا بقوله: (وهذا معنى كونه سرابا وهباء بعيد جدا؛ لأن قوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم) إلى قوله: [(لا يقدرون مما كسبوا على شيء)] نص صريح في الإحباط بالكلية، واعتبار المعنى المذكور فيه خارج عن الإنصاف لأنه نص في السلب الكلي).

فهو يستشكل كون أعمالهم سرابا و هباء أي محبطة كلية و بين أن لها تأثيرا في تخفيف العذاب، و يمكن تفنيد هذا الاستشكال بقولنا أن الهباء و السراب هو صفة لأعمالهم السيئة المظنون بها المنفعة الدنيوية بكيدهم للإسلام و محاربته و الصد عن سبيل الله كما هو واضح في بعض المواضع، أو يحتمل أن أعمالهم و أموالهم و أولادهم المعمول لها أعمالا لاستكثارها و المظنون فيها المنفعة ستكون لها منفعة في الآخرة على فرض وجودها لأنهم كانوا على شك منها أو كفرا بها، و يحتمل أن تكون أعمالهم الحسنة أيضا المظنون بها منفعتها لو كان هناك آخرة يحاسبون فيها على أعمالهم، و قد يحتمل أعمالهم التي صورتها حسنة كالتي يراءون فيها الناس فإنها محبطة كذلك.

فإذا سلمنا أن المقصود بهذه المواضع القرآنية القاضية على حبوط أعمالهم بالكلية (السلب الكلي) أنها في أعمالهم الحسنة الموافقة للشرع فيكون ظهور معنى الحبط فيها واضح جدا لأنها ستبطل و تضل و تهلك لعدم إبقاء أي حسنة لهم بعد الحساب و الميزان و الموازنة، و لن يبقى لهم إلا العذاب و الخلود في النار و عدم تخفيف العذاب فيها، هذا هو معنى الحبط، لأنه يتضمن

وجود أصل العمل المستلزم لثوابه و منفعته و لكن يمنعه مانع من هذه المنفعة، فالمنفي هو المنفعة المرصودة للأعمال و هي الجنة و نعيمها أو دفع العذاب بها و هذا موضع اتفاق لا موضع اختلاف و لا محل انكار أو حتى تأويل، و ثبوته لا ينفي موازنة حسناتهم بسيئاتهم فيقل قدر استحقاق العذاب على مجمل السيئات الباقية للجزاء عليها.

و قول البيضاوي الذي نقله للاستشهاد به: (قال المصنف لحبوطه فلا يرون ثوابها وهذا يقطع التأويل بالمرة فضلا عن التأويل المذكور) فهو لم يضعه موضعه لأن البيضاوي هو القائل أيضا: (ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب) فلا بد أن يكون مقصود البيضاوي من نفي رؤية الثواب معنى مغاير لتأثير حسنة الكافر في نقصان العقاب، و هذا هو المطلوب أن إطلاق نفي الثواب يراد به ثواب الحسنات كإثابة المؤمنين و لأن الكافر لا يبقى له حسنة يثاب عليها فصح إطلاق نفي رؤيته لثواب حسناته مع إثبات تأثيرها في الموازنة بتنقيص قدر العذاب.

ثم انتقل للرد على عدم اشتراط الإيمان لكي يصح العمل أو يثاب عليه كما حكاه عن بعض العلماء بدعوى أنه مخالف لعامة العلماء الذين يشترطون الإيمان في صحة الأعمال، و قد سبق مناقشة مثل هذه المسألة أنهم يدخلون في تصويرها تمام جريان ما يترتب على العمل من ثواب على الصورة الموضوعة من الله بأن الجزاء على الثواب هو في الجنة و درء العذاب، **و هذا المعنى منتفي عن الكافر فلأجل هذا يشترطون لصحة الأعمال بملحوظية ترتب الثواب عليها، و كما سبق فإن الكافر لن يبقى له حسنة يثاب عليها حتى نختلف معهم في اتفاقهم، فقولهم صحيح باعتبار مجموع الدلالات اللازمة من صحة العمل و ما يترتب عليه من ثواب بشرط الإيمان**

المقرون معه أو السابق عليه، و من جهة أخرى يمكن تفكيك هذا الاستشكال القائم بين حسنات الكافر و المنفعة من الحسنات الموضوعة لها بشرطية الإيمان أن يقال: شرطية الإيمان المقصود بها ما يقارن العمل أثناء وقوعه أو ما يكون باعثا على وقوعه، و هذا الإيمان هو إيمان خاص بماهية العمل و صورته المشروطة في الوجود لكي يستحق عليه الإثابة، و هو أحد شرطي العمل الصالح فقد يعبر عنه تارة بالإخلاص أو النية و القصد مع الشرط الآخر و هو موافقة صورة العمل مع الشرع، فنحن نتحدث هنا على إيمان عملي بمعنى ترجمة الإيمان النظري لعملي، أي توقيع صورة العمل الإيماني القلبي في الوجود لتصديقه فيكون العمل واقع كالماصدق في الوجود، و لكنه محدود بحدود الإيمان به، أما الإيمان العام فهو تجريد الإيمان العملي عن صور الأعمال فيقر تصديقه و الخضوع له طواعية في القلب كامتثال جاهز و قار في القلب لأن يترجم في الواقع بقصد تمثيله في الوجود على العموم و الإطلاق لكل الأعمال الشرعية في الآن و بعد الآن أي استقبالا حتى الممات على ذلك، و يكون نطقه للشهادتين أو دخوله في جملة أعمال المسلمين بمثابة إعلانه و إعلامه للغير بأنه قد آمن و أسلم فيلتزم ما في الشريعة من أوامر و نواهي ظاهرا و باطنا.

و بمنظور أخر لو ألتزم بكل دلالة لفظ كما جاء في موضعه بلا استصحاب أو تضمين دلالة أخرى للفظ أخر لما احتيج لرد أو مناقشة فضلا عن أن يكون هناك معارضة أو مخالفة أو مناقضة، فيمكن توضيح معنى ما سبق بقولنا: ليس كل عمل حسن كتب لعامله يرى ثوابه المرصود له وضعا، لأن الحساب و الميزان يقتضيان الموازنة و لأن الحسنة تتضاعف و يذهب قدر منها لإذهاب السيئات، فما بقي من حسنات قد يكون هو من القدر المتضاعف بكرم الله

و رحمته، و هذا مصداق تأويله في حديث لن يدخل الجنة أحد بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته، أي أن الحسنات التي يرى المؤمن ثوابها كجزاء في الجنة هي محض تفضل و رحمة من الله، فالأولى بهذا المعنى هو حال حسنات الكافر التي لن تقدر على إذهاب سيئاته أبدا لعظم قدر و كم سيئاته.

و وجه الربط بين ما قلناه سابقا و بين مسألتنا يمكن أن يختزل بقولنا أن الثواب على حسنات الكافر لن يكون الجنة أو درء العذاب عنه لانعدام بقاء وجودها وقت استحقاق الجزاء و ليس لعدم صلاحيتها لأن يتعلق بها ثواب أو جزاء، و هذا القانون يجري على المؤمن و الكافر على حد سواء، لأن معنى ثقل موازين المؤمن أن له حسنات يجازى عليها في الجنة، فاستحقاق دخول الجنة بالإيمان العام، و استحقاق التنعم فيها على وفق درجتها يكون على قدر حسناته، أما الكافر فلإنه كافر فقد حُرم على الجنة و يدخل النار خالدا فيها، و بسيئاته المجازى عليها يكون دركته في النار، فالكافر يجازى بسيئاته و المؤمن بحسناته، فهذا المعنى سواء أطلقنا عليه: مجازاة أو إثابة أو أجرا أو غير ذلك فهو محل اتفاق.

و الاشكال يأتي من أن العلماء عندما يطلقون عدم إثابة أو منفعة الكافر على حسناته يأخذون هذا المعنى نصب أعينهم فهو المحرك و القاضي بتقرير إطلاقهم فكأنهم ينظرون بأنه في النار خالدا فيها و لا يخفف عنه العذاب فلا جدوى أن نثبت تأثيرا لحسناته مع أن إثبات تأثير حسناته في ظل هذا الاتفاق لا يؤدي لتعارض أو تناقض بل يحقق جميع الأطراف الدلالية و يدفع عنها شبهة الاستشكال بالمخالفة و المعارضة.

- القدر المقطوع به في اعتبار العمل و ترتب الثواب عليه هو مقارنة الإيمان العمل في الوقوع

أو أن يكون الإيمان هو الباعث على توقيع العمل، ثم لو أضيف لهذا الإيمان المقيد بالعمل الإيمان العام فقد ترتب عليه الثواب بصورته الموضوعة له من الله أي كتنعم في الجنة، أما بدون الإيمان العام فيكون ثوابه بهذه الصورة الموضوعة منتفي تماما، و يصير الثواب و الجزاء بعد عدمه في حقه هو رؤية خيرية حسناته في إذهاب قدر من سيئاته فيقل عنه العذاب المستحق على مجموع سيئاته قبل الموازنة، و عليه يكون قول القونوي: (فالشرط لا بد وأن يوجد عند وجود المشروط ووجوده بعد وجود المشروط غير مفيد) صحيحا لأن مقرونية الإيمان مع العمل لا بد منها لكي يصح اعتباره و ترتب الثواب عليه، و للتنبيه فهو لم يقل قوله هذا بهذه الرؤية بل هو يقصد بالإيمان المشروط الإيمان العام، و لكن نحن نسوق كلامه و نصححه على اعتبار أن يكون مقصوده ما أظهرناه من الإيمان المقيد فنزيل قدر الاشتباه المختبئ وراء إطلاق الاسم أعني الإيمان العام، و هذا ما استشعرناه من تقريره الآتي: (فالشارع جعل المبرات موقوفة عند وجودها فإذا وجد الشرط بعد وجودها اعتبر وجوده مقدما على وجودها كما هو شأن الشرط، وله نظائر في الشرع) فهو قد جعل الأعمال الحسنة للكافر إثناء كفره لها اعتبار بإيمانه لاحقا و كأنه آمن قبلها أو معها، و حقيقة هذا القول هو عين ما قلناه، أن العمل الحسن المقرون بإيمانه هو عمل صحيح يقتضي ثوابا و لكن لن يتم نيل هذا الثواب إلا بالإيمان العام لكي يترجم لنعيم في الجنة، أما إذا بقي كافرا فلن يثاب بحسناته بالجزاء الموضوع لها لأن مصيره النار حتما فلن يبقى له حسنة يثاب عليها.

و قد ذكر قول البيضاوي: (وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط) فاعتبره مناقضا لاختيار البيضاوي الأول الذي فيه نقصان العقاب بالحسنات لأنه فيه منافاة للإحباط المذكور هنا، و

لكن يمكن رد هذه المنافاة بأن الإحباط المعني به يكون بعدم إثابة الكفار على حسناتهم يكون بالأمر الواقع و لا بد من تحقيقه فلن يكون لهم حسنة كي يجازوا عليها فيكون حبط حسناتهم هو تحابطها بالموازنة، هذا على تأويلهم بأن رؤية الخير هو عين الجزاء و الثواب الموضوع للحسنات في الجنة.

و على تأويلهم بما يقصدونه من الإحباط يلزمهم تخصيص عموم الآية كما صرح به و قال: (وحاصله أن المحبط عمله وهو الكافر والمغفور له مخصوصان من عموم الآيتين لدلالة النصوص على الإحباط والمغفرة) فهم ردوا عموم الآية بمواضع لا تجتمع على نفس الدلالة لكي يتسنى لنا القول بالتخصيص لأجل وجود تعارض بين دلالة الخاص و دلالة العام، لأنه و كما سبق فإن حبط الأعمال يراد به أعمال السوء خاصة بدلالة السياق، و لو سلمنا بأن الأعمال هي أعمالهم الحسنة فلأنها معمولة لأجل الدنيا فقط و حبط هذه الأعمال واحد في حق المؤمن كالكافر سواء، ثم نتدرج في التسليم نزولا على كلامهم فلو كانت الأعمال هي الحسنة السالمة من الموانع الشرعية فحبطها هو عدم استحقاقهم بها ثوابا في الجنة أو بدرء العذاب عنهم، لأن نفس هذه الأعمال من المؤمن هي التي يترتب عليها التنعم في الجنة و هذا هو تفسير حبطها، و بهذا التأويل لا نضطر لدعوى التخصيص.

و قول القونوي لتقرير العموم في الآيتين: (فالعموم في بابه فلا إشكال لأن السعيد يرى جزاء كل عمل خير والشقي يرى جزاء عمل شر كله) فهو كلام محرر مقرر و نوافقه عليه تماما و لكن بحيثية مرحلية معينة، أي هذا يكون بعد الموازنة لأنه في هذه الحال يكون الكافر لا حسنة له و لا يكون له إلا السيئات التي يرى شرها، و المؤمن لا سيئة له فلا يرى جزاء إلا جزاء

الحسنات، و على هذا فالعموم على بابه بلا إشكال، و هذا العموم مغاير للعموم الذي رده سابقا، لأن تعميم الآيتين يقتضي أن يرى الكافر خير حسنته و هذا عين ما رده فجوز التخصيص بدعوى إحباط كل حسناته فلا يكون له حسنة حتى يدخل في عموم رؤية الخير على عمل الحسنات.

نأتي على أخر ما ذكره تبريرا لما قرره البيضاوي من تأويل في الموضعين القرآنين و ما يبدوا منهما من تعارض ظاهري، فآية (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) التي أفادت حبوط أعمالهم بالكلية فلا يتعلق بها أي منفعة كانت من أي وجه، ثم هنا قرر جوازا أن حسناتهم قد تنقص من عقابهم، فذكر أن بعض الشراح و المستدركين على البيضاوي قالوا بأنه نسى ما قاله من قبل، و تحقيق المسألة في عدم إصابة القونوي و لا من قالوا بنسيانه، **لأن البيضاوي مفاد كلامه على التحقيق بدون التحجر على الألفاظ المستعملة في التأويل يتمثل في أن الحبط أو الإهلاك أو السراب أو غير ذلك المعني به عدم منفعة أعمالهم (على التسليم بأنها الصالحة فقط) كما وضعها الله و ألزم بها عباده، فقد أمرهم بالإيمان و العمل الصالح كي يدخلوا الجنة و يدرؤوا عن أنفسهم العذاب، فلما أخل الكافر بشرط الإيمان و أغلبية الأعمال الصالحة فلم يبقى له إلا بعض الأعمال الحسنة التي لا تستوجب ثوابا على ما قدره الله لها، لأنها ستهلك و تبطل و تحبط و تضل في خضم السيئات، و هذا التحابط هو الموازنة التي يقصدها البيضاوي من نقصان عقابهم بحسناتهم، فلا هو نسي و لا قوله يتعارض بعضه ببعض، فكل ما في الأمر أن منفعتهم بحسناتهم مقصورة فقط على التخفيف و لا تتجاوزه لغيره لأنها ستهلك كلها.**

- الألوسي:

(وقوله تعالى: وهو مؤمن في موضع الحال من فاعل عمل وقيد به إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة الصالحة في استحقاق الثواب إجماعا واختلف في ترتب تخفيف العقاب عليها فقال بعضهم: لا يترتب أيضا لقوله تعالى: وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم وقوله تعالى: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا

وقال الإمام: إن إفادة العمل الصالح لتخفيف العقاب غير مشروطة بالإيمان لقوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وحديث أبي طالب... وقال بعضهم: الإيمان شرط لترتب التخفيف على الأعمال الصالحة إذا كانت مما يتوقف صحتها على النية التي لا تصح من كافر وليس شرطا للترتيب عليها إذا لم تكن كذلك)[1]

و قال أيضا:

(والظاهر أن ("مَن)" في الموضعين عامة للمؤمن والكافر وأن المراد من رؤية ما يعادل مثقال ذرة من خير أو شر مشاهدة جزائه بأن يحصل له ذلك واستشكل بأن ذلك يقتضي إثابة الكافر بحسناته وما يفعله من الخير مع أنهم قالوا أعمال الكفرة محبطة وادعى في شرح المقاصد الإجماع على ذلك... وكون خيرهم الذي يرونه تخفيف العذاب يدفعه قوله تعالى: فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب [البقرة: ٨٦] وقوله سبحانه: زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ [النحل: ٨٨]

---

[1] روح المعاني لمحمود الألوسي (١٤/ ٢٢٦).

... فالتزم بعضهم كون المراد بـمن الأولى السعداء و بـمن الثانية الأشقاء بناءً على أن فمن يعمل الخ تفصيل ليصدر الناس أشتاتاً وكان مفسراً بما حاصله فريق في الجنة وفريق في السعير...

وقال آخرون بالعموم إلا أن منهم من قال في الكلام قيد مقدر ترك لظهوره والعلم به من آيات أخر فالتقدير فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره إن لم يحبط ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره إن لم يكفر، ومنهم من جعل الرؤية أعم مما تكون في الدنيا وما تكون في الآخرة فالكافر يرى جزاء خيره في الدنيا وجزاء شره في الآخرة والمؤمن يرى جزاء شره في الدنيا وجزاء خيره في الآخرة...

ومنهم من قال المراد من رؤية ما يعادل ذلك من الخير والشر مشاهدة نفسه عن غير أن يعتبر معه الجزاء ولا عدمه بل يفوض كل منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر وإثابته بجميع حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه وبه يشعر ما... عن ابن عباس من قوله في الآية ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً وشراً في/ الدنيا إلا أراه الله تعالى إياه فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر له من سيئاته ويثبته بحسناته وأما الكافر فيريه حسناته وسيئاته فيرد حسناته ويعذبه بسيئاته واختار هذا الطيبي فقال إنه يساعده النظم والمعنى والأسلوب أما النظم...، وأما...، وأما الأسلوب... انتهى

وأقول الظاهر عموم "(مَن)" وكون المراد رؤية الجزاء كما تقدم وكذا الظاهر كون ذلك في الآخرة ولا إشكال وذلك لأن الفقرة الأولى وعد و الثانية وعيد ومذهبنا أن الوعد لازم الوقوع تفضلا وكرما والوعيد ليس كذلك فيفوض أمر الشر في الثانية على الدلائل وهي ناطقة بأنه إن كان كفرا لا يغفر... ولا يبعد فيما أرى أن يكون ما عدا الكفر من الكافر كذلك وأما أمر

الخير فباق على ما يقتضيه الظاهر وهو بالنسبة إلى المؤمن ظاهر وأما بالنسبة إلى الكافر فتخفيف العذاب...، وما يدل على عدم تخفيف العذاب فالعذاب فيه محمول على عذاب الكفر بحسب مراتبه فهو الذي لا يخفف والعذاب الذي دلت الأخبار على تخفيفه غير ذلك، ومعنى إحباط أعمال الكفار أنها لا تنجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم وهو معنى كونها سرابا وهباء، ودعوى الإجماع على إحباطها بالكلية غير تامة كيف وهم مخاطبون بالتكاليف في المعاملات والجنايات اتفاقا والخلاف إنما في خطابهم في غيرها من الفروع ولا شك أنه لا معنى للخطاب بها الا عقاب تاركها وثواب فاعلها وأقله التخفيف وإلى هذا ذهب العلامة شهاب الدين الخفاجي عليه الرحمة، ثم قال وما في التبصرة وشرح المشارق وتفسير الثعلبي من أن أعمال الكفرة الحسنة التي لا يشترط فيها الإيمان كإنجاء الغريق وإطفاء الحريق وإطعام ابن السبيل يجزون عليها في الدنيا ولا تدخر لهم في الآخرة كالمؤمنين بالإجماع، للتصريح به في الأحاديث فإن عمل أحدهم في كفره حسنات ثم أسلم اختلف فيه هل يثاب عليها في الآخرة أم لا بناء على أن اشتراط الإيمان في الاعتداد بالأعمال وعدم إحباطها هل هو بمعنى وجود الإيمان عند العمل أو وجوده ولو بعد لقوله ﷺ - في الحديث أسلمت على ما سلف لك من خير غير مسلم ودعوى الإجماع فيه غير صحيحة لأن كون وقوع جزائهم في الدنيا دون الآخرة كالمؤمنين مذهب لبعضهم وذهب آخرون إلى الجزاء بالتخفيف... انتهى.

ولقائل أن يقول إن الشفاعة من آثار عمل المشفوع الخير أيضا فتأمل.)[1]

---

[1] روح المعاني لمحمود الألوسي (٣٠/ ٢١٢ – ٢١٣).

- القاسمي:

(تنبيهات:

الأول- دل لفظ (من) على شمول الجزاء بقسميه، للمؤمن وغيره.

قال الإمام: **أي من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره، فإنه يراه ويجد جزاءه. لا فرق في ذلك بين المؤمن** والكافر. غاية الأمر **أن حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به** خالدون في **الشقاء. والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار، وأنها لا تنفعهم، معناها هو ما ذكرنا. أي أن عملا من/ أعمالهم لا ينجيهم من عذاب الكفر، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم، على بقية السيئات الأخرى، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء.**

كيف لا، **والله جل شأنه يقول: وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ [الأنبياء: ٤٧]، فقوله: فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً** أصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء. **وإن كلّا يوفى يوم القيامة جزاءه.**

... الإجماع **على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما،** لا أصل له.

فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم. **على أن كلمة (الإجماع) كثيرا ما يتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين، وحجرا يلقمونه أفواه المتكلمين. وهم لا يعرفون للإجماع الذي يقوم به الحجة معنى، فبئس ما يصنعون. انتهى.**

وقد سبقه الشهاب في (حواشيه) **على القاضي، حيث ناقش صاحب المقاصد في دعواه** الإجماع **على إحباط عمل الكفرة.** وعبارته: **كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية، وهو مخالف لما**

صرح به في الآية؟ والذي يلوح للخاطر، بعد استكشاف سرائر الدفاتر، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه. فليس عذاب أبي طالب كعذاب أبي جهل. ولا عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهيّ. انتهى) [1]

- أطفيش: (واختلف في المشرك، هل ينقص عذابه في النار بحسناته في الدنيا؟ الصحيح لا، ونسب للجمهور،...، وأما دفع السوء في الدنيا بما عمل من خير فوقع لا يختلف فيه.)[2]، و قال أيضا: (وعبارة البعض (مَن) الأُولى للسعداءِ والثانية للأَشقياءِ...، وقيل بعموم (مَن) في الموضعين في الدنيا والآخرة... والكافر يرى جزاءَ خيره في الدنيا... والكافر ليس له فيها خير...

ولا يخفى أن الظاهر عموم من ورؤية الجزاءِ وكون ذلك في الآخرة... ومعنى إحباط حسنات الكفار أنهم لا يدخلون بها الجنة ولا ينجون بها من النار، وقوله تعالى: لا يخفف عنهم العذاب على عمومه وقال بعض قومنا يخفف عذاب ما ليس بشرك من المشرك ولا يخفف عذاب ما بشرك ويرده أن الشرك مبطل لحسناته فلا حسنة له في الآخرة) [3]

و قال أطفيش أيضا: (وأجاز بعضهم أن تكون سيئات السعيد تنقص من ثوابه فذلك جزاؤه

---

[1] تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٩/ ٥٢٦ - ٥٢٧).

[2] تفسير اطفيش - إباضي (٥/ ١٦٠، بترقيم الشاملة آليا). التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٩٤). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ٥٨)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ٢٨١).

[3] نفسه (١٣/ ٥).

بها وحسنات الشقي تنقص من عقابه فذلك جزاؤه بها) [1]

- رشيد رضا:

(وقال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى:... ونفي الظلم هاهنا على إطلاقه يشمل المؤمن والكافر،...، وأظهر من هذه الآية في العموم: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إلخ، وقد قدر مفسرنا (الجلال) في الآية هنا (أحدا) للإشارة إلى العموم، ولكن ورد في الكافرين ما يدل على أنهم لا أثر لعملهم في الآخرة كقوله: أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (١٨: ١٠٥)، وقوله في عملهم: فجعلناه هباء منثورا (٢٥: ٢٣)، وقد قال بعضهم في الجمع: إن الله يجازيهم على أعمالهم في الدنيا، وهذا تأويل لا يأتي في سورة الزلزلة؛ لأن الكلام فيها خاص بيوم القيامة، وقال بعضهم غير ذلك، كل يحمل الآية على مذهبه كما هي عادة المقلدين في جعل مذاهبهم أصلا، والقرآن العزيز فرعا يحمل عليها، ولو بالتأويل السقيم والتحريف البعيد.

قال: ومن العجب أن يقول قائل بهذه التأويلات، وقد ورد في الأحاديث المسلمة عند قائليها أن بعض المشركين يخفف عنه العذاب بعمل له، حاتم بكرمه، وأبو طالب بكفالته النبي ونصره إياه، بل ورد حديث بالتخفيف عن أبي لهب لعتقه ثويبة حين بشر بالنبي - ﷺ -/ هذا وأبو لهب هو الذي نزل فيه: تبت يدا أبي لهب (١١١: ١)، إلخ، السورة، فالمعنى الصحيح إذن للآيات هو أن الله لا يقيم وزنا للمشرك في مقابلة شركه، بمعنى أنه لا يقابل الشرك عمل صالح

---

[1] هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (١٦/ ٧٤).

فيمحوه، بل الأعمال الصالحة بإزاء الشرك هباء، ولكن المشرك العاصي أشد عذابا من المشرك المحسن، ولا يعقل أن يكون المحسن والمسيء عنده تعالى سواء، فإن هذا من الظلم المنفي بلا شك. ....

ومما يوضح هذا المعنى في التفسير الكلام في الجزاء وموازين الأعمال، ولا تفهم هذه الآية حق الفهم إلا باستبانة ما حققناه غير مرة في معنى الجزاء وكون الثواب والعقاب تابعين لتأثير أعمال الإنسان في نفسه بالتزكية أو التدسية، والقرآن يفسر بعضه بعضا ويؤيد بعضه بعضا، وما أخطأ كثير من العلماء في فهم كثير من الآيات إلا لذهولهم عن مقارنة الآيات المتناسبة بعضها ببعض، واستبدالهم بذلك تحكيم الاصطلاحات والقواعد التي وضعها علماء مذاهبهم، وإرجاع الآيات إليها وحملها عليها،...)[1]

و قال رشيد رضا: (فإن مجيء. (عمل) نكرة منفية يفيد العموم، ودخول (من) التبعيضية عليه يؤكد هذا العموم، فيشمل أدق الأعمال وأحقرها وهو في معنى قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٩٩: ٧، ٨)) [2]

- المراغي: (أي فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يجد جزاءه، ومن يعمل الشر ولو قليلا يجد جزاءه، لا فرق بين المؤمن والكافر.

وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون في الشقاء، وما نطق من

[1] تفسير المنار (٥/ ٨٦ – ٨٧).

[2] نفسه (١١/ ٣٣٩).

الآيات بحبوط أعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم، فالمراد به أنها لا تنجيهم من عذاب الكفر وإن خففت عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم من السيئات الأخرى، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شيء، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ. فقوله: فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً صريح في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء. وأن كلا يوفّى يوم القيامة جزاءه، وقد ورد أن حاتما يخفف عنه لكرمه، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي ﷺ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية.) (١)

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٢٠).

الآية رقم ٢

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ۝٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]

دلالة الآية عامة بدلالات كل من: (كل) و (نفس) و (ما) و سوقها في ظرف عام جدا و هو يوم الحساب.

و عليه يكون من ضمن هذا العموم هو الكافر و المشرك، و بالنسبة لتعيين نوعية أعماله بالخيرية لا نقول جواز أو إمكان بل إثبات الخيرية لبعض أعماله قطعا، و وصف عمله بالخير في الآخرة يدل على وصفه بالخير في الدنيا و هذا يدل بدوره على أن عمله هذا معتبر و مقبول في الدنيا، و أعلى اكتساب للخيرية يكون من جهة الشرع، فالكافر أو المشرك إذا عمل عملا يأخذ وصفه من الشرع بالخيرية فهو أولى من العمل الموافق للعقل المستقيم و الأخلاق الحميدة و إن كان كله من الشرع باعتبار واحدية الخالق للإنسان و للمخلوقات و لفطرته.

تصوير المسألة من خلال دلالة العطف بـ (الواو) التي في (وما عملت) و دلالة (ما) التي في (ما عملت) في الموضعين، بناء على هذه الدلالات المتبناة من المفسرين يخرج عدة احتمالات معنوية، فمنهم من يقول أن النفس الأولى هي النفس المؤمنة بقرينة دلالية و هي (الخير) و نظن ذلك ناتج على سبق تصوير أن الكافر أو المشرك لا يوجد له خير إطلاقا كي يُحضر أو كان له و بطُل أو ما شابه ذلك، ثم بقرينة أخرى تأويلية لغوية معجمية لمعنى الحضور فيقولون أنه التوفير أي أن خيره يأتي موفورا، و منهم من قال في معنى الحضور أنه من الإسراع أي أن عمل المؤمن الخير يسرع به إلى دار الخلد، و كما ترى كلها تأويلات بعيدة مؤصلة على احتمالات

لسانية لا ينبغي لها أن تسود التأويل لهذه الدرجة من رد كبريات القرائن و الأدلة التي هي أقوى و أولى منها بكثير في هذا النظم.

و عليه من قال أنها في المؤمن فقط لزمه أن تكون (الواو) للاستئناف، أي أنه قد انجر لتأويل أخر لكي يتسق ثانيه مع أوله، فعلى الاستئناف يكون بداية الكلام على النفس الكافرة التي عملت السوء فيقرر انقطاع في جريان الضمائر و ما تعود عليه من ذوات دافعا ظهور دلالة العطف، و عود الكلام على النفس التي جاءت عامة بقرينة دلالية قوية بـ(كل) لكي تثبت و تقوي دلالة العموم، ثم عزز تأويله بأن (رؤوف بالعباد) فيها اختصاص بالمؤمنين بدعوى أن اسم أو وصف العباد لا يأتي إلا مع المطيعين، و هذا ضعيف جدا لأن في القرآن مواضع لا تختص فيها (عباد) مع المؤمنين أو المطيعين.

و بالطبع يتخلل هذه التأويلات اختلافات و مذاهب إعرابية كثيرة لها كبير الأثر على اختيار التأويل المناسب على حسب الإعراب الذي يراه المفسر إما تقليدا لغيره أو اجتهادا منه أو ترجيحا، و لا يخفى تأثير التقليد و التخريج عليه سواء لتفسير مفسر ما أو عالم بالعربية ما، و يأتي دور المذهب العقدي أيضا في مسائل كثيرة تتعلق بالإيمان و الكفر و الحساب و الميزان و دار الجزاء التي تسمى بمسائل الأسماء و الأحكام و ما يتعلق بها من جزاء في الآخرة و معاملات في الدنيا، و من خلال منظور هذه الرؤية التحليلية يتبين قدر من التحكم الخارج عن دلالة الآية و ما فيها من ظهور و منطوق و نصية، نخُص منها التصور المسبق عن أعمال الكافر الذي يلوي أحيانا أعناق الدلالات و المعاني لتتناسب مع هذا التصور المسبق بأن ليس للكافر عمل حسن معتبر لأنه لم يكن مقرونا بالإيمان العام.

و مثالا لعمق تأثير المذهب أو التأويل الخارجي على تفسير و تأويل الآية أن هناك بعض العلماء الذين تكلموا في مسألة تكفير أو إذهاب الحسنات للسيئات بين ناف لها و مثبت، فكانت هذه الآية من أدلة من يرى نفيها لأن المؤمن الذي يرى سيئات أعماله كما في الآية دليلا على أنها لم تذهب بحسناته لأنها باقية فرجح جانب النفي على جانب الإثبات، و من يرى العكس سيجتهد في رد هذا التأويل و ما أنسب له في هذا إلا أن يجعل رؤية السيئات للكافر فقط في هذه الآية و أن المؤمن هو الذي يحضر له خير عمله فقط، و عليه سيختار أن تكون الواو للاستئناف لكي تكون دلالة (ما) على نفس أخرى و من ثم يرجح تأويله بأن العباد مخصوصة بالمؤمنين وبقرائن أخرى.

و نعرض هنا رؤية أخرى تأويلية مشفوعة بما هو قار في مواضع قرآنية أخرى و بما هو ضعيف من قرائنهم و بعض ما استدلوا به، و كل هذا تحت مظلة ما يشوب التأويل النحوي الإعرابي الذي يتخذ الحركة الإعرابية حاكمة على دلالة النص و موجهة لدفة المعنى و التأويل لما يتسق مع الإعراب:

فعند تأويل الواو للاستئناف للنفس الواحدة؛ يكون من الدلالات المصاحبة لموضع (مُحْضَرا) مع (الخير) دون السوء في هذا اليوم يناسبه أن تكون هذه النفس ممن يدعي متوهما حسن عمله مستصحبا هذا التوهم يوم الحساب، فيراه أهلا لأن يكون من الأنفس المطمئنة، و لذلك قد أحضر الله له ما عمله من خير إما في الصحف و الكتب أو ما يدرك به جزاؤه على حسبه، ليوقفه على الحق و الحقيقة بالنسبة لأعماله و ليدفع عنه الدعوى و التوهم بأن يلجمه بالحجة المتعينة الماثلة أمامه بما يسمى عين اليقين، و هذا على تأويل من قصر الإحضار على الخير فقط، و على

هذا التأويل له وجهان إما أن يكون للمؤمن العاصي المكثر من الذنوب على توهم الحسن فيها كما في الفرق و المذاهب الضالة، و الثاني أن يكون للكافر و المشرك الذي كان في الدنيا ممن يحسبون أنهم يحسنون صنعا و أنهم مهتدون، فيظن أن يجد عند ربه خيرا مما كان له في الدنيا.

ثم يُحسن اتساق هذا التأويل خاصة مع النفس الكافرة عند رؤية أعماله السيئة و تمنيه أن يكون بين هذا اليوم أو عمله السيء الأمد البعيد، و هذا المعنى ثابت في حق الكفار و المشركين مما جعل رجحانه لهم أكثر من كونه للمؤمن المذنب، و إن كان يلائمه من باب التحسر و التندم و المبالغة في شأن السيئات لدرجة نسيان الحسنات، و مما يؤيد أنه في الكفار قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧]، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٨-٣٩]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢].

و في حال جعل الواو للعطف فيكون حضور العمل الحسن و السيء لنفس واحدة إما أن تكون مؤمنة أو كافرة أو تعم الإثنين و هو الأصح، و لا ضير أن يكون سيئات المؤمن تجعله يود أن يكون بينه و بينها أمد بعيدا أو بينه و بين هذا اليوم الذي رأى فيه أعماله السيئة أمدا بعيدا، و يكون دلالة حضور الأعمال مرحلة أولى يتبعها الحساب و الميزان و تكفير السيئات و موازنة السيئات بالحسنات، و أيضا لو جعلنا النفس هي الكافرة فقط في هذه الآية لا يمنع أن يكون

للمؤمنة رؤية عملها الخير سواء قبل أو بعد الحساب و الميزان و التكفير في آيات أخرى كما هو معلوم في المواضع القرآنية.

خاصة أن الآية هنا قد حكت على قول من رأى عمله السيء أنه يود هو أن يكون بينهما أمدا بعيدا، أي أنه حكاية حال هذا الرائي و لا يوجد فيه تفصيل لشأن هذه الأعمال و الجزاء عليها بما يقطع باستقرارها النهائي بعد الحساب و الميزان و التكفير، فكل ما فيه من دلالة قاطعة هو وقوف الرائي على مصيره أو ما يؤول له على هذه الأعمال السيئة بدون إشارة لتحقيق ذلك الوعيد، مما يعطي الفرجة لتخلل مراحل أخرى بما وعد الله به من الحساب و الميزان و التكفير.

يتعدد التأويل بتعدد ارتباط كل عامل بالأخر، و العوامل هي: نفس واحدة، نفسين، الواو للعطف على نفس واحدة، للعطف على نفسين، الواو للاستئناف لنفس واحدة، و لنفسين.

و المختار من بين هذه الاحتمالات لكثرة الشواهد و القرائن و السياقات الخارجية هو أن يكون: نفس واحدة، الواو للعطف، و يكون التأويل كالآتي: أن كل نفس لها نوعين من الأعمال يحضرون، أعمال الخير و أعمال السوء، و لشدة هول ما يترتب على أعمال السوء ودت أن يكون بينها (النفس) و بين هذه الأعمال السيئة أمدا بعيد، و لذلك فقد حذرهم الله نفسه، و مع ذلك فإن الله رؤوف بكل نفس سواء في الدنيا بتحذيرهم و تذكيرهم بالرسل و بالآيات، و أنه يخوفهم ليتضرعوا له و يغفر لهم و يمهلهم، و في الآخرة بأنه لا يبخسهم شيئا و كل خير عملوه سيروه فلا يظلموا شيئا، و مناط الرأفة هنا هو في اعتماد هذا الخير في الحساب و الميزان.

- الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه: ويحذركم الله نفسه في يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا موفَّرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا = يعني غاية بعيدة، فإن مصيركم أيها القوم يومئذ إليه، فاحذروه على أنفسكم من ذنوبكم.) [1]، و قال: (فتأويل الكلام: يوم تَجد كل نفس الذي عملت من خير محضرًا، والذي عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا) [2]

و قد آثر الطبري أن يبقى تأويل الآية على عمومها لقوة ظهوره و نصيته في هذه الدلالة.

- الماتريدي: (وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾: قيل: تجد ثواب ما عملت من خير حاضرًا؛ لأن عمله إنما كان للثواب لا لنفس العمل.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾: يحتمل: ما عملت من سوء تجده مكتوبًا يتجاوز عنه؛ لأن اللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - وعد المؤمنين، وأطمع لهم قبول حسناتهم، والتجاوز عن سيئاتهم؛ كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ فيجد المؤمن ثواب ما عمل من خير حاضرًا، ويتجاوز عن مساوئه. وأمَّا الكافر: فيجد عقاب ما عمل من سوء في الدنيا؛ كقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، فلا يتجاوز عنهم، ويبطل خيراتهم.) [3]

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦/ ٣١٩). و انظر تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

[2] نفسه (٦/ ٣٢٠).

[3] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٢/ ٣٥٢).

قد جعل الماتريدي دلالة الآية عامة ثم فصَّل ما بين المؤمن و الكافر، و جعل مصير خيرات الكافر البطلان، و هذا كلام متوافق مع رؤية الإحباط و الإبطال التي نثبتها في البحث بأن حسناتهم تبطل في غمرات سيئاتهم فيقلل كميتها و هذا هو خيرية حسناتهم.

- السمرقندي: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ في الدنيا مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا يعني تجد ثوابه حاضراً، ولا ينقص من ثواب عمله شيء... ثم قال: وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ أي عقوبته في عمل السوء والله رَؤوفٌ بالعباد قال ابن عباس: يعني بالمؤمنين خاصة، وهو رحيم بهم. ويقال: رؤوف بالذين يعملون السوء، حيث لم يعجّل بعقوبتهم.) [1]

بالإضافة للتعميم في تأويله قد جعل صفة الرأفة كما جاء على لسان بعض العلماء صفة دنيوية عامة أن الله لا يعجل بعقوبة المعاصي في الدنيا، و بهذا قد صرف أحد دعائم التأويل التي تقال في تخصيص المؤمنين بالخير و الثواب دون الكافرين، لأن صفة الرأفة و المضافة لـ (العباد) على كلامهم لا تليق إلا بالمؤمنين فقط و بهذا التأويل فهي للكل في الدنيا، و أن (العباد) تطول كل الناس أيضا و ليست خاصة بالمؤمنين فقط.

- ابن أبي زمنين: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا أي: موفرا كثيرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا فلا يجتمعان أبدا./ قوله: ويحذركم الله نفسه يعني: عقوبته والله رءوف بالعباد أي: رحيم؛ أما المؤمن فله رحمة الدنيا والآخرة، وأما الكافر فرحمته في الدنيا

[1] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٢٠٦).

ما رزقه الله فيها، وليس له في الآخرة إلا النار.)[1]

الإبقاء على ألفاظ الآية (التعميم) و عدم التخصيص، إثبات صفة العباد للكافر، و كذلك الرأفة أيضا و لكن في الدنيا فقط، إظهار العامل المؤثر و المفسر للتأويل أن الكافر ليس له إلا النار في نهاية الأمر، و هذه نتيجة لا يلزم منها نفي رؤية خيرية حسناته في الموازنة.

- الثعلبي: (مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا أي: موفّرًا، لم يُبْخَس منه شيء....، وإنما يعني: بيان ما عملت من خير أو شر، حاضرًا مكتوبًا، أو يعني: ثواب ما عملت من خير، وعقاب ما عملت من شر.) [2]

بالإضافة لتعميم الدلالة قد جعل الخير و السوء لنفس واحدة.

- الطوسي: (. وحكم الآية جار على فريقين ولي الله وعدوه، فأحدها يرى حسناته، والأخر يرى سيئاته. ويحتمل أيضا أن يكون متناولا لمن جمع بين الطاعة والمعصية، فان من جمع بينها فانه يرى استحقاقه للعقاب على معاصيه حاصلا، فانه يود أيضا أنه لم يكن فعلها.) [3]

أي أن ألفاظ الآية و تراكيبها تحتمل جمع الخير و السوء للنفس الواحدة و أن الذي يخصص يُفضل احتمال على احتمال، و الشاهد هو عدم نصية التخصيص و أنه غير مأخوذ من دلالة اللفظ الظاهرة بل المحتملة.

[1] تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ٢٨٤ – ٢٨٥). و انظر التفسير البسيط (٥/ ١٧٨).

[2] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٨/ ٢٣٤).

[3] التبيان في تفسير القرآن – الشيخ الطوسي (٢/ ٤٣٦، بترقيم الشاملة آليا).

- السمعاني: (قوله تعالى: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا أي: محضر لها ما عملت من الخير والشر، فتسر بما عملت من الخير. وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا أي: غاية مديدة،....

ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ومن رأفته أن حذرهم، ورغبهم ورهبهم، ووعدهم وأوعدهم.) [1]

- الراغب الأصفهاني: (وقوله: مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مفعول تجد، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ معطوف عليه، كأنه قيل: وما عملت من سوء محضراً،...، وقيل: و مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ استئناف،...، والأولى أن يكون معطوفا كما تقدَّم،.../ ...

إن قيل: ما فائدة حذف الجزاء في هذا المكان ونحوه من قوله: ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وقوله: ذُوقُوا مَا كُنتُم تَكْسِبُونَ. وقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)؟

قيل: لما أراد أن ينبِّه أن الإنسان لا يُبخس حظه فيما يفعل من خير، ولا يُزاد عليه في جزاء ما يفعل من شر، ذكر نفس الفعل دون الجزاء؛ تنبيهاً له أن فعله مستوفى بالجزاء، حتى كأنه هو، كقولك: زيد هو أبوه بعينه.

إذا أريد المبالغة في التشبيه به، وإعادة قوله: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)، توكيد واستظهار

---

[1] تفسير السمعاني (١/ ٣١٠).

عليهم.)[1]

و ترجيح الراغب العطف على الاستئناف جاء من جعل الخير و السوء مفعولي لـ (تجد) و هذا يدل على واحدية (النفس) و (الإيجاد) و بهذا ينسب للنفس الواحدة السوء و الخير، و ما أدل على هذا من إثاره استعمال لفظ (الإنسان) ليدل على أشد دلالات التعميم فيما ينسب له من خير و شر و الجزاء عليهما.

- البغوي: (ما عملت من خير محضرا لم يبخس منه شيء كما قال الله تعالى: ووجدوا ما عملوا حاضرا [الكهف: ٤٩]،...، أي تجد محضرا ما عملت من الخير والشر، فتسر بما عملت من الخير)[2]

- الزمخشري: (أي يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين،... / ...... وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ يعنى أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه. وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه.)[3]

---

[1] تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨).

[2] تفسير البغوي - إحياء التراث (١/ ٤٢٩).

[3] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٥٢ - ٣٥٣). و قال السمين الحلبي: (وهذا الذي ذكره الزمخشري وجه ظاهر لا خفاء بحسنه) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٣/ ١١٥).

- ابن عطية: (ما بمعنى الذي ومُحْضَراً قال قتادة: معناه موفرا، وهذا تفسير بالمعنى، والحضور أبين من أن يفسر بلفظ آخر، وقوله تعالى: ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ يحتمل أن تكون ما معطوفة على ما الأولى...، وإلى هذا العطف ذهب الطبري وغيره، ويحتمل أن تكون رفعا بالابتداء ويكون الخبر في قوله: تَوَدُّ وما بعده كأنه قال: وعملها السيّء مردود عندها أن بينها وبينه أمدا،...

... وقوله: وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ يحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير لأن تحذيره وتنبيهه على النجاة رأفة منه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة فمقتضى ذلك التأنيس لئلا يفرط الوعيد على نفس مؤمن)[1]

و بقول ابن عطية قطع الطريق على من يؤول اللفظ بمعنى آخر يتوافق مع رؤيته، فالحضور معنى واضح لا يفتقر لدلالة لفظ آخر يؤتى به يكون أقرب في معناه لأن يكون للمؤمنين كالوفرة مثلا، و إبقاء دلالة الحضور على ما هي عليه يعُم و يصعب تأويله لأن ينحاز لجانب على آخر، ثم من فوائد ابن عطية أيضا أن تأويل العطف و الابتداء (الاستئناف) دلالتهما قد تكون واحدة بالنسبة لواحدية النفس و نسبة الخير و السوء لها وحدها، و هذا يدل على تفاوت الرؤى رغم اتحاد المصطلحات أو القواعد، و أخيرا رؤيته لدلالة صفتي الرأفة و التعبيد (العباد) بأنها تحتمل الناس كلها أو المؤمنين.

- الرازي: (المسألة الثانية: اعلم أن العمل لا يبقى، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة، فلا بد فيه

[1] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٢١).

من التأويل وهو من وجهين الأول: أنه يجد صحائف الأعمال،... والثاني: أنه يجد جزاء الأعمال وقوله تعالى: محضرا يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى: أن جزاء العمل يكون محضرا...

أما قوله: وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: الأظهر أن يجعل ما هاهنا بمنزلة الذي، ويكون عملت صلة لها، ويكون معطوفا على ما الأول،...

المسألة الثانية: الواو في قوله وما عملت من سوء فيه قولان

الأول: وهو قول أبي مسلم الأصفهاني: الواو واو العطف، والتقدير: تجد ما عملت من خير وما عملت من سوء،...

والقول الثاني: أن الواو للاستئناف، وعلى هذا القول لا تكون الآية دليلا على القطع بوعيد المذنبين، وموضع الكرم واللطف هذا، وذلك لأنه نص في جانب الثواب على كونه محضرا وأما في جانب العقاب فلم ينص على الحضور، بل ذكر أنهم يودون الفرار منه، والبعد عنه، وذلك ينبه على أن جانب الوعد أولى بالوقوع من جانب الوعيد.

المسألة الثالثة[1]:... قال: (والله رؤف بالعباد) وفيه وجوه

---

[1] انظرها أيضا في: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٣)، تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٢٤٩)، تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٢٦)، تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ١٤١)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٣٣١)، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٢٤). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٤٢). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ٢٣٩، بترقيم الشاملة آليا). فتح البيان في مقاصد القرآن (٢/ ٢١٧).

الأول: أنه رؤوف بهم حيث حذرهم من نفسه، وعرفهم كمال علمه وقدرته، وأنه يمهل ولا يهمل، ورغبهم في استيجاب رحمته، وحذرهم من استحقاق غضبه، قال الحسن: ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه

الثاني: أنه رؤوف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة والتدارك والتلافي

الثالث: أنه لما قال: ويحذركم الله نفسه وهو للوعيد أتبعه بقوله والله رؤف بالعباد وهو الموعد ليعلم العبد أن وعده ورحمته، غالب على وعيده وسخطه

والرابع: وهو أن لفظ العباد في القرآن مختص، قال تعالى: وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: عينا يشرب بها عباد الله [الإنسان: ٦] فكان المعنى أنه لما ذكر وعيد الكفار والفساق ذكر وعد أهل الطاعة فقال: والله رؤف بالعباد أي كما هو منتقم من الفساق، فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين.) [(١)]

و بتفسير (المحضور) بأنه صحائف الأعمال فهذا من أبين الأدلة على التعميم و الإطلاق، لأن الكل متفق على أن لكل إنسان كتبة و صحائف، و أيضا من فسر المحضور بالجزاء على الأعمال فهو أيضا راجع لما هو مكتوب في هذه الصحائف أيضا و هذا بدوره دال على التعميم لكل الناس أيضا.

أما محاولة استعمال صفة (العباد) لقصرها على أهل الطاعة من المؤمنين فقط غير سديدة لأنها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٨/ ١٩٦). و انظر الناحية الإعرابية التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٥٢ – ٢٥٣). و الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٣٧). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٣/ ١١٥)، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٢/ ٥١٠).

غير مقصورة على المؤمنين فقط و لا على أهل الطاعة المطلقة فقط بدليل قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، و قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨]، و ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

و هنا تصريح بدلالة الاستئناف و من خلاله لا يظهر معناه إلا مع المؤمنين على ما يتبادر منه، أما مع التحقيق قد يصلح أيضا مع الكفار و المشركين لأن الله فتح باب المغفرة لما هو دون الشرك لمن يشاء فلا غضاضة من إدخال الكفار في معنى الاستئناف، و حتى الذي جوز أو قال بأن الواو للاستئناف لا يرد كون عمل الخير و السوء هو لنفس واحدة، و أيضا يمكننا القول أنه لو كان هذا الموقف خاص بحضور الخير فقط فلا مانع من دخول الكفار فيه، و على كل حال نحن نظهر القدرة التأويلية للمفسرين و تعدد الاحتمالات المنسوجة من هذه الخيوط الدلالية بالمزج و التقاطع و الربط فمع كل مرة يمكن صنع صورة تأويلية مغايرة للأخرى.

- القرطبي: (و ما من قوله وما عملت من سوء عطف على ما الأولى.) (١)

- البيضاوي: (أي تتمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها، أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة) (٢)

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٥٩).

(٢) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٢).

- النسفي: (أي يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين) [1]

- نجم الدين الطوفي: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، عام مطرد في الخير والشر، يلقى كل أحد ما عمل منهما) [2]

- الخازن: (أي تجد ما عملت من الخير محضراً فتسر به وما عملت من سوء) [3]

- الطيبي: (﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ مثل الأولى معطوفة عليها) [4]

- ابن كثير: (يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير ومن شر، كما قال تعالى ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر [القيامة: ١٣] فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه وود لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد) [5]

- النيسابوري: (أي تود كل نفس يوم تجد ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء محضراً أيضاً لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً.) [6]

- الجلالين: (اذكر يوم تجد كل نفس ما عملت ه من خير محضرا وما عملت ه من سوء) [7]

---

[1] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٢٤٨).

[2] الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ١٣٠).

[3] تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٢٣٨).

[4] فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٤/ ٧٦).

[5] تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٢٦).

[6] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ١٤١).

[7] تفسير الجلالين (ص: ٦٩).

- البقاعي: (والمراد بالنفس - والله سبحانه وتعالى أعلم - المكلفة ما عملت من خير محضراً أي لا نقص فيه ولا زيادة، بأمر القاهر القادر على كل شيء وما عملت من سوء حاضراً ملازماً.) (١)

- شهاب الدين الكوراني: (﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ... والمعنى: علمت كلّ نفس؛ لقوله. يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) (٢)

ففي قوله عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ لا بد أن يكون تقدير (نفس) بـ (كل نفس) فلا يجوز فيها التخصيص بنفس مؤمنة أو كافرة لأن علم النفس و ما أحضرته أو أُحضر لها يطول كل نفس مكلفة مؤمنة كانت أو كافرة، و هذا ما قاله الكوراني و مجير الدين الحنبلي، و ما يؤكد ذلك هو إسناد الحضور للنفس سواء كان عملا أو جزاء و لا بد لكل مكلف أن يكون له أعمال، و لا بد له أن يعلمها يوم القيامة، و لا بد أن تحضر له.

- الإيجي: (أي: جزاء ما عملت أو صحائفه، وعامل يوم تود أي: تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمدًا يوم تجد الخير والشر حاضرين عنده) (٣)

- السيوطي: (أي تتمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة) (٤)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٣٢٩).

(٢) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني (ص: ٣٣٩). و انظر فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٦٠٠).

(٣) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٢٣٥).

(٤) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٢/ ٥١٠).

- أبو السعود: (يوم تجد كل نفس أي من النفوس المكلفة ما عملت من خير محضرا عندها...وما عملت من سوء عطف على ما عملت والإحضار معتبر فيه أيضا إلا أنه خص بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية تود عامل في الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة... وفي إسناد الودادة إلى كل نفس سواء كان لها عمل سيء أو لا بل كانت متمحضة في الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه مالا يخفى)[1]

- الأعقم: (تجد كل نفس خيرها وشرّها حاضرين) [2]

- إسماعيل حقي: (تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ أي من النفوس المكلفة ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً عندها بأمر الله تعالى وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ عطف على ما عملت والإحضار معتبر فيه ايضا إلا أنه خص بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية) [3]

- القونوي: (قوله: (أي تتمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها أو جزاء أعمالها من الخير

---

[1] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٢٤).

[2] تفسير الأعقم - زيدي (١/ ٧١، بترقيم الشاملة آليا).

[3] روح البيان (٢/ ٢١).

والشر حاضرة)... قدر صحائف **لأن نفس العمل لكونه عرضا** لا توجد بدون الصحائف، **ثم جوز تقدير الجزاء** خيرا كان أو شرا **لأنه مما من شأنه أن يوجد حاضرا والظاهر هو الأولى.)**[1]

- الشوكاني: (**وقوله: وما عملت من سوء معطوف على ما الأولى**، **أي**: وتجد ما عملت من سوء محضرا **تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا.)** [2]

- الألوسي: (**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ من النفوس** المكلفة. **مَّا عَمِلَتْ في الدنيا مّنْ خَيْرٍ** وإن كان مثقال ذرة **مُّحْضَرًا لديها مشاهداً في الصحف،... وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوء عطف على مَّا عَمِلَتْ و مُّحْضَرًا محضر فيه معنى إلا أنه خص بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مراداً بالذات** وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية **كما قال شيخ الإسلام)**[3]

- القونجي: (**(وما عملت من سوء)** محضراً) [4]

---

[1] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٨٨٠) (٦/ ١٠١).

[2] فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٨١).

[3] روح المعاني لمحمود الألوسي (٣/ ١٢٦).

[4] فتح البيان في مقاصد القرآن (٢/ ٢١٧).

- القاسمي: (**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً بصور تناسبه، أو في صحف الملائكة، أو المعنى جزاء ما عملت وَتجد ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أي عملها السوء**)[1]

- **ابن عاشور**: (**جملة مستأنفة، أصل نظم الكلام فيها**: تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا يوم تجد ما عملت من خير محضرا. ... أو **أصل الكلام**: يحضر لكل نفس في يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء، فتود في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا،... أو **يكون أصل الكلام**: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضرا، تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمدا بعيدا... **وهذا أحسن الوجوه في نظم هذه الآية** وأومأ إليه في «**الكشاف**».) [2]

و **قال**: (والتعريف في العباد للاستغراق: لأن رأفة الله شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم)[3]

---

[1] تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٢/ ٣٠٧).

[2] التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٣).

[3] نفسه (٣/ ٢٢٤). و لم يصرح بتعيين المخاطب إلا في موضع التحذير فقال: (والخطاب للمؤمنين ولذلك سمى الموعظة تحذيرا: لأن المحذر لا يكون متلبسا بالوقوع في الخطر، فإن التحذير تبعيد من الوقوع وليس انتشالا بعد الوقوع).

الآية رقم ٣

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]

سباق هذه الآية و لاحقها يتعرض للمشركين و الكفار و أهل الكتاب، علاوة على أسلوبها العام فيما يتعلق بـ (مَن) الدال على الذات المكلفة التي هي أعم من كونها مؤمنة أو كافرة، و تقرر الآية أن من عمل صالحا فجزاء عمله يكون لنفسه، و (عمل صالحا) تفيد العموم في وصف الصلاح بخلاف لو كانت الصالحات، لأن الصالحات فيها إشعار أنها عَلَم على أعمال مخصوصة، و الفارق ليس بكبير بينهما إلا في تضمين العموم المُشعر بأن العمل الصالح قد يكون موافقا للفطرة و العقل من دون قصد التعمد لموافقة الشرع، لأنه قد يكون العامل غير مؤمن فيتخير من الأعمال ما يراه حسنا و صالحا بحسبانه و يكون في حقيقة الأمر موافقا لأمر الله لأن الله لا يأمر بالفساد و لا بالفحشاء و لا بالسوء، و يأمر بالبر و القسط و العدل و عدم الظلم و مكارم الأخلاق.

و في نهاية الآية تقرير لما يسبقها ففيها التأكيد على أن الله لا يظلم أحدا من العبيد على عمل صالح عمله أو معاقبته على ما لم يعمله من سوء، فإسناد صفة الصلاح و الإساءة للأعمال لـ (مَن) تقرر اعتبار وقوع الأعمال منها على ما تقتضيه شرائع الله لعبيده، و أنها تكتب لهم و عليهم، و يجازون عليها، و يتأكد هذا المعنى أكثر بنفي الظلم عن الله بالنسبة لهم على حال الصلاح و السوء ففيه مزيد من ترسيخ مبدأ العدل معهم الذي يقرر تكليفهم العام و اعتبار كل أعمالهم الصالحة و السيئة، فإقرار العدل و نفي الظلم لهو أكبر دليل على تكليفهم و اعتبار أعمالهم.

و الصالح في الآية يعم الإيمان و ما هو دونه من الأعمال الصالحة و الحسنة، و كذلك السيئة فهي تعم الكفر و الشرك و ما هو دونهما، فلا نخصص ما لم يُخصص و لا يقوى السياق على التخصيص بل جُل ما يعطيه دخول المسوق له الأمر العام دخولا أوليا و لأنه الأولى بعنايته لأهميته، و هذا لا يمنع أو ينفي دخول ما هو دونه.

- و كل مفسر لم يعين المدلول عليه بـ (مَن) بالمؤمنين التي في من عمل صالحا فهو يرى تكليف و اعتبار الأعمال من غير المؤمن كالمؤمن تماما، أو أنه يفسر لما يقتضيه النظم من معنى و دلالة و إن كان يُضمر خلاف ذلك أو يغفل ذلك فالشاهد في تفسيره هو أننا نأخذ بظاهر المعنى و مقتضى دلالة التراكيب و النظم فيكفي أنه لم يدفعه أو يقيده أو يخصصه لقوة المعنى و ظهوره.

و كذلك كل مفسر لم يُعين العمل الصالح بأنه هو التوحيد أو الإيمان يُشعر بأنه يريد تعميم وصف الصلاح ليطول كل الأعمال كبيرها و صغيرها.

- مقاتل بن سليمان: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء العمل، فعليها يقول: إساءته على نفسه، وما ربك بظلام للعبيد.) [1]

- الطبري: (من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه (فَلِنَفْسِهِ) يقول: فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجب في المعاد من الله الجنة، والنجاة من النار. (وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) يقول: ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٧٤٧).

جنى، لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم.) [1]

و تأويل الطبري (و كل من سيأتي من المفسرين) قد جاء على الأهم فيما يمثل الصالح لأنه رتب عليه الجنة و البعد من النار، و هذا تمثيل و ليس تفسير أي أنه أحد الصور التي تحقق المعنى و لكن لا تقيده أو تخصصه، لأن من المقطوع به أن الجنة للمؤمنين فقط فلا بد أن يكون أمثل ما يجسد العمل الصالح هو الإيمان و ما يقرنه من الصالحات، و لكنه لم يعين الصالح و لا السيء فجعلهما عامين كما هما، و لكنه فقط دل على ما يكنى به من الجنة ليدل على أن الصالح هو للمؤمنين.

- الماتريدي: (يمتحن الخلائق لمنافع يجرون إلى أنفسهم ولمضار يدفعون به عن أنفسهم، فلهم حصول منافع ذلك الامتحان والأمر والنهي، وعليهم حصول ضرر ذلك؛ فلأنفسهم يعملون ما يعملون من الخير والطاعة، وعليهم ما يعملون من الشر؛.../ ...: إما نعيم دائم وسرور دائم، وإما عذاب دائم وشرور دائمة،....) [2]

المنفعة و المضرة على تدرجات حتى تكتمل في صورتها النهائية بالدخول للجنة أو النار، و هذا كما سبق لا ينفي منفعة قبلية أي قبل دخول النار بتخفيف قدر استحقاق العذاب.

- السمرقندي: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ يعني: ثوابه لنفسه، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها يعني: العذاب

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢١/ ٤٨٧). تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٥٧٠).

[2] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٩٢ – ٩٣).

على نفسه، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب.) [(١)]

- مكي: (مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أساء فَعَلَيْهَا، أي: من عمل صالحاً في/ هذه الدنيا فلنفسه عمل لأنه يستوجب من الله في الميعاد الجنة والنجاة من النار، ومن عمل بمعاصي الله (فعلى نفسه جنى) لأنه أكسبها بذلك سخط الله.) [(٢)]

- الطوسي: (من عمل صالحا أي فعل فعلا هي طاعة فلنفسه لأن ثوابه واصل إليه، وهو المنتفع به دون غيره ومن أساء يعني فعالا فعلا قبيحا، من الإساء ة إلى غيره أو غيرها فعليها أي فعلى نفسه لأن وبال ذلك وعقابه يلحقه دون غيره.) [(٣)]

- القشيري: («فَلِنَفْسِهِ» لأن النفع عائد إليه. ومن عمل عملا سيئا فإنما ظلم نفسه، وأساء إليها لأنه هو الذي يقاسي ضرّه ويلاقى شرّه.) [(٤)]

- السمعاني: (وقوله: من عمل صالحا فلنفسه أي: نفع ذلك عائد إلى نفسه. وقوله: ومن أساء فعليها أي: وبال ذلك راجع إليه.) [(٥)]

- الزمخشري: (فَلِنَفْسِهِ فنفسه نفع فَعَلَيْهَا فنفسه ضرّ وَمَا رَبُّكَ بظلام فيعذب غير المسيء.) [(٦)]

- ابن عطية: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً الآية نصيحة بينة للعالم وتحذير وترجية وصدع بين الله تعالى لا

[(١)] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٢٣١).

[(٢)] الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٥٤١ – ٦٥٤٢).

[(٣)] التبيان في تفسير القرآن – الشيخ الطوسي (٩/ ١٣١، بترقيم الشاملة آليا).

[(٤)] لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ٣٣٧).

[(٥)] تفسير السمعاني (٥/ ٥٨).

[(٦)] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٠٣).

يجعل شيئا من عقوبات عبيده في غير موضعها، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كل عبد بتكسبه.) [١]

- الطبرسي: (المعنى: ثم احتج سبحانه عليهم بأن قال: (من عمل صالحا فلنفسه) أي: من عمل طاعة فلنفسه، لأن ثواب ذلك واصل إليه، ومنفعته تكون له دون غيره (ومن أساء فعليها) أي: من عمل معصية، فعلى نفسه وبال ذلك، وعقابه يلحقه دون غيره.) [٢]

- المنتجب الهمذاني: (قوله عز وجل: فَلِنَفْسِهِ أي: فلنفسه عمل ذلك العمل الصالح، ثم حذف لدلالة الأول عليه، ولك أن تجعله خبر مبتدأ محذوف، أي: فهو لنفسه.) [٣]

- القرطبي: (من عمل صالحا فلنفسه شرط وجوابه ومن أساء فعليها. والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. وما ربك بظلام للعبيد نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليله قوله الحق: إن الله لا يظلم الناس شيئا [يونس: ٤٤]) [٤]

الفائدة من تفسير القرطبي هو استدلاله بآية أخرى فيها كلمة (الناس) و هذا دليل على عموم المراد من فاعل الطاعة و فاعل المعصية.

---

[١] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢١). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ١٤٤).

[٢] انظر تفسيره.

[٣] الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٥/ ٥١٦).

[٤] تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٠).

- البيضاوي: (من عمل صالحا فلنفسه نفعه. ومن أساء فعليها ضره.) [(١)]

- النسفي: (مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ فنفسه نفع وَمَنْ أساء فَعَلَيْهَا فنفسه ضر) [(٢)]

- السيرافي: (أي: فنَفْسَه نفع، ونَفْسَه ضَرّ.) [(٣)]

- الخازن: (يعني يعود نفع إيمانه وعمله لنفسه وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها يعني ضرر إساءته أو كفره يعود على نفسه أيضا.) [(٤)]

- أبو حيان: (لأن النفس كل ما عليها فهو لها، أي كل وبال عليها فهو بسببها. إن النفس لأمارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عام لكل مكلف.) [(٥)]

هذه أوضح عبارة على المراد من تفسير الآية جاء على لسان أبو حيان الأندلسي لأنه عبر عن العموم المتعلق بالنفس و جعله حكم عام لكل مكلف.

- ابن القيم: (أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.) [(٦)]

- ابن كثير: (يقول تعالى: من عمل صالحا فلنفسه أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ومن أساء فعليها أي إنما يرجع وبال ذلك عليه) [(٧)]

[(١)] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٧٤).

[(٢)] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٢٤٠).

[(٣)] التقريب في التفسير للسيرافي ٧١٢ هـ (ص: ١٩٣١، بترقيم الشاملة آليا).

[(٤)] تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٩١).

[(٥)] البحر المحيط في التفسير (٨/ ٥٦٤).

[(٦)] مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية (٥/ ٣٧١، بترقيم الشاملة آليا).

[(٧)] تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ١٦٩). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٥١).

- ابن عادل الحنبلي: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها يعنى خفف على نفسك إعراضهم فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم وإن كفروا فضرر كفرهم يعود عليهم فالله سبحانه وتعالى يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء....

قوله (تعالى): إليه يرد علم الساعة لما هدد الكفار بقوله: من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة،...)[1]

الشاهد أنه صرح بمخاطبة الكفار بقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها فلو أخذنا ظاهر النص القرآني كما هو بما يفيده من العموم الوصفي للفاعل و الفعل يترتب عليه أن الكافر الذي يعمل صالحا فلنفسه و من أساء من الكفار فعليها، و لكل عمل جزاؤه من جنسه.

- النيسابوري: (ثم ذكر أن جزاء كل أحد يختص به سواء كان له أو عليه وأن الله لا يظلم أحدا) [2]

- السيواسي: ((مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ) أي ثوابه لها (وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها) أي عذابه عليها)[3]

- الجلالين: (من عمل صالحا فلنفسه عمل ومن أساء فعليها أي فضرر إساءته على نفسه) [4]

- البقاعي: (من عمل صالحاً كائناً من كان من ذكر أو أنثى فلنفسه أي فنفع عمله لها.......

---

[1] اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ١٥٢).

[2] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٦٢).

[3] عيون التفاسير للفضلاء السماسير للسيواسي ت ٨٦٠ هـ (٤/ ٧٠).

[4] تفسير الجلالين (ص: ٦٣٦).

إن الصالح تتوقف صحته على نيته، وأن السيء يؤاخذ به عامله في الجملة من الله أو الناس ولو وقع خطأ فلذا قال: ومن أساء/ أي في عمله فعليها أي على نفسه خاصة ليس على غيره منه شيء. ... فما ربك بتارك جزاء أحد أصلا خيراً كان أو شراً:... للعبيد أي الجنس فلا يتصور أن يقع منه ظلم لأحد أصلاً) [1]

- الشيخ علوان: (فاعلم أنه مَنْ عَمِلَ من عبادنا عملا صالحاً فَلِنَفْسِهِ أي صلاحه عائد إلى/ نفسه راجع إلى إصلاح حاله في معاشه ومعاده وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي رجع وبال اساءتها أيضا على نفسها وَبالجملة ما رَبُّكَ المنزه في ذاته عن اطاعة المطيع وعصيان العاصي بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ أي لا ينقص من أجور المطيعين ولا يزيد على جزاء العاصين بل يتفضل على أهل الطاعة فوق ما استحقوا بأعمالهم أضعافا وآلافا عناية منه وفضلا ويقتصر على أصحاب المعصية والضلال بجزاء ما اقترفوا لأنفسهم عدلا منه وقهرا)[2]

- مجير الدين الحنبلي: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ نفعُه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ضرُّه.) [3]

- الخطيب الشربيني: (لأن النفس كل ما عليها فهو بسببها لأنها الأمارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربه وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف) [4] و قال أيضا: (من عمل صالحاً أي: كائناً من كان فلنفسه أي: فنفع عمله لها... فإنهم إن آمنوا/ فنفع إيمانهم يعود إليهم، وإن

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٧/ ٢٠٩ – ٢١٠).

[2] الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٢٨١).

[3] فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ١٦٤).

[4] السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٣٠٨).

كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم، والله سبحانه وتعالى يوصل إلى كل أحد ما يليق به من الجزاء... للعبيد أي: هذا الجنس فلا يتصور أن يقع ظلم لأحد منهم أصلاً لأن له الغنى المطلق والحكمة البالغة.) (١)

و قد جمع الشربيني ما بين تفسير أبو حيان و البقاعي فأوعى و أجمع التأويل و هو واضح جدا.

- الأعقم: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها يعني النفع والضر يعود على نفسه وما ربك بظلاَّم للعبيد لا يبخس المحسن من ثوابه ولا يزيد المسيء على ما يستحق) (٢)

- المظهري: (من عمل صالحا فلنفسه نفعه ومن أساء فعليها مضرته وما ربك بظلام للعبيد فلا يضيع عمل المحسنين ولا يزيد على جزاء المسيئين.) (٣)

- القاسمي: (أي من عمل بطاعة الله، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه، فلنفسه نفعه. لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن وَمَنْ أَساءَ أي عمل السيّئ وعصى فَعَلَيْها ضرّه.) (٤)

- أطفيش: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وحد الله سبحانه وتعالى، وعمل بما كلف به فلنَفْسه يعمله، أو فلنفسه عمله، أو فلنفسه نفعة، أو فلنفسه ثوابه، ومن شرطية، ولا داعي الى أنها موصولة، لأنها تحتاج الى أن يقال: أشبهت من الشرطية في العموم زيدت الفاء في جوابها، وإذا كان فذلك

---

(١) نفسه (٣/ ٥٢٢ - ٥٢٣).

(٢) تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ١١٦، بترقيم الشاملة آليا).

(٣) التفسير المظهري (٨/ ٣٠٢).

(٤) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٨/ ٣٤٥).

فلتجعل شرطية من أول الأمر، وكذا البحث في قوله: ومَنْ أساء فَعَليها إساءته، أو فعليها عقابه، والضمير لمن، ولو كان مؤنثا، لأن من في معنى النفس، أو النفس قبل مرادا بها ما أريد بمن على طريق الاستخدام) [(١)]

- السعدي: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا وهو العمل الذي أمر الله به، ورسوله فَلِنَفْسِهِ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ضرره وعقابه، في الدنيا والآخرة، وفي هذا، حثٌّ على فعل الخير، وترك الشر، وانتفاع العاملين، بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ فَيُحمِّل أحدًا فوق سيئاتهم.)[(٢)]

- ابن عاشور: (من في الموضعين مفيدة للعموم سواء اعتبرت شرطية أو/ موصولة. ووجود الفاء في الموضعين: إما لأنها جوابان للشرط، وإما لمعاملة الموصول معاملة الشرط وهو استعمال كثير. والمعنى: أن الإمهال إعذار لهم ليتداركوا أمرهم.)[(٣)]

و لا يجوز تأويل هذا العموم المستفاد من (من) إلا لجهة الفاعلية و من حيثية تعلق التكليف بكل الناس، فكل فاعل من آحاد الناس هو مكلف، و إذا وقع منه الفعل على وفق الشريعة فهو من محاسن الأعمال المستوجب الجزاء عليه خيرا بوعد الله، خاصة إنه لم يُنص على الجزاء بالجنة كي نخصص الفاعلين بالمؤمنين فقط، بل وضع القول موضع العموم.

---

(١) تفسير اطفيش - إباضي (٩/ ٣٣٧، بترقيم الشاملة آليا). هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (١٢/ ٢٢٧، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١٨ - ٣١٩).

الآية رقم ٤

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية: ١٤-١٥]

الإشارة السياقية تدل على علاقة بين فريق المؤمنين و فريق غير المؤمنين و تأمر المؤمنين أن يغفروا لغيرهم، أي أن ناتج هذه العلاقة يستدعي طلب غفران من الذين آمنوا لغيرهم و على هذا فهي علاقة بشرية سلوكية تدخل في نطاق دلالة العمل الصالح و السيء، و بهذا فهي أعمال لا ترقى للكفر لأنه لا يمكن تصور طلب مغفرة من الذين آمنوا على كفر غيرهم، فلا بد أنها معاملات تعود بضر على الذين آمنوا كانت تستوجب في العادة رد فعل عليها فأمرهم الله بالتجاوز عنها، فالشاهد أن الذين لا يرجون أيام الله لهم أعمال قد تحتمل الصلاح فلأنفسهم و تحتمل السوء فعليهم.

و من القرائن السياقية أيضا على دلالة تضمين الكفار و المشركين في عموم الأعمال و الجزاء عليها ذكر الإساءة مع الصلاح، لأن وضع المؤمنين بإزاء الكفار و المشركين لا يرقى لأن يكون فيه معصية و إساءة إلا أن يقال أن المؤمن الذي لا يغفر للمشرك أذاه فهو عاصي لأمر الله، و هو جائز الدلالة و لكنه قلق بقرينة قوله تعالى قبل الآية مباشرة و هو نهاية الآية السابقة: ليجزي قوما بما كانوا يكسبون ففيه تهديد و وعيد للذين لا يرجون أيام الله، و يظهر هذا المنحى في ضوء ما فسر به المفسرون هذه الآيات و ما ذكروه من أسباب نزول أن المشركين كانوا يؤذون المؤمنين بشتى الصور و بالتأكيد هذا ظلم و عدوان و الانتصار للنفس بعد الظلم مباح فيبعد أن ينقلب المباح لمعصية و سوء عمل، و لهذا نرجح أن يكون سياق ذكر التوعد و الإساءة

للمشركين، و ذكر الصلاح للاستمالة لكي لا يؤذوا المؤمنين.

- و من أبلغ ما يرتكز عليه في بيان أصل المسألة أن (النفس) المذكورة في الآية هي محور المعنى فكلا الدلالتين أي الصلاح و الإساءة في الأعمال راجعة في نتائجها على ذات النفس الواحدة، لأنه لم يذكر إلا نفس واحدة كي يظهر مناط تكليفها و عدالة الجزاء على ما كلفت به من أعمال، لأنها محل قد خلقه الله مؤهلا لأن يحل فيه بإرادته الصلاح و الإساءة، و لا يمكن القول أن هذه النفس أحادية المحل القابل فلا يمكن إلا أن تكون صالحة فقط أو مسيئة فقط، فإذا جاز و أمكن الازدواج بين الأعمال بالنسبة للتدرج الزمني المستغرق لكل عمل على حدة لكي لا نجوز التناقض الذاتي للعمل نفسه بين صفتي الصلاح و الإساءة، فهذا دليل على استقلالية الأعمال و اعتبارها للنفس الواحدة، و من ثم استقلالية الجزاء عليها أيضا المتمثل في الحساب و الميزان، و بتجميع الوحدات الممثلة للجزاء مع بعضها في (الكفة) يخرج لنا ناتج واحد مجمع يشير إلى النار أو الجنة.

- و هناك بعض المفسرين من خصص الجزاء و الكسب بالمؤمنين فقط الذين يغفروا للذين لا يرجون أيام الله كما في قوله: ليجزي قوما بما كانوا يكسبون و بغض النظر عن القرائن التي لا تتسق مع هذا التخصيص في التركيب الجُمَلي نفسه فإن التخصيص بالمؤمنين هنا يُبهت بلاغة ذكر من عمل صالحا و يكون موقعها خاصة مع تضمين أن القرآن سيقرع آذان الذين لا يرجون أيام الله؛ غير بليغ لأنه حينها أنه إقرار على عملهم السيء و الاكتفاء بأنه سيكون عليهم، بل يكون غفران المؤمنين عونا على إتمام العمل السيء منهم، و هذا فيه بُعد عن الرحمة و الغرض القرآني الذي ينهى عن السوء و يأمر بالإصلاح في كل شيء، أما إذا اعتبرنا أن الآية فيها تهديد

و وعيد من جهة و وعد من جهة أخرى فإنها أنسب للمقام و الغرض، ثم يقوى هذا الغرض مع الاستمالة و التأليف أن من عمل صالحا منهم فلنفسه و من أساء فعليها، فيضعهم مع مواجهة النفس و استجلاب الخير و دفع الشر، خاصة و أن الله أمر المؤمنين بالتجاوز عنهم ليسهل الأمر عليهم و يضعهم موضع اللين و الخشية فيقربوا من العمل الصالح.

- و بالتسليم لبعض المفسرين المصرحين أو الضاربين للأمثال أن من عمل الصالح هم المؤمنون و من عمل السيء هم الكافرون، فلا يمنع من هذا التعيين أو القيد أن يجوز مع الإمكان أن يتبادلون المواضع بالنسبة لوصف العمل بالصالح و السيء و أيضا في الجزاء على نوعية العمل، لأن المؤمن غير معصوم، فقد يعصي المؤمن فلا يغفر للكافر، و قد يصلح الكافر عمله مع المؤمن من باب صلة الرحم أو القرابة أو الحمية أو من باب عدم الظلم أو حتى من باب الجوار كخلق عربي متبع له قدسيته عندهم، ناهيك عن تفصيل الأمر لمن يحكم عليهم بالكفر الحُكمي و ظاهرهم الإسلام لما يدعونه و يعملون به في بعض شؤونهم و هو الأغلب على حياتهم، فنعلم أنه يعمل لله و اتباعا لشرعه و مرجاة لدخول جنته.

و تبادل مواضع الأعمال بالنسبة لصفتي الصلاح و الإساءة لا يلزم منه اتحاد الدار كجزاء يوم القيامة، لأن المناط به نوعية الدار هو الإيمان و الكفر، أما الإيذاء و ما هو دون الكفر و الإيمان فلا تعارض على مستوى الأعمال التي دون الإيمان و الكفر لأنه لا يناط بها نوعية الدار و لكنها تدخل في التدرج و التقدير و تتعين بالموازين و الحساب في طريقها مع الإيمان و الكفر ليتحدد نوعية الدار و مقدار الدرجة فيهما.

و سنتجاوز من كلام المفسرين ما يدل على أن طلب المغفرة للمؤمنين، و أن المطلوب التجاوز عنهم هم الكفار و المشركين [1]، لأن هذا بين واضح، و كذلك تأويل (قوما بما كانوا يكسبون) بأنهم هم المؤمنين المتجاوزين عن المشركين لأنه أحد الداخلين في عموم الكسب و المجازاة عليه، و من ثم سنهتم بما يفيد إدخال المشركين أو الكفار في عموم الكسب و المجازاة عليه حتى و لو في جانب المجازاة على سيئاتهم لأنه في هذه الحال نلزمهم بمجازاتهم على الحسنات لأن الآية لم تخصص أو تعين خاصة أن بعض العلماء جعلها في المؤمنين و في حسناتهم التي هي مغفرتهم للذين لا يرجون أيام الله إذن دلالتها عامة للمؤمنين و المشركين و أيضا دلالتها عامة للحسنات و السيئات و هذا هو المطلوب، فكل الاحتمالات الدلالية قد جاءت في التفاسير إلا اعتبار حسنات الكافر و دخولها في عموم دلالة الآية و مام دام لا يوجد مانع دلالي من دخولها فنحن ملزمين بإدخالها تحقيقا لظاهر الآية [2]، وكذلك نهتم بأي تصريح أو إشارة أو تضمين

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٨٣٧)، معاني القرآن للفراء (٣/ ٤٦)، تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٢٩٠)، تفسير الهواري (٣/ ٣٨٦، بترقيم الشاملة آليا)، تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٦٦)، تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٢٢٠)، تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٢١١)، تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٢٤/ ١٤)، الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٧٧٥ – ٦٧٧٦)، تفسير الماوردي = النكت والعيون (٥/ ٢٦٢)، الوجيز للواحدي (ص: ٩٨٩)، التأويلات النجمية لأحمد بن عمر (٦١٨) (٣/ ٣٥٠)... إلخ.

[2] تفسير الهواري (٣/ ٣٨٦، بترقيم الشاملة آليا) جعلها في حسنات المؤمنين و سيئات الكافرين، و أيضا تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٢١١)، و الطوسي في التبيان في تفسير القرآن – الشيخ الطوسي (٩/ ٢٤٥، بترقيم الشاملة آليا)، تفسير أبي بكر الحداد –كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل ت ٨٠٠ هـ (ص: ٢٧٠٧).

لإدخال المشركين و الكفار في دلالة عموم (من) و نسبه صلاح الأعمال في حقهم و أقله تعميم المفسر لمدلول (من) بعد أن يفسر (للذين لا يرجون أيام الله) بالمشركين.

- مقاتل بن سليمان: (قوله: ليجزي بالمغفرة، قوما بما كانوا يكسبون آية، يعني يعملون من الخير. من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء العمل فعليها، يقول: إساءته على نفسه، ثم إلى ربكم ترجعون آية في الآخرة، فيجزيكم بأعمالكم.) [1]

- الهواري: (قوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ أي: يجده عند الله وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا أي: فعلى نفسه. ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ يوم القيامة.) [2]

- الطبري: (من عمل من عباد الله بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجر لنهيه، فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، وطلب خلاصها من عذاب الله، أطاع ربه لا لغير ذلك، لأنه لا ينفع ذلك غيره،... ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ يقول: ثم أنتم أيها الناس أجمعون إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم، فيجازى المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن ورد عليه منكم بعمل صالح،

- أما تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٦٦) جعلها في سيئات الكافرين، و كذلك السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٢٧٧)، و كذلك مكي في الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٧٧٥ - ٦٧٧٦)، و الواحدي الوجيز للواحدي (ص: ٩٨٩)

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٨٣٧).

[2] تفسير الهواري (٣/ ٣٨٦، بترقيم الشاملة آليا).

جوزي من الثواب صالحا، ومن ورد عليه منكم بعمل سيئ جوزي من الثواب سيئا.)[1]

و إن كان المفسر كالطبري أو غيره يومئ بتأويله الذي صورته العموم كاستعمال ألفاظ دالة على العموم مثل (عباد – أجمعون – الناس) و بدلالة الرجعة إلى الله بعد المات التي تطول الناس كلها، و كذلك لدلالة (من) أيضا و مع ذلك يشعرنا أحيانا أنه يقصد فريقين: فريق الجنة و فريق السعير: فيوحد الحسنات و ثوابها للمؤمنين و السيئات و عقابها للكافرين، فلا يدخل حسنات الكافرين و ثوابها، و لكنه يضطر تأويليا أن يرضخ لعموم دلالات الألفاظ و تراكيب الجمل أن يعبر عن معنى الآية بالعموم ثم يدخل مثال حسنات المؤمنين و سيئات الكافرين كأمثلة توضيحية، لأنه في حقيقة الأمر يجب أن يُدخل أيضا حسنات الكافرين و سيئات المؤمنين، فنعتبر تصريحه أحيانا أو إشارته أحيانا أخرى أنها من باب ضرب الأمثلة لا أكثر و لا أقل.

و كما سبق القول مرارا أنه لا ضير في اختزال المسألة من قبل جُل المفسرين في الجنة و النار و ما يلزم منهما أي فريق المؤمنين و فريق الكافرين لأن هذه الرؤية هي نهاية المطاف و لا تعود بالنقض أو الرد أو حتى المخالفة في اعتبار حسنات الكافر و ثوابها المتمثل في الموازنة ما بين حسناته و سيئاته لأن هذه هي حكمة خلق الجنة و النار و الناس.

– الماتريدي: (أي: ليجزي كل قوم بما كسبوا من خير أو شر، يجزي من عفا منهم جزاء العفو، ويجزي المحسن جزاء الإحسان، والمسيء جزاء الإساءة، والله أعلم.

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٦٨).

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ يخبر أن من عمل من خير فإنما يعمل لنفسه، ومن عمل من سوء فإنما يعمل على نفسه، يخبر أن من عمل من خير أو صالح فلنفسه سعى في الآخرة، ومن عمل من شر فعلى نفسه سعى في الآخرة،....

ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أي: ثم إلى ما وعد ربكم من الثواب والعقاب ترجعون.) [1]

- السمرقندي: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ يعني: ثوابه لنفسه وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها يعني: عقوبته عليها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.) [2]

- ابن أبي زمنين: (من عمل صالحا فلنفسه أي: يجده عند الله ومن أساء فعليها أي: فعلى نفسه.)[3]

- مكي: (مَنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ، أي: لخلاص نفسه يعمل،....

وَمَنْ أساء فَعَلَيْهَا، أي: ومن عمل عملاً سيئا فعلى نفسه جنى.../ .... ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ أيها الناس. تُرْجَعُونَ، (أي: تردون) في الآخرة فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.) [4]

- الطوسي: (أي لا يخافون عذاب الله إذا أنالوكم الاذى والمكروه، ولا يرجون ثوابه بالكف عنكم.)[5]، و قال أيضا: ((من عمل صالحا) يعني طاعة وخيرا (فلنفسه) لان ثواب ذلك عائد عليه (ومن اساء) بأن فعل المعصية (فعليها) أي على نفسه لان عقاب معصيته يناله دون غيره.

---

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٢٢١).

[2] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٢٧٨).

[3] تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٢١١).

[4] الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٧٧٨ - ٦٧٧٩).

[5] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٩/ ٢٤٥، بترقيم الشاملة آليا).

ثم قال (ثم إلى ربكم ترجعون) الذي خلقكم ودبركم تردون يوم القيامة اليه أي إلى حيث لا يملك أحد الامر والنهي والضر والنفع غيره، فيجازي كل إنسان على قدر علمه.) [(١)]

قد جعل الطوسي موضع النفي هو رجاء المثوبة و لم يجعله كونهم مشركين أو كفار، و بمفهومه يكون المشرك الراجي ثواب عمله الحسن يكتب له، و سائر كلامه واضح جدا في تعميم الجزاء على نوع العمل لكل الناس.

- السمعاني: (من عمل صالحا فلنفسه أي: نفع ذلك يعود إليه. وقوله: ومن أساء فعليها أي: وبال ذلك عليه. وقوله: ثم إلى ربكم ترجعون أي: تردون.) [(٢)]

- ابن عطية: (لما تقرر في التي قبل هذه أن الله يجزي قوما بكسبهم ويعاقبهم بذنوبهم واجترامهم، أكد ذلك بقوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ.) [(٣)]

إشارة لأن المشركين كما يتعلق بهم المجازاة على سيئاتهم فهم يدخلون في المجازاة على الأعمال الصالحة أيضا.

- الرازي: (ثم ذكر الحكم العام فقال: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً لِنَفْسِهِ وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْهَا مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على إيذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل، فبين تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله، والعمل الرديء

---

(١) نفسه (٩/ ٢٤٦، بترقيم الشاملة آليا). تفسير أبي بكر الحداد -كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٢٧٠٧).

(٢) تفسير السمعاني (٥/ ١٣٨).

(٣) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٨٣).

يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع إليه، وهذا ترغيب منه في العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل.)[1]

و هذه نكتة دقيقة من الرازي أن العمل الصالح يعود نفعه على النفس هو حكم عام يدخل فيه بمقتضى السياق عدم الإيذاء للغير و المغفرة للغير، فكان نصيب ضرب الأمثلة بالنسبة للمؤمنين هو المغفرة للمشركين فيما يؤذون فيه المؤمنين، و نصيب المشركين من الأمثلة هو فعل الإيذاء لجماعة المؤمنين، و عليه فلو كف المشرك عن إيذاء المؤمن من باب صلة الأرحام و مكارم الأخلاق فضلا عن امتثال أمر الله فهو عمل صالح يجني ثماره سواء في الدنيا أو الآخرة، و قرينة تعيين الفعل جاءت من جواز المغفرة من المؤمنين و هو لا بد عمل دون الشرك و يخص جانب التعامل ما بين الناس و لذلك اجتمعت كلمة المفسرين أنه كان شتم أو سب أو إيذاء، و الشاهد أننا نتحدث عن أعمال دون الشرك قد توعدهم الله بها و حثهم على تركها منوها عن صلاح العمل فيها و ما يترتب عليه.

- أحمد بن عمر: (الله تعالى يجزي كل قوم جزاء عملهم، كما قال: لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [الجاثية: ١٤] من الخير والشر.) [2]

الشاهد تنويع جواز تعلق صفتي الخير و الشر لنفس القوم مع تمايز الجزاء على كل منها يعطي نتيجة قطعية على أن الكافر مجازى على ما يفعله من خير أو شر.

---

[1] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٦٧٤). و انظر أيضا تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ١١٢).

[2] التأويلات النجمية لأحمد بن عمر (٦١٨) (٣/ ٣٥٠).

- البيضاوي: (**ليجزي قوما بما كانوا يكسبون علة للأمر،** والقوم **هم** المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما **فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيوع،** والكسب **المغفرة أو الإساءة أو ما يعمهما.**

من عمل صالحا فلنفسه **ومن أساء فعليها** أي لها ثواب **العمل وعليها عقابه. ثم إلى ربكم ترجعون** فيجازيكم على أعمالكم.) (١)

من أدق و أحكم التفاسير لهذه الآية لأنه احتكم لدلالة و قوة ظهور المعنى في الآيات ففصَّل ما يجوز إدخاله فيها فكانت النتيجة: شمول المؤمن و الكافر فيها، و أن التخصيص بالمؤمنين أو الكافرين ليس رد للتعميم بل هو من باب التمثيل فقط، و هذا ما ينبغي فهمه من كلام العلماء عند إيرادهم فريق واحد فقط خاصة أنهم يميلون لأن يذكروا المؤمنين حين ورود موضع للحسنات أو الثواب، و كذلك يذكروا الكفار حين مورد السيئات أو بالعقاب عليها.

- النسفي: (**مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا أي لها الثواب وعليها العقاب ثُمَّ إلى ربكم ترجعون أي الى جزائه**) (٢)

- ابن كثير: (**فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالكم السيئة في الآخرة،** ولهذا قال تعالى: (**من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) ثم إلى ربكم ترجعون أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون**

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٠٦). و تفسيره في حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٧/ ٤٢٣).

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٣٠١).

بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.) [1]

و بالطبع لا ندعي على ابن كثير أو غيره أنه لم ينتبه لأنه خصص بغير مخصص، لأن توجيه الخطاب و الضمائر واحد في الآية فكيف نخصص العمل الصالح للمؤمنين فقط و العمل السيء للمشركين فقط، و إنما يوردون ما يُفهم منه ابتداء التخصيص و هو ليس كذلك بل هو تضمين سبب النزول و استغلال للسياق التاريخي في تفسير الآية فقط، نعني إيذاء المشركين للمؤمنين في مكة فكأنهم قيدوا عموم الآية على سبب النزول أو ما في معناه لأنه أظهر و أقوى في معنى الآية، و لا يلزم منه التخصيص أو التقييد بل الحق هو حكم عام للناس كلها، ثم جاء الأمر بالمغفرة في سياق المشركين فلا بد أنه أولى الأمثلة و المصاديق للدخول في معنى الآية و مقتضاها، و عند تشريح موقف الإيذاء نجد أنه مشرك يؤذي مؤمن، فلا بد أن المؤذي هو المسيء و المتوعد على عمله، و الغافر هو المؤمن و الموعود على عمله، و يمكن تبادل الأدوار ليقتضي تبادل الوعد و الوعيد، فإذا كف المشرك يده و لسانه عن المؤمنين مع القدرة على ذلك فلا بد أنه عمل صالح، و كذلك إذا آذى المؤمن المشرك بلا حق فهو متوعد على هذا و عمله يكون سيء.

- المهايمي: لِيَجْزِيَ قَوْماً لم يجدوا جزاء أعمالهم الحسنة والقبيحة في الدنيا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من هيئات الأعمال لأرواحهم من ذلك اتفق العقلاء على أن مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ أي فهو تحسين منه لروحه وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي فالصفة القبيحة منه واقعة عليها) [2]

---

[1] تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٢٤٥).

[2] تفسير المهايمي المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان ت ٨٣٥ هـ (٢/ ٢٦٧).

- النيسابوري: (ثم فصل الجزاء وعمم الحكم بقوله مَنْ عَمِلَ صالِحاً الآية.) [1]

- السيواسي: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ أي فثوابه لها وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي فعقوبته عليها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ جميعا فيجازي كلا بعمله من الإحسان والإساءة.) [2]

- الجلالين: (من عمل صالحا فلنفسه عمل ومن أساء فعليها أساء ثم إلى ربكم ترجعون تصيرون فيجازي المصلح والمسيء) [3]

- ابن التمجيد: (قوله: فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيوع. أي التنكير في (قوما) للتعظيم على أن يراد به المؤمنون أو للتحقير على أن يراد به الكافرون أو للشيوع على أن يراد به الفريقان جميعا وكذا المراد بالكسب المغفرة على أن القوم هم المؤمنون والإساءة على أنهم الكافرون أو ما يعم المغفرة والإساءة على أن المراد بهم جميع الفريقين.

... فإن كان المراد بـ قوما المؤمنين يكون التقدير ليجزي الخير وإن كان كافرين يكون التقدير ليجزي الزمان كان المراد به مجموع الفريقين يكون التقدير ليجزي الجزاء على أن يراد بالجزاء ما يجزى به من الخير والشر...) [4]

- البقاعي: (وعبر في موضع أساؤوا إليهم بقوله تعالى: لا يرجون أي حقيقة ومجازاً، والتعبير في موضع الخوف بالرجاء لما فيه من الاستجلاب والترغيب والتأليف والاستعطاف،...

---

[1] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ١١٢).

[2] عيون التفاسير للفضلاء السماسير للسيواسي ت ٨٦٠ هـ (٤/ ١٠٤).

[3] تفسير الجلالين (ص: ٦٦٢).

[4] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٧/ ٤٢٣).

... وعبر بالاسم الشريف تنبيهاً على ما له من الجلال والجمال في معاملة كل منهما،...) [1]، و قال أيضا: (يكسبون أي يفعلون على ظن أنه ينفعهم أو بسبب كسبهم من خير أو شر،...)[2]، و (ولما رغب سبحانه ورهب وتقرر أنه لا بد من الجزاء، زاد في الترغيب والترهيب بأن النفع والضر لا يعدوهم فقال شارحاً للجزاء: من عمل صالحاً قال أو جل فلنفسه أي خاصة عمله يرى جزاءه في الدنيا أو في الآخرة ومن أساء أي كذلك إساءة قلت أو جلت فعليها خاصة إساءته كذلك،...... فأخر الجزاء إلى اليوم الموعود)[3]

و استنبط البقاعي بحسه البلاغي دلالة الرجاء بدلا من الخوف أو دلالة تموقع الرجاء في موقع تفسير التعدي و إلحاق الأذى بالمؤمنين أنه بغرض (الاستجلاب والترغيب والتأليف والاستعطاف) و لذلك اتبعه بتأكيد توقيع الجزاء على كل ما اكتسب شيئا و لقوة المعنى و إبهامه و تجريده تجاه العموم قد ألحق به ما يفصل نوعية الجزاء و نوعية العمل، أن من عمل صالحا فلنفسه يعود الجزاء و كذلك من أساء سيعود عليه الجزاء بما لا يحب، و سيجدون هذا عندما يرجعون إلى الله، و الشاهد أن الكفار و المشركين داخلون في عموم الجزاء المنوط بنوعية العمل أي الصالح و السيء.

فمجمل تأويل البقاعي للآيتين هو للفريقين المؤمنين و الكافرين على جريان في اتجاه واحد لا يفترقا كما فعل بعض المفسرين، إذا وجد موطن للتمدح قصره على المؤمن و إذا كان للذم قصره

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٨/ ٧٨ – ٧٩).

[2] نفسه (١٨/ ٨٠).

[3] نفسه (١٨/ ٨٢ – ٨٣). و انظر أيضا مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٤٠٠).

على الكافر، فيجعل العمل الصالح لا يكون إلا من المؤمن، بينما السياق و بلاغته و ما يحويه من موجهات دلالية نجد أنه يلتحف على كلا الفريقين فيظهرهم بالمقابلة في جميع المواطن، فإنهما ما بين متعد و متعد عليه، مؤمن و غير مؤمن، عمل صالح و آخر سيء، و بالطبع الجزاء و الكسب و الرجوع لا يمكن لأحد أن يتنصل منه فهو ظاهر جدا أنه لكلا الفريقين فلا يمكن التصرف في معناهم لقصره لفريق على فريق، فالحاصل أن التعدي على المؤمنين عمل سيء و كسب لا بد من المجازاة عليه، و كذلك عدم الاعتداء على المؤمنين عمل صالح و كسب لا بد من الجزاء عليه، ناهيك عن ظهور المعنى في حق المؤمنين فقد أمرهم الله فمن استجاب فقد عمل صالحا و من لم يأتمر فقد أساء، لأن الله لم يجعل لهم خيارا بأن يغفروا أو لا يغفروا فيتيح لمن أراد الانتصار لنفسه فليفعل بل الكل مأمور بالغفران.

- الشيخ علوان: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ أي يعود نفعه اليه وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وبال إساءته ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ جميعا يحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم بمقتضاها) (١)

- أبو السعود: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها لا يكاد يسري عمل إلى غير عامله ثم إلى ربكم مالك أموركم ترجعون فيجازيكم على أعمالكم خيرا كان أو شرا) (٢)

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٣١٤). و بنحوه في فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ٢٦٧). و تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ١٤١، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٧١). نفسه في البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٣٠٦). و التفسير المظهري (٨/ ٣٨٣). و روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٥/ ١٤٨). و تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٨/ ٤٢٨)

- إسماعيل حقي: (مَنْ عَمِلَ صالحِاً وهو ما طلب به رضى الله عنه تعالى فَلِنَفْسِهِ أي فنفع ذلك العمل الصالح وثوابه لنفسه عائد إليها... تُرْجَعُونَ تردون بالموت فيجازيكم على أعمالكم خيرا كان او شرا فاستعدوا للقائه ففيه ترغيب على اكتساب العمل الصالح وترهيب عن ارتكاب العمل السيء فمن الاول العفو والمغفرة للمجرم وصاحبه متصف بصفات الله تعالى ومن الثاني المعصية والظلم وصاحبه متصف بصفات الشيطان...)(١)

و هذا مثال للمفسر (إسماعيل حقي) الذي يرضخ لمقتضى دلالة النظم فلا يبرحه لغيره احتكاما لمعناه و ظهور دلالته، فهو قد عمم المتعلقين بالعمل الصالح و السيء ثم بعد الفراغ من التفسير مثّل للنوعين بأمثلة تأويلية من دلالة السياق في الآية، و لم يجعله هو عين المقصود.

- القونوي: (ولم يخص بالمؤمنين لأن المؤمنين كما ذكروا في قوله: قل للذين آمنوا كذلك ذكر الكافرون في قوله للذين لا يرجون أيام الله فالتخصيص بالمؤمنين كما في الكشاف وتبعه صاحب الإرشاد ليس في محله) (٢)، و قال أيضا: (قوله: (من عمل صالحا) جملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء خيرا كان أو شرا وهذا يؤيد قول المص والقوم هم المؤمنون أو الكافرون الخ. كما أيده ما قبله.)

و ما دام هناك استرواح دلالي ذو فيض عريض لأن يقبل التخصيص مرة بالمؤمنين و مرة بالكافرين و مرة بالفريقين جميعا، فلما إذن تخصيص (من عمل صالحا) أن يكون من المؤمنين

---

(١) روح البيان (٨/ ٤٤٢).

(٢) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٧/ ٤٢٣).

فقط، و أن (من أساء) هو الكافرين فقط، و لأنه قد ثبت الجزاء و الكسب جوازه للمؤمنين و الكافرين و الإثنين معا فمن المفترض أن يكون التعميم هو أولى في اقتضاء تعميمه لهما جميعا، و قد وصل الشأن بالقونوي لأن يجعل تخصيص المؤمنين ليس في محله.

- الصاوي: (قوله: لِيَجْزِيَ قَوْماً علة لما قبله، والقوم هم المؤمنون، وهو ما مشى عليه المفسر، وقيل: الكافرون، وقيل كل منهما، فالتنكير إما للتعظيم، أو التحقير، أو التنويع.... قوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ جملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء.) (١)

و هذا مثال للمفسر الذي يترك المعنى المراد متسع لأكثر من وجه للدلالة عليه و لا يوجد مرجح ليرجح أحدها على الأخر و هذا من آيات القرآن، و المرجحات الخارجية قد تتكافأ أحيانا في نظر المفسر و لكن يميل لأحدها على الأخر بدون تخطئة لغيرها، و الأسلم أن يتركها كما هي و يجوز الكل ما دام المعنى مستقيما و لا يعارض ما هو أقوى منه، فالأسلم هنا أن يكون مدلول (قوما) مطلقا و عاما يدخل فيه المؤمنون و الكافرون، و يكون تفصيل و بيان الجزاء لهما أيضا، و كل دلالة تُعطى من النظم تكون لهما أيضا فإذا كان وعيدا فهو على حقه لهما و يكون للكافر ليرجع و يرتدع و للمؤمن ليتذكر و يخشى، و إذا كان وعدا فهو للمؤمن استحقاق و أجرا و جزاء وفاقا، و للكافر على اعتبار أنه لو عمله يكون له ما وُعد به على العمل، و هنا نجد أن الجنة لا تأتي أبدا إلا و معها ما يقيدها من الإيمان و العمل الصالح لكي لا يغتر العامل من غير المؤمنين أن له الجنة بعمل صالح بل لا بد من الإيمان معه.

---

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٧٦٤، بترقيم الشاملة آليا).

- أطفيش: (مَن عَمل صالحا فلنفْسِه فعمله لنفسه ومَن أساءَ أذنب ومات غير تائب فعَلَيْها فعمله على نفسه، لا يتعدى عمل الى غير عامله، والآية في الموحد والمشرك،... إلى ربِّكُم تُرجَعون للجزاء.)(١)

- ابن عاشور: (قيل: والأظهر أن قوما مراد به الإبهام وتنوينه للتنكير فقط.

والمعنى: ليجزي الله كل قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم فيكون وعيدا للمشركين المعتدين على المؤمنين ووعدا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين، وهذا وجه عدم تعليق الجزاء بضمير الموقنين لأنه أريد العموم فليس ثمة إظهار في مقام الإضمار ويؤيد هذا قوله: من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها [فصلت: ٤٦]. وهذا كالتفصيل للإجمال الذي في قوله: ليجزي قوما بما كانوا يكسبون. ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف على سابقتها، وتقدم نظيره في سورة فصلت.

/ وقوله: ثم إلى ربكم ترجعون أي بعد الأعمال في الدنيا تصيرون إلى حكم الله تعالى فيجازيكم على أعمالكم الصالحة والسيئة بما يناسب أعمالكم.) (٢)

نلاحظ أن الطاهر ابن عاشور قد فسر الآية بما تقتضيها بلاغتها و مقتضيات دلالات تراكيبها، فجعل العموم هو الحَكم و الأظهر في المعنى سواء للفاعل أو الجزاء بنوعيه على نوعية الأعمال، ثم جعل نوعية العمل الخاص بالمشركين أنهم يعتدوا على المؤمنين، و أن العمل الخاص بالمؤمنين هو الصفح و التجاوز، فلم يجعل اسم الفاعل أو دين الفاعل هو علة لتعلق

(١) تفسير اطفيش - إباضي (١٠/ ٤٣، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

الجزاء أو تخصيص نوعية العمل، بل جعل نوعية العمل هي الحاكمة و المتبوعة لأن يتبعها الجزاء و الوعد و الوعيد و هذا هو محل الشاهد.

فأي مفسر يترك نوعية كسب العمل هي المحددة لنوعية الجزاء و توصيف العمل داخل سياق العموم فقد أصاب كبد حقيقة التأويل، و لا نظن أن أي عالم مفسر لا يكون هذا في وعيه و وجدانه حين يقبل على التفسير و لكنه يغلب عليه التمثيل بالمتبادر فيجعل المؤمنين مضرب المثل لكسب الأعمال الصالحة، و المشركين مضرب المثل لكسب الأعمال السيئة.

الآية رقم ٥

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى۝٣٨ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى۝٤١﴾ [النجم: ٣٨-٤١]

دلالة الآيات يؤكد على ثلاثة مراحل، الأولى السعي، الثانية رؤية هذا السعي مستقبلا، الثالثة الجزاء عليه، و هي تتسق مع غيرها من آيات أخرى، خاصة التي في الزلزلة المؤكدة على رؤية الأعمال بنوعيها الخير و الشر، فيكون سعي الإنسان هو حصيلة أعماله بنوعيها أي الخير و الشر، و يُفهم من الآية أن ما لم يكن سعيا فهو متجاوز عنه في رؤيته و في الجزاء عليه، و بانضمام دلالة هذه الآيات مع التي في الزلزلة ينتج أن رؤية الأعمال من الخير و الشر لا تعني المجازاة حرفيا و لكن بالتضمن لأنه ما دام تغاير في وصفه إلى خير و شر فقد اكتسب صفة المجازاة، و على ذلك تكون آية الزلزلة جامعة ببلاغتها الحشدية لتلك الدلالتين، أي رؤية السعي (العمل) ثم تتضمن رؤية السعي التصنيف ما بين الأعمال (الخير و الشر) فيكون قد حقق الرؤية، و من التصنيف هذا يتضمن و يلزم منه المجازاة أيضا لأن الرؤية قد تعدت لرؤية العمل في ذاته سواء خيرا أو شرا، و لرؤية الخير و الشر المترتب على العمل و هو ما يرادف معنى المجازاة، لأن المجازاة لا تخرج عن كونها خيرا أو شرا.

و من دلالة إضافة السعي للإنسان العموم المطلق المستغرق لكل ما يصدق عليه وصف إنسان، و الإنسان أعم من كونه مؤمنا أو كافرا، و السعي وصف مجرد عن كونه خيرا أو شرا، و بهذا التركيب تأكيد بالغ على أقصى تصور للتعميم، و بالإضافة إلى التأكيد على رؤية مسعاه يزيد معنى التعميم، و بوجود (ثم) في قوله تعالى: ثم يفيد اعتبار سعي الإنسان العام، أي أن

العمومية طالت الفاعل و المفعول، **فالعمومية طالت السعي و طالت الساعي بأبلغ صيغ التجريد و التعميم، و ترتب الجزاء على هذا التعميم بفاصل تراتبي استحقاقي المستفاد من حرف ثم و من أراد أن يقيد أو يخصص فعليه الدليل القاطع، لأن معنى الآيات يتضمن لزوما سعي الكافر و الجزاء عليه، فمن أراد التخصيص فعليه أن يثبت أن الإنسان هنا هو الكافر، و أن السعي هنا هو أعماله السيئة فقط.**

و في هذه الآية تقرير العدالة و عدم الظلم و البخس بقوله تعالى الأوفى و هو صفة للجزاء، و الجزاء ترتب على السعي، و السعي صفة للإنسان، و بهذا فإن سعي الكافر الحسن سيراه و يجازى عليه الجزاء الأوفى.

- **و الآية هنا بينة في توحيد المتعلقات لمرجوع واحد فقط و هو** الإنسان **فلا مجال و لا فرجة للتأويل بتبعيض نوعية الإنسان لمؤمن و كافر، و لا لمتعلق مما ذكر في الآية كالسعي و رؤيته و الجزاء عليه،** فلا يمكن تشقيقه أو تفريقه لخير و شر خاص بمؤمن و كافر، **بل** واحدية المسند إليه تحتم واحدية متعلقاته **أي ما أسند إليه من سعي و رؤية و جزاء، و من العموم في هذه المتعلقات ندلل على شمولها نوعي السعي بالخير و الشر و كذلك نوعي الجزاء الخاص أي على كل مثقال ذرة من عمل، و العام أي على حصيلة ما تبقى بعد الموازنة فيكون الجزاء العام للجنة أو للنار.**

- **و كل مفسر قد جعل الرؤية هي رؤية عمله في ميزانه فهو يؤكد مضمون الموازنة، لأن الجزاء بعد الرؤية، و الجزاء بعد الرؤية لا يخرج عن كونه جنة أو نارا، فالكافر الذي وعد برؤية سعيه الخير في ميزانه فلا بد أن يكون له** مردود خير في الميزان، **و هذا هو معنى الموازنة بأن حسناته**

تذهب بقدرها سيئاته فيخف عنه قدر استحقاق العذاب.

- و كل مفسر لم يتجاوز هذا العموم إلى تأويله لتخصيصه أو تقيده فهو مقر على التعميم، سوف ننقل تفسيره، و كل ما أضاف تفصيلا و توضيحا أو ربطا لمواضع أخرى من التفسير سننقل قوله، و بالطبع فهناك شبه إجماع من المفسرين على أن للكافر أعمال (سعي) حسنة أو حسنات، منهم من قال يستوفاها في الدنيا فقط، و منهم من جعلها في الدنيا و الآخرة، و عليه فهؤلاء العلماء يقرون أنه سيرى عمله الحسن و سيجزاه الجزاء الأوفى باللزوم.

- و يجب التنبه جيدا أن صفة الإنسانية التي علق الله عليها السعي و الجزاء عليه و توفية هذا الجزاء هي صفة عامة جدا لدرجة أن توصف بالخلق كما في قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤] و ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] و ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]

و هذه الأوصاف التي أسندت للإنسان في هذه الآيات كانت قبل أن يتمايز هذا الإنسان إلى مؤمن و كافر كما في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢] أي أن الإنسان أعم من أن يكون كافر أو مؤمن، و بمعنى آخر فالإنسان هو الوصف المشترك ما بين الكافر و المؤمن، و عليه فسعي الإنسان هو سعي الكافر و المؤمن، و رؤية هذا السعي يوم القيامة هو للكافر و المؤمن، و الجزاء على هذا السعي هو جزاء للكافر و المؤمن، و توفية الجزاء هي للكافر و المؤمن.

و باستحضار خفة و ثقل الموازين و ترتب الجنة و النار عليها كما في قوله تعالى ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، يتضح أن صفات الخفة و الثقل للموازين صفات عامة و مطلقة و مَشَاع أي أنها قابلة لأن يتحلى بها نوعي الإنسان كإنسان و بها يتمايز إلى المفلح أو الخاسر، و هذا فيه دلالة على أن الاعتبار في التصنيف قائم على خفة و ثقل الموازين و ليست على الأسماء، أي لم يجري المعنى على أنه فالذين آمنوا ثقلت أو تثقل موازينهم فأولئك هم المفلحون و أن الذين كفروا خفت أو تخف موازينهم فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، ليترك الجواز و الإمكان لأن يلحق الإنسان لأي من الجانبين، و إن كان الحادث أن المؤمن للجنة و الكافر للنار لأن هذا القطع بهذه الصورة مبني على توثيق خفة و ثقل الموازين و ليس على مجرد الأسماء بأن هذا مؤمن و هذا كافر، لأن المعايير بالأوزان و ليست بالأسماء.

أي عندما نقول أو يقال أن المؤمن سيدخل الجنة فعلى أنه لا بد أن تثقل موازينه، و كذلك في الكافر فلا بد أن تخف موازينه ليدخل النار، فمن هذه العلاقة القائمة ما بين الخفة و الكفر من جهة، و بين الثقل و الإيمان من جهة أخرى يتأكد القطع و حتمية الملازمة ما بين الإيمان و الثقل و الجنة، و الكفر و الخفة و النار، و لذلك في الأحكام الدنيوية قد يتخلف هذا الحتم و التلازم، فقد يكون من هو ظاهره الإيمان و هو منافق في الدرك الأسفل من النار، و قد يكون هناك من يحكم عليه بالكفر ظاهرا و هو من المستضعفين المؤمنين أو لم يحسن إعلامنا بإيمانه فحكمنا عليه بالكفر، و الشاهد أن الموازين هي الفيصل و ليس قولنا هذا يلزم منه أن في الميزان قد يتبدل الأمر لكونه غير متوقف على الأسماء فلا عبرة بها، فقد يثقل موازين الكافر فيكون من المفلحين، و قد يخف موازين المؤمن فيكون من الأخسرين، فليس هذا بلازم لنا بل المقصد من التأصيل أن الموازين معتبرة لكل إنسان في جهتي الخير و الشر و أنه لا ظلم لأحد حتى و لو

كان مثقال ذرة، فالميزان واحد للكافر كالمؤمن تماما و الوزن كذلك هو واحد للمؤمن كالكافر.

أما الذي يختلف هو الموازين فقط لأنها تمثل السعي و الأعمال التي كانت في الدنيا، و السعي و العمل هو الذي يميز ما بين المؤمن و الكافر بالنظر إلى الجنة و النار أي الثقل و الخفة، أما باعتبار الأعمال المفردة **فهي مكفولة** للمؤمن و الكافر على حد سواء، **و لأن كفر الكافر هو الذي يجعل مسعاه دائما أو غالبا نحو الشر فيُترجم لأعمال السوء لتلازم الظاهر بالباطن فيكثر في أعماله السوء لا محالة، و لأن ماهية الإيمان منوطة بماهية العمل فهما يقعان في الوجود على سبيل التكرار و لذلك يقال أعمال بصيغة الجمع، و يصدق عليه مثقال الذرة و هي أصغر ما يمكن تصوره للماهية فهذا يدل على مدى** سعة مصاديق الأعمال في التكرار و التنوع أي كما و كيفا، **و بدلالة اعتبار مثقال الذرة من العمل يكون دلالة تحقق الإيمان المقرون أو الباعث على العمل المصحح للعمل فيستتبعه الجزاء عليه.**

فالشاهد أن ماهية الإيمان التي تصاحب مثقال الذرة من العمل و المصححة له كيف يمكن تصورها مع مثقال الذرة من العمل؟ لا بد أنها مكافئة له في مِثْقَاليتُه و ماهيته و اعتباره و استحقاقه الجزاء عليه، و اعتباره من صفة الإنسانية أي قبل كونه مؤمنا أو كافرا يدل بدلالة قاطعة أن ماهية الإيمان العملية تصح من الكافر كما تصح من المؤمن على حد سواء، **لأن الثلاثة أركان متحققة فيها،** الله و الإنسان و شرع الله، **فمن هذه الحيثية فأي عمل هو محل اعتبار من الإنسان فإن كان خيرا فخير و إن كان شرا فشر.**

أما التمايز **الذي يستدعي إطلاق** تسمية **الإنسان مؤمن و كافر فهي تعتمد على الكم و النوع،**

و أهمها نوعية العمل القلبي الخاص بالتسليم و الخضوع و التذلل أي بما يسمى إجمالا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له، فهذا عقد للقلب على ديمومة الامتثال بالقبول و التصديق لكل أمر لله عُلم في الحال أو في المآل، أي بالحاضر و الغيب ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] و ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، و أنه كلما ازداد علما بآيات الله ازداد إيمانا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] و ما دام تم إناطة الزيادة في الإيمان بالزيادة في عدد الآيات، و قابلية الإيمان لإحداث زيادة فيه منوطة بسماع آيات الله، فهو متجدد و حادث بحدوث سماع آياته، و كثيرا ما أناط الله الإيمان في كتابه بما ذكره من أعمال إما أن تكون دالة عليه و محققة له أو حادثة له، و أيا كان فالإيمان منوط بالأعمال من جهة التقوي و الازدياد و التحقيق و كل هذه دلالات تقوي مبدأ استقلالية الأعمال في الاعتبار بما يقارنها من إيمان خاص بها يجعله مستحقا للجزاء عليه لأنه حقق إيمان الإنسان بالله بهذا العمل، أي أن الإنسان في هذا الحيز الزمني الذي استغرقه عمله القلبي و الجوارحي كان فيه مخلصا لله به، إما إخلاصا تاما أو إخلاصا خاصا، و على كلا الحالتين فهو عمل إيماني مقبول يستحق عليه جزاء مقيد بدونيته عن أن يكون الجنة إلا أن يقصد به الديمومة بهذا العمل و غيره من أعمال، و مثاله الجلي حال المشركين بإخلاص الدين لله فقد وصفهم الله بما قاله عنهم: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

و باعتبار ما ذكره الله عن المشركين في حال إخلاص الدين له بالدعاء نجري بهذه الدلالة الاعتبارية **على قدر علمنا نحن البشر مع بعضنا البعض، فأي إنسان كان علمناه أ وقفنا عليه** يعمل عملا قد شرعه الله و أمر به فهو معتبر منه على قدر علمنا بظاهر حاله دون باطنه، **فنكل باطنه لله فهو يعلم هل هو أخلص الدين لله بهذا العمل أم لا، أما نحن فنُعمل غلبة الظن بهذا،** و هذه أقل دلالة يجب الأخذ بها من هذه الآيات، **أما من المحتمل أنه قد أسلم لله بهذا الإخلاص العملي فنعتبره مسلما حتى نقف على عمل آخر يكون فيه مخالفا لأمر الله يكون فيه شركا فيصير مشركا كما كان من قبل، لأن الله وصفهم بعد وصولهم للبر أنهم أحدثوا شركا و منهم من اقتصد، أي أن أحوالهم متفاوتة في العودة للشرك مرة أخرى**، و المفهوم من ذلك لزوما أنهم لو لم يحدثوا شركا جديدا لكانوا على إخلاصهم الدين كما أحدثوه و هم في البحر، و الذي يعنينا بالمقام الأول أن نقرهم على أعمالهم الحسنة و نتعاون معهم عليه و نبني عليه ما يستتبعه من أحكام أخرى قد وضعها الله لنا كتكليف.

- **عقد القلب على الديمومة و ما يلزمها تصديقا لها من أعمال** يقابله الخلود الجزائي، **إما في النار إن كان كفرا و إما في الجنة إن كان إيمانا، و بما أن** القلب متقلب فلو كان العمل إيمانيا فهو له و إن كان كفريا فعليه، **كل على ما يستحقه من الخلود بما عقد عليه قلبه، و يظل كل إنسان على حاله بما عقد عليه قلبه حتى يبدله فيتبدل معه الخلود في دار جزاؤه فإن كان للإيمان فللجنة** و إن كان للكفر فللنار، و تظل منظومة الأعمال كما هي إن كان خيرا فله خيرا و إن كان شرا فله شرا.

و بالنظر للكافر الذي لا يؤمن بالله أو بالآخرة و الحساب و الجزاء فلن يقدم على عمل لا يكون له منفعة حسية مباشرة في الحياة الدنيا، و هذا لا يمكن تصور وقوع أعمال صالحة دينية منه بهذا الاعتبار، أما الأعمال التي لها صدى أخلاقي باعتباره إنسانا مع إنسان أخر فهو من باب الأعمال الصالحة التي تدخل في عدم الإفساد في الأرض و إصلاحها و تعميرها و عدم الضرر بغيره و ما شابه ذلك، و منها ما هو صريح في القرآن كَبِر و إحسان الوالدين فهي وصية إلهية للإنسان لأنه وصى فيه الإنسان ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ﴾ [الأحقاف: ١٥]

و من هذه الوصية الملزمة للإنسان نستنبط أن هناك علاقة اعتبارية من جهة العمل و قبوله من الإنسان حتى و لو كان غير متبع للوحي من الرسل، فقد يكون لهذه الوصية بعدا روحانيا خاص بهيئة خلقة الإنسان أو هي نوع من أنواع الغريزة، و الشاهد أن صدور الإحسان للوالدين من الإنسان هو من باب الوصية الإلهية، و المشاهد أن بعض الإنسان لا يؤمن بنبي أو رسول أو كتاب بمعنى لا يتبع في إحسانه بوالديه شرع الله أو أمره المباشر عن طريق رسول أو نبي أو كتاب سماوي، و لكنه ما زال يعمل بالوصية الإلهية موافقة فطرية، و من جهة دلالة أن الله هو الذي خلقه على فطرته هذه، و من جهة أخرى أن الله لا يأمر بالفحشاء و السوء و البغي بل يأمر بالإحسان و البر **فلا بد من صلة** تتقاطع فيها الإرادة الإلهية بخلق الإنسان و

فطرته و إرادته التشريعية لأنها من إله واحد هو الله و هذا مخلوقه و عبده، **و من هذه الحيثية يكون عمل هذا** الإنسان معتبرا و له وجه من الاعتبار و القبول العام **حتى و لو وقع منه موافقة فطرية أخلاقية إنسانية فبالنهاية هو من صنع الله و خلقه و ما فطره عليه، و قد أوقع عمله على مراد الله سواء كان بالفطرة الخلقية أم بالأوامر الشرعية، خاصة أنه غير مجبور على الإحسان أو الإساءة، فمعنى أنه يفتعل الإحسان و يرجحه في الوقوع على الإساءة فقد امتثل أمر الله الخِلقي** و الخُلقي بدون قصد امتثال أمر كتابي أو تبليغي من رسول أو كتاب إلهي، **لأن الرسل و الكتب هي للهداية أي** وسيلة و أداة تذكير، **و لذلك اكتفي من الأحناف بما بلغوه بالفطرة و العقل من إخلاص لله و عدم الشرك به.**

و من هذا الباب و الاستدلال له: كل عتاب أو أخذ أو توبيخ أو ذم للمشركين و الكفار على عمل ما نزل به قرآنا فإنه يدل على أنهم موصوفون بهذه الأوصاف قبل بلوغهم هذا القرآن، **لأنه لو لم يكن كذلك لكان يأتي توصيفا أولا لما يقترفوه ثم يشرع في وصفه و وصف فاعله و من ثم الأمر باجتنابه، بمعنى آخر أنه كان ليأتي على سبيل تنبيههم بالوصف المجرد عن أوصاف الذم و الأخذ ثم يتبعه بما يستأهله وصفا و حكما و جزاء.**

و بالنظر لمدى اتساق قول من قال أن الكافر يخرج بلا حسنة من الدنيا و أن ميزانه ليس موضوعا للوزن بل لافتضاحه فقط لأنه لا يوجد له حسنة كي توزن، يجده غير متفق و لا متسق مع ظواهر الآيات العديدة المتضافرة على تقعيد عدة مبادئ منها: الخفة و الثقل فهما يدلان على تفاوت تقديري معين و محدد يشترك فيه المؤمن و الكافر فلا نعلم نصا و لا دليلا يعين ميزان للمؤمن و ميزان للكافر، و لا نعلم وضع ميزان للحسنات و ميزان للسيئات، فلا

بد من كونه واحدا للناس كلها فتوزن أعمالهم بوزن القسط على هيئة موازين فمن خفت موازينه فللنار و من ثقلت موازينه فللجنة، و هنا دلالة الجنة و النار تعود على الموزون و هي الأعمال.

و بالنسبة لإظهار أصحاب هذا القول أنه لافتضاحه و تحسره فلا موضع لهذه الدلالة يتسق و يتفق مع كثرة المراحل التي يتحقق فيها هذا على رؤوس الأشهاد قبل مرحلة الموازين فيكفي تقرير و تحقيق مرحلة واحدة ظاهرة الدلالة و هي قراءة الكتب و الحساب، و غيرها ممن وضح فيه هذا المعنى كصدور الناس أشتاتا أي متفرقين على قدر منزلتهم بدءا من قولهم فريق للجنة و فريق للسعير، و غيرها الكثير من المشاهد و المواقف التي يفتضح فيها الكفار بظهور حالهم و مآلهم و من هنا يتضح عدم اتساق هذا التأويل التعليلي.

أما نكتة خروجه من الدنيا بلا حسنة فهذا غير دقيق المعنى، لأن الحديث الذي ثبت في ذلك جاء في سياق الجزاء الدنيوي على الأعمال و لم ينكر أو يمنع جزاء أخروي يوم القيامة، أو حتى لم يثبت أن الحسنة التي جوزي بها الكافر في الدنيا قد عُدمت و كأنها لم تكن، ناهيك عن المخالفة في أحد وجهي الدلالة مع الآية القرآنية التي تنص على أن هذه المجازاة على الأعمال بالنسبة للكفار في الدنيا خاضعة لمشيئة الله فليست قاطعة الحدوث لكل حسنة له في الدنيا ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، و المقصود بالحسنة المجازى عليها في الدنيا هي الطيبات التي ستحرم عليهم يوم القيامة كما في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ

تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

و هذا يوضح أن هناك فارق بين استعمال الحسنة و استعمال الطيبات، و الشاهد أنهم جوزوا على حسناتهم بالطيبات التي استمتعوا بها في الدنيا، فهذه المجازاة الخاصة على الحسنة قد بطلت و هلكت، فلم يبقى إلا أصل الحسنة و ما تقتضيه من مجازاة في الميزان بتخفيف قدر استحقاق العذاب، أي أن الحسنة و السيئة لها وجهان من التأثير الجزائي في الدنيا و الآخرة، السيئات في الدنيا يكون على هيئة المصائب ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، و الحسنات في الدنيا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦] و ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢] و أما التأثير في الآخرة ففي الحساب و الميزان و الموازين.

فالدلالة التي يقتضيها الاستلزام التركيبي لتصور كمالات المعاني من كل من: الحفظة و الكتبة في الكتب و الصحائف لأعمال الناس – قراءة هذه الكتب بعد البعث – صدور الناس أشتاتا – رؤية الأعمال المكتوبة – الحساب – الميزان – الموازين – الخفة و الثقل – الوزن يومئذ الحق – الدرجات و الدركات، كلها ترسم صورة واضحة الملامح بأن هناك اعتبار لكل مثقال ذرة من العمل خيرا أو شرا، و أقل دلالة معطاه بعد الجهد في التأويل التي لا تقبل الجدال فيها أن هناك جواز احتمالي قائم و غير مدفوع و لا ممنوع بأن يكون للكافر حسنة، و أنه لو كان له فهي معتبرة في كل هذه المراحل و المواضع التقابلية الناشئة من وجود الحسنات و السيئات، و هذا

مع التسليم بأن يوم القيامة لا يوجد لكافر حسنة فالتحقيق الواقع يوم القيامة هو من باب الإخبار الإلهي الذي لا يتخلف تأويله و لكنه لا يمنع من لحوق الكافر بعمل الحسن و الحسنات، لأن علم الله لا يلزم منه إجبارا و لا منع.

فعلم الله بأن فلان كافر لا يلزم منه أنه مجبور و مفطور على الكفر، فتظل هذه النفس المعلوم موتها على الكفر قابلة المحل من حيث الخلقة و الفطرة لأن تكون مؤمنة، فمشيئة هذه النفس في الكفر أو الإيمان تدل على حيادية خلقتها و قابلية محل تكليفها لأن يكون نحو الإيمان أو الكفر و إن كانت مشيئتها معلقة على مشيئة الله فلا تبطل مشيئة النفس لأن مشيئة الله السابقة على مشيئة النفس هي من باب التصرف في الكون و المخلوقات و ليس من باب الجبر و القهر و إلا لما أثبت لها حرية الاختيار من قبل ذلك و علق عليها الجزاء ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] و بمقرونية هاتين الآيتين أيضا يتضح ما سبق من تقرير ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] فالكافر المعلوم كفره سواء أُنذر أم لم يُنذر لا يؤمن و مع هذا فكل رسول و نبي مأمور أن ينذر كل الناس الذي هو واحد منهم و لا أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]

و هذه الازدواجية هي محل الشاهد في مسألتنا، فقد يكون الكافر يوم القيامة لا حسنة له تستدعي وزنا و لا وضع ميزان و بالتالي لا يستتبعها رؤية خير عليها فلا يكون هناك جزاء، و مع ذلك فهذا الكافر في الدنيا قابل لأن يتعلق به فعل الخير و البر و استحقاقه حسنات يجازى أو لا يجازى عليها في الدنيا فهذا راجع لمشيئة الله، **ثم يوم القيامة هذا** الكافر قابل لأن يتعلق به مكتوب لحسنات و وضع ميزان و رؤية خير على مثقال ذرة من خير قد عمله في الدنيا، فهذا التعلق و الاستحقاق في كل من الدنيا و الآخرة هو المطلوب إثباته من البحث، و هذا هو الدليل على اعتبار أعماله الحسنة الموافقة للشرع في الدنيا **لضبط تعاملنا** الشرعي **معه، ثم يوم القيامة فهو بين يدي الله الذي لا يظلم و لا يبخس أحدا شيئا، و هذا القدر من البيان هو المطلوب توضيحه.**

فوجه التماثل بين الموضعين أن الكافر الذي في الدنيا و الذي لا يؤمن سواء أأنذر أم لم يُنذر، قد أمر الله بإنذاره لإمكان إيمانه و احتماله القائم به، فكذلك الكافر الذي لا حسنة له في الدنيا و لا يوم القيامة فهو يظل محل قائما قابلا لأن يقع منه الحسنة، و عليه فإن محل الدلالة و الاعتبار هو في العمل الحسن نفسه **فإذا وقع فقد لزم منه قبوله و اعتباره لأن الله جعله محلا قابلا لأن يتصف به هذه النوعية من الأعمال،** و بهذا فلا اعتبار مؤثر لكونه كافرا على صحة عمله الحسن الواقع منه ما دام كان محلا قابلا لذلك.

و نحن بضربنا المثال لبيان وجه التماثل في الدلالة المقصود إظهارها لا يجب الاستدراك على مفردات المثال لأجل عدم تماثلهما في الجهتين لأن ضرب الأمثلة يكون غرضه دلالة واحدة تشبيهية لا أن الوضعين يتماثلا في كل الأحكام، فقد يستدرك أحدهم و يقول أن وقوع الإيمان

من الكافر مقبول و صحيح، أما وقوع الحسنة من الكافر فلا تقبل لكونه مخل بشرط الإيمان، فهذه مسألة أخرى تناقش في محلها في الدراسة، أما الغرض من المثال هو بيان أننا نتعامل مع الكافر بعلمنا أي بما يظهر لنا و على قدر استطاعتنا المعرفية، فنحن مأمورون ببلاغ الحق لكل كافر مع أنه قد يكون في علم الله من الذين لا يؤمنون، فالله لم يكلفنا في الدنيا بما اقتضاه علمه، فلم يعلمنا من الذي يؤمن و من الذي لا يؤمن كي لا ننذره أو حتى على أقله لا نطمع في إنذاره و إيمانه ما دام لن يؤمن.

فكذلك الكافر في الدنيا و الآخرة الذي لن يكون له حسنة (مع التسليم الجدلي) لأنه غير مقبول منه أي حسنة أو أنه لا يقع منه حسنه، فنحن غير مكلفين في الدنيا أن نعامله بعلم الله فيه، لأن على قول بعض العلماء أن أعماله الحسنة في كفره موقوفة بموته على الإيمان، و على ذلك يجب اعتبار أعماله الحسنة حال كفره بالنسبة لنا لأننا لا نعلم على ماذا يموت، و على قول البعض الأخر فإنها معتبرة فهو أقوى من سابقيهم في اعتبارها، و من جهة أخرى فإن الله قد أمر الكفار و عاب عليهم كثيرا من الأمور الشرعية منفصلة تارة و مجتمعة تارة، و معنى أمرهم بها هو كأمرنا بنذارتهم فهي قابلة الوقوع و الاعتبار حتى و لو كانوا لا يفعلوها في علم الله.

- مقاتل بن سليمان: (إلا ما سعى آية يعني إلا ما عمل في الدنيا وأن سعيه يعني عمله في الدنيا سوف يرى آية في الآخرة حين ينظر إليه ثم يجزاه الجزاء الأوفى آية يوفيه جزاء عمله في الدنيا كاملا.) [١]

- الشافعي: (ومعقول أن السعي في هذا الموضع: العمل قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى الآية. وقال السعي: العمل...) [٢]

- الطبري: (أوَ لم يُنَبأ أنه لا يُجَازي عامل إلا بعمله، خيرا كان ذلك أو شرّا.

... قال ابن زيد في قوله وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى، وقرأ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى قال: أعمالكم.

/ وأن عمل كلّ عامل سوف يراه يوم القيامة، من ورد القيامة بالجزاء الذي يُجازى عليه، خيرا كان أو شرّا...

... ثم يُثاب بسعيه ذلك الثواب الأوفى. وإنما قال جل ثناؤه الأوْفَى لأنه أوفى ما وعد خلقه عليه

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ١٦٥). و نقله الواحدي في التفسير البسيط (٢١/ ٦٧). غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ١١٥٨). التقريب في التفسير للسيرافي ٧١٢ هـ (ص: ٢٢٥٢، بترقيم الشاملة آليا). تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٢٠). تفسير الجلالين (ص: ٧٠٣). تفسير الكوراني - غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني ت ٨٩٣ هـ (٢/ ٣١). حاشية محي الدين زاده على تفسير القاضي البيضاوي ت ٩٥٠ هـ (٨/ ٢٤). فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٣٧ - ١٣٨).

[٢] تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٢٩٦). و مجاز القرآن (٢/ ٢٣٨). و غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٢٩). و تفسير الهواري (٣/ ٤٨٨، بترقيم الشاملة آليا). و الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري - معتزلي (ص: ٢٤٩). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٢٥/ ١٥٨ - ١٥٩). و نفسه في الهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧١٧٢).

من الجزاء، والهاء في قوله (ثُمَّ يُجْزَاهُ) من ذكر السعي، وعليه عادت.

وقوله وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وأن إلى ربك يا محمد انتهاء جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم.) [(١)]

و كلام ابن جرير واضح جدا في التعميم لكل من العمل و الجزاء عليه، و بدلالة إدخاله في سياق المخاطبين الوليد بن المغيرة و الذي ارتد عن دينه (كفار) أيضا و بتفصيله نوعية العمل و الجزاء للخير و الشر.

- الزجاج: (وَمَعْنَاه: ليس لِلإنسان إلَّا جزاء سعيه، إن عَمِلَ خيراً جزِيَ خيراً. وإن عَمِلَ شرًّا جزِيَ شرًّا..

وقوله عزَّ وجلَّ: وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى إن قَالَ قَائِلٌ: إن الله عزَّ وجلَّ يَرَى عَمَلَ كل عَامِلٍ ويعلمه، فما معنى (سَوْفَ يُرَى)؟ فالمعنى أنه يرى العَبْدُ سَعْيَهُ يوم القيامَةِ، أي يرى في مِيزَانه عَمَلَه. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى أي يجزي عمله أوفى جزاء.) [(٢)]

[(١)] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٥٤٦ - ٥٤٧).

[(٢)] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٧٦) لاحظ تخصيص الرؤية في الميزان كما في: تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني. و تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٣١٣). و نقل قوله في التفسير البسيط (٢١/ ٦٧ - ٦٨ - ٦٩) و ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٩٢ - ١٩٣). انظر أيضا اختيار الواحدي نفسه في الوجيز للواحدي (ص: ١٠٤٢). تفسير البغوي - إحياء التراث (٤/ ٣١٤ - ٣١٥). تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٣٩٦). تفسير أبي بكر الحداد -كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٢٨٦٣). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٢١٩). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ٤٤٨). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى

- الماتريدي: (يشبه أن يكون قوله: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى أي: ليس على الإنسان إلا ما/ سعى؛ لأنه - جل وعلا - يثيب ويعطي الزيادة على ما سعى بفضله وكرمه؛ كقوله - تعالى -: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، ونحو الصغار الذين لا سعي لهم، قد يعطيهم الثواب بفضله، وأما جزاء الشر، فإنه لا يكون إلا بالمثل؛ كقوله - تعالى -: فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا.

وجائز أن يكون له بمعنى عليه في اللغة؛ كقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا، أي: فعليها.

ويحتمل أن تكون الآية في أُولَئِكَ الكافرين الذين نزل فيهم قوله - تعالى -: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يقول: ليس لذلك الإنسان إلا ما سعى.

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى... أي: يرى جزاء عمله لا محالة.[1]

ثم قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ جزاء الآخرة على الوفاء، لا نقصان فيه، خيرا كان أو شرًّا.

ويحتمل أن يكون ذلك للكافر يجزى جزاء الشرك وجميع ما يعمل من السوء، فأما المؤمن، فإنه يكفر سيئاته، ويجزى جزاء الخيرات؛ كقوله - تعالى -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.)[2]

مزايا الكتاب الكريم (٨/ ١٦٣ - ١٦٤). مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٤٦٧). توفيق الرحمن في دروس القرآن (٤/ ١٧٦).

[1] انظر قول القرافي في (الفروق: ٤/ ٢٣٢) قال: (حصر ما له فيها هو من سعيه وكسبه). و انظر بيانه عند البسيلي في التقييد الكبير للبسيلي (ص: ٤٢٥).

[2] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٤٣٣ - ٤٣٤).

و ظاهر أن الماتريدي يوجه التأويلات ناحية التوفيق بين ظواهر الآيات و بين رؤيته عن أعمال الكافر عامة و حسناته خاصة بأنها حابطة فلا مدخل لها في صياغة التأويل و معناه، فبدأ بدلالة حرف (اللام) أن ظهورها يفيد التمدح و الوعد بالخيرية لاتساقها مع أسبابها المؤدية للخير، و لان هذا الظهور محتمل بدلالة آية أخرى وإن أسأتم فلها فقد مال بأنها في الذم ليسوغ قصرها على الكافر أو على أعمال السوء خاصة، و بمعونة قرينة أخرى و هي أن الله عندما يجازي على الحسنة يضاعفها من فضله و لمن ليس أهلا لها كالصغار، أما في المجازاة على السيئة فلا تعدو المجازاة غيرها، و بهذا نستشعر توجيه التأويل أن السعي هنا للكافر في سيئاته، و بقرينة أخرى و هي سبب النزول في شأن الكفار، هذا مجمل تأويلاته حتى عندما جاء للآية ثم يجزاه الجزاء الأوفى الذي ظهور معناها يميل نحو الوعد فقد جوز احتماله الوعيد بالنسبة للكافر و أما بالنسبة للمؤمن نحو الوعد، فقال مصرحا باحتمالية هذا التأويل ما نصه: (ويحتمل أن يكون ذلك للكافر يجزى جزاء الشرك وجميع ما يعمل من السوء، فأما المؤمن، فإنه يكفر سيئاته، ويجزى جزاء الخيرات؛ كقوله – تعالى –: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

و من **خلال الآية التي هي محل استشهاده** يتبين عدم لزوم تأويله و لا حتى رجحانه، لأن التجاوز عن سيئات المؤمنين لا يلزم منه حبط حسنات الكافرين، **بل التكرمة الخاصة بالمؤمنين هي أن الله يتقبل عنهم أحسن ما عملوا** و هذا لا يمنع أو يرد أن الله يتقبل العمل الحسن من الكافر و أنه لا يتجاوز عن سيئاته، **و هذا هو مضمون العدل و الموازنة و الميزان و الحساب بأنه على نسق واحد للكل بمعنى الذي سعى له الإنسان هو الذي يراه و هو الذي يجازى عليه،** أما

ما زاد عن ذلك فهو تكرمة لأهل الإيمان و إذلال لأهل الخسران، **و عليه يكون محل الشاهد أن الآية عامة و محكمة لكل إنسان على ما سعى به، و لا تحتمل التخصيص أو التقييد أبدا، لأنها من باب** العدل و العدل يتحتم منه المساواة في الاعتبار و الرؤية و الجزاء، و ما خلا ذلك فهو من التفضل و الكرم و هذا هو الذي يقتضي التخصيص بأهل الإيمان.

- السمرقندي: (**وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى يعني: ليس للإنسان في الآخرة إلا ما عمل في الدنيا من** خير أو شر. **وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى يعني:** يرى ثواب عمله **في الآخرة.ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى يعني: يعطى** ثوابه **كاملاً. وَأَنَّ إلى رَبّكَ المنتهى يعني: إليه ينتهي أعمال** العباد**، وإليه يرجع** الخلق **كلهم، فهذا كله في مصحف موسى، وإبراهيم.)** (١)

- الثعلبي: (**أي عمل كقوله تعالى: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**.../ **وقال** الربيع بن أنس: **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى يعني:** الكافر**، فأما المؤمن فله ما سعي وما سعى غيره له.**

وقيل: **ليس** للكافر **إلاَّ ما عمله من** خير فيثاب **عليه في** دار الدنيا **حتى لا يبقى له في الآخرة** خير.

ويروى أنَّ عبد الله بن أبيّ بن سلول كان أعطى العباس بن عبد المطلب، - رضي الله عنه -: قميصًا ألبسه إياه، فلما مات عبد الله أرسل رسول الله - ﷺ - قميصه ليكفن فيه فلم تبق له

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٣٦٥). تفسير أبي بكر الحداد - كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٢٨٦٣).

حسنة في الآخرة ليثاب عليها.) [1]

و قول الربيع ابن أنس ظاهر جدا في دخول الكافر في عموم السعي و الرؤية و الجزاء، و في السعي الحسن خاصة من باب العدل، و ما زاد فهو مخصوص بالمؤمن كرامة له و تفضل من الله و لذلك أدخل سعيه و سعي غيره بخلاف الكافر فسعيه فقط.

و قال أيضا: (قال الحسين بن الفضل: وأما قوله: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى يعني: من طريق العدل، ومجاز الآية: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى عدلا وَلِي أن أجزيهُ بواحدةٍ ألفًا. ... وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى في ميزانه.) [2]

و قول الحسين ابن الفضل هو عين ما قلناه أن الآية من باب العدل و بهذا فلا تحتمل تخصيصا أو تقييدا، بل هي عامة لكل إنسان كان مؤمنا أو كافرا، أما زاد عن حد العدل فهو تفضل و كرم.

- السمعاني: (قوله تعالى: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى معناه: إن سعي في الخير يلق الخير،

---

[1] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٢٥/ ١٥٨ - ١٥٩). و نقل قول الربيع ابن أنس البغوي في تفسير البغوي - إحياء التراث (٤/ ٣١٤ - ٣١٥). و ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٠٦)

[2] (٢٥/ ١٦١)، و ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٩٣)، و ابن الفرس في أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٥١٣)، و القرطبي في تفسيره (١٧/ ١١٤). و غيرهم.

و نقل قول الحسين بن الفضل الواحدي في التفسير البسيط (٢١/ ٦٧ - ٦٨). و ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٠٦)، و ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٩٣).

وإن سعى في الشر يلق الشر. وقوله: وأن سعيه سوف يرى أي: يراه على معنى أن الله تعالى يريه إياه، وهو الجزاء الذي يجازيه عليه، وهو معنى قوله: ثم يجزاه الجزاء الأوفى أي: الأكمل الأتم.)[1]

- ابن عطية: (وقال الربيع بن أنس: «الإنسان» الذي في هذه الآية هو الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره.

...

والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو/ في اللام من قوله: لِلْإِنْسانِ فإذا حققت الشيء الذي هو حق الإنسان يقول فيه لي كذا لم يجده إلا سعيه، وما بعد من رحمة ثم شفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول لي كذا إلا على تجوز وإلحاق بما هو له حقيقة. ...

وقوله: يُرى فاعله حاضر والقيامة، أي يراه الله ومن شاهد الأمر، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمحسنين وتوبيخ للمسيئين،....

وفي قوله:ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين.)[2]

فالوعيد بالنسبة للكافر منوط بكثرة السيئات في نوعها و كمها، و ليس لأنه محبط الحسنات أو أنه لا يجازى عليها بل إقرار الوعيد في سياق العدل و توفية الجزاء يدلان على أن

---

[1] تفسير السمعاني (٥/ ٣٠١). تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٤٣١).

[2] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٠٦ – ٢٠٧). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٣١).

حسناته معتبرة و سيجزى عليها خيرا و لكنها لن تبقى له حسنة بعد الموازنة كي يتعلق بها طيبات أو نعم، و بهذا يتحقق خصوصيته بالوعيد في تقريرات العلماء لأنها بإزاء حاصل موازنته بالسيئات، و ما يؤكد أن هذا تأويل ابن عطية هو ذكره قول الربيع ابن أنس دون تعليق و أقل دلالة منه أنه جائز المعنى في الآية فيكون للكافر ما سعى هو بنفسه لنفسه من خير فقط، خاصة أنه أبقى على لفظ الإنسان لتقرير دلالة العموم كما هو في تأويله فلم يعيِّنه إلا في محل بيان الوعد و الوعيد، فخص الوعيد للكافر و الوعد للمؤمن مُبَيَّن به الجزاء الأوفى.

- الرازي:

(الوجه الثاني: أن المراد من الإنسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف، وقيل بأن قوله: ليس للإنسان إلا ما سعى كان في شرع من تقدم، ثم إن الله تعالى نسخه في شرع محمد ﷺ وجعل للإنسان ما سعى وما لم يسع وهو باطل إذ لا حاجة إلى هذا التكلف بعد ما بان الحق، وعلى ما ذكر فقوله: ما سعى مبقى على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى و لا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧]) (١)

و قد سبق هذا النقل مناقشة الرازي ما يتبادر تعارضه مع ظاهر الآية كالتضاعيف التي هي زيادة عن مجرد ما سعى له، و كلامه يشير بأن المسيء و بالأولى الكافر لا ينتفع من حسنة الغير ثوابا له كما لا يحتمل عنه أحد عقابا و هو من قوله: (أن الإنسان إن لم يسع في أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقة فليس له إلا ما سعى)، و أن مضاعفة الحسنات هي

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩/ ٢٧٦).

من سعي العامل لأنه أتي بالحسنة و يعلم أن الله يضاعفها و بهذا فهي داخله في سعيه بالحسنة الأولى [1]، و بهذا فقد قرر: (ليس للإنسان فيه وجهان أحدهما: أنه عام وهو الحق) و جعله الوجه الأول، و يستبين مراده من العموم بذكر الوجه الثاني و هو ما بدأنا به أن تخصيص الإنسان بالكافر ضعيف، و القول بالنسخ باطل، أي أنه في شرع من قبلنا كان للإنسان سعيه فقط أما في شرعنا فله سعيه و سعي غيره له، ثم قرر تأويله على ما انتهى به و قرر و تأكيدا عليه استدل بقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ليزيد التأكيد على التعميم بالنسبة للعمل و لجزائه للإنسان، و عليه يكون للكافر ما سعاه فقط على قدر إيمانه بالعمل، أما المؤمن فله ما سعى بمعناه الواسع أي ما سعاه بنفسه و يعلم مضاعفته من الله و أيضا ما سعى لأجله من ذرية صالحة و صدقات جارية و علم ينتفع به، أو لأنه آمن فالإيمان يقتضي سعي غيره له.

و ذكر المؤمن مع الكافر تحت نفس المدلول للآية يؤكد على التعميم كما سبق، و أما حزن الكافر فهذا أمر محقق لأن قدر حسناته ضئيلة جدا بجانب قدر سيئاته فيكون حاصل رؤيته لسعيه محزن لا محالة، و الشاهد أن حزنه لرؤية سعيه لا يدل على أنه لا يكون له سعي خير بل لعدم منفعته إزاء ما وضع له من تطيب و تنعم في الآخرة.

و كذلك تخريج قوله بأن الجزاء الأوفى يليق بالمؤمنين لأنه جزاء الصالح فهو على التغليب و

---

[1] ينظر لمزيد بيان في تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٦١). و فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٥/ ١٠٣). تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٤/ ١٠٢). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/ ٧٢). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ١٦٣ – ١٦٤). و أنظر التحرير والتنوير (٢٧/ ١٣٢– ١٣٣ – ١٣٨).

الظهور و لذلك استعمل معه (يليق) ليترك فرجة دخول الكفار بدلالة التعميم فلم يخصص أو يقيد.

و قال الرازي أيضا:

(المسألة الثالثة: المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل، نقول: المشهور أنها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر أنه لبيان الخيرات يدل عليه اللام في قوله تعالى: للإنسان...، وللقائل الأول أن يقول: بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل...، وأيضا يدل عليه قوله تعالى: ثم يجزاه الجزاء الأوفى [النجم: ٤١] والأوفى لا يكون إلا في مقابلة الحسنة، وأما في السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية.) [١]

و قد جعل الرازي ظاهر الآية في ثواب الأعمال الصالحة مستدلا على ذلك ببعض القرائن كدلالة اللام و دلالة كلمة الأوفى، و على كلا الحالين أي ظهورها في الأعمال الصالحة أو عامة فيدخل فيها الأعمال الصالحة فهذا هو محل الشاهد، لأن الإنسان عام فيدخل فيه المؤمن و الكافر، خاصة أنه استدل في استظهاره لهذا المعنى بآية الزلزلة ليؤكد على دلالة التعميم.

و قال أيضا:

(قال في حق المسيء: ألا تزر وازرة وزر أخرى/ [النجم: ٣٨] وهو لا يدل إلا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ، لجواز أن يسقط عنها ويمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال: لا تزر وازرة إلا وزر نفسها

---

[١] نفسه (٢٩/ ٢٧٦)، و نقله بتمامه القاسمي في تفسيره محاسن التأويل (٩/ ٨٠). و انظر مباينة رأي القرطبي أن السعي خاص في السيئة تفسير القرطبي (١٧/ ١١٥). و إسماعيل حقي في روح البيان (٩/ ٢٤٧).

كان من ضرورة الاستثناء أنها تزر،...)[1]

و في هذا الاستنباط الرازي دقة و ملمح بلاغي مليح، نستدل به على أن الكافر المحمل بأوزاره له فسحة من الحساب و الموازنة لأن يخف عنه أوزاره بحسناته ما دام اللفظ و النظم لا يقضي بحتمية حمل وزره بل يدل على أن لا أحد يحمل وزر أحد عنه.

- الخازن: (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى أي عمل...

وقيل: أراد بالإنسان الكافر. والمعنى: ليس له من الخير إلا ما عمل هو فيثاب عليه في الدنيا.../ ....

وقيل: ليس للإنسان إلا ما سعى هو من باب العدل فأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى أي يراه في ميزانه يوم القيامة وفيه بشارة للمؤمن وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غما ثُمَّ يُجْزاهُ أي السعي الْجَزاءَ الْأَوْفى أي الأتم والأكمل. والمعنى: أن الإنسان يجزى جزاء سعيه الجزاء الأوفى.) [2]

و الشاهد من كلام الخازن هو جواز إدخال الكافر؛ بل على أحد التأويلات هو الكافر، و أن سعيه هو عمله الخير المستحق عليه الثواب، لكن ثوابه لا يتعدى جزاؤه الدار الدنيا بل

---

[1] نفسه (٢٩/ ٢٧٧ – ٢٧٨). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢١٠).

[2] تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٢١٣ – ٢١٤). و نقله الجمل في حاشيته على الجلالين ت ١٢٠٤ هـ (٧/ ٣٣٢).

قاصر عليها فقط، و موضع الشاهد من تأويل الخازن أو حتى قبوله للتأويل بأمارة نقله بدون تعقيب، هو تفسيره لما في نظم الآية و مقتضى ألفاظها و تراكيبها دون التأويل بدلالات خارجية، فهو هنا كالآتي: الكافر هو الإنسان أو بعضه، السعي هو العمل أو عمل الخير، الرؤية هي رؤية الثواب على السعي، أما تأويله الخارجي الذي مفاده أن الدنيا هي دار الجزاء و تحصيل الثواب للكافر دون الآخرة فهو يكتسب عدم النسقية لأنه دلالة خارجية لا محل لها في السياق و لا سوق الآية بل قد يكون العكس هو الصحيح و هو نفسه قد ارتضى أن يكون رؤية الثواب يوم القيامة على ما يراه في ميزان أعماله، أما تغليب التحسر للكافر من جراء هذه الرؤية فهو حق و صائب و لكن لا يعطي دلالة على عدم انتفاعه أو رؤيته لأعماله الحسنة، لغلبة السيئات على موازينه الدالة على خلوده في النار فلا موضع لفرح يزاحم هذا الحزن كي يتصدر المشهد خاصة عندما يرى حسناته تهلك و تضل في خضم سيئاته التي يجازى عليها.

- الطيبي: (الراغب، السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل في الجد في الأمر، خيرًا كان أو شرًا، قال تعالى: وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى،.../ اختصاص الإنسان بثواب ما عمل هو بنفسه لنفسه، وانتفائه بسعي غيره، وأنه لا يجزى من سعيه إلا مقدار ما عمله لا يزاد عليه، وهو على خلاف الأقوال الواردة في الصدقة والحج، والآيات الصادرة في مضاعفة الثواب. وأما الأخبار الواردة في الصدقة فكثيرة... وأما في الحج فكذلك....

وأما الآيات الدالة على مضاعفة الثواب فلا تخفى كثرتها، وأجاب أن سعي الغير إنما لم ينفعه إذا لم يوجد له سعي قط، فإذا وجد له سعي بأن يكون مؤمنًا صالحًا، كان سعي الغير تابعًا

لسعيه، كأنه سعي نفسه.) [1]

و في إشكالية إلحاق سعي الغير لسعي الإنسان المخالف لظاهر الآية تأويلات، و منها الذي هو محل الشاهد من كلام الطيبي و غيره أن دخول سعي الغير في سعي الإنسان مشروط بشرطين كونه أن يكون ساعيا بنفسه، و الثاني أن يكون هذا السعي صالحا، و أوضح ما يمثل به أن يكون الإنسان الساعي هو مؤمن صالح، و قد يستفاد من هذا التصريح المسبوغ معنويا بدلالة القصر و الحصر على المؤمن الصالح أن العلة الحقيقية هي سعي الإنسان الأول نحو تحصيل ثواب الآخرة و لأن الآخرة لم تأت بعد فكل ما يلحق به من جنس هذا السعي الأول فهو منه قد يكون لعلاقة التسبب الأول منه و قد يكون لجعل نفسه قابلا لأن يلحق به مسعى غيره بهذا التسبب، لأنه سعى لمنفعة الآخرة بعمل ما، فكل ما له علاقة سببية بهذا العمل لأن يقع منه عملا حسنا أيضا فهو داخل فيه، كأن يكون قدوة لغيره فيه أو يكون له تسبب لمنفعة الغير بعد موته، سواء كان علما أو أثرا ينتفع به عينا ماديا، فكل من اقتدى أو تأثر أو لحقه منفعة أدت لمنفعة أخرى فهي من سعي الأول.

فالذي نريد أن نقول أن أي عمل له صفة الصلاح و الحسن يتعدى نفعه من الفاعل لغيره يكون بهذه العلاقة التسببية له وجه تسبب يكفل له اللحوق بما يقع في الوجود من صلاح بعد ذلك.

و عند شرح قول للقرافي من البسيلي قد وضع شرطا لوجوب استحقاق الثواب على سعي العمل أنه لا بد أن يكون مأمورا به، و هذه تدخل في مخاطبة و تكليف الكفار بالشريعة دخولا أوليا، و تدخل في مسألة التكليف قبل ورود الشرع و غيرها من القضايا، فيقول البسيلي:

---

[1] فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٥/ ١٠٣ – ١٠٤).

(وحاصل كلام القرافي: أن المثوبة تترتب على ما هو من كسب العبد ومقدوره وما لا كسب له فيه، ولا هو مقدور له لا مثوبة فيه لقوله تعالى: (وأن ليس للإِنسان إلا ما سعى)، ويشترط أن يكون المُكْتَسب مأمورًا به فما لا أمر فيه لا ثواب فيه كالأفعال قبل البعثة وكأفعال الحيوانات التي لا تعقل، وكذلك الموتى يسمعون المواعظ، والقرآن، والذكر ولا ثواب لهم لعدم تعلق الأوامر بهم.) [1]

و قد أورد الطيبي حديث في مسند أحمد لا يصح لأن علته الحجاج بن أرطاة و هو مدلس: العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مئة بدونه، وأن هشامًا ابنه نحر حصته خمسين، وأن عمر أخبر النبي ﷺ عن ذلك، فقال: أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك.

- أبو حيان: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى: الظاهر أن الإنسان يشمل المؤمن والكافر، وأن الحصر في السعي، فليس له سعي غيره،.... وقال الربيع: الإنسان هنا الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره.

والسعي: التكسب، ويرى مبني للمفعول، أي سوف يراه حاضراً يوم القيامة.)[2]

و واضح أن إدخال الكافر في رؤية سعيه و المجازاة عليه يوم القيامة هو قول أبو حيان و إذا أضفنا دلالة قول الربيع فيكون أن للكافر سعيه الحسن يوم القيامة و يرى جزاؤه خيرا أو يرى حسنه في ميزانه و هذا يلزم منه وجود تأثيره في الموازنة و لا بد من ذلك.

---

[1] التقييد الكبير للبسيلي (ص: ٤٢٥).

[2] البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢٤).

* ابن القيم:

(قوله تعالى: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية. فقالت طائفة المراد بالإنسان هاهنا الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له بالأدلة التي ذكرناها.

قالوا وغاية ما في هذا التخصيص وهو جائز إذ دل عليه الدليل.

وهذا الجواب ضعيف جدا ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو المسلم والكافر وهو كالعام الذي قبله وهو قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى.

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى: وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وهذا يعم الشر والخير قطعا، ويتناول البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كقوله تعالى:/ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

وكقوله في الحديث الإلهي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» وهو كقوله تعالى: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه

ولا تغتر بقول كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في القرآن، الإنسان هاهنا أبو جهل، والإنسان هاهنا عقبة ابن أبي معيط، والإنسان هاهنا الوليد بن المغيرة، فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه، كقوله تعالى: إن الإنسان لفي خسر و إن الإنسان لربه لكنود وإن الإنسان خلق هلوعا و إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى و إن الإنسان لظلوم كفار ووحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه، وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه، لا من

ذاته، فليس له من ذاته إلا هذه الصفات،....

/ وقالت طائفة: الآية إخبار بشرع من قبلنا، وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سعى له، وهذا أيضا أضعف من الأول أو من جنسه، فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبار مقرر له محتج به، لا إخبار مبطل له، ولهذا قال أم لم ينبأ بما في صحف موسى فلو كان هذا باطلا في هذه الشريعة يخبر به إخبار مقرر له محتج به.

وقالت طائفة: اللام بمعنى على، أي: وليس على الإنسان إلا ما سعى.

وهذا أبطل من القولين الأولين، فإنه قلب موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه، ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة، وأما نحو: (ولهم اللعنة) فهي على بابها، أي نصيبهم وحظهم وأما أن العرب تعرف في لغاتها: لي درهم بمعنى علي درهم فكلا.

وقالت طائفة في الكلام حذف تقديره: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى أو سعي له وهذا أيضا من النمط الأول، فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم.

وقالت طائفة أخرى: الآية منسوخة بقوله تعالى: والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم

وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا ضعيف أيضا، ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا غيره أنها منسوخة، والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع،...

/ فقوله تعالى: ألا تزر وازرة وزر أخرى وقوله: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان

بها، فالأول يقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره، والثانية يقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين. ...

قالت طائفة أخرى: **المراد بالإنسان هاهنا الحي دون الميت، وهذا أيضا من النمط الأول في الفساد.**

/ وهذا كله من سوء التصرف في اللفظ العام، وصاحب هذا التصرف لا ينقذ تصرفه في دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها، وما يتبادر إلى الذهن منها، وهو تصرف فاسد قطعا يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه، وسبب هذا التصرف السيئ أن صاحبه يعتقد قولا ثم يرد كلما دل على خلافه بأي طريق اتفقت له، فالأدلة المخالفة لما اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالي بأي شيء دفعه، وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضا.

/ وقالت طائفة أخرى: **القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره، وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه، وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى، وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها.**) [١]

---

[١] مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية (١٧/ ٣٤٥ إلى ٣٥٠ بترقيم الشاملة آليا). و هذا تحقيق ما بعده تحقيق و لم يترك شاردة ولا واردة إلا أتى عليها ببيان الحجة وقوة المحجة، و يجب أن يكون المفسر و تفسيره كهذا

- ابن عادل الحنبلي: (قوله: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى أي عمل، كقوله: إن سعيكم لشتى [الليل: ٤].) [١]، (والمراد بالإنسان العموم.

وقال الربيع بن أنس: ليس للإنسان - يعني الكافر - وأما المؤمن فله ما سعى وما سعي له.

وقيل: ليس للكافر من الخير إلا ما عمله يثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير.

وقوله: وأن سعيه سوف يرى أي يرى في ميزانه يوم القيامة.) [٢]، (والمراد بالجزاء الأوفى: الأكمل والأتم أي يجزى الإنسان سعيه) [٣]

- ابن عرفة: (وهذا عام باق على عمومه... (في سياق تفسير وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)....

/ ... [الأوفى عام] في الثواب والعقاب، فيجب تخصيصه عندنا [بالمشيئة، أي إن شاء، لأن العاصي عندنا في المشيئة]؛ خلافا لمن يقول: بوجوب إنفاذ الوعيد.) [٤]

- النيسابوري: (وفيه مباحث: الأول الإنسان عام وقيل: هو الكافر.....

التحقيق. و انظر أيضا حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٨/ ١١٥). و أنظر التحرير والتنوير (٢٧/ ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٨).

[١] اللباب في علوم الكتاب (١٨/ ٢٠٤).

[٢] نفسه (١٨/ ٢٠٦).

[٣] نفسه (١٨/ ٢٠٨).

[٤] تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٤/ ١٠٢ - ١٠٣).

وقال المحققون: إن سعي غيره وكذا الأضعاف لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه وهو أن يكون مؤمناً صالحاً كان سعي غيره كأنه سعي نفسه.

والثاني ما مصدرية والمضاف محذوف أي الأثواب أو جزاء سعيه. ويجوز أن تكون موصولة أي إلا الجزاء الذي سعى فيه.

... ومن لطائف الآية أنه قال في حق المسيء لا تزر وارزة وزر أخرى ولا يلزم منه أن يبقى الوزر على المذنب بل يجوز أن يسقط عنه بالمحو والعفو، ولو قال كل وازرة تزر وزر نفسها لم يكن بد من بقاء وزرها عليها. وقال في حق المحسن ليس له ما سعى ولم يقل ليس له ما لم يسع إذا العبارة الثانية لا يلزمها أن له ما سعى، والعبارة الأولى يلزمها ذلك لأنها في قوة كلامين إثبات ونفي والحاصل أنه قال هي حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءه، وفي حق المحسن بعبارة توجب رجاءه كل ذلك لأن رحمته سبقت غضبه.) [1]

- السيواسي: (قوله وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى [٣٩] عطف على قوله أن لا تَزِرُ أي ليس للإنسان في الآخرة نافعا إلا ما نوى وأخلص في عمله ولا يشكل بأن المؤمن له أجر ما سعى وأجر ما سعي له، وله فضل من اللهّ سوى عدله، لأن ذلك لنفع عمله له فكأنه سعى نفسه لكونه تابعا له، وكذلك إلحاق الأبناء بالآباء لصلاحهم، وقيل: الآية نازلة في شأن الكافر، يعني ليس للكافر من الخير إلا ما عمل فيثاب به هنا ولا يبقى له أجر في الآخرة.

أن سعى الإنسان سَوْفَ يُرى [٤٠] أي ثواب عمله في الآخرة ثُمَّ يُجْزاهُ أي يجزي الإنسان المؤمن

---

[1] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢١٠).

جزاء سعيه، والهاء للـ «سعي» بتقدير الجزاء، قوله الْجَزاءَ الْأَوْفى [٤١] بدل من الهاء في «يُجْزاهُ»، أي الجزاء الأكمل.)[١]

و تجويزه أن يكون الكافر أحد مصاديق الإنسان، و أن له خيرا يستحق عليه ثوابا في الدنيا، ثم يعيد (الإنسان) مرة أخرى عند رؤية سعيه يوم القيامة فيفسره بثواب عمله في الآخرة أنه ممن يجوز له رؤية ثواب عمله في الآخرة، و ما يُشعر بذلك أنه خصص الجزاء الأوفى بالإنسان المؤمن، و من ثم ترك للإنسان الكافر رؤية ثواب عمله فقط في الآخرة.

- البقاعي: (وأن ليس للإنسان كائناً من كان إلا ما سعى فلا بد أن يعلم الحق في أي جهة فيسعى،....

ولما ثبت أنه ليس له ولا عليه إلا ما عمل، وكان في الدنيا قد يفعل الشيء من الخير والشر ولا يراه من فعله لأجله ولا غيره نفي أن يكون الآخرة كذلك بقوله: وأن سعيه أي من خير وشر سوف أي من غير شك بوعد لا خلف فيه وإن طال المدى.

/ ولما كان الاطلاع نفسه مرضياً أو مخزياً لا بالنسبة لأحد بعينه، بناه للمجهول بقوله: يرى ولما كان المخوف منه المجازاة مطلقاً لا من مجاز معين قال: ثم يجزاه ولما كان في هذه الدار ربما وقعت المسامحة ببعض الأشياء والغفلة عن بعضها، قال: الجزاء الأوفى أي الأتم الأكمل، إن كان خيراً فمع المضاعفة، وإن كان غيره فعلى السواء لمن أراد الله ذلك له ويعفو عن كثير، لكنه تذكرة له.)[٢]

---

[١] عيون التفاسير للفضلاء السماسير للسيواسي ت ٨٦٠ هـ (٤/ ١٦٣). و التفسير المظهري (٩/ ١٢٧).

[٢] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/ ٧٢ - ٧٣).

- الشيخ علوان: (أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ المجبول على فطرة العرفان أي لكل واحد من اشخاصه إِلَّا ما سَعى واقترف لنفسه وأعد لمعاشه ومعاده وَكذا قد ثبت فيهما أَنَّ سَعْيَهُ أي سعى كل واحد من افراد الإنسان خيرا كان او شرا سَوْفَ يُرى في النشأة الاخرى مصورة بالصورة الحسنة او القبيحة بمقتضى الدرجات العلية الجنانية او الدركات الهوية النيرانية ثُمَّ بعد ما حوسب عليه عموم مساعيه يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى أي يوفر عليه من الجزاء على مقتضى سعيه في صالحات اعماله مع زيادة عليها تفضلا منه سبحانه ويجزى على فاسداتها جزاء مثلها سواء معها عدلا منه سبحانه)(١)

- الخطيب الشربيني: (وأن ليس للإنسان كائناً من كان/ والمراد بالإنسان العموم وقال الربيع بن أنس: ليس للإنسان يعني الكافر: وأما المؤمن فله ما سعي وما سعى له وقيل: ليس للكافر من الخير إلا ما عمله يثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير،....

وأن سعيه أي: من خير وشر سوف يرى أي: في ميزانه من غير شك يوم القيامة....

ثم يجزاه أي: السعي الجزاء الأوفى أي: الأتمّ الأكمل والمعنى: أنّ الإنسان يجزى جزاء سعيه بالجزاء الأوفى يقال: جزيت فلاناً سعيه وبسعيه.) (٢)

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٣٦٦). و لإفادة دلالة (ثم) انظر تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ١٨٢، بترقيم الشاملة آليا) فقال: (وقيل: يعرف أعماله ثم يجزى عليه لأن ثم للتعقيب).

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ١٣٥). و قال الميرغني ت ١٢٦٨ هـ: (ليس للإنسان الجنس) انظر تفسيره.

- ابن عجيبة: (قال ابن عطية: الجمهور أنّ قوله: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى مُحْكَمٌ لا نسخ فيه، وهو لفظ عام مخصّص. هـ. يعني: أن المراد: الكافر، وهكذا استقرئ من لفظ «الإنسان» في القرآن، وأما المؤمن فجاءت نصوص تقتضي انتفاعه بعمل غيره، إذا وهب له من صدقة ودعاء وشفاعة واستغفار، ونحو ذلك، وإلاَّ لم يكن فائدة لمشروعية ذلك، فيتصور التخصيص في لفظ «الإنسان» وفي السعي، بأن يخص الإنسان بالكافر، أو السعي بالصلاة، ونحو ذلك مما لا يقبل النيابة مثلاً. والحاصل: أن الإيمان سعي يستتبع الانتفاع بسعي الغير، بخلاف من ليس له الإيمان. هـ.) (١)

و قول أبو العباس أحمد بن عجيبة (و كذلك الشوكاني و ما رجحه الألوسي) يلخص تأويل ما سبقه من المفسرين في شأن كيفية الجمع ما بين المواضع المتبادر منها التعارض، و خلاصة المسألة أن تأويلاتهم تقتضي تخصيص عموم لفظ الإنسان على الكافر فقط، لكي يجعلوا المؤمن له سعيه و سعي غيره له، و الشاهد أن الكافر عند هؤلاء المفسرين كلهم ليس له إلا سعيه فقط في الخير و أنه سيراه في ميزانه ثم يجزاه الجزاء الأوفى في الآخرة أو أقله في الدنيا فقط.

و مفاد تأويل الشوكاني أنه يقرر علاقة الخصوص بالعموم و يخطئ من قال بالنسخ، أي أن الكافر ليس له إلا سعيه فقط من أعمال الخير أما المؤمن فله سعيه و سعي غيره له مما دل الدليل

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٥١٤)، و فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٣٧ - ١٣٨) و تابعه عليه القونجي في فتح البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٢٧٠) و نيل المرام من تفسير آيات الأحكام (ص: ٤٢٧). و روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٧/ ٦٦ - ٦٧). و انظر رد هذه الأقوال لابن القيم الجوزية سابقا.

عليه، فدلالة العموم تشمل كل الأعمال لكل من المؤمن و الكافر فليس لأحد منهم إلا ما سعى فقط، ثم يخصص للمؤمن بعض الأعمال التي دل عليها الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه، كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم: وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى.

و خلاصة كلام الألوسي يتضمن وجهتان: الأولى تفسيره و ترجيحه معنى التخصيص بالإرادة التشريعية من الله لأمة دون أمة، و هو في مجمله معنى التخصيص الذي يتضمن إرادة المعنى على عمومه دون ما خُصص منه أي الأعمال المعينة للمؤمنين التي دل دليل على إلحاقها بسعي المؤمن، و يبقى الكافر في دلالة العموم بأنه لا يكون له إلا ما سعى بنفسه من أعمال الخير، أما الوجهة الثانية و هو ما مال إليه و هو كلام الحسين و مفاد كلام ابن عطية أي أن الآية عامة و محكمة فيما يحق للساعي بنفسه أما غير ذلك من سعي فمن باب التفضل و الكرم الإلهي.

- القونجي: (والمعنى ليس له إلا أجر سعيه، وجزاء عمله، ولا ينفع أحداً عمل أحد، وهذا العموم مخصوص...، فإن الخاص لا ينسخ العام، بل يخصصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه، كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم،....

/ وقيل: أراد بالإنسان الكافر، والمعنى ليس له من الخير إلا ما عمل هو، فيثاب عليه في الدنيا، بأن يوسع عليه في رزقه، ويعافى في بدنه. حتى لا يبقى له في الآخرة خير، وقيل: هو من باب العدل، وأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه،...) [1]

---

[1] فتح البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٢٧٠ – ٢٧١)، و نيل المرام من تفسير آيات الأحكام (ص: ٤٢٧). و تفسير اطفيش – إباضي (١٠/ ٤٢٤، بترقيم الشاملة آليا)، هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (١٣/ ٣٠٧ – ٣٠٨، بترقيم الشاملة آليا).

و قول القونجي في سياق بيان شأن حسنات و خير الكافر (إلا ما عمل هو) دلالة قوية أنه يُدخل الكافر في عموم الآية ثم يُخصص المؤمن بأنه ينتفع بسعي غيره له، و عليه فإن الكافر يدخل في عموم (الإنسان) و لو أجرينا التأويل على مقتضى النظم في الآية فإن الكافر يرى ثواب عمله في ميزانه أو كتابه و يجري عليه من باب الفضل أن يزيده الله من فضله إن شاء.

- السعدي: (أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنبا وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد) (١)

- ابن عاشور: (وتعريف الإنسان تعريف الجنس، ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم، والمعنى: لا يختص به إلا ما سعاه. والسعي: العمل والاكتساب...

والمراد هنا عمل الخير بقرينة ذكر لام الاختصاص وبأن جعل مقابلا لقوله: ألا تزر وازرة وزر أخرى [النجم: ٣٨].

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٢).

والمعنى: لا تحصل لأحد فائدة عمل إلا ما عمله بنفسه، فلا يكون له عمل غيره، ولام الاختصاص يرجح أن المراد ما سعاه من الأعمال الصالحة)[1]، و قال أيضا: (و (ثم) للتراخي الرتبي لأن حصول الجزاء أهم من إظهاره أو إظهار المجزي عنه.

وضمير النصب في قوله: يجزاه عائد إلى السعي، أي يجزى عليه، أو يجزى به....

والأوفى:.... والمعنى: أن الجزاء على الفعل من حسن أو سيء موافق للمجزي عليه، قال تعالى: فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله [النساء: ١٧٣] وقال: وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص [هود: ١٠٩] وقال: ووجد الله عنده فوفاه حسابه [النور: ٣٩] وقال: فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا [الإسراء: ٦٣])[2]

---

[1] التحرير والتنوير (٢٧/ ١٣٢).

[2] نفسه (٢٧/ ١٤٠).

الآية رقم ٦

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١١-١٥]

الشاهد من الآية في عموم الإنسان (كافر و مؤمن)، و عموم عمله (خير و شر)، و عموم المحاسبة، عموم الاهتداء و الإضلال، اللذان يصدقان على كل مثقال ذرة من خير أو من شر.

و من دلالة إسناد الحساب للنفس يوم القيامة بمعنى إقرارها و تمام ادراكها لما لها و ما عليها يدل بأن النفس لن تترك لها حسنة إلا و هي طالبة ثوابها.

و معنى الإلزام هنا و علاقته بالعمل أن الإنسان قد ألزمه الله ما يقع منه من عمل في موضع المحاسبة و الجزاء عليه، و من دواعي الانتباه أن نقف على أن النظرة للعمل لها مرحلتين، الأولى التي قبل الميزان و الثانية التي بعد الميزان، فقبل الميزان ينظر لكل عمل و مثقال الذرة منه الخير خير و الشر شر أي نظرة ثنائية، و المرحلة الثانية ينظر للعمل كمحصول خضع للمحاسبة و الموازنة أي أنه أحادي الصفة إما خيرا أو شرا، و عليه يكون أحادي الجزاء إما جنة أو نارا.

و كل مفسر أرجع الهداية و ثوابها إلى الجنة و الضلالة و عقابها إلى النار فهو من منظور معين لا يمنع حيثيات أخرى تسبق دار القرار أي في مرحلة الحساب و الميزان، لأنه لا تعارض بينهما

فثواب الحسنة في الميزان لا يمنع أن يكون صاحبها في النار، و كذلك جزاء السيئة في الميزان لا يمنع أن يكون صاحبها في الجنة، لأن حيثيات المرحلتين متغايران، فعموم الإثابة على الهداية و العقاب على الضلالة يعم كلا المرحلتين فلا يجب أن يقيد أو يخصص لأن الآية جاءت خلوا من ذلك فوجب حملها على العموم و الإطلاق.

- ابن عباس: (قال: الطائر: عمله) [1]، و قال: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا قال: هو عمله الذي عمل أحصي عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب عليه من العمل يلقاه منشورا.) [2]

- الحسن: (قال: طائره: عمله خيره وشره، شقاوته وسعادته) [3]، و قال: (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك. فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٣٩٨).

[2] نفسه (١٧/ ٤٠٠).

[3] تفسير مجاهد (ص: ٤٢٩). تفسير يحيى بن سلام (١/ ١٢١) و (عن قتادة مثل ذلك.). تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (٤/ ٢١). تفسير الهواري (توفي في النصف الثاني من ق ٣ هـ) (٢/ ٢٦٨، بترقيم الشاملة آليا).

سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا متّ طُويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك.) [1]

- ابن جريج: (وقال: طائره: عمله) [2]

- قتادة: (قال: «عمله ونخرج له ذلك العمل كتابا يلقاه منشورا»)[3]، و قال: (﴿(وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا: أي عمله.)[4]، (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: عمله)[5]

- مجاهد: (ألزمناه طائره في عنقه [الإسراء: ١٣] قال: عمله: خيره وشره.)[6]

- مقاتل: (وكل إنسان ألزمناه طائره، يعنى عمله / الذي عمل، خيرا كان أو شرا، فهو في عنقه لا يفارقه حتى يحاسب عليه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا آية، وذلك أن ابن آدم إذا ما طويت صحيفته التي فيها عمله، فإذا كان يوم القيامة، نشر كتابه، فدفع إليه منشورا. ... من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه الخير، ومن ضل عن الهدى، فإنما يضل عليها، أي على نفسه،

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٤٠٠). تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣/ ١٥). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٦/ ٢٩٧). الهداية الى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٥٧). التفسير البسيط (١٣/ ٢٧٩).

[2] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٣٩٨).

[3] تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (٤/ ٢١). تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٣٩٨).

[4] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٤٠٠).

[5] نفسه.

[6] تفسير مجاهد (ص: ٤٢٩). تفسير سفيان الثوري (ص: ١٦٩). تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٣٩٨).

يقول: فعلى نفسه إثم ضلالته،...)[1]

- الكلبي: (خيره وشره معه، لا يفارقه حتى يحاسب به.)[2]

- الفراء: (وقوله: وكل إنسان ألزمناه طائره [١٣] وهو عمله، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا (ونخرج له)...: معناه: ويخرج له عمله كتابا. وكل حسن.)[3]

- ابن قتيبة: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال أبو عُبَيْدَة: حظَّهُ. وقال المفسّرون: ما عمل من خير أو شر ألزمناه عنقه. وهذان التفسيران يحتاجان إلى تبيين. والمعنى فيما أرى- والله أعلم -: أن لكل امرئ حظًّا من الخير والشر قد قضاه الله عليه. فهو لازم عنقه.) [4]

- التستري: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه قال: عمله أي ما كان من خير وشر.) [5]

- الطبري: (...، ونحن نخرج له يوم القيامة كتاب عمله منشورا،... / ...، وعامل من الخير والشرّ في عنقه،...، ونحن نخرج له إذا وافانا كتابا يصادفه منشورا بأعماله التي عملها في

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٦/ ٢٩٧).

[2] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٦/ ٢٩٧).

[3] معاني القرآن للفراء (٢/ ١١٨). غريب القرآن وتفسيره لليزيدي ت ٢٣٧ هـ (ص: ٢١٢). غريب القرآن لابن قتيبة (٢٧٦) (ص: ٢٥٢). معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢٣١). التفسير البسيط (١٣/ ٢٧٧) (قال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل.).

[4] غريب القرآن لابن قتيبة (٢٧٦) (ص: ٢٥٢). أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٥/ ١٧). تفسير الماوردي = النكت والعيون (٣/ ٢٣٣). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٢/ ٣٨٠).

[5] تفسير التستري (ص: ٩٤).

الدنيا، وبطائره الذي كتبنا له، وألزمناه إياه في عنقه، قد أحصى عليه ربه فيه كلّ ما سلف في الدنيا.)[1]

و قال أيضا: (وعنى بقوله اقرأْ كِتابَكَ: اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتبانا يكتبانه، ونحصيه عليك كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا يقول: حسبك اليوم نفسك عليك حاسبا يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهدا غيرها، ولا نطلب عليك محصيا سواها.) [2]

فيما نُقل عن الحسن و ما قرره الطبري واضح جدا في أن الإنسان المراد به العموم و في إسناد الحسنة له في حال كونه كافرا هو محل الشاهد، و من قرائن التعميم أنه لا يوجد إنسان ليس له كتبة يكتبون أعماله المتنوعة ما بين الحسنة و السيئة، و من الشاهد أيضا المحاسبة التي تقتضي التمايز ثم الإضافة و الطرح تمهيدا للميزان و الموازنة.

- الماتريدي: (اختلف في قوله: (طَائِرَهُ):

قَالَ بَعْضُهُمْ: (طَائِرَهُ): شقاوته وسعادته، ورزقه وعيشه. وقَالَ بَعْضُهُمْ: عمله الذي عمل من خير أو شر.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: حظه ونصيبه من عمله، وهو جزاؤه ونحو ذلك، فذلك كله يرجع إلى/ معنى واحد[3]؛ لأنه إنما يسعد ويشقى بعمله الذي يعمله، وكذلك جزاء عمله؛ ولذلك قال الحسن

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٣٩٩ - ٤٠٠). تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

[2] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٤٠١).

[3] قال السمعاني أيضا في ذلك: (والأقوال متقاربة) في تفسير السمعاني (٣/ ٢٢٥).

في تأويل قوله: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا، أي: بأعمالنا التي عملناها،....)[1]

- الطبراني: (قوله تعالى: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه؛ أي ألزمناه عمله من خير أو شر في عنقه، فجعلنا جزاء عمله لازما له...

قوله تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا؛ أي يرفع الله يوم القيامة كتابه يرى فيه جزاء أعماله،...

قوله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا؛ أي محاسبا، وإنما جعل محاسبا لنفسه؛ لأنه إذا رأى أعماله كلها مكتوبة، ورأى خير أعماله مكتوبا لم ينقص من ثوابه شيء، ولم يزد على عقابه شيء كفاه ذلك في الحساب، وكان الحسن يقول: (يا ابن آدم لقد عدل عليك من جعلك لنفسك حسيبا).)[2]

- السمرقندي: (وقوله: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً أي: شاهداً، ويقال: محاسباً لما ترى فيه كل حسنة وسيئة محصاة عليك. ثم قال: مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ يعني: من اجتهد حتى اهتدى فثوابه لنفسه وَمَنْ ضَلَّ أي: ومن تغافل حتى ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أي: إثمه عَلَيْهَا)[3]

- مكي: (أي: كتاب عملك الذي عملته في الدنيا كانت الملائكة تكتبه عليك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً أي: حسيبك اليوم نفسك يحسب عليك أعمالك ويحصيها عليك لا ينبغي

---

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ١٦ - ١٧).

[2] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

[3] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٣٠٤). الوجيز للواحدي (ص: ٦٣٠). تفسير السمعاني (٣/ ٢٢٥).

عليك شاهداً غيرها.) [(١)]، و قال: (ويروى أنه نزلت في أبي سلمة بن الأسود آمن، وفي الوليد بن المغيرة بقي على كفره. وكان الوليد بن المغيرة يقول: اتبعوني وأنا أحمل أوزاركم. فأنزل الله، جل ذكره: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى. والآية عامة في كل مؤمن وكافر. ثم قال: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى.) [(٢)]

- الماوردي: (قوله عز وجل: وكل إنسان ألزمنا طائره في عنقه فيه قولان: أحدهما: ألزمناه عمله من خير أو شر...

الثاني: أن طائره حظه ونصيبه،.... ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً يعني كتاب طائره الذي في عنقه من خير أو شر. ويحتمل نشر كتابه الذي يلقاه وجهين: أحدهما: تعجيلاً للبشرى بالحسنة، والتوبيخ بالسيئة. الثاني: إظهار عمله من خير أو شر. ...

كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً فيه قولان: أحدهما: يعني شاهداً. والثاني: يعني حاكماً بعملك من خير أو شر. ولقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك بعملك.

/ قوله عز وجل: مَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه يعني لما يحصل له من ثواب طاعته. ومَن ضلّ فإنما يضل عليها يعني لما يحصل عليه من عقاب معصيته.) [(٣)]

[(١)] الهداية الى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٦١).

[(٢)] نفسه (٦/ ٤١٦٢).

[(٣)] تفسير الماوردي = النكت والعيون (٣/ ٢٣٣- ٢٣٤). و انظر تعدد الأقوال و نسبتها لقائليها: تفسير الحاكم الجشمي = التهذيب في التفسير ص: ١٩٤٣، بترقيم الشاملة آليا). تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ١٢٤). زاد المسير في علم التفسير (٣/ ١٣).

- الطوسي: (ومعنى طائره قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: عمله من خير أو شر... وطائره عمله.

وإلزام الله طائره في عنقه: الحكم عليه بما يستحقه من ثواب أو عقاب. ...

ثم أخبر تعالى أنه يخرج للإنسان المكلف يوم القيامة كتابا فيه جميع أفعاله مثبتة ما يستحق عليه ثواب او عقاب.) [1]

و قال أيضا: (وقوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا اي حسبك نفسك اليوم حاكما عليك في عملك وما تستحقه من ثواب على الطاعة ومن عقاب على المعصية،....

وقوله من اهتدى يعني فعل الخيرات والطاعات وانتفع بهداية الله إياه فإنما يهتدي لنفسه وأن ثواب ذلك واصل اليه....) [2]

- الواحدي: (وروي عن ابن عباس: أنه قال عَمَلُه وما قُدّر عليه فهو ملازمه أينما كان، هذا قول المفسرين في هذه الآية، وإنما قيل لما يأتيه الإنسان ويعمله من خير وشر...) [3]

- علي بن فَضَّال المُجَاشِعِي: (والطائر هاهنا: عمل الإنسان،...) [4]

- الزمخشري: (طائِرَهُ عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل. وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعنى: ألزمناه ما طار من عمله. والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم

---

[1] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٦/ ٤٤٨، بترقيم الشاملة آليا).

[2] نفسه (٦/ ٤٥٠).

[3] التفسير البسيط (١٣/ ٢٧٥). حاشية محي الدين زاده على تفسير القاضي البيضاوي (٥/ ٣٦٠).

[4] النكت في القرآن الكريم (ص: ٢٩٠).

القلادة أو الغل لا يفك عنه) [١]

- ابن عطية: (أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ أي عمله،...) [٢]، (فعبر عن الحظ والعمل إذ هما متلازمان ب «الطائر»)[٣]

و قال: (فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع آدم من عمله في قبره فتأمل لفظه، وهذا هو قول ابن عباس.) [٤]

- بيان الحق: ((طائره في عنقه) أي: عمله، فيكون في اللزوم كالطوق للعنق.

وقيل: طائره: كتابه الذي يطير إليه يوم القيامة. إلا أن الكتاب مذكور بعده، فإنما حسن هو القول الأول، [مع] أنه مطرد في كلام العرب.) [٥]

- ابن الجوزي: (قال المفسرون: هذا كتابه الذي فيه ما عمل. وكان أبو السّوّار العَدَوي إذا قرأ هذه الآية قال: نشرتان وطيّة، أمَّا ما حييتَ يا ابن آدم، فصحيفتك منشورة، فأمل فيها شئت، فاذا مُتَّ، طُويت، ثم إذا بُعثت، نُشرت. ...

أن الإنسان يفوَّض إليه حسابه، ليعلم عدل الله بين العباد، ويرى وجوب حجة الله عليه، واستحقاقه العقوبة، ويعلم أنه إن دخل الجنة، فبفضل الله، لا بعمله، وإن دخل النار،

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٦٥٢). التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٨١٥).

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٩٠).

(٣) نفسه (٣/ ٤٤٢). تفسير الخزرجي المسمى نفس الصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه (ص: ٢٠٢).

(٤) نفسه (٣/ ٤٤٣).

(٥) باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن (٢/ ٨٢٣). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٠٤٤، بترقيم الشاملة آليا).

فبذنبه.)[1]

- الرازي: (أن تقدير الآية: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه،...

ثم قال تعالى: ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا قال الحسن:....

/ نقول: إن كل عمل يصدر من الإنسان كثيرا كان أو قليلا قويا كان أو ضعيفا، فإنه يحصل منه لا محالة في جوهر النفس الإنسانية أثر مخصوص،...

/ ... أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه [الإسراء: ١٣] ومعناه: أن كل أحد مختص بعمل نفسه، عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب إلى الأفهام وأبعد عن الغلط فقال: من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، ولا يتعدى منه إلى غيره، ويتأكد هذا بقوله: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى [النجم: ٣٩، ٤٠]...)[2]

- أحمد بن عمر: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ [الإسراء: ١٣] يشير إلى ما طار لكل إنسان في الأزل وتعد بالحكمة الأزلية والإرادة القديمة من السعادة...، ومن صغائر الأعمال وكبائرها المكتوبة له،...

ويجوز أن يكون هذا الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها نسخة نسخها الكرام الكاتبون بقلم أعماله في صحيفة أنفاسه من الكتاب الطائر في عنقه، ولهذا يقال: اقْرَأْ كِتَابَكَ [الإسراء: ١٤] أي: كتابك الذي كتبته.

---

[1] زاد المسير في علم التفسير (٣/ ١٣).

[2] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٠/ ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١).

كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [الإسراء: ١٤] فإن نفسك مرقومة بقلم أعمالك إما برقوم السعادة أو برقوم الشقاوة مَّنِ اهْتَدَى [الإسراء: ١٥] إلى الأعمال الصالحات فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ [الإسراء: ١٥] فيرقمها برقم السعادة وَمَن ضَلَّ [الإسراء: ١٥] عنها بالأعمال الفاسدة فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا [الإسراء: ١٥] فيرقمها برقوم الشقاوة) [١]

- المنتجب الهمذاني: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أي: وألزمنا كل إنسان طائره، أي: عمله..... وقوله: فِي عُنُقِهِ تأكيد للإلزام على أن عمله لازم له لزوم القلادة العنق أو الغل) [٢]

- العز بن عبد السلام: (طائره: عمله من الخير والشر كِتَابَكَ كتابه: طائره الذي في عنقه حَسِيباً شاهداً، أو حاكماً عليها بعملها من خير أو شر. ولقد أنصفك من جعلك حسيبا على نفسك بعملك.) [٣]

- القرطبي: (وطائر الإنسان عمله، وفي التنزيل وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه] الاسراء: ١٣].) [٤]و قال أيضا: (قوله تعالى: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)... وقال ابن عباس.... وقال مقاتل والكلبي:.... وقال مجاهد:.... وقال الحسن....

وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه التزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما زجر به أمكنه ذلك.) [٥]

---

[١] التأويلات النجمية لأحمد بن عمر (٢/ ٣٨٠).

[٢] الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ١٦٨). تفسير الجلالين (ص: ٣٦٧).

[٣] تفسير العز بن عبد السلام (٢/ ٢١٤). عيون التفاسير للفضلاء السماسير للسيواسي ت ٨٦٠ هـ (٣/ ١٢).

[٤] تفسير القرطبي (٦/ ٤١٩).

[٥] نفسه (١٠/ ٢٢٩). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٤٥٧).

و كل قول لأحد من السلف مآله واحد، لأن الأعمال هي المترجمة لقدر الله و ما قَدَّره له و ما أَحَظَّه به في علم الله و حكمته، و بحيثية التكليف فهي الأعمال أيضا لأنها ما يكلف بها الإنسان، و بحيثية المجازاة هي الأعمال أيضا فهي التي يوضع لها الميزان و الوزن و الموازين و الحساب.

و بهذا التأويل الجديد لما أُلزم به الإنسان طائره في عنقه أنه ما ألزمه الله من تكاليف شرعية يتمكن من امتثالها أو عدم امتثالها، تدل على عموم التكليف لكل إنسان، و أن مناط التكليف هو صفة الإنسانية فقط، **و بهذا فكل عمل تم وصفه شرعا إما أمرا أو نهيا فهو في عنق الإنسان و محل مسائلة يوم القيامة إذا بلغه أمر الله به.**

- البيضاوي: **(وكل إنسان ألزمناه طائره عمله وما قدر له...، استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد.**

ونخرج له يوم القيامة كتابا هي صحيفة عمله أو نفسه المنتقشة بآثار أعماله، فإن الأعمال الاختيارية تحدث في النفس أحوالا ولذلك يفيد تكريرها لها ملكات،....) [(١)]

- النسفي: **(وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ عمله فِي عُنُقِهِ يعني أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق لا يفك عنه اقْرَأْ كِتَابَكَ أي كتاب أعمالك... مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أي فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال.)** [(٢)]

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٥٠).

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٢٤٩).

- السيرافي: (والمراد [كتاب] الأعمال، قال: كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا [الإسراء:١٣]) [(١)]

- الطوفي: (وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (١٣) [الإسراء: ١٣] قيل: هي صحيفة عمله تعلق في عنقه في قبره حتى يبعث بها، فيحاسب عليها وهي الكتاب الذي يخرج له يوم القيامة، فيلقاه منشورا.) [(٢)]

- ابن تيمية: (فقد فسروا (الطائر) بالأعمال وجزائها؛ لأنهم كانوا يقولون: إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم.

فبين الله ـ سبحانه ـ أن طائرهم ـ وهو الأعمال وجزاؤها ـ هو عند اللهّ وهو معهم. فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم، كما قال تعالى: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ [الإسراء: ١٣]،....)[(٣)]

- ابن جزي: (وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ... والطائر هنا العمل، والمعنى أن عمله لازم له، وقيل: إن طائره ما قدر عليه، وله من خير وشر،... كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً يعنى صحيفة أعماله بالحسنات والسيئات) [(٤)]

- الخازن: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً قيل: بسطت للإنسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيئاته. ...

---

(١) التقريب في التفسير للسيرافي ٧١٢ هـ (ص: ٢٢٢٨، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٣٨٨).

(٣) التفسير من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨) (٣/ ٥٣).

(٤) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٤٣).

قوله سبحانه وتعالى مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضا) [(١)]

- الطيبي: (المعنى: أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل، لا يفك عنه.) [(٢)]

- أبو حيان: (استعارة الطائر للعمل في قوله: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه.) [(٣)]

- ابن القيم: (وقيل في قوله تعالى: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه أن الطائر هاهنا هو العمل. قاله الفراء.) [(٤)]

- ابن كثير: (وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧- ٨] وقال تعالى: عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد [ق: ١٧ – ١٨] وقال: وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون [الانفطار: ١٠- ١٤] وقال: إنما تجزون ما كنتم تعملون [الطور: ١٦] وقال من يعمل سوءا يجز به [النساء: ١٢٣] الآية، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلا ونهارا، صباحا ومساء.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ١٢٤).

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٨/ ٥٩٤)، (٩/ ٢٥٧).

(٣) تفسير النهر الماد من البحر المحيط ت ٧٤٥ هـ (١/ ٦٧٧)، (٢/ ٢٨٦). البحر المحيط في التفسير (٧/ ٢١). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/ ٦١٢). اللباب في علوم الكتاب (٨/ ١٢٣)، (١٢/ ٢٢٥). تفسير غريب القرآن لابن الملقن (ص: ٢١٦). التبيان في تفسير غريب القرآن (ص: ٢١١).

(٤) مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية (٩/ ٢٣، بترقيم الشاملة آليا).

/ وقوله: ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا أي نجمع له عمله كله في كتاب... فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره... ولهذا قال تعالى: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أي إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك،...

...، وتلا الحسن البصري عن اليمين وعن الشمال قعيد [ق: ١٧] يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر...، هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله.) (١)

- أبي بكر الحداد: (أي ألزمناه عمله من خير أو شر في عنقه، فجعلنا جزاء عمله لازما له،...

/ قوله تعالى: ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا؛ أي يرفع الله يوم القيامة كتابه يرى فيه جزاء أعماله...

...؛ أي يراه منشورة فيه حسناته وسيئاته.

/ قوله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا؛ أي محاسبا، وإنما جعل محاسبا لنفسه؛ لأنه إذا رأى أعماله كلها مكتوبة، ورأى خير أعماله مكتوبا لم ينقص من ثوابه شيء، ولم يزد على عقابه شيء كفاه ذلك في الحساب.) (٢)

- المهايمي: ((كُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ) أي عمله الذي يطير به إلى مقام السعادة أو الشقاوة بان نجعله هيئة لروحه أو قلبه أو نفسه...

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/ ٤٧ – ٤٨).

(٢) تفسير أبي بكر الحداد –كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل ت ٨٠٠ هـ (ص: ١٦٥٩ – ١٦٦٠ – ١٦٦١).

(اقْرَأْ كِتابَكَ) أي كتاب أعمالك لئلا تحتاج إلى شاهد ولا إلى حسيب بل (كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)) [1]

- النيسابوري: (وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ أي عمله... ذكر أن الإنسان مؤاخذ في عرصة القيامة بأقواله وأفعاله وسائر أحواله ليظهر أنه هل أتى بها هو المقصود من خلقه أم لا.

/ ثم بين أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده مختص بفاعله) [2]

- البقاعي: (وكل إنسان أي من في طبعه التحرك والاضطراب ألزمناه أي بعظمتنا طائره أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر/ كتاباً بجميع ما عمل/ من اهتدى فتبع الهدى فإنما يهتدي لنفسه لأن ثوابه لا يتعداه) [3]

* الكوراني: ((لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

أي: يرى جزاءه. وتفصيل؛ لقوله (أَشْتَاتًا). وحسنات الكافر لها مدخل في التخفيف كما أنَّ زيادة سيئاته توجب ضعف العذاب. ولا ينافي حبوط عمله، لأنَّ ذاك معنى آخر.) [4]

الشاهد من تأويل الكوراني أنه جمع روافد التصور ليتمه فوضحت الصورة أن أعمال الإنسان و منه الكافر فيها حسنات تكتب في كتابه يلقاه يوم القيامة منشورا، فكل مثقال ذرة

---

(١) تفسير المهايمي المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان ت ٨٣٥ هـ (١/ ٤٢٥).

(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٣٣٠ – ٣٣١).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١١/ ٣٨٦ – ٣٨٧ – ٣٨٨).

(٤) تفسير الكوراني – غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني ت ٨٩٣ هـ (٢/ ٤٢٥).

من خير فيه سيرى جزائها، فتخفف عنه قدر استحقاقه من العذاب لو لم يرى ثواب حسناته، و بهذا تحبط كل حسناته فلا يبقى له إلا السيئات الطافحة فيجازى عليها الخلود في النار.

❋ الشيخ علوان: (وَاعلموا ان كُلَّ إِنسانٍ يعنى كل فرد فرد من نوع الإنسان قد أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ... كتبنا جميع ما صدر عنه من الأعمال الصالحة والفاسدة في مكتوب جامع لها محيط بها وعلقناه في عنقه... وَبعد انقضاء النشأة الاولى المعدة للاختبار والاعتبار نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً حاويا لعموم ما صدر عنه في دار الابتلاءيَلْقاهُ وينال اليه مَنْشُوراً على رؤوس الملأ والاشهاد...اقْرَأْ أيها المكلف في دار الابتلاء بأنواع التكاليف والمأمور فيها بامتثال الأوامر وترك المناهي ❋﴿❋﴿❋﴿كِتابَكَ هذا أي صحيفتك المشتملة على عموم ما صدر عنك...

وبالجملة مَنِ اهْتَدى في النشأة الأولى بمتابعة ما أمر ونهى فَإِنَّما يَهْتَدِي وما يفيد إلا لِنَفْسِهِ... وَكذا مَنْ ضَلَّ عن طريق الحق وانحرف عن مسلك التوحيد بترك المأمورات وارتكاب المنهيات فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أي ما يعود وما يرجع وبال ضلالها الا على نفسها...)(١)

- مجير الدين الحنبلي: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ عملَه فِي عُنُقِهِ لا يفارقُه، وخُصَّ العنقُ بالذكرِ؛ لأنَّ الإلزامَ فيها أشدُّ. وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا هي صحيفةُ عملِه يَلْقَاهُ مَنْشُورًا مبينًا مشروحًا.) (٢)

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (١/ ٤٤٨).

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٤/ ٨٦). تفسير الأعقم - زيدي (١/ ٣٦٣، بترقيم الشاملة آليا).

- محي الدين زاده: (وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ أي عمله وسائر ما قدر له...)[(١)]، (ثم إنه تعالى بيّن أن ثواب العمل الصالح وعقاب العمل السيئ يختص بفاعله لا يتعدى منه إلى غيره.)[(٢)]

- الخطيب الشربيني: (طائره أي: عمله الذي قدرناه عليه من خير وشرّ/ أي: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه... ونخرج له يوم القيامة كتاباً أي: مكتوباً فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. قال الحسن:... فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك...)[(٣)]

* أبو السعود: (وكل إنسان مكلف ألزمناه طائره أي عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له... يوم القيامة والبعث للحساب كتابا مسطورا فيه ما ذكر من عمله نقيرا وقطميرا... أي يلقى الإنسان إياه قال الحسن... فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك.... من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لأقوم الطرائق ولزوم الأعمال لأصحابها أي من اهتدى بهدايته وعلم بما في تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود/ منفعته اهتدائه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد ومن ضل عن الطريقة التي يهديه إليها فإنما يضل عليها أي فإنما وبال ضلاله عليها لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه) [(٤)]

---

(١) حاشية محي الدين زاده على تفسير القاضي البيضاوي (٥/ ٣٦٠). التفسير المظهري (٥/ ٤٢٠).

(٢) نفسه (٥/ ٣٦٣).

(٣) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٢٨٧ – ٢٨٨).

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ١٦١). روح البيان (٥/ ١٤٠). حاشية الجمل على الجلالين (٤/ ٣٠١).

- إسماعيل حقي: (قوله تعالى وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ أن عمله لازم له... انتهى قال في التأويلات النجمية... ومن صغائر الأعمال وكبائرها المكتوبة له... وَنُخْرِجُ لَهُ أي لكل انسان يَوْمَ الْقِيامَةِ والبعث للحساب كِتاباً مسطورا فيه عمله نقيرا وقطميرا... قال الحسن... فيحفظ حسناتك. واما الذي عن شمالك فيحفظ سيأتك....

/ مَنِ اهْتَدى أي بهداية القرآن وعمل بما في تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ فإنما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه)[1]

- القونوي: (فالمناسب تعميم العمل إلى الخير والشر وإلى القدر أيضا، ولك أن تقول: الواو بمعنى أو أي أو ما قدر له.

... وما هو سبب الخير والشر قدر الله تعالى وعمل العبد، ولذا قيل طائر الله لا طائرك.

/ والمعنى وكل إنسان مكلف ألزمناه عمله فلزمه ولم يفارقه حتى يجازى به خيرا كان أو شرا...

قوله: (ونخرج له) أي ونظهر له. اللام للاختصاص لا للمنفعة.)[2]

* الشوكاني: (بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه ومن ضل عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به، ولم يترك ما نهي عنه فإنما يضل عليها أي:

---

[1] روح البيان (٥/ ١٤٠ – ١٤١).

[2] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١١/ ٤٥٨ – ٤٥٩).

فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحد محاسب عن نفسه، مجزي بطاعته، معاقب بمعصيته) [1]

- الألوسي: (أي وألزمنا كل إنسان مكلف ألزمناه طائره أي عمله الصادر منه باختياره حسبما قدر له خير أكان أو شرا/ ونخرج له يوم القيامة والبعث للحساب كتابا هي صحيفة عمله... ... وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال:...)[2]

- القاسمي: (أي ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيرا وشرّا، بحيث لا يفارقه أبدا.
/ وقوله تعالى:وَنُخْرِجُ لَهُ أي نظهر له يَوْمَ الْقِيامَةِ أي البعث للجزاء على الأعمال كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً أي يجده مفتوحا فيه حسناته وسيئاته. ويقال له: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً أي شهيدا بما عملت.
وقوله تعالى: مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ قال أبو السعود:...)[3]

---

[1] فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٥٤). و نفسه في فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ٣٦٥).

[2] روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٣١ – ٣٢). تفسير المراغي (١٥/ ٢٢).

[3] تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ٤٤٨). تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٥).

- أطفيش: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أي إنسان مكلف،.../ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا مكتوباً فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها يَلْقَاهُ مَنْشُورًا قال الحسن:...)[١]

- الطاهر ابن عاشور: (لما كان سياق الكلام جاريا في طريق الترغيب في العمل الصالح والتحذير من الكفر والسيئات... أهم الأشياء في هذا المقام إحاطة علمه بالأعمال كلها، فأعقب ذكر ما فصله الله من الأشياء بالتنبيه على تفصيل أعمال الناس تفصيلا لا يقبل الشك ولا الإخفاء وهو التفصيل المشابه للتقييد بالكتابة، فعطف قوله: وكل إنسان إلخ على قوله: وكل شيء فصلناه تفصيلا [الإسراء: ١٢] عطف خاص على عام للاهتمام بهذا الخاص.) [٢]

و قال أيضا: (والمعنى على الجميع أن كل إنسان يعامل بعمله من خير أو شر لا ينقص له منه شيء. وهذا غير كتابة الأعمال التي ستذكر عقب هذا بقوله: ونخرج له يوم القيامة كتابا الآية. وعطف جملة ونخرج له يوم القيامة كتابا إخبار عن كون تلك الأعمال المعبر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصلة معينة لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيت للجزاء عليها.) [٣]

---

[١] تفسير اطفيش - إباضي (٥/ ٢١٢، بترقيم الشاملة آليا)، هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (٧/ ٢٧٤، بترقيم الشاملة آليا).

[٢] التحرير والتنوير (١٥/ ٤٦).

[٣] نفسه (١٥/ ٤٨).

الآية رقم ٧

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ۝٨٣ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٨٤﴾ [القصص: ٨٣-٨٤]

هذه الآية بحثت في بحث الحسنة من قبل.

إرادة العلو في الأرض و الفساد يعموا صوراً كثيرة من الأعمال قد تتعاظم في نكارتها لتصل إلى الكفر و الشرك و قد تقل لصور أخرى كثيرة و متنوعة من المعاصي و الذنوب، فالشاهد أن قول الله بعدها بوعد خيرية الذي يجيء بالحسنة و توعد الذي يجيء بالسيئة يوم القيامة بما يقتضيه مقام العدل، فلا بد من إرادة عموم كل ما يصدق عليه حسنة و كل ما يصدق عليه سيئة، و يعم بدلالة (مَن) التي تتجرد للدلالة على العامل فقط من حيث كونه مكلفا بدون تضمين فيها اسم الفاعل (المؤمن – الكافر) لأنها أعم من ذلك الاسم أو الوصف، أي أن التعميم قد جاء من تعميم الوصف (حسنة – سيئة) و من تعميم الفاعل لهما (مَن).

و أيضا يعزز هذا التجريد و التعميم اسناد الحسنة و السيئة لـ (مَن) و عدم تعليق الحكم في الآية على اسم فاعل معين أو حتى دين معين، أي كيفية الجزاء عليها بدون ذكر إيمان أو كفر، أو اسم الفاعل مؤمن أو كافر.

و الشاهد من الآية هو اسناد الحسنة و السيئة و الجزاء عليها لـ (مَن) الدالة على العموم و التجريد من الأوصاف أو الأسماء فيقصر دلالتها على الذات الإنسانية المكلفة، فنستنبط منها اعتبارا لوصف الأعمال الواقعة منها بالحسن و السوء الشرعيين و كفايتها لأن يترتب عليها

الجزاء في الآخرة بالخيرية على الحسنات و بالعقاب على السيئات.

و مما يترجح استنباطه من نظم و تركيب الآية أنها تعطي دلالة على أن الحسنة المعطى عليها خير منها لم تأتي على وصف الجزاء المشعر بالجنة، فكأنها دالة على الكرم الإلهي في حساب الحسنات و ما يعطي عليها، أي أن الخيرية هنا لما تؤول إليه الحسنة من تأثير فإن الله يضاعفها و يكثر منها أو يُعظم متعلقها الجزائي، و في نفس الوقت لا يوجد ما يُشعر بأن صاحب هذه الحسنة هو المؤمن الذي يكون دار آخرته هي الجنة، و لذلك فإنها عامة يدخل تحتها المؤمن و غير المؤمن، و أيضا لأنه ذكر في حال الذي يجيء بالسيئة قد صرح النظم بمجازاته بأسلوب التهديد و الوعيد بما يشعر بأنه جزاء عقاب، فيكون الحاصل:

أن الله لا يظلم غير المؤمن حسنة عملها فأحسن عملها بل يؤجره خير منها و لكن مع السيئات الأخرى فإنه مجازى عليها رغم ذلك، و هذا تحقيق لوعد الله بقوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨] و بقوله أيضا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

أو يكون التأويل: أن من جاء بالحسنة هو الذي فرغ من الحساب و الميزان و لو بحسنة واحدة فإنه قد نجى و استوجب برحمة الله الجنة و يعطى على الحسنة خير منها فيتنعم بها في نعيم الجنة، و الذي جاء بالسيئة كذلك بعد الفراغ من الحساب و الميزان و لكن يوحي النظم أنه خفت موازينه بالسيئات، و على كل فإن الحسنة و السيئة هنا كناية عن خفة و ثقل الموازين المستلزمة للجنة و النار، و في هذا التأويل لا ممانعة من جزاء غير المؤمن بحسنته التي في الحساب و الميزان بأنه سيرى خيريتها بما تؤثر به في الحساب و الميزان، فتهلك كل حسناته فلا يبقى له إلا السيئات

التي يجازى عليها. و هذا التأويل هو ما جعل بعض المفسرين يؤولون الحسنة بالتوحيد، و السيئة بالشرك لأنهما يعطيان نفس المصير إما الجنة أو النار.

لأنه في تعميم الجزاء و الإعطاء على الحسنة تأكيد على مصير المؤمن لأنه دال على ثقل موازينه و غلبة حسناته على سيئاته، و بهذا فيه تضمين لمصير غير المؤمن بأن حسناته هلكت فلم يبقى له حسنة يجيء بها ليعطى بها جزاء عليها، لأنه لن يجيء بالحسنة إلا المؤمن فقط الذي ثقلت موازينه، و في هذا تأكيد على إعطاء غير المؤمن بحسناته خيرا منها و لكن لقلتها و ضآلتها سواء في النوع أو الكم فلن يبقى له حسنة يجيء بها، فالشاهد أن هذا التأويل لا ينفي و لا يمنع من اعتبار حسنات الكافر في العطاء و الخيرية، لأنه لا يلزم من هذا العطاء أنه يدخل الجنة لأن قدره لا يوازن سيئاته النوعية كالكفر و الشرك، و لا الكمية بما خالف به شرع الله.

و قد يكون هناك تأويلا آخر في قوله تعالى ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعم كل من عمل الحسنة و من عمل السيئة على ما حكم به الله في قوله ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَاۖ﴾ و قوله ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي أن المقصود بـ (مَن) هو نفس واحدة غلب عليها السيئات في موازينها فهو كناية على الكافر و المشرك الذي مصيره النار و هو في نفس الوقت له سيئات غالبة و حسنات ضئيلة يجازى عليها خيرا و لضآلتها لا تؤثر و لا تصمد، و لذلك فمن خصص المجازاة على أعمالهم السيئة فقط فقد أخرج من عموم الجزاء المتعلق بعموم أعمالهم ما قد عملوه من حسنات، و هذا لا يتأتى إلا بعدمية اعتبار عملهم أي يكون عملهم الحسن عدم؛ و ليس كالعدم لأنه في هذه الحال(كالعدم) يتضمن اعتبار عملهم الحسن ثم يعتريه ما يفسده و يجعله

في حكم المعدوم، و يكون السؤال كالآتي: ما متعلق العدم من العمل أي بأي شيء يتعلق العدم؟ هل بالعمل نفسه أم باعتباره أم بالجزاء عليه أو بمنفعته؟

- و من فوائد ذكر الحسنة و السيئة بالإفراد ثم عند المجازاة جاءت بالجمع (السيئات) ليتأكد أن المقصود هو الحسنة المفردة و السيئة المفردة في هذه الآية و هذا بيان لما ذُكر في قوله (أحسن عملا) أي الجزاء مكفول على أقل عمل يمكن وصفه بأنه حسن فيكون حسنة، و كذلك السيئة و هذا في المحاسبة واضح، أي في مستوى المحاسبة و الموازنة يُعتبر الحسنة و السيئة المفردة لأنهما مادة الحساب و الميزان، أما في مستوى الجزاء يُعتبر الكل الناتج بعد المحاسبة و الموازنة و لذلك جاءت السيئات بالجمع في سياق المجازاة ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

و الآية مسوقة لإقرار العدل و المساواة في الحساب و الجزاء لكل المكلفين، و على أقل قدر يستقل بماهية توصف بالحسنة أو السيئة، و من أراد تأويل الحسنة (الإيمان و عمل الصالحات) فعليه تأويل السيئة (الشرك و ما دونه) فكان من الاتساق الواجب أن يكون القول: (فلا يجزى الذين عملوا السيئة إلا ما كانوا يعملون) أي تأتي السيئة على الإفراد كما جاءت الحسنة على الإفراد إذا أردنا مقابلة الإيمان مع الكفر، و هذا العدول يؤكد على أن المقصود هو الحسنة و السيئة المفردة، أو الجنس بما يمثله من أنواع (مصاديق)

- سنتجاوز المفسرين الذين يقولون بأن المقصود بالحسنة هو التوحيد أو الإخلاص أو لا إله إلا الله، و كذلك المقصود بالسيئة الشرك، لأن ما يلزم من كلامهم متحد و متفق عليه مسبقا (الجنة – النار) و هو لا يرد أو ينقد أو ينافي ما نقرره من مجازاة الكافر على الحسنة خيرا بحيث

لا يدفع عنه الخلود في العذاب أو يدخله الجنة أو يستحق تنعما على حسناته، و من جهة أخرى لن نذكر تفاسير هؤلاء العلماء لأن تأويلنا متضمن فيه على مقتضى رؤيتنا.

و سننقل للمفسرين من فسروا الآية على ظاهرها من ألفاظ أي السيئة و الحسنة كما هي و بدون ذكر الكافر و المشرك أو الجنة و النار، و كذلك من ترك السيئات على ظاهرها الدال على الجمع بدون أن يفسرها على أنها الشرك أو الكفر، فيجعلها كما هي أو يردفها بكلمة أخرى كالمعاصي و تكون جمعا أيضا فهذا أبعد أن يكون مقصدهم الشرك لأنه مفرد هذا من جانب و من الجانب الآخر أنهم تجنبوا استخدام لفظة الشرك أو ما يدل عليها مثل النار كجزاء، و هذا يدل على أنهم مع ظاهر الآية و ألفاظها.

- الطوسي: (أخبر تعالى أن من جاء بطاعة من الطاعات وحسنة من الحسنات/ (فله خير منها) ثوابا عليها وجزاء عليها، لان له بالواحدة عشرا (ومن جاء بالسيئة) يعني بالمعصية (فلا يجزى الذين عملوا السيئات) يعني الذين عملوا المعاصي إلا على قدر استحقاقهم على ما فعلوه من غير زيادة. كما قال (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها)) [1]

- السمعاني: (قوله تعالى: من جاء بالحسنة فله خير منها ظاهر المعنى. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات أي: المعاصي) [2]

- ابن عطية: (وصف تعالى أمر جزاء الآخرة أنه مَنْ جاءَ بعمل صالح فَلَهُ خَيْرٌ من القدر الذي يقتضي النظر أنه موازٍ لذلك العمل هذا على أن نجعل «الحسنة» للتفضيل، وفي القول حذف مضاف أي من ثوابها الموازي لها ويحتمل أن تكون مَنْ لابتداء الغاية أي له خير بسبب حسنته ومن أجلها. وأخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلا منه ورحمة) [3]

- أحمد بن عمر: (يشير إلى جزاء السيئات على حسب ما يعملون من السيئات فإن كانت السيئة بالشرك بالله فجزاؤه النار للأبد، وإن كانت المعاصي فجزاؤه العذاب بقدر المعاصي صغيرها وكبيرها،...)[4]

- البيضاوي: (من جاء بالحسنة فله خير منها ذاتا وقدرا ووصفا. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى

---

[1] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٨/ ١٧٣، بترقيم الشاملة آليا).

[2] تفسير السمعاني (٤/ ١٦٢).

[3] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٠٢). و به قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٥/ ١٩).

[4] التأويلات النجمية لأحمد بن عمر (٦١٨) (٣/ ١٠٩).

الذين عملوا السيئات.... إلا ما كانوا يعملون أي إلا مثل ما كانوا يعملون) [1]

- ابن كثير: (وقال تعالى: من جاء بالحسنة أي يوم القيامة فله خير منها أي ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافا كثيرة، وهذا مقام الفضل ثم قال: ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) [2]

- البقاعي: (من جاء أي في الآخرة أو الدنيا بالحسنة أي الحالة الصالحة فله من فضل الله خير منها من عشرة أضعاف إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما لا يحيط به إلا الله تعالى ومن جاء بالسيئة وهي ما نهى الله عنه، ومنه إخافة المؤمنين فلا يجزى... الذين عملوا السيئات تصويراً لحالهم تقبيحاً لها وتنفيراً من عملها، ولعله جمع هنا وأفرد أولاً إشارة إلى أن المسيء أكثر)[3]

- الشيخ علوان: (مَنْ جاءَ في النشأة الأولى بِالْحَسَنَةِ والخصلة المقبولة عند الله المستحسنة عند عموم عباده ابتغاء لمرضاته سبحانه وأداء لحقوق عباده فَلَهُ عند الله في النشأة الأخرى جزاء عليها حسنة مستحسنة هي خَيْرٌ مِنْها بل بأضعافها وآلافها تفضلا وإحسانا وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِوالخصلة الذمية أيضا فيها المستقبحة عقلا وشرعا المستهجنة عند الله وعند عموم عباده عرفا وعادة فَلا يُجْزَى من قبل الحق في يوم الجزاء المسيئون الَّذِينَ قد عَمِلُوا السَّيِّئاتِ التي لا يرضى بها الله ولا خلص عباده إِلَّا مثل ما كانُوا يَعْمَلُونَ عدلا منه سبحانه.)[4]

---

[1] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٨٧). حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٧/ ٨٨). التفسير المظهري (٧/ ١٨٧).

[2] تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٢٣٣).

[3] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤/ ٣٧٣).

[4] الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٩٤).

- مجير الدين الحنبلي: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أي: بعمل صالح. فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا أي: من ثوابها الموازي لهما.

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أخبر تعالى أن السيئة لا يُضاعف جزاؤها؛ فضلًا منه ورحمة.) [1]

- الخطيب الشربيني: (من جاء بالحسنة فله خير منها من عشرة أضعاف إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى ما لا يحيط به إلا الله تعالى ومن جاء بالسيئة وهي ما نهى الله تعالى عنه ومنه إخافة المؤمنين) [2]

- أبو السعود: (من جاء بالحسنة فله بمقابلتها خير منها ذاتا ووصفا وقدرا ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم إلا ما كانوا يعملون أي إلا مثل ما كانوا يعملون) [3]

- الأعقم: (من جاء بالحسنة أي من عمل حسنة فله خير منها قيل: ثوابها خير منها ومن جاء بالسيئة بالمعاصي فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون أي لا يزاد في عقابهم على قدر المستحق) [4]

- إسماعيل حقي: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ بمقابلتها خَيْرٌ مِنْها ذاتا ووصفا وقدرا... يعنى انه

---

[1] فتح الرحمن في تفسير القرآن (٥/ ٢٢٤).

[2] السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ١٢١).

[3] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٢٧).

[4] تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ٩، بترقيم الشاملة آليا).

يجازى بالحسنة الواحدة عشرا...... وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ كالشرك والرياء والجهل ونحوها) [1]

- القونوي: (قوله: (من جاء بالحسنة) ... والمراد بالحسنة جمع المبرات ويدخل فيها الاجتناب عن المنكرات ولم يقل من عمل بالحسنة لأن النافع المجيء بأن لا يبطل. ...

... المراد بالسيئة الكفر والجمع لتعدد فنون الكفر والضلال، أو المراد الأسباب المؤدية إلى الكفر كالجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه،... وتوحيد الحسنة وجمع السيئة لأن الحق واحد وطرق الضلال متعددة كما عرفته.) [2]

و لم يقف القونوي على قصر معنى الحسنة هنا على التوحيد أو لا إله إلا الله فقط بل جعلها عامة في الأوامر و النواهي أي الطاعة لأمر الله، و قد أوجد لإفراد (السيئة) و جمع (السيئات) تأويلا يناسب قول الأكثرية أن السيئة هي الكفر أو الشرك و من ثم جعل دلالة الجمع (السيئات) للأسباب المؤدية للكفر و الشرك، و الشاهد أن تعليق المجازاة على مجموع هذه السيئات و هذا فيه اعتبار كل سيئة على حدة، فيدل و يقرر العدل و عدم الظلم لأنهم لن يجازوا إلا على ما عملوه فقط بدون مضاعفة.

- ابن عجيبة: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ذاتاً وقدراً ووصفا، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ ما لا يرضاه الله تعالى) [3]

---

[1] روح البيان (٦/ ٤٣٩).

[2] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٤/ ٥٨٤).

[3] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٢٨١).

- الصاوي: (قوله: مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ تقدم أنه إن أريد بِالْحَسَنَةِ لا إله إلا الله، فالمراد بالخير الجنة، و مَن للتعليل، وليس في الصيغة تفضيل، وإن أريد بها مطلق طاعة، فالمراد بالخير منها عشر أمثالها، كما جاء مفسراً به في الآية الأخرى: مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا [الأنعام: ١٦٠]....

قوله: (وهو عشر أمثالها) هذا أقل المضاعفة، وتضاعف لسبعين ولسبعمائة، والله يضاعف لمن يشاء، وهذا في الحسنة التي فعلها بنفسه أو فعلت من أجله، كالقراءة والذكر، إذا فعل وأهدى ثوابه للميت مثلاً، وأما الحسنة التي تؤخذ في نظير الظلامة فلا تضاعف، بل تؤخذ الحسنة للمظلوم، وأما المضاعفة فتكتب للظالم، لأنها محض فضل من الله تعالى، ليس للعبد فيه فعل، والمضاعفة مخصوصة بهذه الأمة، وأما غيرهم فلا مضاعفة له.) (١)

قول الصاوي هنا هو تحقيق لمسألة التقدير على ظاهر الآية، فجعل المريد بالحسنة يتوقف عليه المراد بالخير المترتب على الحسنة، فإذا كان المراد بالحسنة هو لا إله إلا الله فيكون الخير المنوط بها هو الجنة، و إن كانت الحسنة المراد بها مطلق الطاعة أي كل أمر أو نهي تم امتثاله طاعة لله ففي هذه الحالة يكون الخير المنوط بها هو عشرة أمثالها فأكثر على مراد الله.

- الألوسي: (مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ بمقابلتها...

وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يَجْزِى الذين عَمِلُواْ السيئات...، وفي جمع السيئات دون الحسنة قيل

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٤٢٧، بترقيم الشاملة آليا). مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٢٠٩).

إشارة إلى قلة المحسنين وكثرة المسيئين، وقد يقال: إنه إشارة إلى أن ضم السيئة إلى السيئة لا يزيد جزاءها بل جزائها إذا انفردت مثل جزائها إذا انضم إليها غيرها وأن عدم ضم الحسنة إلى الحسنة لا يؤثر في مقابلتها بما هو خير منها، ولعل قلة المحسنين يفهم من عدم اعتبار الجمعية في مِنْ في قوله تعالى: مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مّنْهَا وكثرة المسيئين تفهم من اعتبار الجمعية فيها إذ الموصول قائم مقام ضميرها في قوله تعالى: وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزِى الذين عَمِلُواْ السيئات...

وفي قوله تعالى: فَلا يُجْزِى الخ دون فللذين عملوا السيئات ما كانوا يعملون أو فما للذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون إشارة إلى أنه قد يحصل العفو عن العقاب، ولله تعالى در التنزيل ما أكثر أسراره،...) [(١)]

- محمد بن عمر الجاوي: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ أي من جاء يوم القيامة متصفا بالحسنة، المقبولة، الأصلية، المعمولة فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها أي فله بمقابلتها ثواب خير منها ذاتا، وصفة، وقدرا بالمضاعفة....وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ وهي ما يذم فاعلها شرعا) [(٢)]

- السعدي: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا] هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه،

---

(١) روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٠/ ١٢٧). تفسير أطفيش - إباضي (٧/ ٤٣١، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٢٠٩).

وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحله ومكانه، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نَهْيَ تحريم.)[1]

- ابن عاشور: (في اختيار فعل جاء في الموضعين هنا إشارة إلى أن المراد من حضر بالحسنة/ ومن حضر بالسيئة يوم العرض على الحساب. ففيه إشارة إلى أن العبرة بخاتمة الأمر وهي مسألة الموافاة. وأما اختيار فعل عملوا في قوله الذين عملوا السيئات فلما فيه من التنبيه على أن عملهم هو علة جزائهم زيادة في التنبيه على عدل الله تعالى. ...

ومن جاء بالسيئة ما صدقه الذين عملوا السيئات، والذين عملوا السيئات الثاني هو عين من جاء بالسيئة فكان المقام مقام الإضمار بأن يقال: ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلخ ولكنه عدل عن مقتضى الظاهر لأن في التصريح بوصفهم ب عملوا السيئات تكريرا لإسناد عمل السيئات إليهم لقصد تهجين هذا العمل الذميم وتبغيض السيئة إلى قلوب السامعين من المؤمنين.)[2]

و تأويل ابن عاشور اعتمد على مرحلة ما بعد المحاسبة و الموازنة فكل من جاء بالحسنة فهو من أصحاب الجنة، و كل من جاء بالسيئة فهو من أصحاب النار لأن دلالة مجيئه بالسيئة أن موازنة خفت، و كل من جاء بالحسنة فهو دال على أن موازنه ثقلت، و كما سبق و قلنا أن هذا التأويل لا ينافي مجازاة الكافر على حسناته في الموازنة بتخفيف قدر استحقاق العذاب بقلة قدر السيئات الذاهبة بحسناته.

---

[1] تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٥).

[2] التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٠ – ١٩١).

الآية رقم ٨

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ [الكهف: ٣٠-٣١]

وعد الله بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، **و هو مسوق هنا للذين آمنوا و عملوا الصالحات بإفادة معنى العموم لكل من أحسن عملا فهم أولى الداخلين لو اعتبرنا الجزاء الحسن هو الأجر أو الخيرية الجزائية على عموم المعنى، أما و أنه قد جاء بيان الأجر في محله المخصوص و هو الجنة و بما يتنعم فيها من أنهار و حلي و مجالس فقد استوجب هذا أن يكون الأجر على الأعمال الحسنة خاص بالمؤمنين فقط، و لكن لا يمنع دخول غيرهم ممن أحسنوا الأعمال لأنه لم يأت هنا مقصورا أو مخصوصا للذين آمنوا فقط بمنطوق الشمول و العموم في قوله (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)، أما في حال تأويل الأجر على أنه التنعم في الجنة فيكون في هذه الحال مخصوص بالمؤمنين فقط و لا يدخل معهم غيرهم أبدا، لأن الجنة التي هي محل تفعيل الأجر مخصوصة و قاصرة على الذين آمنوا، و من هذه الحيثية فلا يمكن تصور أجر لعمل حسن لغير المؤمنين.**

و على اعتبار الخصوص على المؤمنين فقط يكون (الأجر) خاص لعمل المؤمن الحسن فقط، و باعتبار خصوصه هنا على عمل المؤمن لا يمنع أو ينفي وعد الله بالذين عملوا (خيرا) حتى و لو كان مثقال ذرة أن يكون نتيجة عملهم الخير هو خيرا سيروه يوم القيامة حتى لو لم نطلق

عليه أجرا اتباعا لاحتمالية التخصيص (بالأجر) للمؤمنين فقط، و الحاصل من هذا الشاهد أن هناك خصوص و عموم بالنسبة لنتيجة العمل الحسن، فإذا كان العامل من المؤمنين فله (أجر) عليه دون غيره، أما إذا كان العامل من المؤمنين أو من غير المؤمنين فله (خير) يراه جزاء على عمله الحسن و لا نسميه أجراً، أي أن الخير أعم من الأجر، و الأجر صورة من صور الخير.
و بمعنى آخر يكون التقدير الذي نرتضيه في تأويل الآية: أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا سواء من المؤمنين أو غيرهم، و لكن الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار...إلى آخر الآية.

و نلاحظ في تحليل استدلال النحاة على تعيين الخبر و مرجوع الخبر و الضمير يرتكز على الصنعة بالمقام الأول ثم يشفعه بما يجوز من المعاني سواء من داخل السياق الخاص أي نظم الآية نفسها أو من سياقات أخرى كحبط عمل غير المؤمن، و الأولى هو اعتماد المعنى القائم على نفس النظم في سياقه الخاص لأن القرآن كلام الله و هو من البلاغة بمكان لا يدانيه كلام البشر في إحكامه و بلاغته و ثراء معانيه، ثم نضيف العامل الأهم و الأول أننا نتحاكم لمعنى النظم و تراكيبه و نخضع له طواعية فنجعله متبوعا و ليس تابعا، فقد اقتضى النظم هنا أن يغيب لفظ يشير على المؤمنين أو يرجع القول عليهم بتخصيص أو قيد (الأجر على من أحسن عملا) فوجب حمل معناه على الاطلاق و التعميم، و لأجل أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات هم ممن أحسنوا العمل فيهما فقد دخلوا دخولا أوليا و لأجلهم سيق الكلام بذكر العمل و صفته و الجزاء عليه، و لكنه أيضا من البلاغة القرآنية و السعة الدلالية لم يقصر الأجر على حسن العمل على المؤمنين فقط بل جعله عاما، ثم عين و بين نوعية الأجر بالجنة و نعيمها المتلون و

المتنوع كما ذكر في الآيات بإرجاع البيان عليهم بـ أولئك المتسقة مع الذين في تحديد فئة المؤمنين.
فلما لا يقال أن إضمار (منهم) هو تقدير تأويلي محكوم بمعنى قار في ذهن المتأول مسبقا، و يمكن استبداله بما هو أولى من هذا التأويل فيكون معتمد المتأول الثاني هو الظاهر و النص بغياب (منهم) أو ما يشير على المؤمنين المذكورين قبل ذلك، فيكون القول أن الله من رحمته و عدله قد تكفل بعدم ضياع أي أجر لأي عمل قد أحسن عامله به، و هذا بيان لأجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات من جنات و نِعَم كما هو مذكور في الآية، و بما أن الله قد أعلمنا أن الجنة محرمة على الكافرين و المشركين فيكون أجر أعمالهم الحسنة لن يكون فيها، و لأنه لن يكون فيها فلا بد أن يراه العامل كما وعد الله على أدنى مثقال و هو الذرة من الخير، فيذهب سيئاته من حسناته فيقل مقدار و شدة عذابه.

و تقريبا الكل متفق على أن الجنة و نعيمها هو بيان لما أُبهم من الأجر الراجع على الذين آمنوا و عملوا الصالحات ليس لكونهم مؤمنين اسما بل لكونهم أحسنوا العمل بالإيمان و العمل الصالح، و لو كُني باسم المؤمنين فالمقصود إيمانهم و عملهم الصالح، الشاهد أن اتفاقهم أن الجنة و نعيمها هو بيان أو كشف لما أبهم من أجر يدل على معنى العموم و الاطلاق للأجر و بذلك فقد خُص بنوعية الجنة و نعيمها للذين آمنوا و عملوا الصالحات فيبقى غيرهم مُبهم لم يُعين بعد و يستفاد من التخصيص بالجنة و نعيمها أن غير المؤمنين العاملين للصالحات لن يكون أجرهم على عملهم الحسن هو الجنة و نعيمها، و عدم بيانه و ذكره لقلة أهميته و ضآلة منفعته مقابل فقدان الجنة و نعيمها و الحلول في النار و الخلود فيها.
و نكتة غياب ضمير يرجع على الذين آمنوا و عملوا الصالحات في إنا لا نضيع أجر من أحسن

عملا بالإضافة إلى استعمال من ليدلل على عموم الأجر المقابل لمن أحسن عملا أيا كان، و بما أن الكلام مسوق للذين آمنوا و عملوا الصالحات أي لأجل عملهم الذي هو الإيمان و العمل الصالح فقد دخلوا في استحقاق الأجر على ما أحسنوا من عمل، ثم خصهم الله بنوعية أجر معين و هو الجنة و نعيمها، هكذا يكون تفسير النظم كما يقتضي بدون تأويل، أما من تأولوا فقدَّروا ضمير (منهم) يرجع على الذين آمنوا، و من خصص الأجر و قصره عليهم فقط بدلالة إحباط أعمال غيرهم، و من جعل المظهر موضع المضمر بعلة اتحاد المعنى ما بين من أحسن عملا و الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ففيها عدم تسليم لما اقتضاه النظم من معنى ظاهر و كل على حسب رؤيته النابعة من مذهب معين تجاه قضية معينة سواء عقدي أو نحوي أو لزوم قاعدة نحوية أو غير ذلك.

و إذا كان لنا الخيار من جملة هذه الاتجاهات فسنختار أقربها للنظم معنى و أسلمهم تابعا لما أعطاه النظم و تراكيبه من دلالات سواء من نفس هذا النظم الخاص أو من غيره، و لا أملُّ من ترديد أن النص حاكم لا محكوم و متبوع لا تابع لأن هذا تسليم و نوع من العبودية رفيع القيمة لأنه يتجسد فيه الخضوع و الاستسلام و يظهر فيه معنى العبودية الحقة، فإذا كان المعنى أن الله يأجر كل أحد على ما أحسنه من عمل فهو كذلك و سمعا و طاعة هكذا على اطلاقه و عمومه، و إذا فصل في موضع فبها و نعمت و إن لم يفصل فهو كما قال على العموم، ليس لنا من الأمر شيء فهو يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، و يقضي ما شاء على من شاء، خاصة أنه يمكن الجمع بين الأجر على ما أحسنوا من أعمال و بين أنها ستحبط و تهلك لأن أجرها سيهلك بالموازنة و الحساب حتى لا يكون لهم حسنة ينتفعوا بها إلا قضاها الله لهم لا يبخسهم و لا يظلمهم مثقال

ذرة، ثم يعذبوا على قدر ما بقي لهم من سيئات كدركة معينة في النار، و كذلك أيضا المؤمن فإن حسناته تذهب سيئاته و مع غيرها من عوامل أخرى فلا يبقى له سيئة عند دخوله الجنة فيجازى على ما بقي له من حسنات كدرجة في الجنة مقدرة له.

و كل التأويلات المذكورة عن العلماء هي صحيحة و لكن ليست استقلالا بالأجر و لا بوصف حسن العمل و قصرهم على الذين آمنوا و عملوا الصالحات فقط، لأن التركيب و الصيغ لا تساعد على ذلك، و لكن لما كان المعنى ظاهر جدا في الذين آمنوا لأجل ذكرهم نصا في استهلال الآية كابتداء بهم، و لأجل ظهور المعنى في غير هذه الآية و نصيته في العديد من المواضع، أخذ سطوع هذا المعنى أبصار العلماء فأنساهم احتمالية دخول غيرهم من باب ورود التركيب و النظم و سماحه بذلك و هذا قطعا و يقينا مقصودا، و من باب العدل و عدم الظلم و عدم البخس، و لاستقرار مبدأ الإحباط لكل أعمال الذين كفروا بدون تفصيل لنوعية هذه الأعمال.

- و من دلالة استعمال (أحسن) بدلا من (أصلح) أو على فرض (إنا لا نضيع أجر من عمل الصالحات) أو (إنا لا نضيع أجر من آمن و عمل صالحا) أو (إنا لا نضيع أجر من آمن و أحسن عملا) هو تعميم الجزاء على حسن العمل، أما حسن العمل الذي يُخص منه الصالح فلأنه مقرون بالإيمان فأجره هو الجنة و نعيمها.

و من جهة أخرى فصفة الحسن المضافة للعمل ليست خاصة بالذين آمنوا، لأن صفة الحسن للأعمال تُعرف من الشرع بشروطه و موانعه و هي مكفولة في أصل التكليف لكل إنسان، أي أنها صفة عملية و ليست صفة شخصية، أي أنه لا مانع أن نصف عملا لكافر بأنه من محاسن الأعمال، أما عدم ضياع الأجر فهو وعد إلهي عام لم يأتي مخصوص بأعمال المؤمنين الحسنة فقط،

فلا يمكن الفهم منه بأن الله يضيع أجر من أحسن عملا من الكفار، أما مورد التخصيص ليس في حسن العمل و لا في جواز ضياع أجره بل في نوع الأجر و هو جنات عدن، فهذا الأجر الغير ضائع هو على حسن عمل الذين آمنوا أي على إيمانهم و عملهم الصالحات، و بهذا نستطيع القول أن محاسن أعمال الكفار مكفولة في وعد عدم ضياع أجرها ما دامت وصفت بحسن العمل، و لكن أجرها لن يكون أبدا جنات أو دفع عذاب الخلود في النار أو مغفرة الشرك و الكفر.

و من هذا البيان نقرر صحة نفي أجر محاسن أعمال الكفار تماما لأنه لن يبقى لهم عمل حسن كي يجازوا عليه أو يؤجروا عليه لأنه سيضل و يحبط و يبطل في غمرات الشرك و الكفر و السيئات، فيقتصر خيرته في الموازنة فقط لأنه وعد إلهي أن الحسنات تذهب السيئات.

- مقاتل بن سليمان: (**يقول لا نضيع أجر من أحسن العمل ولكنا نجزيه بإحسانه أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار...**) [1]

و قد فسر مقاتل الآية كما هي فلم يزد على ظاهر معناها أي إضافة توحي بالتخصيص أو القصر، أعني مبدأ المجازاة على حسن العمل بالأجر، و هو كما ترى في الآية صياغته كانت بأسلوب التعميم.

- الفراء: (خبر (**الذين آمنوا**) في قوله (**إنا لا نضيع**)...**كأنه في المعنى**: إنا لا نضيع أجر من عمل صالحا... **ويكون أن تجعل (إن الذين آمنوا وعملوا) في مذهب** جزاء، **كقولك**: إن من عمل صالحا فإنا لا نضيع أجره،....

وإن شئت جعلت خبرهم **مؤخرا كأنك قلت: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم جنات عدن**.) [2]

و في جواز تعيين الخبر مؤخرا فيه تعزيز لقطع التخصيص أو القصر ما بين العمل الحسن و الأجر عليه فيعطيه قوة التعميم و أن دخول الذين آمنوا فيه له وجه مخصوص في تعيين الأجر بالجنة و ما فيها من نعيم، أن جهة دخوله في العموم ففي الأجر على حسن الأعمال فلا يختصوا به وحدهم فهي عامة لهم و لغيرهم.

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٥٨٤).

[2] معاني القرآن للفراء (٢/ ١٤٠). و تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ١٦) لم يزد الطبري عن قول الفراء من تجويز الخبر على وجوه كما ذكرها.

- الأخفش: (لا نضيع أجر من أحسن عملا كان في معنى: لا نضيع أجورهم لأنهم ممن أحسن عملا.) [1]

في قول الأخفش (ممن) دلالة قوية على تعميم مبدأ الأجر على حسن العمل، و أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم، فهذه إشارة صريحة لتبعيض المؤمنين من جملة المحسنين الأعمال، ثم تكون الخصوصية للمؤمنين في تعيين الأجر فقط بجنات عدن.

- الزجاج: (وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا خبر (إِنَّ) هنا على ثلاثة أوجه:

فأحدها أن يكون على إضمار إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً منهم، ولم يحتج إلى ذكر منهم لأن الله تعالى قد أعلمنا أنه يحبط عمل غير المؤمنين، قال عزَّ وجلَّ: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا).

ويجوز أن يكون خبر (إِنَّ): أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ويكون قوله: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا قَدْ فُصِلَ به بين الاسم وخَبَرِه، لأن فيه ذكر ما في الأول، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا.

وَوَجْهُ ثالث، أَنْ يكون الخبر إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا في معنى إنا لا نضيع أجرهم،

---

[1] معاني القرآن للأخفش (٢/ ٤٣٠).

لأن ذكر مَنْ كذكر الذي، وذكر حُسْنِ العَمَل كذِكْرِ الإيمان.) [1]

و في تأويل الزجاج قد تجلى سبق المرجعية و مدى تأثيره على التأويل و فهم الآية، فهو قد استصحب حكما خارجيا عن الآية (لأن الله قد أعلمنا أنه يحبط عمل غير المؤمنين) فجعله حاكما و مبررا لتوجيه معنى الآية، فقد جعل غياب (منهم) تأكيدا على سبق العلم بكون غيرهم لا عمل له حسن لأن كل أعماله محبطة، فلا حاجة لذكرها، و الأولى أن غياب ذكرها يجب أن يكون هو الحَكَم أو على أقل تقدير يجب اعتبار غيابه في تأويل الآية فلا بد له من مغزى، و لأن دلالة غياب (منهم) واضحة المعنى و الدلالة في كون الأجر على حسن الأعمال عام و كل ما في الأمر أنه أمر عام جاء في سياق خاص للمؤمنين الذي فيه بيان لنوعية هذا الأجر، و هذا القدر الدلالي لا يعطي دلالة قصر أو تخصيص سواء من النظم أو من دلالة خارجية كما فعل الزجاج باستعماله مبدأ حبط أعمال غير المؤمنين لتبرير غياب (منهم) لأن في هذا الاعتبار؛ الأمر ظاهر جدا لدرجة غياب ما يرجع على المؤمنين من ضمير.

و كان من المفترض أن يقابل بين حبط أعمال غير المؤمنين (على افتراض التسليم له) مع ما جاء من دلالة في هذه الآية بأن كل من عمل عملا حسنا يؤجر عليه، فيتولد توافق دلالي من المقابلة أن أعمال غير المؤمنين المحبطة هي بالأولى السيئة ثم الحسنة بإزاء الشرك و الكفر بمعنى هلاك

---

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٨٣). و أنظر الهداية الى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٧٤). التفسير البسيط (١٣/ ٦١١ – ٦١٢)، (٣/ ٥٢٣)، (٥/ ٣٩٠). تفسير الحاكم الجشمي = التهذيب في التفسير (ص: ٢٠٤٧، بترقيم الشاملة آليا). غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٥٩). البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري (٢/ ١٠٧). زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٨٢).

و ضياع ما وضعه الله لها من تنعم في الجنة، ثم يقر معنى كون أعمالهم الحسنة لها أجر لا يُبخسوه، بحيث لا يكون موضعه الجنة أبدا لأنها محرمة عليهم، و لكن نُسَلِّم رؤية خيرية أعمالهم الحسنة كما وعد الله بها؛ و المتمثلة في تخفيف قدر استحقاق العذاب في النار، و بهذا لا نهدر دلالة على حساب دلالة أخرى يمكن تأويلها لتتسق مع كل المواضع القرآنية بدلا من التأويلات الموجهة بتحكم سابق.

و من فوائد تأويل الزجاج أننا نستنبط منه أن ظاهر معنى النظم في الآية يدل على تعميم الأجر على العمل الحسن للمؤمن و غير المؤمن بدلالة غياب ذكر (منهم) بمقتضى الحكمة البلاغية القرآنية، و بمعونة عدم ظهور خبر (إنا لا نضيع...) إلا بتقدير و افتراض، و سلامة كون الخبر (أولئك لهم جنات...) بدون تقدير أو افتراض وحدات لفظية ليحسن المعنى، و لظهور معنى التعميم لجأ لتبرير غياب ما يدل على التخصيص (منهم) بتأويل الحبط في مواضع أخرى.

و استشهاده بقوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ليظهر ما أضمر في الآية التي في الكهف فيكون (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم) كما هي منصوص عليها في محل استشهاده، فيه بُعد و تغاير في موضع التماثل الذي يبرر له تقدير (منهم) في آية الكهف، لأن آية الاستشهاد فيها تخصيص للوعد بالمغفرة؛ للذين آمنوا و عملوا الصالحات بقوله (منهم)، و أيضا (أجرا عظيما) فيها تخصيص للذين آمنوا و عملوا الصالحات، فالوعد بالمغفرة و الأجر العظيم لا يكونوا إلا للذين آمنوا و عملوا الصالحات، لأن الكافر أو المشرك لا يوعد بالمغفرة و لا بالأجر العظيم، فدخوله في المغفرة يكون تحت المشيئة لما هو دون الشرك فقط، أما في آية الكهف لم يكن الغرض تخصيص الذين آمنوا و عملوا

الصالحات بالأجر على حسن العمل لأنه عام و لذلك حسُن عدم ذكر (منهم) ليدخل تحتها المؤمن و غير المؤمن، فالغرض هو العمل نفسه و ما يتصف به من الحسن لا اسم فاعله فإنه لا يعلل به صفة العمل في نفسه لأن صفاته خارجة عن اسم الفاعل إلا في النسبة فقط.

و أيضا في قول الزجاج: ((إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) قَدْ فُصِلَ به بين الاسم وخَبَرِه، لأن فيه ذكر ما في الأول، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا) فهو يبرر الفصل و يقيم له الدلالة بأن الفاصل قد تضمن ما في الأول لأن من أحسن عملا بمنزلة الذين آمنوا، و لكن الأولى أن يكون (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ليست بفاصل بل بلاحم يأخذ ما في الاسم و خبره من تلازم بينهما يجري على مقتضى البيان لنوعية العمل و نوعية أثره و ما بينهما من دلالة تأثيرية توضح الجزاء على السبب و المسبب عنه، و عليه بدل من قول الزجاج أن (من أحسن عملا) بمنزلة (الذين آمنوا) يكون (من أحسن عملا) تضم الذي عمل الصالحات المقرونة بالإيمان و عليه يكون الأجر و الجزاء هو الجنة و نعيمها.

و في توجيهه الثالث للخبر الذي قال فيه: (أَنْ يكون الخبر (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) في معنى إنا لا نضيع أجرهم، لأن ذكر مَنْ كذكر الذي، وذكر حُسْنِ العَمَل كذِكْرِ الإيمان.) فيه عدم اتساق و مسامحة لأن حسن العمل الذي يقابله هو عمل الصالحات و ليس الإيمان، لأنه على تقديره يكون إنا لا نضيع أجر الإيمان أو المؤمنين، و الله يعلق الجنة دائما بالإيمان مع العمل الصالح هكذا مقرونا به، و بهذا يكون هناك اغفال لعمل الصالحات كشرط لدخول الجنة و التنعم فيها، أما عموم الأجر على العمل الحسن فإنه يشمل الجنة و نعيمها كما هو ثابت للمؤمنين، و يشمل خيرية الجزاء على خيرية العمل لغير المؤمنين على ما تقتضيه حكمة الله و قضاؤه.

- الماتريدي: (قَالَ بَعْضُهُمْ: هو على التقديم والتأخير كأنه قال: إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، ثم قال: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ... إلى آخر ما ذكر.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ليس على التقديم والتأخير، ولكن على ما ذكر أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، ثم بين ما لهم فقال: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ... إلى آخر ما ذكر.) [1]

و الذي أضافه الماتريدي تصريحا هو جعل جنات عدن من بيان ما للمؤمنين من أجر، و هذا الذي ندَّعيه بأنه أجر خاص بالمؤمنين فقط على إيمانهم المقرون بالعمل الصالح و لذلك أحسنوا العمل المقتضي بوعد الله أجر الجنات ما ذكره الله لهم فيها من نعيم.

- الطبراني: (أي لا يبطل ثواب من أخلص لله، ويجوز أن يكون معناه: إنا لا نضيع أجر من أحسن منهم، بل يجازيهم. ثم ذكر جزاءهم فقال: أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار؛ أي بساتين إقامة، وقد ذكرنا صفات جنات عدن.) [2]

نلاحظ أن من يفسر النظم يجد نفسه منقادا لأن يعمم المعنى كما هو منصوص عليه، و لذلك يقول المفسر (أي لا يبطل ثواب من أخلص لله) و ذكره (من) لإرادة التعميم، و غياب ما يشير للمؤمنين كتقدير (منهم) و لذلك جعلها من الجواز و لم يجعلها القول الأول الذي

---

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ١٦٨).

[2] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

يناسب مقام التفسير، أما التقدير سواء لرتبة أو موقع أو حتى لفظا لكي يتسق الكلام مع رؤية المفسر فهو ضرب من التأويل.

- السمرقندي: ﴿إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً، أي لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة، ثم بيّن ثوابهم فقال: أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾[1]

و الشاهد من إيراد مثل هذه التفسيرات هو للتدليل على تسلط المعنى و احاطته على لب المفسر فلا يغادره إلا تابعا و محكوما له فهنا يقول السمرقندي (أي لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة) على أسلوب التعميم ثم يضع موضع التخصيص بالبيان فقط و ليس تخصيصا للحكم بالأجر على حسن العمل بل التخصيص في نوعية الأجر في الآخرة، و هو ما يربط أول الآية من ذكر الذين آمنوا و عملوا الصالحات بنوعية و بيان أجرهم على إيمانهم الذي هو الجنة و على عملهم الصالح الذي هو من حسن العمل فيعدد الله النعم التي في الجنة أجرا لهم.

و الحاصل أن التعميم في الأجر على من أحسن عملا، و التخصيص في نوعية الأجر و محله.

- الثعلبي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً. ليس قوله: إِنَّا لاَ نُضِيعُ خبراً لقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ بل هو كلام معترض، وخبر إِنَّ الأُولى قوله: أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ. ومثله في الكلام كثير....

[1] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٣٤٥).

ومنهم من قال: فيه إضمار؛ فإن معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجره بل نجازيه. ثمّ ذكر الجزاء فقال: أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ) [1]

و قد صرح الثعلبي بأن قوله تعالى: إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ليس خبرا بل جملة معترضة ما بين الابتداء بأن الذين آمنوا و عملوا الصالحات و خبرها جنات عدن، و هذا يقوى عدم تخصيص المؤمنين بوصف حسن العمل و مقتضاه من الأجر بل جاءت لتقرر و تثبت أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين أحسنوا العمل و استحقوا الأجر، و لهذا كان بيان أجرهم هو الخبر أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ.

- مكي: (ولا تقف على عَمَلاً إن جعلت الخبر أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وإن جعلت الخبر: إِنَّا لاَ نُضِيعُ وقفت عليه.) [2]

فتعيين الخبر يكون من القارئ و عليه يتعين وقوفه على تمام أداء المعنى المكون من المبتدأ و خبره، و الأولى في هذه الحال أن يكون الخبر ما كان تقديره موافقا لنظمه و لفظه و رسمه بدون تصرف، فيكون الخبر هو أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، و يجوز أن يكون الخبر هو إِنَّا لاَ نُضِيعُ بدون تقدير (منهم) لأن من آمن و عمل الصالحات هو ممن أحسن العمل فلا يفتقر للفظ يبين دخولهم في العموم خاصة أن الله قد بين نوعية جزائهم في الجنة.

---

[1] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٧/ ١٢٦).

[2] الهداية الى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٧٥).

- الراغب الأصفهاني: (والاعتراضُ بين المتصلين من الجملة بما فيه تحقيق لمقتضاها، أو رد لها من بلاغاتِ كلامهم، وعلى ذلك قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ فقوله: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا فصل بين اسم إن وخبره، لتحقيق مقتضى الكلام.) (١)

و يؤخذ من كلام الأصفهاني الغرض البلاغي من الفصل بين متصلين في الجملة أنه يكون لغرض تحقيق مقتضى دلالة الجملة و البلوغ بالجملة لقمة الكفاءة الدلالية، و التي نراها هنا العدل في القضاء و الميزان و الحساب لكل أحد، ثم وصل سريان الدلالة بخبر الكشف عن نوعية خاصة من الأجر لا تكون إلا للذين آمنوا و عملوا الصالحات لأن هذا الأجر عاد على ذكرهم بـ(أولئك) ليفيد الاختصاص بالأجر النوعي (الجنة و نعيمها) و يفيد اختصاص المؤمنين بتمام و كمال الأجر على العمل الحسن دون غيرهم ممن عملوا حسنا بحيثية نوعية الأجر (الجنة و نعيمها).

- البغوي: (فإن قيل: أين جواب قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ قيل: جوابه قوله: أولئك لهم جنات عدن تجري، وأما قوله: إنا لا نضيع فكلام معترض. وقيل: فيه إضمار معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجرهم بل نجازيهم، ثم ذكر الجزاء. فقال: أولئك لهم جنات عدن،...)(٢)

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٦٤٢).

(٢) تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ١٩١).

و كون (إنا لا نضيع) كلاما معترضا هو اختيار البغوي و يكون تمام الكلام أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار...، و يكون غرض الكلام المعترض هو أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، و أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات هو جنات تجري من تحتها الأنهار...، أي أن الجنة و ما فيها من نعم هو أجر إيمانهم و عملهم الصالح، و لم يذكر أجر غيرهم ممن أحسنوا بعض أعمالهم بدون الإيمان، أو بالإيمان فقط بدون عمل الصالحات، و لا يلزم من عدم ذكر أجر غيرهم أنه ليس لهم أجر مقابل ما أحسنوا من أعمال، لأن الغرض هو ذكر الأكمل الأتم من العمل و الأجر عليه، أما ما دون ذلك فهو مُضمن في ما اعترض به من كلام عام يقرر فيه تمام العدل و الحساب، و فيه أيضا أن كل أحد غير الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلن يكون أجرهم جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها....

- الزمخشري: (أولئك خبر إن و إِنَّا لاَ نُضِيعُ اعتراض، ولك أن تجعل إِنَّا لاَ نُضِيعُ و أولئك خبرين معاً. أو تجعل أولئك كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

فإن قلت: إذا جعلت إِنَّا لاَ نُضِيعُ خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً و الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ينتظمهما معنى واحد، فقام: مَنْ أَحْسَنَ مقام الضمير[1]. أو أردت: من أحسن عملا منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم.) [2]

---

[1] انظر غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٥٩) قال الكرماني: (الغريب: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا هم الذين آمنوا، فكان الظاهر وقع موقع المضمر.).

[2] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٢٠).

- ابن عطية: (إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا اعتراض مؤكد للمعنى، مذكر بأفضال الله، منبه على حسن جزائه بين قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقوله أُولئِكَ، فقوله تعالى: أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ابتداء وخبر جملة، هي خبر إِنَّ الأولى...) [1]

و ابن عطية قد استنبط الغرض البلاغي من كون إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا اعتراض: أنه مؤكد للمعنى، مذكر بأفضال الله، منبه على حسن الجزاء، و التأكيد و التذكير و التنبيه ليست مخصصات و لا مقيدات بل تُشعر بدلالة العموم و أن من يرجع عليه الذكر هو من ضمن معناها بما اتصف به فيدخل في المعنى العام فيكون هذا هو علة التأكيد و التذكير و التنبيه، لأجل المشابهة بينهما في معنى معين و محدد، و هو هنا كما ذكروا أن الذي آمن و عمل الصالحات هو ممن أحسن عملا المستوجب الأجر على ما أحسنه عملا.

و نكتة قول من قال أن إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا هم المؤمنون ليتذرع إلى تقدير ضمير عائد عليهم كما قدروا: (منهم) أو (أجرهم) ليفرغ دلالة إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا من حسن موقعها بما تفيده من العموم و التذكير و التنبيه و كل هذا منهم لما حَجروا أنفسهم في قالب الجملة من كونها مبتدأ و خبر يجب أن يتصلا مع بعضهما بدون فاصل تمشيا مع الوضع المفترض و القالب المصطنع، فلما جاء فاصل بفائدة بلاغية هامة مقصودة ذهبوا لجعل فائدته عبارة عن فائدة الضمير فاختزلوا جُل الفائدة على أنها بدل فقط، و كأنها عملية قهر بلاغي و اغتصاب حقوق بلاغية و اهدار لمعاني رئيسة، و من ناحية أخرى صيروا العدم وجودا، و الوجود عدما و كل هذا لأجل أن يحتبك القالب المصنوع لأنه غالب على أمره.

---

[1] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥١٤).

- بيان الحق: (قوله تعالى: **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**: قيل: إنّه خبر «إن» **الأولى بمعنى: لا نضيع أجرهم** فأوقع المظهر وهو مَنْ موقع المضمر./ وقيل: «إن» **الثانية** بدل من الأولى فلا تحتاج الأولى إلى خبر.) [1]

- ابن الجوزي: (**قال** المفسرون: ومعنى **لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** أي: لا نترك أعماله تذهب ضَياعاً، بل نُجازيه عليها بالثواب.) [2]

و محل الشاهد من تفسير ابن الجوزي هو نقله عن المفسرين في معنى لا نضيع أجر من أحسن عملا و من هذا المعنى نجده يأخذنا ليضعنا في مخاطبة غير المؤمنين لأن من يخاف أن يضيع عليه بعض ما أحسنه من العمل هم غير المؤمنين، لو كان يظن هذا أو يعتقده، و في حال غفلته عن هذا فإن الله يخبره أنه رغم كونه غير مؤمن فلن يضيع الله عليه أجر مثقال ذرة من خير و في هذا قوة اقناعية و استمالة عظيمة لترسيخ باب العدل و عدم الظلم حتى مع ألد الأعداء فما بالك بالذين آمنوا و عملوا الصالحات فأولئك لهم جنات تجري من تحتها الأنهار و يحلون فيها من أساور.

فيضع غير المؤمن على بعض الحقائق أن أعماله الحسنة على الحقيقة و المظنونة لن تدخله الجنة من غير الإيمان رغم أنه سيؤجر عليها بدون بخس أو ظلم أو اعتداء عليه لكونه عدو لله و لرسوله ﷺ، و يضعه على أمر و شأن الإيمان بأنه مفتاح دخول الجنة و البعد عن النار و أن الأعمال الصالحة هي التي تستوجب التنعم في الجنة بما لذ و طاب، فإن كان غير المؤمن يميل

---

[1] إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٥١٩ – ٥٢٠).

[2] زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٨٢).

قلبه لعمل الحسن سواء موافقة للحق أو مظنونا به حسبانا فهو على كلا الحالين عامل فلا ينقصه غير الإيمان لينجو من عذاب النار ليدخل الجنة.

و بذلك نعلم أن الاعتراض بين المبتدأ و الخبر بقوله تعالى إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا من أبلغ ما يكون و أحكم ما يقع في الكلام من حسن و حبكة فهو عدم تيئيس و إقرار للعدل و استمالة و محاجة و اقناع لغير المؤمن، و تذكير و تنبيه و تأكيد للمؤمن، و أيضا توقيف لغير المؤمن على أن الله لا يضيع أجر ما أحسنه من الأعمال فلا يأتي من الله أي شائبة ظلم أو بخس أو هضم حق تكرم به أصلا، فيكون أي تقصير لبلوغ النجاة يوم القيامة هي من المكلف و هذا ما جناه و حصد ثماره بنفسه لا بغيره، لأن الله باب مغفرته و رحمته واسع يكتنف الكل تحته لأي ذنب كان، فما كان من استحقاق عذاب فهو من نفس المكلف فلا يلومن إلا نفسه لأن الله يؤجره على الحسنة و السيئة و كله مما كسبت أيديهم.

- الرازي: (المسألة الثالثة: نظير قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ قول الشاعر:... كرر إن تأكيدا للأعمال والجزاء عليها.

المسألة الرابعة: أولئك خبر إن وإنا لا نضيع اعتراض ولك أن تجعل إنا لا نضيع وأولئك خبرين معا ولك أن تجعل أولئك كلاما مستأنفا بيانا للأجر المبهم واعلم أنه تعالى لما أثبت الأجر المبهم أردفه بالتفصيل...) [1]

و الإبهام الذي لاحظه العلماء هو مقصود في هذا الموضع لكي يعم المؤمنين و غير المؤمنين

---

[1] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٤٦٠). تفسير القرطبي (١٠/ ٣٩٥ – ٣٩٦).

فهو من باب التقعيد العام لعدم ضياع أجر من أحسن عملا، ثم جاء التفصيل و البيان لنوعية الأجر الخاص بالذين آمنوا و عملوا الصالحات، و تُرك إبهام أجر غيرهم على ما أحسنوا من أعمال، لأنه لا يليق بعظم شأن أجر الجنة و نعيمها المقيم فلا يزاحم في التصور لقلة شأنه، و في نفس المقام لكي لا يظن أحد أن الله يضيع عنده أجر عامل ما دام أحسن العمل من غير المؤمنين.

- العكبري: (قوله تعالى: (إن الذين آمنوا): في خبر إن ثلاثة أوجه:

أحدها: «أولئك لهم جنات عدن» وما بينهما معترض مسدد. والثاني: تقديره: لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، فحذف العائد للعلم به. والثالث: أن قوله تعالى: (من أحسن): عام، فيدخل فيه الذين آمنوا وعملوا/ الصالحات، ويغني ذلك عن ضمير كما أغنى دخول زيد تحت الرجل في باب نعم عن ضمير - يعود عليه. وعلى هذين الوجهين قد جعل خبر «إن» الجملة التي فيها إن.) [1]

و العكبري قد صرَّح أن (من) دلت على العموم و أن الذين آمنوا يدخلوا في هذا العموم و جعل هذا هو السبب في غياب الضمير الذي يعود عليهم بالرجوع، لأن معنى إحسان العمل يعمهم و هم داخلون فيه دخولا أوليا باعتبار ذكرهم في استهلال الآية بالابتداء و باعتبار بيان نوعية أجرهم بالجنة و ما فيها.

- المنتجب الهمذاني: (قوله عز وجل: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا في خبر إِنَّ وجهان:

[1] التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٨٤٥ - ٨٤٦).

أحدهما: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، وقوله: إِنَّا لَا نُضِيعُ... الآية، اعتراض بينهما.

والثاني: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، على تقدير: من أحسن عملًا منهم، فحذف الراجع منه إلى المبتدأ تخفيفًا، وللعلم به.../ ... أو أجرهم، فوضع المظهر موضع المضمر لأن مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا هم الذين آمنوا بأعيانهم، وهذا قريب من معنى قول أبي إسحاق، لأنَّ ذِكْرَ (مَن) كذِكْرِ (الذين)، وذِكْرَ حُسْنِ العَمَل كَذِكْرِ الإيمان، فلما جمعهما معنى واحد - أعني: (من أحسن) و الَّذِينَ آمَنُوا - قامَ وَمَنْ أَحْسَنَ مقام الراجع وأغنى عنه لعمومه، كما أغنى دخول زيد تحت الرجل في باب (نِعْمَ) عن راجع يعود عليه لذلك.

وقوله: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ على هذا يجوز أن يكون كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم فيوقف على عَمَلًا، وأن يكون خبرًا بعد خبر.

وقيل: الخبر محذوف تقديره: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يجازيهم الله بأعمالهم، دل عليه إِنَّا لَا نُضِيعُ... الآية. والوجه ما ذكرت.) (١)

و الهمذاني كالعكبري قد جعل دلالة عموم (مَن) في (من أحسن عملا) تغني عن ذكر راجع (منهم - أجرهم) على الذين آمنوا لأنهم من ضمن العموم.

- البيضاوي: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا خبر إن الأولى هي الثانية بما في حيزها، والراجع محذوف تقديره من أحسن عملا منهم أو مستغنى عنه بعموم من أحسن عملا كما هو مستغنى عنه في قولك: نعم الرجل زيد، أو واقع موقعه الظاهر

---

(١) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٧١ - ٢٧٢).

فإن من أحسن عملا لا يحسن اطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات.) [١]

إطلاق البيضاوي قوله بأنه لا ينصرف إحسان العمل إلا على الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيه ما فيه خاصة أن بيان و تفصيل الأجر على حسن العمل بالنسبة للمؤمنين كان الجنة و ما فيها من نعيم، و هذا تخصيص للأجر الذي لا يكون إلا للمؤمنين، فلو كان مراده تضمين هذه الحقيقة فكلامه يستقيم، أما مع التعميم و الذي أقر هو به في (من أحسن) فإنه لا يستقيم كلامه، لأن التعميم يخالفه هذا من جهة، و من الجهة الأخرى فإن دلالة حسن العمل أعم من الإيمان و عمل الصالحات، لأن الاعتبار في (من أحسن عملا) هو العمل بمرجعية الحسن الشرعي، أما عمل الصالحات فإنه مشعر بعلمية أعمال معينة وصفت بالصالحات فهو أخص لأنه لم يأتي [وعملوا صالحا].

- النسفي: (أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ كلام مستأنف بيان للأجر المبهم) [٢]

- ابن جزي: (أُولئِكَ لَهُمْ خبر إن، وإنا لا نضيع: اعتراض، ويجوز أن يكونا خبرين أو يكون إنا لا نضيع الخبر، وأولئك استئناف، ويقوم العموم في قوله: ﴿(من أحسن) مقام الضمير الرابط أو يقدر من أحسن عملا منه) [٣]

---

[١] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٨٠).

[٢] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٢٩٩).

[٣] تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٦٥). عيون التفاسير للفضلاء السماسير للسيواسي (٣/ ٤٦).

- أبو حيان: (إذا جعلنا الرابط هو في (من أحسن عملا) وهو العموم كذلك هذا يكون الرابط هو العموم في المصلحين، وقال الحوفي وأبو البقاء: الرابط محذوف تقديره أجر المصلحين اعتراض والتقدير مأجورون أو نأجرهم انتهى، ولا ضرورة إلى ادعاء الحذف...) [1]

- السمين الحلبي: (قوله: إنا لا نضيع: يجوز أن يكون خبر إن الذين والرابط: إما تكرر الظاهر بمعناه، وهو قول الأخفش. ومثله في الصلة/ جائز. ويجوز ان يكون الرابط محذوفا، أي: منهم، ويجوز أن يكون الرابط العموم، ويجوز أن يكون الخبر قوله: أولئك لهم جنات، ويكون قوله: إنا لا نضيع اعتراضا.) [2]

- أبو بكر الحداد: (ويجوز دخول العارض بين الكلامين إذا احتيج إليه كما دخل على قوله تعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا [الكهف:٣٠] ثم عاد إلى أول الكلام فقال تعالى: أولئك لهم جنات عدن [الكهف:٣١])[3] و قال: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا؛ أي لا يبطل ثواب من أخلص لله، ويجوز أن يكون معناه: إنا لا نضيع أجر من أحسن منهم، بل يجازيهم. ثم ذكر جزاءهم فقال:

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢١٢).

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ٤٨٠ - ٤٨١). و نفسه في اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٤٧٩) لابن عادل الحنبلي.

(٣) تفسير أبي بكر الحداد -كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (ص: ٤٤٧).

أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار) [١]

- المهايمي: (إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا واحدا فكيف نضيع أجر الأعمال الكثيرة وأجر الإيمان الذي هو الاصل...) [٢]

قول المهايمي فيه إشارة قوية لتعميم الأجر على من أحسن الأعمال من غير المؤمنين لأنه جعل العمل الواحد مقابل من عمل الكثير مع الإيمان فدلالة هذه المقابلة توحي بمغايرة الأصلين أعني أصل الإيمان مع أصل الكفر.

- النيسابوري: (ويحصل الربط بسبب العموم ومثله غير عزيز في القرآن كقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا [الكهف: ٣٠]) [٣] و قال أيضا: (إنا لا نضيّع اعتراضاً فظاهر وإن جعلته خبراً وأولئك خبراً آخر أو كلاماً مستأنفاً للأجر أو بياناً لمبهم فمعنى العموم في من أحسن يقوم مقام الرابط المحذوف والتقدير من أحسن عملاً منهم.) [٤]

- محي الدين زاده: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا الآية وقوله تعالى: إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا يجوز

---

[١] نفسه (ص: ١٧٣٨).

[٢] تفسير المهايمي المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان ت ٨٣٥ هـ (١/ ٤٤٦).

[٣] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ٥٣٥).

[٤] نفسه (٤/ ٤٢٩).

أن يكون خبر «إن الذين آمنوا» بحذف العائد أي منهم أو بتنزيل العموم منزلة العائد كما في قولك: نعم الرجل زيد...

. واستغنى عنه في باب نعم لتنزيل استغراق الرجل وعمومه للمبتدأ ولغيره منزلة العائد.

... أو بإقامة قوله: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا مقام الضمير لكونه عبارة عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومتحدا معهم في المعنى) [1]

- الشهاب الخفاجي: (قوله: (خبر إنّ الأولى هي الثانية الخ) ولما خلت من العائد قدّره بما ذكر أو الرابط (من) أمّا لأنه عامّ شامل لاسم أنّ الأولى لتعريف الأعمال الصالحة في صلة الأول وتنكير عملا هنا وهذا بالنظر إلى الظاهر، وما بعده بحسب التحقيق، ومثله يكون رابطا أو لأنه عينه لتساويهما كما ذكر، أو خبرها أولئك الخ هذا محصل ما ذكره المعربون ولا يرد على الأوّل أنه يقتضي أنّ منهم من يحسن العمل ومن لا يحسنه لأنه إنما يرد لو كانت (من) تبعيضية، وليس بمتعين لجواز كونها بيانية، ولو سلم فلا بأس فيه فإنّ الإحسان زيادة الإخلاص الوارد في/ حديث الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، وأمّا كونه مشروطا بحسن الخاتمة فلا وجه له هنا، وقوله: نعم الرجل زيد على القول بأن زيد مبتدأ، ونعم الرجل خبره، والرابط عموم الرجل وهو قول فيه.

قوله: (فإنّ من أحسن عملاَ على الحقيقة الخ) لا يأباه تنكير عملا بناء على أنه للتقليل لعدم

[1] حاشية محي الدين زاده على تفسير القاضي البيضاوي (٥/ ٤٧٦). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٢٠).

تعينه فيه إذ النكرة قد تعم في الإثبات ومقام المدح شاهد صدق، وأمّا كون التنوين للتعظيم فلا يجدي هنا مع أنه يرد على ما قبله لأنه لا يعم حينئذ إلا بتأويل وأما كون من أحسن عملا ولم يعمل الصالحات لا يعد ممن أحسن عملاً في العرف وان صح بحسب الوضع، ولذا قال المصنف رحمه الله: لا يحسن، ولم يقل لا يصح فعلى تسليم التقليل لا وجه له.) (١)

و كلام الشهاب مدجج بما يدل على اعتباره العموم سواء كونه أحد التأويلات المحتملة أو كونه حاضرا مع التأويلات الأخرى، و من هذه الإشارات قوله: (عام شامل لاسم أن الأولى) أي (مَن) في (من أحسن عملا)، و عند مناقشة دلالة التنوين على التعظيم أنها ستعارض التعميم و لا تجوز إلا بتأويل، و عند بيانه لمعنى حسن العمل في العرف و الوضع لأنه جوز أن يكون من أحسن عملا لم يعمل الصالحات و هذا فيه مخالفة لاسم أن الأولى أي الذين آمنوا و عملوا الصالحات لأنهما يأتيان دائما مقرونين خاصة في إظهار الجزاء بالجنة.

و من فوائد كلام الشهاب قوله: (وأمّا كونه مشروطا بحسن الخاتمة فلا وجه له هنا) فعدم شرط حسن الخاتمة يدل على أن غير المؤمنين داخلين في وصف إحسان بعض الأعمال التي يترتب عليها أجرا، و أيضا عند مناقشة جواز تقدير (منهم) أنه سيشكل عليه التبعيض فيدل على أن بعضهم يحسن و بعضهم لا يحسن، فرد عليه بجواز أن تكون (من) بيانية و ليست للتبعيض، ثم لو سلمنا أنها للتبعيض فلا قلق فيها لأن الإحسان زيادة في الإخلاص، و نأخذ

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي (٦/ ٩٧-٩٨). روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٢٦٩). تفسير اطفيش - إباضي (٥/ ٣٦١، بترقيم الشاملة آليا). هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (٧/ ٤٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

من هذه المناقشة ضعف مأخذها **و اعتبارها** فلماذا نؤول تأويلا يجر وراءه احتمالات نجهد في ردها و الأصل أن يكون الكلام محكم و ظاهر على مراده.

و عند الحديث عن دلالة التنكير في (عملا) التي تفيد التقليل لا يناسب وصف القلة مع المؤمنين عند من جعل الضمير المقدر عائد على المؤمنين أو جعل الرابط يعود بالربط على المؤمنين، فقال أن التقليل غير متعين إذ قد تعم النكرة في الإثبات خاصة في مقام المدح، و الشاهد هنا أيضا كما سبق أنه ما الحاجة من تأويل يقتضي دلالات تضطرنا أن نردها بتأويلات أخرى و مخارج قد تظهر بالضعف، فالأولى من كل هذا أن نجري المعنى على ظاهره بدون تكلف فالعموم هنا للمؤمن و غير المؤمن لإقرار مبدأ العدل و بث الطمأنينة لكل الناس، و على قدر و نوع العمل و إحسانه يكون الأجر، فأجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات هو جنات تجري من تحتها الأنهار.

و من الفوائد أيضا بيانه لدلالة الحسن في الوضع و العرف ففيه أن الذي يحسن عملا قد لا يكون ممن عمل الصالحات و لمقرونية الإيمان مع الصالحات في نفس الآية و غيرها الكثير يوحي بجواز الفصل بين الصالحات و إحسان بعض الأعمال مع غياب الإيمان، و هو عين غير المؤمن الذي نستدل له و إن كان يخالف دلالة الحسن عرفا.

- القونوي: (قوله: **(أو مستغنى عنه** بعموم **من أحسن عملا كما هو مستغنى عنه في قولك: نعم الرجل زيد) أي على قول وهو كون زيد مبتدأ ونعم الرجل خبره فهو جملة والعائد إلى زيد** عموم **الرجل له فكذا هنا لأن** (من أحسن عملا) عام **للذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب**

المفهوم وإن كان عينه باعتبار ما صدق.

قوله: ([أو واقع موقعه الظاهر فإن من أحسن عملا لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات]) أو واقع موقع الظاهر بناء على أن من أحسن عملا عين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب [ما صدق] كما بينه بقوله فإن من أحسن عملا لا يحسن إطلاقه الخ. ولذا رجحنا كون من في منهم على الاحتمال الأول للبيان، وأما كونه عاما للمبتدأ وغيره فباعتبار المفهوم كما عرفته فلا منافاة بينهما لكن إسقاط احتمال العموم من البين أولى.

/ قوله: (أولئك لهم) الآية. أي خبر أن الأولى أولئك لهم جنات عدن فترك الفاء لما ذكرناه آنفا.

قوله: (وما بينهما اعتراض) فائدته مزيد تقرير إعطاء الأجر لهم.) [1]

و يتولد عن تقدير من قدَّر من المفسرين برجوع ضمير عائد على الذين آموا بقولهم (منهم) هل من هنا للبيان أو للتبعيض؟ كما بينها هنا القونوي أثناء تحشيته على كلام البيضاوي، و قد رجح كونها للبيان لأمرين: الأول لتقرير البيضاوي أن إطلاق حسن الأعمال لا ينصرف حقيقة إلا على المؤمنين، و ثانيا لأن القونوي لا يرى في المصاديق في الواقع ينطلي عليه حسن الأعمال إلا المؤمنين فهم عين من أحسنوا الأعمال، و الشاهد أن التقدير لم يقم مقام الظاهر لا في نفس أمره بما أفاد العموم، و لا فيما قُدر له لكي يقوم مقام الظاهر بل تولد عنه احتمالين بدل ما يقلل الاحتمالية التأويلية يزيدها.

و بالنظر للشاهد النحوي الذي أوردوه للتدليل على جواز إعراب إنا لا نضيع خبرا لـ إن الذين

---

[1] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٢/ ٧٤ – ٧٥).

بما يفيده من العموم الذي يقوم مقام عود الضمير أن صفة الرجولة العامة التي تعم زيد و غير زيد لا تنفي الرجولية عن غير زيد، و هو نفس المعنى الذي استنبطناه أولا أن الأجر على حسن العمل عام للمؤمن و غير المؤمن، و لو سلمنا بقصر وروده هنا على المؤمن فلا يمنع من ثبوت المؤمن داخل عمومه نفي غير المؤمن أن يدخل تحت العموم.

و للقونوي كلام دقيق في تحليله لدلالات التراكيب التي في الآية فهو يقرر أن دخول المؤمنين تحت عموم إحسان الأعمال و الأجر عليها هو من دلالة المفهوم، أي أنه ليس من دلالة المنطوق لأن الآية لم تعين و لم تقصر أو تقيد الأجر على المؤمنين فقط، و معنى دلالة المفهوم التي للمؤمنين أن غيرهم داخل في نفس الدلالة بدليل عدم النطق بقصرها على المؤمنين فقط، و لذلك لجأ للتدليل على قصر الأمر على المؤمنين فقط بما صدق في الخارج على حسب رؤيته، و بحقيقة الوصف على حسب رؤية البيضاوي، أي أن مجمل أدلتهم على قصر الأجر على المؤمنين فقط هو من دلالة المفهوم و من رؤيتهم للمصاديق و هذا كله يدل على أن منطوق و نص الآية لا يساندهم على القصر و الحصر فلجأوا لتأويلات أخرى من خارج دلالة النظم و النص و الظاهر و المنطوق الخاص بالآية.

و بقول القونوي اختصارا للمسألة: (وأما كونه عاما للمبتدأ وغيره فباعتبار المفهوم كما عرفته فلا منافاة بينهما) فهو أمام دلالة العموم و دلالة الخصوص، فأيهما أدل على المراد من الآية؟ فهو يجتهد للتوفيق بينهما أي الجمع بينهما إعمالا لكلا الدلالتين، لكي لا يهدر ظاهر النص و دلالة التركيب و في نفس الوقت يحافظ على تأويله بقصر الأجر و حسن العمل على المؤمنين فقط، فاهتدى للجمع بينهما بتغاير الاعتبار الذي يأتي منه دلالة العموم و الخصوص، فلجأ للماصدق

فعن طريقه يثبت الخصوص للمؤمنين فقط و في نفس الوقت يحافظ على دلالة العموم لمن أحسن عملا فلا يضيع أجره من غير المؤمنين، فلما لا يوجد في الخارج أي المصاديق غير المؤمنين فقط هما من ينطبق عليهم حقيقة الوصف بإحسان العمل فلا يوجد عموم من هذه الجهة و بهذا فقد أثبت الخصوص لهم من جهة المصاديق بدون إهدار دلالة العموم.

و في تحقيقه للأمر على ما رآه و ارتضاه هو بنفسه و ما فهمه من كلام البيضاوي لا ينافي رؤيتنا أيضا، لأن الخارج أو المصاديق تابعة للواقع و الوجود فإذا وجد ما يخالف رؤيتهم فلا دليل يمنع من دخولهم على أصل ما قرروه نظريا من مفهوم الآية، بمعنى أن لو وجد غير المؤمن يحسن العمل بالشروط الشرعية فهو يدخل في العموم فيلزمهم أن يكون له أجر، و هذا عين مسألتنا فلا منافاة بيننا و بين هذا التأويل.

- محمد بن عمر الجاوي: (إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أي لا نبطل ثواب من أخلص عملا) [١]

- أطفيش: (وجملة إن الثانية واسمها وخبرها خبر للأولى والرابط بين اسم الأول وخبرها محذوف تقديره إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم و(من) هذه التي قدرتها هي من التبعيضية لأنه قد يؤمن الإنسان ويعمل صالحا ولا يحسن ويجوز أن يكون الرابط العموم على أن المراد يعمل الصالحات عملهن بالإحسان والمراد بعامليها عاملوها من هذه الأمة وبمن

---

[١] مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ٦٤٨).

أحسن عملا كل من أحسنه منها أو من غيرها فهو أعم.) [1]

- ابن عاشور: (**وافتتاح الجملة بحرف التوكيد (إن)** لتحقيق مضمونها. **وإعادة حرف (إن) في الجملة المخبر بها عن المبتدأ الواقع في الجملة الأولى** لمزيد العناية والتحقيق...
وموقع (إن) الثانية في هذه الآية أبلغ منه في بيت جرير لأن الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال بمضمونها من حيث هي مفيدة حكما يعم ما وقعت خبرا عنه وغيره من كل من يماثل الخبر عنهم في عملهم، **فذلك العموم في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق حصوله لأربابه بخلاف بيت جرير**.) [2]

[1] هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (٧/ ٤٧٨، بترقيم الشاملة آليا).

[2] التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٠).

الآية رقم ٩

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٦٠]

و قد جاءت الآية على مقتضى صيغ العموم و دلالته (مَن) فوجب حملها على معناها الظاهر العام، فكل من جاء بالحسنة سواء كان كافرا أو مؤمنا فله عشرة أمثالها، و من جاء منهم بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها و هم لا يظلمون، و من عدم ظلمهم أن الشرك لا يغفره الله و أن صاحبه محرم على الجنة و أنه مخلد في النار و كذلك الكافر و المنافق، و بهذا فلا ضير من التسليم بأن الحسنة من الكافر و المشرك سيضاعفها الله له بعشرة أمثالها و مع ذلك التضعيف فلن تقوى كل هذه الحسنات على أن تبطل جزاء الشرك و الكفر الذي لا يجازيه عليه إلا بالمثل فقط، و هذا يدل على عظم جرمه و جزاؤه، و هذا التأويل أليق ما يكون بعدم الظلم فلا يهضم الله له حسنة بل يضاعفها له كالمؤمن في التضعيف، و هذه الحسنات إما أن تذهب في الحساب و ما

يبقى يقلل دركته الاستحقاقية في النار.

و سياق الآيات قد جاء في العذاب كجزاء للذين لا يؤمنوا بآيات الله فكذبوها و صدفوا عنها بقوله ﴿سُوٓءَ ٱلعَذَابِ﴾ و أن الفريق المقابل لهم هم الذين آمنوا أو كسبوا خيرا في إيمانهم و وصف حالهم بما آتوه إيمانا أو خيرا في إيمانهم بأنه ينفعهم يَنفَعُ أي أن المسألة اختزلت في النفع و عدمه، و عدم النفع هو سوء العذاب و عليه النفع هو جنة الثواب، و الغرض من هذا أن نبين أن السياق في الآخرة بعد الحساب و الميزان، و أن هؤلاء الذين سينالون سوء العذاب لن يظلمهم الله حسنة آتوها أو زيادة عقاب على سيئة اقترفوها و أن مضاعفة حسناتهم و عدم ظلمهم لن يدفعوا عنهم سوء العذاب، و أن أي حسنات دون حسنة الإيمان لن تجدي نفعا في درء العذاب حتى مع مضاعفتها.

- و من الإشارات البلاغية في قوله تعالى لا ينفع هو انتفاء النفع لمثل هذا الإيمان عند المعاينة أو العمل الصالح بدون مقرونية الإيمان له، و عد النفع لا يلزم منه البطلان أو الفساد إلا بتقييد الغرض و القصد منه في سياقه الذي أتى فيه، فهنا لا يمكن وصف إيمانهم في الآخرة أنه باطل أو فاسد أو لا يصح أو أنه غير حق لأنه عين اليقين و هو أقصى درجات اليقين فلا يمكن أن يلحقه وصف يقلل من قدره فضلا على أن يبطله أو يفسده، و لكن الثابت فيه في الآخرة أنه لن ينفع في مثل هذا الوقت أي أن وصف البطلان أو الفساد أو الضلال يلحق أثره أو استحقاقه أو تعلقه دون ذاته، فلا ينفع في أن يتعلق به تنعم أو جنة أو دفع عذاب النار و الخلود فيها، و نفس الدلالة تنطبق على الأعمال الصالحة في غير الإيمان فهي في نفسها صالحة و لا يمكن أن يلحقها وصف البطلان أو الفساد أو الضلال إلا من حيثية أثرها و ما يترتب عليها فقط كما

حكم و قدر الله فيها أنها لا تنفع من مات على الشرك و الكفر بالمنفعة المنوطة بها و هي استحقاقها درجات الجنان، و هذه هي الجهة التي يصح فيها وصف أعمالهم الصالحة في غير الإيمان أنها حابطة و ضالة و باطلة و فاسدة، لأنها لن تنفعهم هذه المنفعة لأنها محرمة عليهم الجنة.

- و من قال من المفسرين بتحديد أو تعيين الحسنة و السيئة؛ أو نوعية المخاطبين من متعلق عموم (مَن) فيجب عليه أن يظهر الدليل أو وجه الدلالة من السياق على هذا التعيين أو التقييد مما نذكر أقوالهم فيما يأتي، فالأولى التعميم بمقتضى النظم و دلالة الألفاظ و الصيغ، و إذا أظهر السياق نوعية المخاطبين أو أحدهم فلا نقيد به الإطلاق أو نخصص به العموم بل يكون مجرد تمثيل أو بيان أحد المصاديق فندخله دخولا أوليا بدون منع غيره مما يجوز عليه التعميم الآتي من النظم و الظهور، و بالنظر هنا سنجد قوله تعالى وهم لا يظلمون قد أشارت على ما سبقها من أوصاف و مذكورات و هم الذين كذبوا الآيات و صدفوا عنها و لم يؤمنوا، فهم أولى بالدخول في عموم الآية التي تقضي بمضاعفة الحسنات و عدم الظلم و الجزاء على السيئة بمثلها.

- و الآية لم تحدد أو حتى تشير إلى الجزاء النهائي بدار القرار أي الجنة أو النار بل بينت تفصيلا الجزاء على الحسنات و السيئات و تقرير عدم الظلم لأصحاب السيئات حتى مع مجازاة السيئة بمثلها فقط، فلا يوجد أي قرينة تعين الحسنة بالتوحيد أو لا إله إلا الله و لا السيئة بكونها هي الشرك أو الكفر، فالنظم و الدلالات عامة مطلقة تبين كيفية المحاسبة و المجازاة على السيئة و الحسنة، فيدخل فيها أن الكافر له حسنة، و أن حسنته تضاعف لعشر أمثالها ثم يوزن له حسناته و سيئاته فلا بد قطعا أن حسناته تخف و تثقل سيئاته، و عليه فلا مانع يمنع أن يكون له حسنة

و أن تتضاعف و أن توزن له و يكون ذلك دليلا على عظم سيئة الشرك و الكفر لا أنه ليس له حسنة.

و تقييد البعض السيئة بالشرك يخل بالمعنى فأين السيئات الأخرى التي للمشرك دون الشرك و التي يعذبهم عليها الله كالصلاة و الصدقة و غيرها، و كذلك بالنسبة للمؤمن فله حسنات دون الإيمان، و على هذا من سيأتي الدرجات في الجنان و الدركات في النار، فلا بد أن هؤلاء العلماء فسروا الآية بحيثية الجزاء بدار القرار أي بعد المحاسبة و الموازنة، و لذلك لا ننقل تفاسيرهم لعدم مخالفتها لتأويلنا.

- **مجاهد: (... عن أبي ذر الغفاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ الصادق والمصدوق، يقول: قال الله عز وجل: «يا ابن آدم، الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أغفرها»)** [1]

- ابن وهب: **(...عن زيد بن أسلم أنه بلغه أن النبي عليه السلام قال: إن العبد إذا أسلم كتب له بكل حسنة كان زلفها حسنة وغفر له كل سيئة زلفها، فما عمل بعد ذلك من حسنة كتب له**

---

[1] تفسير مجاهد (ص: ٣٣٢). تفسير الهواري (١/ ٣٩٩، بترقيم الشاملة آليا). تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٥/ ١٤٣٣). زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٩٧).

وقد ثبت في صحيح مسلم كتاب الذكر، باب فضل الذكر (٢٦٨٧) عن المعرور بن سويد عن أبي ذر، أن رسول الله - ﷺ - قال: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها، أو أغفر، ومن تقرَّب مني شبراً، تقرَّبت منه ذراعاً، ومن تقرَّب مني ذراعاً، تقرَّبت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة، لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة.

بها عشر أمثالها، وما عمل من سيئة كتب عليه سيئة مثلها) [1]

نلاحظ أن الألفاظ في الخبرين عامة (ابن آدم – العبد) و قد تعلق بهما الحسنة و الجزاء عليها.

- الطبري: (عن قتادة قوله: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون، ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: الأعمال ستة: مُوجِبة ومُوجِبة، ومُضْعِفة ومُضْعِفة، ومِثْل ومِثْل. فأما الموجبتان: فمن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله مشركًا به دخل النار. وأما المضعف والمضعف: فنفقة المؤمن في سبيل الله سبعمئة ضعف، ونفقته على أهل بيته عشر أمثالها. وأما مثل ومثل: فإذا همّ العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة. [2]) [3]

و إذا صح الحديث فهو دال على أن حسنة الإيمان و سيئة الشرك هما الموجبتان أي اللتين يقتضيان جزاءيهما نوعية دار القرار إما الجنة أو النار و الخلود فيها، و هذا تأويل مغاير لتأويل الجزاء على الحسنة و السيئة التي دونهما و هو محل بحثنا أي جزاء دون الخلود في دار القرار و المصير.

---

[1] تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٥).

[2] أخرجه بلفظه: الطبري في جامع البيان عن قتادة ٨/ ١٠٩، وهو مرسل. وله شاهد أخرجه: أحمد في مسنده ٤/ ٣٤٥ (١٩٠٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٣٤، والبخاري في التاريخ الكبير ٨/ ٤٢٢ - ٤٢٣ وابن حبَّان (٦١٧١) كلهم من طرق، عن الركين بن الربيع عن أبيه عن عمه فلان بن عميلة عن خريم بن فاتك الأسدي مرفوعاً بنحوه، وإسناده صحيح.

[3] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٢/ ٢٧٦). تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

- ابن أبي حاتم: (... **عن قتادة: قوله: فلا يجزى إلا مثلها، قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت له سيئة**). [1] [2]

إذا نظرنا لمجموع الآثار الواردة من المفسرين بالآثار لهذه الآية نجد أنها لا تتفق على أن الحسنة هي لا إله إلا الله و أن السيئة هي الشرك، فمنها ما يثبت غير ذلك و يجنح نحو تعميم الحسنة و السيئة، و عليه يكون تنصيصهم أنها لا إله إلا الله و أنها هي الشرك هو مجرد تمثيل **بما يعظم منها في المعنى أو تمثيل بأهم ما يدخل في المعنى دخولا** أوليا، **فمثلا ما قيل عن النبي ﷺ أن لا إله إلا الله هي أحسن الحسنات فهذا يدل على عموم المقصود بالحسنة، و كذلك ما قيل عن النبي ﷺ في الحسنة أذا هم العبد بها و لم يعملها تكتب له حسنة، فلا يمكن تصور أن شهادته الأولى على الأقل كيف دخل بها الإسلام و لم يقلها و كيف تحسب له و لم يقلها و هي شرط، و أيضا ما قيل أن السيئة يجازى عليها سيئة أو يغفرها، فهذا يدل على أن الشرك ليس منها** لأنه لن يُغفر، **أو يقال أن قول أبو ذر (وإن تأتني بالسيئة أجزك سيئة مثلها أو أغفر) أن المراد بالسيئة هو العموم و من ثم انقسمت على أصل لحوق المغفرة إلى ما يُغفر و ما لا يُغفر، و** هذا يؤكد على عموم معناها للشرك و ما دونه.

[1] مسلم، رقم ٢٠٧، كتاب الإيمان ١/ ١١٨.

[2] تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٥/ ١٤٣٣). تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ١٠٩)

- الماتريدي: (ليس في قوله: فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا إيجاب الجزاء في السيئة) [١]

و من النكات البلاغية التي استخرجها الماتريدي من قوله (فلا يجزى إلا مثلها) أنها لا تحمل معنى الحتم في إيجاب الجزاء على السيئة، و هذه قرينة يمكن أن تضعف من قصر السيئة هنا على الشرك لأن جزاءه حتمي، فيكون مخرج النظم قد ترك المجازاة محتملة فإن كانت سيئة دون الشرك فهي تحت المغفرة إن شاء غفرها أو لم يغفرها، أما إن كانت السيئة هي الشرك فلن يغفرها و يجب حينها الجزاء عليها.

و من دقة فهم الماتريدي قد جعل الحسنة أيضا محتملة لأن تشير إلى التوحيد و إلى ما هو دون التوحيد من الأعمال الحسنة، و معتمده في الدلالة على ذلك من تحديد التضعيف بالعشرة، لأن هناك عمل حسن يضاعف فيه لسبعمائة ضعف و استنكر أن يكون مضاعفة حسنة التوحيد عشرة فقط و مضاعفة حسنة النفقة سبعمائة، و لذلك فقد جعل المضاعفة بالعشرة لأجل التعظيم و الإجلال و ليس للتحديد.

- الطبراني: (من جآء بالحسنة فله عشر أمثالها أي من جاء بخصلة من الطاعات فله عشر حسنات، ومن جآء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها؛ أي من جاء بخصلة من المعصية فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون؛ بالزيادة على مقدار ما يستحقون من العقاب، وإنما قال ذلك لأن الفضل بالنعم جائز، والابتداء بالعقاب لا يجوز.) [٢]

---

[١] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٣٣).

[٢] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

- الجصاص: (قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا الحسنة اسم للأعلى في الْحُسْن، لأن الهاء دخلت للمبالغة فتدخل فيها الفروض والنوافل،....) [1]

- الثعلبي: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ يعني: التوحيد: لا إله إلّا الله فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا./ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ يعني: الشرك فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وقيل: هذا عام في جميع الحسنات والسيِّئات.) [2]

- الماوردي: (في الحسنة والسيئة هنا "قولان: أحدهما: أن الحسنة الإيمان، والسيئة الكفر، قاله أبو صالح.

والثاني: أنه على العموم في الحسنات والسيئات"" [3] أن جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها تفضلاً، وجعل جزاء السيئة مثلها عدلاً، قال رسول الله ﷺ: (أَبْعَدَ اللهُ مَنْ غَلَبَتْ وَاحِدَتُهُ عَشْراً).

ثم في ذلك قولان: أحدهما: أنه عام في جميع الناس. والثاني [4]: أنه خاص في الأعراب إذا جاء أحدهم بحسنة فله عشر أمثالها، فأما غيرهم من المهاجرين فلمن جاء منهم بحسنة سبعمائة، قاله ابن عمر، وأبو سعيد الخدري.) [5]

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٤/ ١٩٩).

(٢) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٢/ ٢٧٩ – ٢٨٠).

(٣) ما بين ... زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٩٧).

(٤) انظر رد ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٦٨). و القرطبي في تفسيره (٧/ ١٥١) حيث قال: (، وهذا يحتاج إلى توقيف).

(٥) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٢/ ١٩٣). تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٤٧١ – ٤٧٢).

* ابن عطية:

(وقوله تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ الآية. قال أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر: هذه الآية نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر. وكان المهاجرون قد ضوعف لهم الحسنة سبعمائة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل يحتاج إلى سند يقطع العذر" [1]، وقالت فرقة: هذه الآية لجميع الأمة، أي إن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا المضمون قد يزيد ما يشاء، وقد يزيد أيضا على بعض الأعمال كنفقة الجهاد، وقال ابن مسعود ومجاهد والقاسم بن أبي بزة وغيرهم: «الحسنة» لا إله إلا الله «والسيئة» الكفر.

قال القاضي أبو محمد: وهذه هي الغاية من الطرفين، وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر.[2] ...

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: الأعمال ست...، وقوله تعالى: لا يُظْلَمُونَ أي لا يوضع في جزائهم شيء في غير موضعه،...، وقال الطبري قوله مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِالآية، يريد من الذين فرقوا دينهم أي من جاء مؤمنا فله الجنة.

قال القاضي أبو محمد: والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم أليق باللفظ.) [3]

---

[1] ما بين نقله أبو حيان في البحر المحيط في التفسير (٤/ ٧٠١).

[2] ما بين نقله تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٥٣٤).

[3] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٦٨).

- ابن الفرس: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها:اختلف فيمن جاءت هذه الآية. فقيل فيمن آمن من الأعراب.... وقالت فرقة هذه الآية لجميع الناس ثم بعد هذا الذي شرط يزيد ما شاء وينقص ما شاء لمن شاء. وهذا أظهر ما في الآية.) [1]

* الرازي:

(في الآية مسائل: المسألة الأولى: قال بعضهم: الحسنة قول لا إله إلا الله والسيئة هي الشرك وهذا بعيد بل يجب أن يكون محمولا على العموم إما تمسكا باللفظ وإما لأجل أنه حكم مرتب على وصف مناسب له فيقتضي كون الحكم معللا بذلك الوصف فوجب أن يعم لعموم العلة.

/ وقوله: وهم لا يظلمون أي لا ينقص من ثواب طاعتهم ولا يزاد على عقاب سيئاتهم)[2]

* ابن تيمية:

(قال الشيخ ـ مبيّناً قول جمهور السلف ـ: فالذين قالوا: إنّ الحسنة هي التوحيد، والسيئة هي الشرك.. دليله: قوله تعالى:من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذٍ ءامنون * ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار..[النمل: ٨٩، ٩٠]، وذلك لأنّ جميع أعمال البرّ هي

---

[1] أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٣٦). و كذلك من آثر التعميم و الإطلاق في الآية: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٩١). تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٥٥١). فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٠٨ – ٢٠٩). تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٤/ ٥٥٢). تفسير المنار (٨/ ٢٠٥). التحرير والتنوير (٨-أ/ ١٩٥).

[2] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٤/ ١٨٩).

داخلة في التوحيد؛ فإنّ التوحيد ـ وهو معنى قول (لا إله إلا الله) ـ هو أن يُعبد الله، وهو ـ تعالى ـ إنّما يُعبد بما أمر به. فهو: العمل لله، بأمر الله..... فكلّ عمل من أعمال البرّ، فهو جزء من التوحيد، ومن العمل لله.. قال الله تعالى: ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها.. إلى: ما لها من قرار[إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦]، فالكلمة الطيّبة هي التوحيد، وهي كالشجرة. والأعمال ثمارها في كلّ وقت. فجميع الأعمال الحسنة تضاعف لصاحبها. وجميعها من عبادة الله وحده. وهي من فروع قول (لا إله إلا الله). بل الأعمال تحقيق قول (لا إله إلا الله). فإنّ الإيمان قول وعمل.. فمن قال: الحسنة: لا إله إلا الله؛ لم يُرِد أنّ هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها، بل هي عنده الشجرة الجامعة، والأعمال داخلة فيها، وفروع لها. وكذلك السيئة، هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك.. والذنوب كلّها جزء من الشرك، وهي من فروعه [1]) [2]

- ابن جزي: (عَشْرُ أَمْثالِها فضل عظيم على العموم في الحسنات، وفي العاملين) [3]

- الخازن: (واختلفوا في هذه الحسنة والسيئة على قولين:

أحدهما: أن الحسنة قول لا إله إلا الله والسيئة هي الشرك بالله،....

والقول الثاني: إن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة، وهذا أولى. لأن حمل

---

[1] تفسير آيات أشكلت: ١/ ٣٣٥ ـ ٣٤٥. (باختصار).

[2] اختيارات ابن تيمية وترجيحاته في التفسير من أول سورة المائدة، إلى آخر سورة الإسراء (جمعا ودراسة) (١/ ٣٦٦).

تفسير أطفيش – إباضي (٣/ ٨٥ – ٨٦، بترقيم الشاملة آليا) حيث قال: (كلمة الإِخلاص وما بنى عليها فعلية أَو تركية)

[3] تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٨٢).

اللفظ على العموم أولى) [1]

- أبو حيان: (وقيل: **الحسنة والسيئة عامان** وهو الظاهر **وليسا مخصوصين بالكفر والإيمان** ويكون ومن جاء بالسيئة مخصوصا بمن أراد الله تعالى وقضى بمجازاته عليها، ولم يقض أن يغفر له.... ...

"وظاهر من جاء العموم[2]. وقيل.... وقيل:.... وقيل:.... وقيل:... **وهم لا يظلمون لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد في عقابهم.)**

و قد وافق أبو حيان مقررا ابن عطية على افتقار قول من قال أن مضاعفة الحسنات خاص بالمؤمنين ما بين الأعراب و المهاجرين، إلى الإسناد القاطع للعذر، ثم رجح ظاهر اللفظ القرآني و نظمه في أن المراد بالحسنة و السيئة العموم و ليس الخصوص بالكفر و الإيمان، و أدق ما حققه أنه وجه المعنى على احتمالية أن من جاء؛ العموم و أن المقصود بمن جاء بالسيئة أنه الذي قضى الله عليه بعدم المغفرة و أنه مجازيه عليها، و قد سبق أن المؤمن الذي بقى له حسنة واحدة **يضاعفها الله له لكي يدخله الجنة، و أن الكافر أو المشرك تستهلك حسناته في رد المظالم و محابطة الشرك و الكفر فيجيء بالسيئة، و على كل حال فإن هذا التأويل يتسق مع ظاهر الآية و مع تأويل معظم المفسرين لأنه يتضمن أن الذي يجيء بالسيئة هو المعذب لا محالة و هو المشرك، و في نفس الدلالة** لا يمنع أن يكون له حسنات و قد ضاعفها الله له و لكنها حبطت تجاه شركه أو استهلكت تجاه رد المظالم.

---

[1] تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٧٧).

[2] روح المعاني لمحمود الألوسي (٨/ ٦٩).

- النيسابوري: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ هي لا إله إلا الله والسيئة الشرك. والأولى حملها على العموم....

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ أي لا ينقص من ثواب طاعاتهم ولا يزاد على عقاب سيآتهم.) [1]

- البقاعي: (من جاء أي منهم أو من غيرهم بالحسنة أي الكاملة بكونها على أساس الإيمان فله من الحسنات عشر أمثالها كرماً وإحساناً وجوداً وامتناناً، يجازيه بذلك في الدنيا أو في الآخرة، وهذا المحقق لكل أحد ويزداد البعض وضوحاً بحسب النيات، وذكر العشر، لأنه بمعنى الحسنة، وهو مضاف إلى ضميرها.

/ ومن جاء بالسيئة أي أيّ شيء كان من هذا الجنس فلا يجزى أي في الدارين إلا مثلها إذا جوزي، ويعفو عن كثير.

... وهم لا يظلمون...، بل المماثلة موجودة في الكم والكيف، فلا ينقص أحد في ثواب ولا يزاد في عقاب.) [2]

و قد دمج البقاعي بين تأويل الغاية كما أشار به ابن عطية لمن عين الحسنة بلا إله إلا الله و السيئة بالشرك، و تأويل العموم لكل ما يصدق عليه كونه حسنة أو سيئة، و جعل العموم أيضا في المخاطبين و لكنه قيد الحسنة بالإيمان على أن الإيمان أساس للحسنة و بذلك فهو يشير للغاية أي أن الفائز هو من جاء بالحسنة و هو مؤمن أو أن إيمانه هو الباعث على نشوء الحسنة و هنا

---

(1) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ١٩٢).

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٣٦ – ٣٣٧).

تحديدا أشار بالعموم لكل أحد جاء بحسنة كان منشؤها الإيمان المقرون بالعمل الحسن، و على أساس استقلالية الأعمال فلا غرابة من صدور الحسنة من الكافر أو المشرك في بعض أوقات حياته، و من دقته أدخل الدارين كمحلين للجزاء ليضم ثواب الدنيا و حرث الدنيا لمن اقتصر بعمله عليهما كما وصف بها المنافقين و المشركين فيكون جزاء لهم في الدنيا على حسناتهم، و في الآخرة يرد بحسناته المظالم و يخف من عليه قدر العقاب و العذاب.

- أبو السعود: (أي من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين إذ لا حسنة بغير إيمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلا من الله عز وجل... وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص ومن جاء بالسيئة أي بالأعمال السيئة كائنا من كان من العاملين فلا يجزى إلا مثلها بحكم الوعد واحدة بواحدة وهم لا يظلمون بنقص الثواب وزيادة العقاب) [(١)]

- إسماعيل حقي: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ أي من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين إذ لا حسنة بغير إيمان قال القاضي عياض انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب لكن بعضهم يكون أشد عذابا من بعض بحسب جرائمهم انتهى نعم إذا أسلموا يثابون على الخيرات المتقدمة لما ورد في الحديث (حسنات الكفار مقبولة بعد إسلامهم)) [(٢)]

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٠٦). روح البيان (٣/ ١٢٦). روح المعاني لمحمود الألوسي (٨/ ٦٨ – ٦٩).

(٢) روح البيان (٣/ ١٢٦).

و الإجماع المذكور من القاضي عياض صحيح المعنى تماما و لكنه يحتاج لبعض القيود لكي يقرب من الدقة التامة لأذهان المتلقين، لأن العلماء يستحضرون الآيات و روافد الدلالات المأخوذة منها فيستغنوا عن هذه المقيدات في التعاريف فيعتبرونها مضمنة في التعريف باللزوم لوضوحها، و نقترح أن يكون نص الإجماع كالآتي:

(الكفار لا تنفعهم أعمالهم فلا يثابون عليها بنعيم و لا تخفف عنهم العذاب بعد دخوله، و لكن بعضهم يكون أشد عذابا من بعض بحسب جرائمهم بعد الحساب و الميزان)، لأن العذاب يكون على السيئات أما الحسنات فتذهب حابطة ضالة في غمرات الذنوب و السيئات فلا تبقى حسنة واحدة و كل ما بقي هو سيئاتهم و عليها يتعين مقدار الدركة و العذاب.

- القونوي: (ولو قيل الأجور تتزايد بحسب الأعمال والعمال بل الأمكنة والأزمنة فبعض الأعمال أجره عشر حسنات وبعضها سبعون وبعضها سبعمائة وبغير حساب، وكذا الكلام في العمال وغيرها لكان أحسن وأوفق لما ورد في بعض الأخبار والآثار.)[1]

قد عمم أبو السعود فيمن جاء بالسيئة ليطول كل أحد من المكلفين، و نرى أنه أيضا قد عمم فيمن جاء بالحسنة لأنه في نفس النظم و التركيب و لا يفوته مثل ذلك الإلزام و هو من هو، و لكنه قيده بمن جاء بالحسنة مؤمنا لأنه لا يبقى أحد له حسنة يجيء بها بعد الحساب و الميزان إلا مؤمنا ثقلت موازينه أو على اعتبار ما يكون فحسنات الكافر و المشرك ستكون هباء منثورا و تحبط في مقابل الشرك و الكفر فلن يبقى لمشرك أو كافر حسنة يجيء بها.

---

(١) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٨/ ٣٢٢).

و هو قد صرح بمصدر الدلالة على تقييده بالمحسنين لأنهم قد صدرت الآية بهم بعد ذكر أضدادهم من الذين فرقوا دينهم شيعا أي أن مصدره في التقييد هو قرينة افتراضية و ليس ظهور أو نصية مع أنه من الجائز أن يقال و ما المانع أن يكون الذين فرقوا دينهم هم المعنيين بأن الله لا يظلمهم حسنة عملوها أو سيئة اقترفوها فلا يزيد من العقاب على السيئة بل يعادله فقط و يزيد من الثواب و يضاعفه، لكي لا يُفهم من أنهم فرقوا دينهم أنهم يُظلمون و لا يثابون فإن الله لا يبخسهم شيئا، و يقال أيضا أن المضاعفة على الحسنات ذكرت هنا محدودة بعشرة أضعاف مع أنها مذكورة في مواضع أخرى بأضعاف مضاعفة لدرجة أنها تصل لأن تكون بغير حساب، فيجوز قولنا أن أقل عدد لبيان التضعيف كان في جانب الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا أما المؤمنين فلهم الأضعاف المضاعفة و الجزاء بدون حساب.

- الصاوي: (**قوله: مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ أي** يوم القيامة.

قوله: فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا هذا إخبار بأقل المضاعفة،...، واعلم أن المضاعفة تابعة للإخلاص، فكل من عظم إخلاصه، كانت مضاعفة حسناته أكثر،... وفسر الحسنة **بلا إله إلا الله، وهو أحد تفسيرين،** والآخر **أن المراد بها** كل ما أمر الله به، **فيشمل الذكر والصلاة والصدقة، وغير ذلك من أنواع البر،** وهو الأولى، لأنه أراد خصوص ما ينجي من الشرك، فذلك جزاؤه دخول الجنة، **وإن أراد الذكر بها فلا مفهوم لها، لأن** العبرة بعموم اللفظ، **وأفرد في الحسنة والسيئة، لأنه لو جمع لربما توهم أن الجزاء إجمالي، بحيث يعطي في نظير حسناته كلها عشرة أمثالها، بل**

الجزاء لكل فرد من أفراد الحسنات والسيئات، لأن الحسنات تتفاوت، فربما جوزي على بعضها عشراً وعلى بعضها أكثر.

قوله: وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ أي الشرك على ما قاله المفسر، حيث فسر الحسنة بلا إله إلا الله، أو ما هو أعم وهو الأولى.)[1]

- القونجي: ((وهم) أي المحسنون والمسيئون (لا يظلمون) بنقص المثوبات ولا بزيادة العقوبات والأولى في هذه الآية أن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة وإعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله، وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه.)[2]

- أطفيش: (والخلود في الجنة والنار بالنيات، لأن المؤمن ينوى الطاعة أبداً، والمشرك وسائر المصرين ينوون المعصية أبداً، قال ابن مسعود: الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك، والصحيح العموم.

وهُم لا يُظْلمون الضمير عائد إلى الجائين بالحسنات والجائين بالسيئات، لأن (من) في الموضعين للعموم، ومعنى لا يظلمون لا ينقص من ثواب الجائين بالحسنات، ولا يزاد في عقاب الجائين بالسيئات، ولا تكتب السيئة حتى تعمل.)[3]

---

[1] حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ٦٠٠ - ٦٠١، بترقيم الشاملة آليا).

[2] فتح البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٢٩١).

[3] هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد أطفيش (٥/ ٢٠٩، بترقيم الشاملة آليا).

- رشيد رضا: (**وأما قوله تعالى: (وهم لا يظلمون) فيحتمل أنه** في أهل السيئات **لأنهم هم الذين يحتاج إلى نفي وقوع الظلم عليهم**، ولا سيما أهل الشرك والكفر منهم، **مع ما ورد من الشدة في وصف عذابهم، والمعنى: أن الله تعالى لا يظلمهم بالجزاء فإنه منزه عن الظلم عقلا ونقلا، والآيات فيه كثيره،...**)[1]

- ابن عاشور: (**وهم لا يظلمون والضمير يعود** إلى من جاء بالسيئة. **إظهار للعدل، فلذلك سجل الله عليهم بأن هذا لا ظلم فيه لينصفوا من أنفسهم. وأما عد عود الضميرين إلى الفريقين فلا يناسب فريق أصحاب الحسنات، لأنه لا يحسن أن يقال للذي أكرم وأفيض عليه الخير إنه غير مظلوم.**) [2]

---

[1] **المنار** (٨/ ٢٠٦).

[2] **التحرير والتنوير** (٨-أ/ ١٩٧).

الآية رقم ١٠

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝٢٩ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى۝٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى۝٣١ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى۝٣٢﴾
[النجم: ٢٩-٣٢]

تقسيم المكلفين لفريقين (الذين أساءوا و الذين أحسنوا) لا يمكن تصورها لمعينين أو لعموم المنتسبين للإيمان و للكفر، لأنه لا يخلو أحد من عمل السيئات و الحسنات في كلا الفريقين، و لذلك فقد صيغ المعنى في نظم لفظي يؤدي العدالة التامة لكل المكلفين، فقد تم تعميم أو إطلاق الفاعل و إسناد سوء العمل أو حسنه له دون تعيينه أو الإشارة إليه باسم الفاعل لجواز وقوع الحسن و السيئ منه على حد سواء، و من ثم تعليق أو إناطة الجزاء على الأعمال، و نكتة إظهار (العمل) مع الذين أساءوا دون الذين أحسنوا، لأن الله من تمام و كمال عدله أنه لا يجازي إلا على عمل السيئة فلا يدخل في الجزاء غير العمل من صور الفكر و التخيل و جوالان الخاطر، بخلاف الحسنة فإنه من رحمته و فضله البليغ يكتب الهم و العزم و النية والقصد لفعل الحسنة على أنه حسنة، بل ما يُضاف له بطريق التبعية و التسبب كالعلم النافع و الولد الصالح الذي يدعوا له و كالصدقة الجارية.

فإسناد و نسبة العمل للعامل أعم صور الوجود فقد تجاوزت اسمه أو وصفه (المؤمن – الذين آمنوا – الكافر – الذين كفروا و ما شابه) و قصرت العلاقة الإسنادية و الوصفية التي يناط بها الجزاء على نوعية العمل و جعله هو عماد الوصف لعامله، فمثلا الذين أساءوا لأنهم عملوا السيئة، فالسيئة هي علة وصفهم، و السيئة تُعلم من أمر الله و نهيه وحده، و بهذا فقد تقرر أن أي عمل وقع من عامله بخلاف مراد الله منه في هذا العمل فهو سيئة و العامل قد أساء، و عليه يترتب الجزاء الوفاق عليه.

و من النكات أيضا أنه هنا لم يذكر نوعية الجزاء بل أكتفي فقط بتقريره في الذين أساءوا ليُترك مساحة يتخلف فيها الجزاء على السيئة بالمغفرة الواسعة و لكنها مغفرة مقيدة فقط بالذين أحسنوا و تجنبوا كبائر الإثم و الفواحش فتقتصر المغفرة على اللمم، و قد يكون المغفرة الواسعة تطول كلا الفريقين (إلا الشرك) و يكون تحقق مجانبة الكبائر و الفواحش هو وصف لفريق الذين أحسنوا.

و من القرائن على التعميم غياب نوعية الجزاء فيدل على عموم السيئة و الحسنة، و بناء على هذا العموم يقتضي عموم الفاعلين، لأن السيئة قد تأتي على صورة شرك أو كفر، و الحسنة قد تكون في صورة توحيد و إسلام الوجه لله، و بهذا فالحسنة و السيئة أعم من كون الفاعل مؤمن أو كافر، لأنها هي التي تكسب الفاعل اسمه.

و معظم المفسرين قالوا في الذين أساءوا أنهم هم المشركين و الذين أحسنوا هم المؤمنين و هذا تفسير بالمَثَل أو أحد المصاديق و لكونه أمثلهم و أقواهم فيتبادروا لقوله إنما هو على سبيل المثال

لا الحصر، فالأسلم ترك عموم اللفظ و ما يؤديه من معنى على حاله و موضعه لأنه لا يتصور أنه لو أريد قصر اللفظ على المعنى لكان الذين أشركوا و الذين آمنوا.

و (بالحسنى) قد تحتمل وصف طُرُق و سُبُل الجزاء بالتفضل و المضاعفة و لا تعني قطعا نوعية و تعيين الجزاء الذي هو الجنة، و قرينة هذا في قوله تعالى وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ النحل ٦٢، فمن المشهور عن المشركين أنهم لا يؤمنون بالآخرة و لا بالبعث و لا الحساب و قطعا بالجنة و النار فكيف يدعون أن لهم الحسنى؟ فيتجه استعمالهم الحسنى أن يكون عاقبة أمرهم حسنا فهو أعم من كونه جنة أو غير جنة لكي يتسق من رؤيتهم لأعمالهم و عاقبتها، فالحسنى أعم من الجنة، لأن الجنة مخصوصة بمن آمن بها هذا في نوعية الجزاء، أما لو اتجهنا لأن الحسنى هو في طريقة الحساب و الجزاء بالتفضل و المضاعفة و الكرم و العفو و ما إلى ذلك فكل هذا حسنى، و دليله في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فصلت: ٥٠]

و من القرائن أيضا التي تدل على أن (بالحسنى) أعم من كونها اسم للجنة أو طريقة لتوقيع الأفعال و الأقوال قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠]، فهي هنا عامة تضم كل ما من شأنه أن يُعمل و أن يُقال و أن يُؤمن به، فهي الدين كله، و هذا أنسب معنى بالحسنى في آية النجم، فكأن المعنى أن الذين (أحسنوا) أي عملوا

(بالحسنى) أي بها أمر الله به و نهى عنه، و لذلك ناسبه أن يذكر اجتناب الكبائر و الفواحش إلا اللمم تفصيلا و بيانا لحال المتقين و لحال الذين أحسنوا بالحسنى المنوط بهم مغفرة الله الواسعة، لأن إحسانهم بالحسنى عام بمعنى أنه دينهم الذي ارتضوه و رضاه الله لهم أي الإسلام، و يدخل فيه الذين أحسنوا بالحسنى في بعض الأعمال و الأقوال من غير المؤمنين كل على حسبه و قدره و ما نواه.

و القول بأن (بالحسنى) هي الجنة يقتضي تقدير مقيدات عديدة و هذا خلاف الظاهر و الإيجاز المعهود من النظم القرآني، لأنه سيعترضه أن هناك أدلة أو مقتضيات لزومية من بعض الأدلة القرآنية أنهم سيدخلون النار على قدر سيئاتهم ثم يخرجوا للجزاء على حسناتهم التي منها التوحيد و الإسلام و الإيمان، و هنا (الذين أحسنوا) يطلق على المؤمنين بالأصالة و الأولوية و عليه يقتضي دخلوهم الجنة بدون إشارة على توقيع قدر من العذاب أولا فيجب تقديره، أو القول على اعتبار مآلهم في نهاية الأمر و هو أيضا تقدير، و الأولى إبقاء الظاهر على ظهوره خاصة أنه يفي بكل هذه الاحتمالات و التقديرات، أن الله يجازي من أحسن عملا بالحسنى فكل عمل له جزاؤه بالحسنى، فعمل التوحيد مغاير لعمل دفع الأذى عن الطريق و هكذا، فينتظم فيه كل عمل حسن من كل عامل لهذا العمل سواء مؤمن أو غير مؤمن.

و كل مفسر لم يعين المثوبة (بالحسنى) على أنها الجنة أو جوزها على أنها احتمال من بضع احتمالات أو على البدل: فهو يؤكد على عمومية جزاء الذين أحسنوا بالحسنى، لأن هذا الإبهام يترك المجال الدلالي لأن يتعلق به كل مؤمن و غير مؤمن و هو كقوله تعالى ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]

و نحن لا ندعي أنهم يقصدوا هذا المعنى الذي نقوله و لكن نحن نلزمهم به لكون تفسيرهم يتسع لهذا و هم أهل تدقيق و تحقيق، فالذي جعلهم يتخيروا مثل هذه الألفاظ دون التعيين فبلا شك هي مقصودهم أن تقع هكذا في مجالها الدلالي الواسع و هذا ما يبرر لنا أن نذكر هذه التفاسير على أنها قرائن تعزز تأويل المسألة المبحوثة، لأنه من الطبيعي أنه تحاشى تعيين المثوبة بالجنة فلغرض بلاغي اضطره لهذا أو رؤية له في معاني النظم الذي يفسره و قد يكون قرائن أخرى آتية من آيات أخرى أو يكون له مذهب معين في مسائل ارتكاب الكبائر أو دخول المؤمنين النار أولا لعقابهم على بعض سيئاتهم أو من يقول من دخلها فلن يخرج منها و مثل هذه المسائل تتحكم في تفسيره لأي موضع يلتصق بها مؤامة أو مدافعة على ما تقتضي رؤيته.

و نلاحظ أن تفسير (الحسنى) بالجنة مأخذه من رافدين معنويين أحدهما التأنيث الذي في (الحسنى) و الآخر تعلق إسناد الجزاء بمحله أي أن الحسنى هي جزاء للذين أحسنوا، أما نكتة التأنيث فيمكن إدخال احتمالات أخرى فيها فالأعمال تصلح لأن يعود عليها التأنيث و كذلك المجازاة تصلح أيضا أن يعود عليهما الإحسان و الاتصاف بالحسنى، فيكون التقدير: ليجزي الذين أحسنوا بالمجازاة الحسنى أو ليجزي الذين أحسنوا بأعمالهم الحسنى، فتكون الحسنى صفة للأعمال، و من الجائز أخذ دلالة الحسنى من (صدق و كذب بالحسنى) على أنها الشريعة فيكون التقدير: ليجزي الذين أحسنوا أعمالهم بالشريعة أي أوقعوها وفق شرع الله، و أي تأويل لا يقدر فيه نوعية الجزاء يكون أوفق لظاهر الآية و نظمها، لأنه لم يذكر نوعية الجزاء للذين أساءوا فإن كان غيابه للتهويل فيكون غيابه في الذين أحسنوا للتعظيم.

و كل ما سبق من جواز تقدير ما يجوز عليه التأنيث لا يمنع أن يكون أحد هذه التقديرات أن يكون (الجنة) و لكن حينئذ لا نقصر و لا نعين قطعا بل تكون على سبيل التمثيل بالأولى فتدخل دخولا أوليا و لا تمنع نوعية جزاء أخرى يمكن وصفها بالحسنى، لأنه لو كان المراد الحصر بالجنة لجيء بلفظها كما ذكر في مواضع مرارا و تكرارا أنها جزاء للمؤمنين، فوجب على هذا العدول بإظهار اسمها أن ترجع الدلالة للفظ المذكور و هو أعم من كون الجزاء جنة أو غير جنة، لأن الحسنى قد تكون وصفا لنهج الجزاء أي قوانينه و قواعده التي يسير عليها بما يشمل من التفضل و المضاعفة و الزيادة و غير ذلك، و قد يكون وصفا لعين المجزي به و هنا قد يتعدد الصور و لا يتعين أحدها و يُترك للسياق أو القرائن أو لنوعية المدخلات، فلو كان المؤمن هو المجزي فيكون جزاؤه جنة أو جنات على اختلاف درجاتها و أوصافها و قد يكون المدخل الكريم و تكليم الله لهم و غير ذلك مما هو مذكور في مواقف يوم القيامة، و بالنسبة للكافر فقد يكون هو الموازنة و التحابط بحسناته مع سيئاته، سواء في رد المظالم أو في الحساب و الميزان و من ثم يكون استحقاقه لدركة النار على قدر ما بقى له من سيئاته مع الشرك.

- مقاتل بن سليمان: (ثم نعت المتقين فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم يعني كل ذنب يختم بالنار والفواحش يعني كل ذنب فيه حد إلا اللمم يعني ما بين الحدين.) [1]

الفائدة أن مقاتل لم يُرْجِع الذين يجتنبون على الذين أحسنوا بل جعله على المتقين، و هذا يعزز من استقلالية الآيتين مما يجعلنا ندخل غير المؤمن في الذين أحسنوا و مجازاته بالحسنى التي هي عشرة أمثال أو أضعاف أو أكثر، لأن وصف الذين أحسنوا بأنهم يجتنبون الكبائر و الفواحش يقيدهم بالمؤمنين و هذه نكتة المسألة.

- الطبري: ((لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا) يقول: ليجزي الذين عصوه من خلقه، فأساءوا بمعصيتهم إياه، فيثيبهم بها النار (وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) يقول: وليجزي الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياه في الدنيا بالحسنى وهي الجنة، فيثيبهم بها.

وقيل: عُنِي بذلك أهل الشرك والإيمان..) [2]

رغم تخلصه من التصريح بكونهم المشركين و المؤمنين لفظا و تفسيرا فالتزم ظاهر اللفظ و عمومه إلا أنه أقره بطريقة أخرى فجعل نصيب الذين عصوه النار و الذين أطاعوه الجنة، و الأولى ترك نوعية المجازاة كما تركت في الآية و تعميم الإساءة و الحسنى لتعم كل سيئة و كل حسنة ثم نترك تعيين دار الجزاء لما بعد الحساب و الميزان.

و لكن يمكن الوقوف على منبع هذا التأويل من الطبري أن الجزاء لا يكون إلا على الحسنات

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ١٦٤).

[2] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٥٣١).

و السيئات و من المعلوم قطعا أن الكافر لن يبقى له حسنة كي يجازى عليها جزاء ما بعد الموازنة الذي هو الجنة فلا بد أنه من أهل النار، فجعل الطاعة و العصيان كناية عن حصيلة الموازنة، فالمؤمن لا بد له من حسنات يجازى عليها بالدرجة في الجنة، و الكافر لا بد له من سيئات يجازى عليها دركة في النار.

أما وصفه الفاعل (أطاعوه) و (عصوه) فهو واقع حقيقة على أعظم أمر و نهي و هو التوحيد و الشرك، فمن تلبس بالشرك فهو أحق من يوصف بمن عصوه، و من وحده في عبادته هو أحق من يوصف بأنه ممن أطاعوه، و بهذا يتضح وجه الدمج ما بين تحفظ الطبري فلم يخرج عن حدود ظاهر الألفاظ مع جعله الجنة و النار جزاء لمن أطاعوه و عصوه.

و أهم ما يلفت الانتباه هو تصديره لتخصيص الفريقين بقوله (قيل) أي أنه وجه غير راجح عنده و هذا هو محل الشاهد.

- الماتريدي: (هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: يقول: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وهو غني عن عبادتكم، وإنَّما يأمركم وينهاكم؛ ليجزيكم بأعمالكم، لا لمنافع ترجع إليه.

/ والثاني: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أي: إنما أنشأ أهل السماوات والأرض؛ ليمتحنهم بالأمر والنهي، ثم ليجزي الذين أساءوا جزاء الإساءة والذين أحسنوا جزاء الإحسان،....

ثم يحتمل جزاء إساءة أُولَئِكَ في الدنيا والآخرة: في الدنيا: القهر، والدَّبرة، والهزيمة، وفي الآخرة: النار، وجزاء المحسن في الدنيا: النصر والظفر، وفي الآخرة: الجنة.) [1]

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٤٢٨ – ٤٢٩).

نلاحظ أيضا أن الماتريدي التزم الظاهر فلم يعين من هم الفريقين، و كذلك لم يعين نوعية الجزاء، فقد التزم تماما معنى الآية بدون تدخل، و الشاهد أن لما جاء وقت التعيين صدره بقوله (ثم يحتمل) أي أن تخصيص الجزاء بالجنة و النار، و أن الفريقين هم الكفار و المؤمنين جعله احتمالا تأويليا، و هذا هو محل الشاهد من كلامه.

- الرازي: (كأنه قال: ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أي جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب، وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه.

/ ثم قال تعالى: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم (الذين) يحتمل أن يكون بدلا عن الذين أحسنوا وهو الظاهر،...، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم والذي يدل عليه قوله تعالى: إن ربك واسع المغفرة وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن)[1]، و قال: (ثم قال تعالى: إن ربك واسع المغفرة وذلك على قولنا: الذين يجتنبون ابتداء الكلام في غاية الظهور)[2]

واضح أيضا أن الرازي تماشى مع ظاهر اللفظ و النظم و لم يعين شيئا، و الشاهد أنه جعل (الذين) في قوله (الذين يجتنبون) ابتداء كلام محتمل، ثم عين ظهوره جدا في حال المغفرة الواسعة أي أنها تعود على الذين يجتنبون، وبهذا فإن الآية لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى عامة مستقلة جاءت للتقرير و التذكير.

- المنتجب الهمذاني: (يجازي المطيع بطاعته، والمسيء بإساءته./ وهو أن يجازي الفريقين على

---

[1] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩/ ٢٦٨ – ٢٦٩).

[2] نفسه (٢٩/ ٢٧١).

أعمالهم.)[1]

- البيضاوي: (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا بعقاب ما عملوا من السوء أو بمثله أو بسبب ما عملوا من السوء، وهو علة لما دل عليه ما قبله أي خلق العالم وسواه للجزاء، أو ميز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى. ...

إن ربك واسع المغفرة حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو له أن يغفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها.) [2]

الشاهد هو التعميم و الالتزام بالظاهر، إدخال الجنة كاحتمال فقط على أنها هي المثوبة بالحسنى.

- النسفي: (وَللهِّ مَا في السماوات وَمَا في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بِمَا عَمِلُواْ بعقاب ما عملوا من السوء أو بسبب ما عملوا من السوء وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى بالمثوبة الحسنى وهي الجنة أو بسبب الأعمال الحسنى والمعنى أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت ليجزي المحسن من المكلفين) [3]

---

[1] الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٦/ ٣٧ - ٣٨).

[2] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٦٠). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ١٦١). روح البيان (٩/ ٢٤١). فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٣٥).

[3] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٣٩٤). و انظر قول البقاعي: (ليحكم بجزاء كل على حسب ما يستحق) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/ ٦٦). حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٨/ ١١٤).

و هو كما سبق تماما بل ازداد وضوحا بقول النسفي (المكلفين) ليجعل الجزاء عام للذين أحسنوا.

- ابن كثير: (أي يجازي كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ثم فسر المحسنين **بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي لا يتعاطون المحرمات والكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم** كما قال في الآية الأخرى **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه** نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما[النساء: ٣١])[1]

و قد آثر ابن كثير أن يبقى العموم و اللفظ كما هو في تفسيره، و بذكره أن المحسنين هم من يغفر لهم الصغائر و استدل عليه بآية أخرى أن الله يكفر عنهم سيئاتهم و يدخلهم مدخلا كريما، و هو بهذا يجعل الذين أحسنوا هم المؤمنين، و نؤوله بأنه أَمْثَل مَن في الذين أحسنوا و أنه أحد المصاديق الداخلة بالدخول الأولي و إن ربطنا الآية التي بعدها فأرجعناها على الذين أحسنوا أعني الذين يجتنبون فهو تخصيص المغفرة بالذين أحسنوا فاجتنبوا كبائر الإثم و الفواحش إلا اللمم، أما غيرهم ممن أحسنوا باتباع الشرع (الحسنى) في بعض أعمالهم فلهم جزاؤهم بلا بخس أو ظلم و لكن لا يدخلون فيمن يدخلون مدخلا كريما أو ممن يكفر عنهم سيئاتهم، **أما أن يدخلوا في سعة المغفرة فمن الجائز ذلك بنص الآية التالية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا١١٦﴾ [النساء: ١١٦]**

---

[1] تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٤٢٦).

فعلاقة (الذين أحسنوا) بـ (الذين يجتنبون) علاقة مطابقة تامة من جهة (الذين يجتنبون) إلى (الذين أحسنوا) لأنهم يدخلون فيهم دخولا أوليا، أما من جهة (الذين أحسنوا) فهو أعم من (الذين يجتنبون) أما لو اعتبرنا (الذين يجتنبون) بداية كلام لكي يسند إليه سعة المغفرة فهو ظاهر، فيكون سعة المغفرة هو ما خصص (الذين أحسنوا) بـ (الذين يجتنبون) تاركا في الدلالة العامة ما دونهم ممن لا يجوز عليهم المغفرة الواسعة بل يدخلون في مشيئة المغفرة فقط كما في سورة النساء ١١٦.

- الكوراني: ((لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا) بجزاء أعمالهم، (وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) غيَّر النظم، للدلالة على أَن جزاءهم ليس على قدر أعمالهم.)[١]

- الشهاب الخفاجي: (قوله: (بعقاب ما عملوا من السوء)... إشارة إلى ما مرّ من أنّ علمه بالفريقين كناية عن تمييز من يستحق الثواب ممن يستحق العقاب ليظهر جزاؤه فجملة (ولله ما في السماوات الخ) جملة معترضة لتأكيد علمه وبيان إحاطته، أو حال من فاعل أعلم سواء كان بمعنى عالم أو لا.

قوله: (بالمثوبة الحسنى الخ) فالحسنى صفة بمعنى الحسنى وموصوفها مقدّر وهو المثوبة أي الجزاء الحسن، والثواب والمراد به الجنة، وما فيها من النعيم أو الحسنى تأنيث أحسن اسم

---

[١] غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني (ص: ٢٦). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٢١٤). الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٣٦٥).

تفضيل، والباء عليهما صلة الجزاء، وعلى الأخير هي سببية، ولم يلاحظ في الأوّل زيادة كما توهم لأنه لا داعي له.) [1]

و تفسير الشهاب مثالي جدا و هو الجزء الخاص بتفسير النظم و الألفاظ و التراكيب، أما عند جزئية التأويل قال: (و المراد به الجنة) فكلمة المراد هي إشارة لرؤيته التأويلية بعد أن قرر و نص على المعنى العام للآية، و هذا هو محل الشاهد أن نظم و ظاهر الآية له تسلط قوي و مراعاة واجبة و من التزمها لم يعيين الفريقين و لا الجزائين إلا بتقدير أو تأويل، و نحن لا نعترض عليه بل نقول أنه أظهر المصاديق و أولى من يدخل في ظاهر الآية و ليس معنى ذلك أنه لا يدخل غير المؤمنين في الذين أحسنوا ما دام تعيين الجزاء لم ينص عليه كدليل لصرف غيرهم.

- الطاهر بن عاشور: (يجزي الذين أساءوا والذين أحسنوا من أهل الأرض، وهم الذين/ يصدر منهم الإساءة والإحسان فاللام في قوله: ليجزي لام التعليل، جعل الجزاء علة لثبوت ملك الله لما في السماوات والأرض....

وأن لها أفعالا حسنة وسيئة في الحياة الدنيا وعالم أنه مجزيها على أعمالها بما يناسبها جزاء خالدا في الحياة الآخرة...

وقوله: بالحسنى أي بالمثوبة الحسنى، أي بأفضل مما عملوا، وفيه إشارة إلى مضاعفة الحسنات

[1] حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٨/ ١١٤). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٥١٠).

كقوله: من جاء بالحسنة فله خير منها [النمل: ٨٩]. والحسنى: صفة لموصوف محذوف يدل عليه يجزي وهي المثوبة بمعنى الثواب.) [١]

و قد آثر الطاهر ابن عاشور أن يتجنب تعيين المثوبة بالجنة و إن كان تأويله يشير بذلك بما ضمنه تباعا لفريقي الضلال و الهدى، و لكن هذا التعميم و البقاء على دلالة اللفظ القرآني أولى و أحق، و لا ينافي توجيه ما يدل عليه المثوبة بأن أعظمها مصداقا هو الجنة و لكن في نفس الوقت لا يدل على قصر المثوبة بالجنة فقط، أما الدلالة المقصودة بمقتضى الظاهر من النظم و المفردات أن الله يجازي من يحسن و من يسيء، فيجازي المحسن بالإحسان، و المسيء بما عمل فقط من السيئات.

---

[١] التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٩ – ١٢٠).

الآية رقم ١١

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]

هذه سنة الله في الجزاء و هي عامة و مطلقة إنما يُستدل على معنى الإحسان الذي هو في موقع الجزاء بما قيل في وصف الجنة و ما فيها و هذا المعنى هو الأولي و إثباته لا ينفي غيره ممن يدخل في معنى الإحسان كجزاء، فهذه كالقانون و ليس من باب التعيين، لأنها قد جاءت في سياق بيان الجنة و نعيمها، و معلوم قطعا أن الجنة محرمة على الكافرين و المشركين، و عليه فمن أحسن عملا من غير المؤمنين سيجازيه الله بالإحسان عليه في الآخرة دون الجنة و نعيمها.

و كل المفسرين الذين جعلوا جزاء الإحسان هو الجنة قد أناطوها بقول لا إله إلا الله أو التوحيد و الإسلام، و هذا مما لا خلاف فيه و لا يعارض إحسان من يحسن العمل في الدنيا من غير المؤمنين لأننا لم ندخله فيمن يدخل الجنة.

و الأليق ببلاغة التركيب على ما كان منه أنه جعل ما وضع في موضع السبب هو عين ما وضع في موضع المسبب، فالملائم أن يتحدا في الدلالة و المعنى خاصة أن الوزن و الصيغة تؤدي إلى ذلك المعنى أي من يُحسِن يُحسَن إليه، و أيضا يكون المعنى أن من يحسن عمله فيقع منه على مقتضى شرع الله و إرادته يكون جزاؤه من الله أن يحسن إليه على ما اقتضى شرع الله من بلاغ و بيان بأن الحسنة بخير منها و بعشرة أمثالها و بأضعافها حتى إلى غير حساب.

فمن المفسرين من احتاط فترك العموم على عمومه و عندما مثل لهذا العموم و الإطلاق مثل بأهل الجنة لأنهم شهدوا بأن لا إله إلا الله بما ذكر في السياق عن الجنة و نعيمها، أي أن دلالة التخصيص التي اتبعوها لم تأتي من آية هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ بل من آيات أخرى،

و الشاهد أن ظاهر الآية لا يعطي هذا التخصيص أو التقييد بل يشمله و يعمه و السياق يشير إليه.

و لذلك جَنَحَ كثير من المفسرين أن يتركوها على ظاهرها بما تقتضيه من عموم و إطلاق، و بعضهم ذكر فيها أكثر من وجه فيرجح أحدها على الآخر و لكن كله عنده مقبول أو يذكرها كلها على سبيل النقل عن غيره من المفسرين بدون نقد أو رد خاصة قول محمد بن الحنفية الواضح في أنها للبر و الفاجر.

و على العموم فقد تكون الآية على سبيل الإخبار أو على سبيل الطلب، و بهذا تنوعت تفاسير المفسرين على هذين التقديرين، فعلى سبيل الطلب فيكون معناها أن الله قد أحسن إليكم في الدنيا بالنعم و الفضل و الإمهال فهلا أحسنتم إليه بالطاعة والعبادة، و قد يرفد منها معنى آخر أن الله يأمركم إذا أحسن أحد إليكم أن تحسنوا إليه، و على تقدير الإخبار فيكون معناها العام أن الله يحسن لمن أحسن إليه بالأعمال في الدنيا على مرضاته فيحسن إليه في الآخرة بالثواب و الجزاء الحسن، ثم نمثل لها بأشهر و أحق مثل يصدق عليه و هو من حقق لا إله إلا الله في الدنيا تنعم في الآخرة بالجنة، و يدخل فيها أيضا أي عمل وقع من عامله على مرضاة الله أن يجازيه الله عليه يوم القيامة بالجزاء الحسن فينتفع به في الحساب و رد المظالم و الميزان فيما دون الجنة و دفع الخلود في العذاب.

- و ننوه أن الحديث الوارد في تفسير الإحسان المجزي به أنه هو الجنة و أن الإحسان المسبب من المكلف هو التوحيد فإنه حديث ضعيف و عليه أي مفسر اعتمده في تفسيره سواء بالمعنى

أو باللفظ فيلحقه الضعف من جهة الحديث و يلحقه المطالبة بدليل التخصيص لكلا الإحسانين.

و سنذكر بعض الآيات المتعلقة بصفة الإحسان و الحسن في سياق مخاطبة الكفار و المشركين سواء بتذكيرهم بها وصاهم الله به أو على سبيل الأمر أو غير ذلك، و سنذكر قبل ذلك بها أناط الله به في خطاب التكليف و التوصية بأعم وصف و هو الإنسان فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت:٨]، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

أما في سياق مخاطبة المشركين فقال:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]

و خلاصة الاستدلال بهذه الآيات هو أنه من الثابت القاطع أن كل إنسان (أعم من كونه مؤمن

أو كافر) قد كلفه الله آمرا إياه أن يحسن بوالديه، و ما سماه الله إحسانا و حسنا مع دخول الكافر في معناه وجب بمقتضاه أن يسمى عمله مع والديه إذا وقع منه على ما أمر به الله؛ إحسانا، ثم يدخل إحسانه لوالديه في عموم قوله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

- الطبري: (هل ثواب خوف مقام الله عزّ وجلّ لمن خافه، فأحسن في الدنيا عَمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربُّهُ، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا....

/ حدثنا ابن بشار، قال: ثنا محمد بن مروان، قال: ثنا أبو العوّام، عن قتادة هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إِلا الإحْسَانُ قال: عملوا خيرا فجوزوا خيرا. ...

حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا مهران، قال: ثنا سفيان، عن سالم بن أبي حفصة، عن أبي يعلى، عن محمد ابن الحنفية هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إِلا الإحْسَانُ قال: هي مسجَّلة للبرّ والفاجر.) [(١)]

- الزجاج: (أي ما جزاء مَن أحسن في الدنيا إلا أن يُحْسَنَ إليه في الآخرةِ.) [(٢)]

- الماتريدي: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ قيل: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان لهم في الآخرة؟ أي: هل جزاء فعل الحسن في الدنيا إلا إعطاء الحسن في الآخرة، وهي الجنة.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٦٧).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ١٠٣). التأويلات النجمية لأحمد بن عمر (٣/ ٤٤١). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٢٤٠).

ولكن غيره كأنه أقرب، أي: هل جزاء إحسان اللهَّ تعالى بما أنعم عليهم في الدنيا إلا الإحسان له بالشكر والقبول، **أي: الإتيان بفعل الحسن، وهو الشكر له، وحسن القبول؛....**
ويحتمل **أن يكون تأويله**: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان له في الآخرة، **واللهَّ أعلم.)** (١)

الشاهد مما سبق التعميم و إبهام الفاعل و الجزاء معا، إلا في أحد الاحتمالات التي جاء فيها بعد قوله: (قيل) أن الجزاء هو الجنة، و هذا أمر مفروغ منه لأنه هو علة خلق السماوات و الأرض و ملكها لله و علمه بالمكلفين و أعمالهم و حفظها عليهم و غير ذلك من الحكم، و هذه النتيجة النهائية لا تمنع كما سبق مرارا أن يكون هناك رؤية لخيرية الأعمال الحسنة للكافر في الموازنة، و أن ذكر المفسرين الجنة هو من قبيل أظهر و أقوى و أمثل ما يراد من التأويل.

- الطبراني: (**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة) (٢)

* الثعلبي: (**قال** محمد بن الحنفية والحسن **رحمهما الله: هي مسجلة** للبر والفاجر في **دنياه**، وللبرِّ في آخرته) (٣)

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٤٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني. الهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧٢٤١). أنظر تفسير الماوردي = النكت والعيون (٥/ ٤٤٠). و هو قول البغوي في تفسيره - إحياء التراث (٤/ ٣٤٣). تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٢٣٢).

(٣) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٢٥/ ٣٦٩). تفسير القرطبي (١٧/ ١٨٣). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ٢٨٠). التفسير المظهري (٩/ ١٦٠). فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٧٠).

و معنى قولهما أن المحسن من الكفار يجازى على إحسانه إحسان في الدنيا فقط أما الآخرة فللبر فقط، و هذا فيه تسمية أعمالهم إحسان و تسمية مجازاتهم إحسان فيثبت في حقهم استتباع العمل الحسن الجزاء الحسن و هو محل الشاهد.

- الماوردي: (هَل جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ فيه أربعة أوجه:

أحدها: هل جزاء الطاعة إلا الثواب. الثاني: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة، قاله ابن زيد. الثالث: هل جزاء من شهد أن لا إله إلا الله إلا الجنة، قاله ابن عباس. الرابع: هل جزاء التوبة إلا المغفرة، قاله جعفر بن محمد الصادق. ويحتمل خامساً: هل جزاء إحسان الله عليكم إلا طاعتكم له.)[1]

الشاهد هو تعديد كثرة الاحتمالات التأويلية على حسب رؤية المفسر.

* الطوسي: (وعن ابن الحنفية انه قال: هل جزاء الاحسان إلا الاحسان هي مسجلة للبر والفاجر. يريد بمسجلها انها مرسلة.)[2]، و قال: (وقوله (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) معناه ليس جزاء من فعل الاعمال الحسنة وأنعم على غيره إلا أن ينعم عليه بالثواب ويحسن اليه.)[3]

* الجرجاني: (وعن محمد بن عليّ في قوله: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ قال: هي مسجّلة في البرّ

[1] تفسير الماوردي = النكت والعيون (٥/ ٤٤٠). تفسير السمعاني (٥/ ٣٣٦). اللباب في علوم الكتاب (١٨/ ٣٥٣).

[2] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (١/ ٣٢٧، بترقيم الشاملة آليا).

[3] نفسه (٩/ ٤٦٩).

والفاجر، يعني: يجزيها بإحسانها.) [1]

- السمعاني: (**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** معناه: هل جزاء الطاعة إلا الثواب.

ويقال:....

وقيل: الآية على الجملة، **ومعناها**: هل جزاء من أحسن إلا أن يحسن إليه[2]. **وعن** بعضهم: **أنه يحتمل أن معنى الآية**: هل جزاء إحسان الله إليكم إلا أن تحسنوا بالطاعة.) [3]

* الزمخشري: (**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ في العمل إِلَّا الْإِحْسانُ في الثواب. وعن** محمد بن الحنفية: **هي مسجلة** للبر والفاجر. **أي**: مرسلة، **يعني**: أنّ كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أسيء إليه.) [4]

- ابن عطية: (**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ آية، وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين** لأنها عامة. قال ابن المنكدر وابن زيد وجماعة من أهل العلم: هي للبر والفاجر. [5] **والمعنى أن جزاء من أحسن** بالطاعة **أن يحسن إليه بالتنعيم**.) [6]

---

[1] درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر (٢/ ٦١٠).

[2] غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني (ص: ٦٧). الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٣٧٨).

[3] تفسير السمعاني (٥/ ٣٣٦). تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ٢٦٩).

[4] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٤٥٣).

[5] نقله أطفيش و زاد: (وقال محمد بن الحنيفة وابن المتكدر وابن زيد: الآية غاية للكافر المؤمن إن أحسن الكافر أحسن اليه في الدنيا ويجازى المؤمن على احسانه في الدنيا والآخرة أو في الآخرة) هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (١٣/ ٤٢٥، بترقيم الشاملة آليا).

[6] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٣٤). و نقله بحرفه الثعالبي في تفسيره = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٥٥).

و قول ابن عطية بأنها عامة مع إيراده قول العلماء الذين قالوا أنها في البر و الفاجر تقوية و تدليل على عموميتها و كأن قولهم شاهدا له أو موافقة له بالتعميم.

- الطبرسي: (... عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: آية في كتاب الله مسجلة. قلت: ما هي. قال قول الله تعالى: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) جرت في الكافر والمؤمن، والبر والفاجر،....)[1]

- الرازي: (ولنذكر الأشهر منها والأقرب. أما الأشهر فوجوه...، وأما الأقرب[2] فإنه عام فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضا، ولنذكر تحقيق القول فيه وترجع الوجوه كلها إلى ذلك...

فنقول: يمكن حمل الإحسان في الموضعين على معنى متحد من المعنيين ويمكن حمله فيهما على معنيين مختلفين (أما الأول) فنقول: هل جزاء الإحسان أي هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن، لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو، بل الحسن هو ما استحسنه الله منه، فإن الفاسق ربما يكون الفسق في نظره حسنا وليس بحسن بل الحسن ما طلبه الله منه، كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتي به مما يطلبه العبد كما أتى العبد

---

[1] انظر تفسيره في برنامج الجامع التاريخي بالسورة و الآية.

[2] قال ابن عادل الحنبلي: (قال ابن الخطيب: والأقرب أنه عام، فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو أيضا.) اللباب في علوم الكتاب (١٨/ ٣٥٣). و قال الثعالبي: (قال الفخر... وأما الأقرب فهو التعميم، أي: لأن لفظ الآية عام، انتهى.) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٥٥).

بما يطلبه الله تعالى منه....

(وأما الثاني) فنقول: هل جزاء من أثبت الحسن في عمله في الدنيا إلا أن يثبت الله الحسن فيه وفي أحواله في الدارين...) [1]

و الشاهد من كلام الرازي هو إدخال صفة الحسن الشرعية بما يقتضيه شرع الله المنزل من العبد تجاه العمل و هذا بالطبع في ظل تفسيره الأقرب أن المعنى عام، فكل مكلف عمل عملا حسنا أي بما في كتاب الله من تحقيق شروط و انتفاء موانع يستلزم عليه الجزاء الحسن في الدارين أو على أقله في الدار الدنيا، أما بالنسبة للدارين ففي الآخرة أن يرى خيرية على عمله الحسن.

- النسفي: (هَلْ جَزَاء الإحسان في العمل إِلاَّ الإحسان في الثواب، و قيل:...) [2]

* الطيبي: (قوله: (مسجلة للبر والفاجر) أي مرسلة، يعني: مطلقة غير مقيدة، الجوهري عن الأصمعي: لم يشترط فيها بر دون فاجر، يقال: أسجلت الكلام، أي: أرسلته.) [3]

---

[1] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩/ ٣٧٧ - ٣٧٨). عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (١/ ٤١٢).

[2] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٤١٧). البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٧٠). تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٤٦٦). و هو اختيار أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ١٨٥)، و صاحب البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ٢٨٠). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٩٠٥، بترقيم الشاملة آليا). مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٤٧٩). تفسير المراغي (٢٧/ ١٢٦).

[3] فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٥/ ١٧٤).

- النيسابوري: (هل جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الجزاء. وخص ابن عباس فقال: هل جزاء من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا الجنة.) [1]

و الإفادة من كلام النيسابوري تتضمن ناحية أصولية فالآية عامة و يجب تأويلها لمن أراد أن تكون على العموم و من أراد تخصيصها فعليه الدليل المخصص.

- البقاعي: (هل جزاء الإحسان أي في العمل الكائن من الإنس أو الجن أو غيرهم إلا الإحسان أي في الثواب) [2]

- الأعقم: (هل جزاء الإِحسان هل جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلاَّ الإِحسان اليه بالثواب، وعن محمد بن الحنفية: هي مستحلة للبر والفاجر، أي مرسلة، أي كل من أحسن أحسن الله إليه وكل من أساء أساء إليه) [3]

* الألوسي: (وقوله تعالى: هَلْ جَزَاء استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب، وقيل: المراد ما جزاء التوحيد إلا الجنة... / ، واختير العموم ويدخل التوحيد دخولاً أولياً،....)[4]

---

[1] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٣٣).

[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/ ١٨٦). و بحرفه في السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ١٧٤).

[3] تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ١٩٠، بترقيم الشاملة آليا).

[4] روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٧/ ١٢٠ - ١٢١).

- القونجي: (ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كذا قال ابن زيد وغيره، ....

قال محمد بن الحنفية هي للبر والفاجر، البر في الآخرة، والفاجر في الدنيا. ...

وقال ابن عباس: هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنزل الله على هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم، (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي والبيهقي، وأخرجه ابن مردويه موقوفاً على ابن عباس) (١)

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٣٤٤).

الآية رقم ١٢

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف: ٢٩-٣١]

من الواضح الجلي و الظاهر البين أن الآيات تتمحور حول فريقين المؤمنين و الكافرين و مستقرهم في الآخرة بعد الحساب و الميزان، فالمؤمنين في الجنة و الكافرين في النار، و محل الشاهد هنا هو في بيان ما استحقوا عليه الجنة و هو الإيمان و العمل الصالح، و نخص بالذكر ما جاء في توصيف و متعلق العمل الصالح بأنه هو ما أحسنوا عمله و أن لهم عليه أجر لن يضيعه الله، فاعتبار محاسن أعمالهم و الأجر عليه مع الإيمان هو الذي أدخلهم الجنة، فالأعمال الحسنة هنا و الأعمال الصالحة تم اعتبارها مع الإيمان فقط في بيان جزاء و أجر الجنة، و لا يُفهم منه ضياع أجر من أحسن عملا من غير المؤمنين لأن مفهوم المخالفة هنا مقصور على نوعية الجزاء بدار القرار التي هي الجنة، فمن هذا الباب فمفهوم المخالفة صحيح و معتبر لأن الأدلة تثبته فهو لم يكن من مفهوم المخالفة فقط فهذا دليل غير معتبر و من أضعف الأدلة، و لكن الأدلة الأخرى تثبت للكافرين عذاب النار و ضياع محاسن أعمالهم إن وجدت فتم وصفها بالحبوط و الضلال و الإبطال و عدم منفعتها.

فذكر أجر إحسان العمل بعد ذكر الإيمان مع العمل الصالح يدخل الإيمان و العمل الصالح في المفهوم العام من إحسان العمل، فكأن الإيمان عمل حسن، و العمل الصالح عمل حسن، و لأن الحسنات هي مناط النجاة و استحقاق الأجر بالجنة و التنعم فيها فهي نهاية الوصف المعلق عليه الحساب و الميزان و الثواب و الأجر فحُق لها أن تَعُم، و الشاهد أن الإيمان و العمل الصالح سواء اقترنا أو افترقا فلن يضيع الله أجر ذلك، و أجر الإيمان مع العمل الصالح هو الجنة، و بانتفاء الإيمان يستوجب النار مع ثبات الأجر على العمل الصالح الذي يضيع مع سيئة الشرك و الكفر و النفاق لأنه لا يوجد عمل يدفعهم إلا الإيمان فقط و هو معدوم في حقهم، و نقصد بالإيمان الاستسلام العام بالوجه إلى الله ربا و إله و ملك و ما يلزم منه بعدم الشريك مع الله، و كذلك الإيمان بالآخرة و الغيب، أما الأعمال فقد يصاحبها إيمان مقيد بها دون الإيمان العام.

و لك أن تقول أن القاعدة العامة هي أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، و الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين أحسنوا الأعمال، و أجرهم جنات عدن، و من القواطع أن الدار الآخرة اثنان لا ثالث لهما إما جنة أو نار، و الجنة درجات و النار دركات، و من القواطع أن المشرك و الكافر و المنافق في دركات النار، و يكون لهم أجر على أعمالهم الحسنة و لكن لن يكون من ضمن صور أجورهم التنعم في الجنة أو دفع عذاب سيئة الشرك أو الكفر أو النفاق لأنه لا يوجد عمل (إيمان أو إسلام) يدافعهم، أما الأعمال الأخرى فالذي أحسنوا فيه يدافع الذي أساءوا فيه عن طريق الحسنات و السيئات التي تمثل وحدات الميزان.

و تنكير (عملا) ليعم كل عمل صالح و حسن، **فإذا تعين هذا العمل أو دخل فيه الإيمان مع الصالحات كان جزاؤه** جنات عدن على سبيل الحصر و القصر، **أما ما هو دون الإيمان كدين فيكون إيمان مقيد بالعمل فقط فهو و إن كان من الصالحات و من أحاسن الأعمال و لكن لا يستوجب الجنة بدون دين الإسلام و يرى خير هذه الأعمال و لو كانت مثقال ذرة، و التخفيف من الأعباء و التكاليف من باب الخير و يكون هذا المعنى أقوى و أشد في باب العذاب، فخفف قدر العذاب هو من الخير.**

- و كل مفسر ذكر وجه الترابط بين الآيات بحسن المقابلة لإظهار المفارقة ما بين حال المؤمنين و الكافرين في الجزاء، فهو يؤكد خصوصية الجزاء لخصوصية إنجاز فعل الشرط الذي هو الإيمان و العمل الصالح، **و لأنه أمر مقطوع به أن دار الجزاء إثنين لا ثالث لهما إما جنة أو نار، و كانت الجنة جزاء للذين آمنوا و عملوا الصالحات إذن النار ستكون جزاء للذين لم يؤمنوا و حتى لو عملوا الصالحات فلن يكون جزاؤهم الجنة.**

و من بلاغة القول أن نفي ضياع جزاء الأعمال الحسنة لا يناسب سياق وعد الذين آمنوا و عملوا الصالحات لأنهم على ثقة من الوعد و العدل و الفضل الإلهي، و هم لم يبدوا تخوف من ضياع جزاء عملهم بخلاف الذين كفروا أو شكوا في الآخرة و الجزاء فيها فهم على شك و كفر بالآخرة و مع ذلك وعدهم الله بأن من أحسن منهم عملا ما فله أجره و لن يضيعه الله عليه و لكن بلا طمع في دخول الجنة لأنه كافر بالله أو بالآخرة أو بكليهما، و يجب أن يتيقن في حال أن الآخرة كانت حق على خلاف زعمه فإنه في نار جهنم خالدا فيها.

و من بلاغة إقرار و إظهار الحق و العدل الإلهي أن عدم إضاعة أجر كل من أحسن عملا أيا ما كان هذا العمل و هذا العامل فهو على كل الخلق، و جزاء كل واحد سيتحدد على مدخلاته من الأعمال الصالحة و ما أحسنه من الأعمال، و سيكون المخرجات لهذه الأعمال مع حيادية اعتبار أجرها لا تعدو كونها إما جنة أو نارا، فمن دخل النار بعد هذا فلا يلومن إلا نفسه لأنه من تمام العدل و الإنصاف أنه جري عليه احتساب الأجر و نوعه كما جري على المؤمنين الداخلين الجنة.

و من أراد تخصيص إحسان الأعمال بالمؤمنين فقط فيكون على اعتبار تغليب دار الجزاء و القرار بأن نهايتهم في الجنة و ما عداهم في النار، لأن الأعمال التي تؤدي بصاحبها إلى يكون مستقرة في النار لا يجوز وصفها بالحسن العملي لأنها في مجملها كانت سببا للخلود في النار و إن تخللها الحسن لأبعاضها فضلت و حبطت بغيرها و ما زال مستقره النار خالدا فيها أيضا، أما المؤمن فكان حسن عمله أنه آمن و عمل الصالحات بمقتضى إيمانه، فهذا عمله الحسن الذي تولد عنه كل الصالحات من الأعمال.

و لأن دلالة التنكير و الإفراد لكلمة (عملا) تقتضي التعميم و الإطلاق لكل ما يصدق عليه وصف عمل و جواز وصفه بالحسن من عدمه فلا بد من اعتبار استقلالية الأعمال و الجزاء عليها و لا أشهد لهذا الأصل من قوله تعالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] فقد وصل حد الاستقلال للعمل من الصغر لأن يستقل بماهيته الوصفية و الجزائية لمثقال الذرة و يناط بأعم متعلقات التكليف بالصفة البشرية أو الجِنِّية، و هذه صفة مناطية أعم من كونه مؤمن أو غير مؤمن ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

- الوعد الذي يأتي بأسلوب نفي يُشعر بأن المخاطب عنده شكوك أو مخاوف أو إنكار، و ربما يكون لغرض الاستمالة، و هذه المعاني مستبعدة في حق الذين آمنوا و عملوا الصالحات الذين يأجرهم الله بجنات عدن، و لذلك نميل لأن يكون المقصود بقوله تعالى إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا بالمقام الأول هم غير المؤمنين على أصنافهم جميعا فيكون هذا الوعد عاما لكل المكلفين و ما يتضمنه يذهب لكل صنف على حده، فطيف معناه الذي فيه التقرير و التأكيد على العدل و تمام الحفظ للأعمال الحسنة يناسب غير المؤمنين و المؤمنين على حد سواء، و طيف البشارة ببيان الأجر المبهم بما أتى بعده من قوله تعالى فأولئك يناسب المؤمنين، و طيف الاستمالة المشوب بالإقناع يناسب غير المؤمنين، و طيف التطمين بأن أي عمل مهما كان فما دام أحسن عمله فهو محفوظ له أجره يناسب المؤمنين أكثر من غيرهم لأنهم قد يعتقدوا بأن صغار الأعمال قد لا تكون في موضع استحقاق الأجر عليها فيهونوا من أمرها و شأنها.

و معظم التأويلات لا تعلو بالمقام البلاغي بل تتدنى به و كل هذا بسبب محاولة قصر الأجر و وصف حسن العمل على المؤمنين فقط بجهتين بالظاهر لأنهم ذكروا أولا بقوله (إن الذين آمنوا..) و ثانيا لاستصحاب معنى حبط أعمال الكفار الحسنة، فانصبت جل محاولاتهم أن يكون الجملتين متطابقتين أي بين (إن الذين آمنوا) و (إنا لا نضيع) فكانت النتيجة أن الذين آمنوا هم الذين أحسنوا العمل، و هذا المعنى مقرر و مقصود بإدخاله دخولا أوليا في عموم الأجر للذين أحسنوا الأعمال و الدليل هو بيان نوعية و قدر هذا الأجر بجنات عدن، فكان يجب أن يكون التمييز هو في نوعية الأجر بجنات عدن و ليس بيان حقهم في أجرهم على ما أحسنوا من العمل لأنه جاء في أسلوب نفي تضييع فلا يناسب بلاغيا و مقاميا تصويرهم

للمسألة أن الكلام خاص بالذين آمنوا، و لذلك فمعظم تأويلاتهم و تقديراتهم بالتخريج النحوي لم تسلم من اعتراض بلاغي و معنوي يُتكلف له في التأويل

كمن جعل (إنا لا نضيع) خبر و من لوازم الخبر أن يضيف معنى يخص المبتدأ به إنشاء المعنى و التصور الإسنادي، فلما لم يجدوا رابط أو عائد يربط الجملتين قدروا له تقديرات، و منها تقدير (منهم) لكي يصبح القول (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم) ثم لم يسلم من اعتراض أن (منهم) ستحتاج لتقييد مترادفات دلالتها التي تعطيها فقد تكون تبعيضية، و بهذا الوجه سيتبعض الذين آمنوا و عملوا الصالحات إلى من أحسن عملا منهم و من لم يحسن عملا منهم، و من ثم ستكلف له تأويلا آخر ليجبر به هذا العوز البلاغي، فيقال أن الإحسان هنا معناه أعلى من معنى عمل الصالحات و هذا مقبول أن يتبعض فيه الذين آمنوا و عملوا الصالحات و لهذا استوجب لرد هذا الاعتراض أن يقال أن (من) في تقدير (منهم) بيانية و في هذا التقدير ما زلنا لو اعتبرنا إدخال معنى الإحسان (تعبد الله كأنك تراه) يُشعر بتبعيضية الذين آمنوا و عملوا الصالحات و ما زال التركيب المعنوي قلقا لأن صفة الإحسان غير متوفرة في كل أعمالهم.

و مع القول بخبرية (إنا لا نضيع) من جعلها من الظاهر الذي أتى مكان المضمر المفترض وروده في موضعه، و هو بهذا يعين المقصود بـ(من) في (من أحسن عملا) بأنهم هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و هنا يأتي اعتراض يقلق هذا التوجيه أن (عملا) جاءت نكرة فلا تناسب هذا القدر من التعيين بكون هذه الأعمال هي (الصالحات) فقالوا أن التنكير هنا للتعظيم، و هذا مجرد تأويل يمكن رده و استبدال غيره مكانه لأنه لم يأتي من اقتضاء دلالي منصوص أو

مذكور ن بمعنى أنه يمكن أن يقال أن التنكير هنا للتقليل و يكون له وجه بلاغي جيد جدا كما سيتضح بعد من الوجه المختار

و لكن ردوه بأن النكرة قد تعم في الإثبات، و لا ننكر هذا المعنى الدلالي بأن النكرة قد تعم في الإثبات بل هو ما نرجحه و لكن نفصله عن كون الظاهر جاء موضع المضمر لتعيين الذين آمنوا و عملوا الصالحات بـ (من) في (من أحسن عملا) و بقولنا لا نرد أي من هذه التأويلات بل ندمجها على وجه ينسبك مع السياق و يحافظ على تدفق المعاني بصورة بلاغية مقبولة، فنحن نقول بالعموم و التقليل و إدخال الذين آمنوا و عملوا الصالحات بلا قصر و حصر في (من أحسن عملا) و بهذا فكل ما تأولوه هو داخل بالقصد الأول، و بمعنى آخر لا ضير من التعميم بأن يدخل فيه من أحسن عملا من غير المؤمنين لأنه لا ينفي و لا يزاحم حتى الذين آمنوا بل يدل على تمام و كمال العدل و أن بعد تحققه يكون أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات هو جنات عدن، ثم يكون أجر غيرهم هو مستقر النار و الخلود فيها لأن أجور حسناتهم حبطت و ضلت في خضم كم السيئات و نوعها الذي هو الشرك و الكفر و النفاق.

و أوفق تأويل هو أن الرابط الذي يربط ما بين (إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات) و بين (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) هو العموم الذي في (من) و أن تكون (أولئك لهم جنات عدن) هي الخبر، و بهذا يكون (إنا لا نضيع) اعتراض يبين دخول الذين آمنوا في عموم أجر الإحسان على الأعمال و من ثم يأتي موضع بيان هذا الأجر و صفته بـ(أولئك لهم جنات عدن) و بهذا لم نحتج أي تأويل أو تقدير و أبقينا على الظاهر و ما يقتضيه النظم.

- كأن الكلام كالآتي: إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات، إذا كنا لا نضيع أجر من أحسن

عملا أيا كان قلته أو صغره أو تحقير عامله له أو نسيانه له، فما بالك بالذين آمنوا و عملوا الصالحات، أولئك لهم جنات عدن...، و الفصل بـ (إنا لا نضيع) كالتمهيد التشويقي لبيان أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات بقول (أولئك) فهي موضوعة لترسيخ العدل و التفضل و الجزاء العام للذين آمنوا و غير الذين آمنوا لإظهار أعلى معايير العدالة و الحفظ ثم لتميز فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات كان أجرهم جنات عدن بخلاف غيرهم ممن أحسن عملا فأجره لن يكون جنات عدن.

سنهتم بكل ما من شأنه إفادة الدلالة على عموم الفاعلين لمحاسن الأعمال و أن المؤمنين بعض الفاعلين بخصوصية تفاضلهم عن غيرهم بالإيمان، و كل من خص الفاعلين بالمؤمنين في سياق قصر و حصر الثواب بالجنة لأنه لا يلزم منه الجزاء على محاسن الأعمال التي بدون الإيمان للكفار و المشركين ما دام جزاؤهم لن يكون ثوابه الجنة أو دفع العذاب و الخلود في النار، و كذلك كل قول مفاده أن عدم ضياع أجر من أحسن عملا عاما و دخول المؤمنين فيه دخولا أوليا ثم يتخصصوا فقط بنوعية الإثابة المقابل لخصوصية العمل الذي هو الإيمان.

و القصد أن كل مفسر لم يذكر غير عمل و جزاء المؤمنين فقط فإنه أختار أقوى و أظهر الأمثلة و المصاديق لمن أحسنوا العمل لكي يتمشى مع حسن الثواب بالجنة، أما إذا نظرنا أن الوعد بعدم إضاعة أجر من أحسن عملا عام و مطلق، و قد جاء في سياق الذين آمنوا و عملوا الصالحات و نوعية ثوابهم و أجرهم فلن نقول أن الوعد خاص بالذين آمنوا فقط بل الوصف لأعمالهم و الأجر عليها هو الخاص بهم فقط، و يبقى عموم الوعد على ما عليه، فننظر لغير المؤمنين على نوعية الجزاء و الأجر في ظل خلودهم في النار كدار مصير و قرار لهم.

- الأخفش: (لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً كان في معنى: لاَ نُضيعُ أُجُورَهُم لأنهم ممن أَحْسَنَ عملا.) [1]

و ما قال به الأخفش من دلالة النظم على ما تقتضيه أصول اللسان هو نفسه ما أشرنا إليه أن قوله تعالى لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً قاعدة عامة يدخل فيها المؤمنون و غيرهم و القرينة من كلام الأخفش من قوله (ممن) بالإضافة لإفادة الترتب السببي الذي يفيد العموم أيضا، فمن أحسن عملا لا نضيع أجره كائنا من كان، و من يعترض عليه الدليل القاطع بأن غير المؤمنين لا يثبت لهم صفة حسن الأعمال أو الجزاء الحسن (الخير)، و لا داع لأن نكرر التنبيه أننا نقصر صفات الحسن و الصلاح على الأعمال التي هي دون التوحيد و الإيمان العام و إلا لدخلوا في زمرة المؤمنين و لا يوجد ما يستدعي معالجة أعمالهم بشيء من الخصوصية.

فالفائدة من قول الأخفش تتمثل في تقرير جواز تعلق صفة حسن العمل من غير المؤمنين، لأنه لو الأمر قاصر على المؤمنين فقط لما ساغ استعمال هذا النظم للتعبير عن دلالته بهذه الصورة (لأنهم ممن أحسن عملا) لأنه لو يريد إفادة القصر و الحصر كان من الممكن قول (لأنهم الذين أحسنوا عملا) أو (لأنهم أحسنوا عملا) أما إضافة (ممن) تشعر و بقوة الجواز لغيرهم أن يلتحق بصفة حسن الأعمال، أما فائدة القصر و الحصر تأتي من قوله تعالى في شأن نوعية الأجر و هو جنة الثواب أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ فمعنى الحصر يأتي من استعمال (أولئك) لأنهم جمعوا صفات الاستحقاق الإيمان و العمل الصالح فأحسنوا العمل فقصر عليهم الجنة دون سائر من أحسن عملا من غيرهم على اختلاف مراتبهم تبعا لنوع و كم هذه الأعمال.

---

[1] معاني القرآن للأخفش (٢/ ٤٣٠).

- الطبري: (: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، إنا لا نضيع ثواب من أحسن عملا فأطاع الله، واتبع أمره ونهيه، بل نجازيه بطاعته وعمله الحسن جنات عدن تجري من تحتها الأنهار.

فإن قال قائل: وأين خَبَر إن الأولى؟ قيل: جائز أن يكون خبرها قوله: إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا فيكون معنى الكلام: إنا لا نضيع أجر من عمل صالحا، فترك الكلام الأوّل، واعتمد على الثاني بنية التكرير...

وجائز أن يكون: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا جزاء، فيكون معنى الكلام: إن من عمل صالحا فإنا لا نضيع أجره، فتضمر الفاء في قوله إنا، وجائز أن يكون خبرها: أولئك لهم جنات عدن، فيكون معنى الكلام: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك لهم جنات عدن.) [1]

و على تقديرات الصنعة الإعرابية و النحوية كما جاءت عند الفراء و ابن جرير الطبري فتقديراتهم للخبر أو التركيب المقدر لا يخرج عن المعنى الذي قُدر و هو أن الأجر على حسن الأعمال عام و يُخص منه نوعية الأجر فالذي هو جنة عدن لا يكون إلا للذين آمنوا و عملوا الصالحات، أما بدون الإيمان فلن يكون الجنة أبدا هي الأجر، و عليه يكون الأجر خارج نطاق التنعم بالجنة أو دفع العذاب بالكلية بحيث يكون خارج النار، فلا يبقى إلا تخفيف قدر العذاب و هو من الخير.

فقد لاحظنا أن الطبري لا يخرج عن التركيب القرآني الدال على العموم و الشرطية المدلول عليها بـ (من) فقال أكثر من مرة بتراكيب متنوعة: (إنا لا نضيع ثواب من أحسن عملا) و (إنا

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ١٦).

لا نضيع أجر من عمل صالحا) و (إن من عمل صالحا فإنا لا نضيع أجره)، و تجويزه أن يكون الخبر أولئك لهم جنات عدن من أظهر القرائن على صدق دعوانا لأنه في هذه الحال جعل إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا كلاما معترضا بين المبتدأ و الخبر الذي تتم به الجملة و اقتضاء دلالة الكلام.

و سنلحق بتفسير الطبري كل تفسير يكون مفاده تسلط المعنى القرآني على تعبير المفسر لدلالة العموم، و كذلك التجويزات النحوية المؤدية لنفس الدلالة العامة هنا لكي لا نطيل النقول.[1]

- الزجاج: (خبر (إِنَّ) هنا على ثلاثة أوجه:

فأحدها أن يكون على إضمار إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً منهم ، ولم يحتج إلى ذكر منهم لأن الله تعالى قد أعلمنا أنه يحبط عمل غير المؤمنين[2]، قال عزَّ وجلَّ: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

ويجوز أن يكون خبر (إِنَّ): أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ويكون قوله: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا قَدْ فُصِلَ به بين الاسم وخَبَرِه، لأن فيه ذكر ما في الأول، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا.[3]

---

[1] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني قال: (أي لا يبطل ثواب من أخلص لله). تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٣٤٥) قال: (، أي لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة). زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٨٢) قال: (قال المفسرون: ومعنى لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أي: لا نترك أعماله تذهب ضَياعاً، بل نُجازيه عليها بالثواب.).

[2] عبر عنها الواحدي بقوله: (فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فإن الله يحبط عمله.) التفسير البسيط (١٣/ ٦١١).

[3] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٧/ ١٢٦) فكان اختياره أن قوله تعالى إنا لا نضيع هو (كلام معترض). و كذلك البغوي قال: (وأما قوله: إنا لا نضيع فكلام معترض.) تفسير البغوي - إحياء

وَوَجْهُ ثالث، أنْ يكون الخبر إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا في معنى إنا لا نضيع أجرهم، لأن ذكر مَنْ كذكر الذي، وذكر حُسْنِ العَمَل كذِكْرِ الإيمان. فيكون كقولك: إن الذين يعملون الصالحات إن الله لا يضيع أجر من آمن، فهو كقولك إن اللهَّ لا يضيع أجرهم.) [1]

التراث (٣/ ١٩١). و كذلك الزمخشري فقال: (أولئك خبر إن و إِنَّا لاَ نُضِيعُ اعتراض) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٢٠). و ابن عطية قال: (اعتراض مؤكد للمعنى، مذكر بأفضال الله، منبه على حسن جزائه) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥١٤). و هو اختيار الرازي: (أولئك خبر إن وإنا لا نضيع اعتراض) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٤٦٠). و ابن جزي: (أُولئِكَ لَهُمْ خبر إن، وإنا لا نضيع: اعتراض) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٦٥). و الخازن: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا كلام معترض) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ١٦٣). و أبو حيان: (وقوله إنّا لا نضيع الجملة اعتراض) البحر المحيط في التفسير (٧/ ١٧٠). النيسابوري: (إِنَّا لا نُضِيعُ اعتراضا فظاهر) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٤٢٩). و مجير الدين الحنبلي: (إِنَّا لَا نُضِيعُ فكلام معترض) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٤/ ١٧٢). و الشوكاني: (جملة إنا لا نضيع اعتراضا) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٣٥). و الألوسي: (ولعل الأولى كون الخبر جملة قوله تعالى: أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وجملة أَنَاْ [الكهف: ٣٠] الخ معترضة) روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٢٦٩).

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢٨٣). بنحوه في تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ١٦٨). بنحوه في الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٧٤). نقل كلام الزجاج الواحدي في التفسير البسيط (١٣/ ٦١١) و رجحه و نسبه أيضا لأبي علي فقال: (والقول ما ذكره أبو إسحاق وأبو علي). غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٥٩). نقل كلام الزجاج ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٨٢). التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٨٤٥ – ٨٤٦) العكبري. الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٧١ – ٢٧٢). تفسير القرطبي (١٠/ ٣٩٥). تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٨٠). تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٢٩٩). البحر المحيط في التفسير (٧/ ١٧٠). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ٤٨٠ – ٤٨١). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٢/

و الذي استدعى العلماء لتقدير و تعيين خبر (إن) لأن الكلام لم يتم معناه فقولنا (إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات) يحتاج إضافة معنى لكي يحسن السكوت عليه فيؤدي المعنى كامل لا يفتقر لآخر، كأن الذي يسمع يقول: ما لهم؟ فإما أن يقول المتكلم: إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا منهم، و كأن (منهم) أضمرت في الكلام بدلالة خارجية آتية من قوله تعالى (أولئك لهم جنات عدن) و آتية من مفاهيم و مناطيق أخرى أن الكفار سيحبط الله أعمالهم و يضلها و يبطلها فتكون هباء منثورا فلا تجدي نفعا كما وضعه الله لها مع الإيمان و لا تستحق بها أجرا في النعيم، و أيضا من قول الله تعالى كما ذكره الزجاج وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا لأنه فيه إثبات الأجر العظيم للذين آمنوا و عملوا الصالحات

و النكتة البلاغية هنا أن الآية قد جاءت في تركيب باستعمال النفي فهو عام و لذلك لم يحتاج لإظهار (منهم) لكي تبقى على عموم النفي فيدخل فيها الذين آمنوا و غيرهم ممن يجوز عليه عمل الصالحات أو إحسان العمل، فكأن المعنى أنه لا يظلم أحدا في أجره على عمله الحسن سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن، و لكن الأجور تتناسب مع الأعمال كيفا و كما فليس كل من أحسن عملا يكون له نفس الأجر، و لذلك قد جاء الخبر (أولئك لهم جنات عدن) أي الذين آمنوا و عملوا الصالحات أجرهم هو جنات عدن، فلا تكون هذه الجنة (الأجر) إلا لمن آمن و عمل الصالحات، و ما يقوي هذا التأويل هو الاحتمال الثالث في تقدير الخبر بكونه إِنَّا لَا نُضِيعُ

٤٣٧). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٢٠). حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٦/ ٩٧).

أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا فيقول الزجاج: (لأن ذكر مَنْ كذكر الذي، وذكر حُسْنِ العَمَل كذِكْرِ الإيمان) و كأن معنى الكلام: (إنا لا نضيع أجرهم) لأنهم أول و أولى من يدخل في هذا العموم و من ثم يأتي دور تعيين هذا الأجر بجنات عدن.

و بعض العلماء الذين يرجحون أن يكون الخبر (إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً) بتقدير حذف (منهم) فيظهرونها عند التعبير عن المعنى المقدر بقولهم: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً منهم) و هذا يدل على مرجوحية هذا التأويل فإنه عدول عن النظم بتقدير ما لم يذكر و ترك لزوم الظاهر منه، فالأولى أن يكون الخبر هو (أولئك لهم جنات عدن) و يكون (إنا) كلاما معترضا لتقرير العدل و نفي الظلم و تمهيد لبيان نوع الثواب و الأجر على إيمانهم و عملهم الصالح، و لتقرير معنى القصر و الحصر للذين آمنوا و عملوا الصالحات على جنات عدن دون غيرهم ممن أحسنوا عملا.

و يصح منهم استعمال حبط أعمال غير المؤمنين لو كانت الآية إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً فيها نفي الأجر عن غيرهم بقصره عليهم، أو نفي وصف حسن العمل أو صلاحه من غيرهم، و لكن الآية جاءت مقررة عمومية نفي تضييع الأجر على من أحسن عملا، و أما معنى الحبط لأعمال غير المؤمنين هو أنه لن يبقى لهم حسنة في موضع الجزاء و الأجر من غير ظلم أو بخس، لأنها استهلكت في الحساب و الميزان، إذن المعنى مختلف بين الموضعين من جهة و متفق من جهة على اعتبارات مختلفة:

فإذا اعتبرنا نفي الأجر عن غير المؤمنين فيكون معناه أنهم ليس لهم حسنة باقية كي يؤجروا عليها فيستقيم نفي الأجر عنهم في هذه الحال مطلقا، أما إذا اعتبرنا الأجر عام و خاص، و

الخاص منه جنات عدن فيكون نفي الأجر عنهم بمعناه الخاص و لا يلزم منه نفيه عنهم بمعناه العام لتعدد صوره، و يكون معنى الأجر الثابت لهم هو تأثير أعمالهم الحسنة في حسابهم و ميزانهم بما يرونه خيرا لهم، و لا شك أن تقليل قدر العذاب و شدته باحتساب الحسنات هو من الخير.

و قد أوضحنا مثل هذه التقديرات لخبر إِنَّ من قبل، و لكن نضيف أنهم قدروا محذوفا بمعنى افترضوا محذوفا لأنه غير منصوص عليه ذكرا في الآية، أي أثبتوا أولا و هو كلمة (منهم) ثم حُذف لأجل معنى قد عينوه و هو أن نفي ضياع أجر المؤمنين مفروغ منه، و هذا لا يبرر قصر معنى نفي ضياع أجر من أحسن عملا، و كل ما يعطيه من معنى هو إثبات عدم ضياع أجر إحسان الأعمال للمؤمنين و هذا القدر من الدلالة هو من لازم معنى الآية لأنها عامة و أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات هم من مصاديق (مَن) لأنها من ألفاظ العموم، فلا فائدة جديدة من إقرارهم هذه الإضافة.

أما قولهم (فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فإن الله يحبط عمله) ليس في الآية ما يدل عليه أو حتى يشير إليه، و ليس في قولهم (لأنه معلوم أن الله إنما لا يضيع أجر من أحسن عملاً من المؤمنين) ما يفيد نفيه عن غير المؤمنين إلا من قال بحجية مفهوم المخالفة و هو من أضعف المفاهيم و الحجج، علاوة على أنهم بهذا المفهوم المخالف لا يستقيم لتغاير الحكم المقرر في الآية و هو نفي ضياع الأجر، فيكون معنى كلامهم أن الله يضيع أجر من أحسن عملا من غير المؤمنين، و هذا معنى غير مقصود إطلاقا و لا يصح لأنه مشوب بمعنى الظلم لتعمد تضييع أجر من أحسن عملا، خاصة أنه لا ذكر لقصر أو حصر نفي الضياع للمؤمنين فقط.

- الماتريدي: (أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، ثم بين ما لهم فقال: (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ...) إلى آخر ما ذكر.)[1]

قوله: (ثم بين ما لهم) وهذا البيان هو بيت القصيد ففيه تعيين و تخصيص نوعية الأجر و الثواب على أعمالهم فيكون التخصيص لنوعية الأجر لا لمطلق الأجر على حسن العمل فلتتنبه.

- الراغب الأصفهاني: (والاعتراضُ بين المتصلين من الجملة بما فيه تحقيق لمقتضاها، **أو رد لها؛** من بلاغاتِ كلامهم، وعلى ذلك قوله: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ** فقوله: **إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** فصل بين اسم إن وخبره،

---

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ١٦٨). تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني: قال: (ثم ذكر جزاءهم). تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٣٤٥) قال: (ثم بين ثوابهم). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٧/ ١٢٦ – ١٢٧) قال: (ثم ذكر الجزاء فقال: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ). التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ١٤٧) فقال: (ثم ذكر ما وعد المؤمنين). و الزمخشري قال: (أو تجعل أولئك كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٢٠). و الرازي: (ولك أن تجعل أولئك كلاما مستأنفا بيانا للأجر المبهم) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٤٦١). و قول المنجب الهمذاني: (يجوز أن يكون كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٧٢). و اختار النسفي: (كلام مستأنف بيان للأجر المبهم) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٢٩٩). و أبو حيان: (استئناف إخبار موضح لما أنبهم في قوله إنّا لا نضيع من مبهم الجزاء.) البحر المحيط في التفسير (٧/ ١٧٠). و النيسابوري: (أو كلاما مستأنفا للأجر أو بيانا لمبهم) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٤٢٩). و القونوي: (استئناف بياني) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٢/ ٧٥).

لتحقيق مقتضى الكلام.) (١)

و ما يقوله الراغب الأصفهاني هو تدليل على أن إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ليست خبرا لـ (إن) الأولى التي في إن الذين آمنوا بل هي مستقلة في الأداء المعنوي و الدلالي التي تؤديه في السياق، فهي تحقق معنى العدالة العامة و حفظ الحقوق لمن أحسنوا عملا، أيا ما كان العامل و أيا ما كان العمل ما دام على شرع الله و خالصا له، و في بيان هذا الصدد يقول الراغب: (والاعتراضُ بين المتصلين من الجملة بما فيه تحقيق لمقتضاها من بلاغاتِ كلامهم) أي هي من البلاغة و من مقتضيات الكلام عند العرب، أي أن هذه الجملة الاعتراضية لفائدة دلالية معينة قد اقتضاها بلاغة النظم القرآني.

- الكرماني: (الغريب: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا هم الذين آمنوا، فكان الظاهر وقع موقع المضمر.)(٢)

- الزمخشري: (أولئك خبر إن و إِنَّا لاَ نُضِيعُ اعتراض، ولك أن تجعل إِنَّا لاَ نُضِيعُ و أولئك خبرين معاً (٣). أو تجعل أولئك كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

فإن قلت: إذا جعلت إِنَّا لاَ نُضِيعُ خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٦٤٢). تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥١٤). و الأعقم: (ثم بيّن ذلك الأجر) تفسير الأعقم - زيدي (١/ ٣٨٣، بترقيم الشاملة آليا). الشوكاني: (وجملة أولئك لهم جنات عدن استئناف لبيان الأجر) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٣٥).

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٥٩). و انظر إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٥١٩).

(٣) و هو اختيار الألوسي حيث قال: (ويحتمل أن تكون خبراً بعد خبر على مذهب من لا يشترط في تعدد الأخبار كونها في معنى خبر واحد وهو الحق) روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٢٦٩).

قلت: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً و الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ينتظمهما معنى واحد، فقام: مَنْ أَحْسَنَ مقام الضمير. أو أردت: من أحسن عملا منهم) (١)

اختيار الزمخشري أن إِنَّا لاَ نُضِيعُ اعتراض، و الفائدة الأخرى من كلامه جعله الآية التالية أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ بيانا للأجر المبهم، و هذا ما عنيناه بأن هذا البيان يجعل من نوعية هذا الأجر (جنات عدن) خاص بالذين آمنوا دون غيرهم ممن أحسنوا عملا، و أن إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا جاءت مؤكدة للعدل و الحفظ و أن الأجور الخاصة بالذين آمنوا و عملوا الصالحات هي جنات عدن، و هي محرمة على الذين كفروا أو أشركوا بها دلت عليه الآيات الأخرى، فيكون أجر الجنة هو بيان لأجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات و هو خاص بهم لا يشركهم فيها أحد غيرهم مما اشتركوا معهم في الأعمال الحسنة و الصالحة دون الإيمان.

و عند تأويله لكي يستدل على جواز أن يكون إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا خبر أو متمم للكلام لكي يكتمل المعنى فيعود على المبتدأ بخبر، فجعل (مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً و الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ينتظمهما معنى واحد، فقام: مَنْ أَحْسَنَ مقام الضمير) و الشاهد من كلامه أنه جعل الإيمان مع العمل الصالح مواز لمن أحسن عملا في المعنى و الدلالة و بذلك قام مقام الضمير قول (من أحسن) و بهذا فهو يؤكد نفس الرؤية أن إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا معناها عام و مطلق و أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات أحد مصادقيها و أولى تمثلاتها في الوجود و الأعيان، و هذا لا يلزم منه أي تخصيص أو قصر أو حصر أو تقييد بل هو معنى شرطي مطلق لكل من أحسن عملا.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٢٠).

- الرازي: (المسألة الأولى: **قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان لأن العطف يوجب** المغايرة. ...

المسألة الثالثة:... قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ... كرر **إن** تأكيدا للأعمال والجزاء عليها.) [1]

و نكتة المغايرة بحرف العطف (و) ما بين الإيمان و الأعمال الصالحة يعزز قضية مغايرة الأجر على كل من الإيمان و الأعمال الصالحة، فالإيمان مع الأعمال الصالحة يؤجر صاحبهما بجنات عدن، و من عمل الصالحات دون الإيمان فله أجر و لكن لا يكون جنات عدن، و أبهمه الله هنا و عوض عنه بتفصيل و بيان أجر الذين آمنوا لأن أي أجر دون ذلك لا ينفع صاحبه إذا لم يكن من أهل الجنة.

و الفائدة الثانية أنه جعل تكرار (إن) للتأكيد على الأعمال و الجزاء عليها و التأكيد يكون على القدر العام و المشترك ما بين الذين أحسنوا عملا ثم يلحقهم التغاير في الجزاء على الأعمال، فالتأكيد لا يعطي دلالة القصر أو التخصيص و هذا معلوم، و الفائدة الثالثة أنه رجح كون الخبر (أولئك) و جعل (إنا لا نضيع) اعتراض للتأكيد.

❊ العكبري: (**إن الذين آمنوا: في خبر إن ثلاثة أوجه ; أحدها: «أولئك لهم جنات عدن» وما بينهما** معترض مسدد. **والثاني: تقديره: لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، فحذف العائد للعلم به.**

---

[1] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٤٦٠ – ٤٦١).

والثالث: أن قوله تعالى: من أحسن: عام، فيدخل فيه الذين آمنوا وعملوا/ الصالحات، ويغني ذلك عن ضمير كما أغنى دخول زيد تحت الرجل في باب نعم عن ضمير - يعود عليه. وعلى هذين الوجهين قد جعل خبر «إن» الجملة التي فيها إن.) [(١)]

و قد صرح أبو البقاء العكبري موضحا غياب ذكر الضمير العائد على الذين آمنوا في (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) لأجل العموم الذي يفيده الموضع و الصيغة الدالة عليه بـ (مَن) في (من أحسن) فيدخل فيه الذين آمنوا دخولا أوليا بدلالة سابقة للعلم به المتحصل بكثير من الآيات الأخرى، و من الآية التالية مباشرة التي عينت نوعية الأجر و صفته بـ (أولئك لهم جنات عدن) أي دلالة سياقية عامة و خاصة.

- المنتجب الهمذاني: (قامَ وَمَنْ أَحْسَنَ مقام الراجع وأغنى عنه لعمومه، كما أغنى دخول زيد تحت الرجل في باب (نِعْمَ) عن راجع يعود عليه لذلك.) [(٢)]

---

(١) التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٨٤٥ - ٨٤٦). الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٧١ - ٢٧٢).

(٢) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٧١ - ٢٧٢). تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٨٠) فقال: (أو مستغنى عنه بعموم من أحسن عملا). تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٦٥) فقال: (ويقوم العموم في قوله: من أحسن مقام الضمير الرابط). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ٤٨١) قال: (ويجوز أن يكونَ الرابطُ العمومَ). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٤٢٩) قال: (فمعنى العموم في مَنْ أَحْسَنَ يقوم مقام الرابط المحذوف). و الشهاب قال كأحد الأقوال: (أو الرابط من أمّا لأنه عامّ شامل...، والرابط عموم الرجل وهو قول فيه.) حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٦/ ٩٧). و أطفيش: (وإن أريد بالأول الخصوص، وبالثاني العموم، كان الرابط العموم) كأحد التخريجات، تفسير أطفيش - إباضي (٥/ ٣٦١، بترقيم الشاملة آليا).

- ابن التمجيد: (والراجع محذوف، ولفظ الظاهر فاعل واقع أو واقع موقع الراجع الاسم الظاهر وهو (من) في قوله (أجر من [أحسن عملا)] والمقام يقتضي بحسب ظاهره أن يقال أجرهم لكن وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن عملهم أحسن فاستغنى به عن الراجع لأنهم هم في المعنى فبالوصل المعنوي استغني عن الوصل الصوري.) (١)

و خلاصة تأويل ابن التمجيد أنه من قوة التماثل المعنوي ما بين الذين أحسنوا عملا، و بين الذين آمنوا و عملوا الصالحات قد قام المظهر (الذين آمنوا و عملوا الصالحات) مقام الضمير المضمر (هم) في تقديرهم (أجرهم) فكان تقدير الكلام (إنا لا نضيع أجرهم) أو (إنا لا نضيع أجر من أحسن منهم) أو (إنا لا نضيع أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات) و رغم هذا فإنه لا يفيد التخصيص بالمؤمنين فقط بل لكون أن عمل المؤمنين (أحسن) و هذا بطبيعة الحال لأنهم أصدق و أحق لوصف عملهم و فاعليتهم لهذه الأعمال، و لكن لا يبرر عدم ذكر الراجع إلا الدلالة على التعميم.

- البقاعي: (فكأنه قيل: فما لمن آمن؟ فقال تعالى: إن الذين ءامنوا ولما كان الإيمان هو الإذعان للأوامر، عطف عليه ما يحقق ذلك فقال تعالى: وعملوا الصالحات) (٢)

---

(١) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٢/ ٧٤).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ٥٤). نفسه السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٣٧٤).

الفائدة من كلام البقاعي أنه بين ما المقصود بالإيمان فجعله هو الإذعان للأوامر أي عقد القلب على تلقي أوامر الله بالامتثال على الدوام فكلما جد له أمر أو نهي بادر من فوره على امتثاله بالعمل بتسليم الوجه لله، و هذا هو الفارق الأساسي ما بين المؤمن و الكافر، فالكافر الذي يحسن عملا يكون مقيدا بهذا العمل على ما يقتضيه عادته أو دين آبائه أو عقله الذي يصرفه عن الإيمان القلبي بالغيب، فهو يؤمن فقط بما يراه على ما يقتضيه دينه الذي هو ضد الاستسلام لله، فالكافر الذي يخلص لله الدعاء يكون في مواقف معاينة الموت و العذاب فقط، و الكافر الذي يذبح لله مخلصا يكون في مواضع محددة ثم يشرك في سائرها، و إذا حج أو اعتمر لله فيما يقلد به الأسلاف من بقايا الدين فيخلط فيه الشرك بالله و هكذا، فالإيمان الذي يقع منه يكون مقيدا بالعمل المعين فقط، أو يستحضر الإيمان أثناء العمل فقط لأجل المنفعة المتوقعة منه.

- أبو السعود: (إن الذين آمنوا في محل التعليل للحث على الإيمان المنفهم من التخيير كأنه قيل والذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للإيذان بكمال تنافي مآلي الفريقين....) [1]

و ما أظهره أبو السعود نكتة بلاغية سياقية المولد قد استحضرها من التخيير لكي يمهد للحث على الإيمان و من ثم لإظهار التنافي بين مآلي الفريقين و هذا ما أشرنا عليه مرارا أن كل محاولات نزع دلالة العموم هي من أجل التدفق الدلالي لمآل الذين آمنوا و عملوا الصالحات

[1] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٢٠). روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٢٦٩).

بجنات عدن، هذا أولا و ثانيا لأجل معنى حبط أعمال الكفار في الآخرة، و لكن لو أدخلنا التشقيق الدلالي المتعلق بنوعية الأجر لحسن التخلص من هذا الإشكال، لأن الأجر مبهم و هذا متفق عليه، و بيان هذا الإبهام هو جنات عدن، إذن الأجر يحتمل متعلقه لأكثر من صورة فقد تكون الجنة و هذا مقصور على الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و قد يكون ما هو دون ذلك فلا ينافي تعلقه بغير المؤمنين كجزاء على أعمالهم الحسنة و الصالحة، خاصة لو أضفنا بعد آخر كالدنيا و الآخرة و ما فيهما من مواضع.

- الشهاب الخفاجي: (قوله: (خبر إنّ الأولى هي الثانية الخ) ولما خلت من العائد تذره بما ذكر أو الرابط من أمّا لأنه عامّ شامل لاسم أنّ الأولى لتعريف الأعمال/ الصالحة في صلة الأول وتنكير عملا هنا وهذا بالنظر إلى الظاهر،... ولا يرد على الأوّل أنه يقتضي أن منهم من يحسن العمل ومن لا يحسنه لأنه إنما يرد لو كانت من تبعيضية، وليس بمتعين لجواز كونها بيانية، ولو سلم فلا بأس فيه فإنّ الإحسان زيادة الإخلاص...، وأمّا كونه مشروطا بحسن الخاتمة فلا وجه له هنا،....

قوله: (فإنّ من أحسن عملاً على الحقيقة الخ) لا يأباه تنكير عملا بناء على أنه للتقليل لعدم تعينه فيه إذ النكرة قد تعم في الإثبات ومقام المدح شاهد صدق، وأمّا كون التنوين للتعظيم فلا يجدي هنا مع أنه يرد على ما قبله لأنه لا يعم حينئذ إلا بتأويل وأما كون من أحسن عملا ولم يعمل الصالحات لا يعد ممن أحسن عملاً في العرف....

قوله: (من الأولى للابتداء الخ) هذا هو الظاهر، وقيل إنها بيانية، وقيل تبعيضية، وقيل زائدة في المفعول وعلى ما قبله المفعول محذوف أو الفعل منزل منزلة اللازم بالنظر للثاني، وفي من الثانية أيضاً وجوه أخر) [١]

نستفيد من كلام الخفاجي أن ظاهر المعنى يقتضي أن (من) تفيد العموم و الشمول و لذلك يبرروا غياب وجود راجع يرجع على الذين آمنوا، و هذا كما سبق يدل على أن صفة حسن الأعمال عامة يدخل تحتها المؤمن و غير المؤمن، و من القرائن المقوية لهذا التأويل أنهم لما قدروا (منهم) لزمهم أن تكون (من) تبعيضية على ظاهر معناها و دلالتها، فيكون بعض المؤمنين قد أحسن و بعضهم لم يحسن، و هذا المعنى صحيح في حال عدم تقدير راجع للمؤمنين فإنهم لو تركوا ظاهر التعميم و الشمول كما هو لصدق هذا التقدير في حال كونه يفيد التبعيض، لأنها حينها سيكون بعض الذين أحسنوا من المؤمنين و البعض الآخر من غير المؤمنين.

و من ثم هناك قرينة أخرى و هي تنكير (عملا) في حال يكون معناه التعميم أيضا كما قال (النكرة قد تعم في الإثبات) فنستفيد التعميم هنا بهذا التأويل لأن يعم وصف العمل لكلا الفريقين المؤمنين و غير المؤمنين، و قد جعل مقام المدح قرينة على تقوية إرادة معنى التعميم من تنكير (عملا) و المدح صادق في جميع أحوال الفاعلين (مؤمنين و غير مؤمنين)، ثم ننتقل لتأويل احتمالي آخر يدعم معنى التعميم ألا و هو المغايرة بين العمل الصالح و العمل الحسن

---

[١] حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٦/ ٩٧). روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٢٦٩). تفسير أطفيش – إباضي (٥/ ٣٦١، بترقيم الشاملة آليا).

الذي نستغله في إبراز التفريق بين المؤمنين و غير المؤمنين، فيوصف عمل المؤمن بالصالح لمقرونيته بالإيمان العام و الجزاء بالجنة فهو أخص من الحسن من هذه الجهة، و نترك وصف الحسن للكل فيعم المؤمن و غير المؤمن، و بهذا فوصف الصلاح كان مع المؤمنين و كذلك الجنة مع المؤمنين و هذه قرائن تخصيص للمؤمنين.

- القونوي: (قوله: (أو مستغنى عنه بعموم من أحسن عملا كما هو مستغنى عنه في قولك: نعم الرجل زيد) أي على قول وهو كون زيد مبتدأ ونعم الرجل خبره فهو جملة والعائد إلى زيد عموم الرجل له فكذا هنا لأن (من أحسن عملا) عام للذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب المفهوم وإن كان عينه باعتبار ما صدق.

قوله: ([أو واقع موقعه الظاهر فإن من أحسن عملا لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات]) أو واقع موقع الظاهر بناء على أن من أحسن عملا عين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب [ما صدق] كما بينه بقوله فإن من أحسن عملا لا يحسن إطلاقه الخ. ولذا رجحنا كون من في منهم على الاحتمال الأول

للبيان، وأما كونه عاما للمبتدأ وغيره فباعتبار المفهوم كما عرفته فلا منافاة بينهما لكن إسقاط احتمال العموم من البين أولى.

/ قوله: (أولئك لهم) الآية. أي خبر أن الأولى أولئك لهم جنات عدن فترك الفاء لما ذكرناه آنفا.

قوله: (وما بينهما اعتراض) فائدته مزيد تقرير إعطاء الأجر لهم.

قوله: (وعلى الأول استئناف لبيان الأجر أو خبر ثان) وعلى الأول أي كون خبره إن الثانية استئناف بياني.) [1]

قول القونوي بأن العموم في قوله (من أحسن عملا) بحسب المفهوم أي في نطاق دلالة المفهوم من العموم فإن الذين آمنوا و عملوا الصالحات أحد الذين أحسنوا عملا، ثم نراه باعتبار خصوصية الجزاء و بيانه بعد إبهامه هنا في مقام التعميم بقوله لاحقا (أولئك) قد اقتضى أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات هم عين الذين أحسنوا عملا لأنه لا يصدق على أحد غيرهم، و ما نريد التنبيه عليه أن رد أولوية العموم من قبل القونوي له وجه صحيح معتبر لو أنه أعتبر خصوصية الجزاء على العمل بجنات عدن فإنه خاص بالذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين أحسنوا عملا، أما لو كان المراد العموم في الأجر على من أحسن عملا فلا يصح رده للعموم لأنه ثابت في آيات أخرى كثيره منصوص عليه فيها، و أما في نفس الآية فالأغراض و النكات البلاغية لا تستدعي رد العموم بل تؤكده في سياق توجيه الخطاب و عرض حال كلا الفريقين، و أيضا من استعمال (من) و تنكير (عملا) يقتضي التعميم و الإطلاق في علاقة الأجر مع إحسان العمل.

و لا خلاف معه أو غيره ممن قال أن (من أحسن عملا لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لأن الإطلاق و الحقيقة نسبية على اعتبار من يدخل في التصور و من يخرج منه، و لأن الإطلاق و عدمه يفتقر لدليل من خارج النص خاصة إذا قلنا أنه لا يوجد مقيد منصوص عليه لكي يصح دعوى الإطلاق، و من ظاهر النصوص الأخرى فإن

---

[1] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٢/ ٧٤ – ٧٥).

إحسان العمل قد يطول غير المؤمنين فيما يقع منهم على مقتضى الإرادة الإلهية الشرعية أو ما يتوافق معها بما يناسب مقام الفطرة و العقل الصحيح و أمثل ما يبين هذا العموم المعتبر في إحسان العمل الذي يطول كل البشر قول الله تعالى الآتي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧]

فنلاحظ بوضوح أن كل الآيات قارنت في الحضور الدلالي المتولد من تعلق ما خلقه الله على الأرض، و ما خلقه الله (الموت و الحياة)، و خلق السماوات و الأرض، لأجل ابتلاء الناس فينظر من منهم سيحسن العمل، و هذا يعطي أقوى دلالة تعميمية ممكن تصورها تتجاوز كون المبتلى هو مؤمن أو غير مؤمن، بل مناطها هو الصفة الإنسية فقط، فلا يمكن تقييدها أو تخصيصها بنوعية عمل معين من إنسان معين، و هذا ظاهر جدا في صفة و شأن إلحاق الحسن بالعمل، أما مسألة الأجر على إحسان العمل فإنها تأتي من آيات أخرى و لا يمنع أن يكتنفها مقيدات و خصوصيات كما يحكم الله و يريد، و بهذا فقد ثبت بيقين أن إحسان العمل و الأجر عليه على عمومه و إطلاقه، أما نوعية الأجر فهي من دلالات مواضع أخرى، كما خصصت هنا جنات عدن للذين آمنوا و عملوا الصالحات دون غيرهم.

- أطفيش: (والرابط بين اسم الأول وخبرها محذوف تقديره إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم و(من) هذه التي قدرتها هي (من) التبعيضية لأنه قد يؤمن الإنسان ويعمل صالحا ولا يحسن ويجوز أن يكون الرابط العموم على أن المراد يعمل الصالحات عملهن بالإحسان والمراد بعامليها عاملوها من هذه الأمة وبمن أحسن عملا كل من أحسنه منها أو من غيرها فهو أعم.) [1]

قد جعل أطفيش هنا المغايرة ما بين الحسن و الصلاح في أن الصلاح أعم من الحسن و لذلك قد يفعل عملا صالحا و لا يحسنه، و لكنه نظر للحسن أنه من الإحسان و هو درجة عالية من الإخلاص و لذلك جاز أن يكون أخص من الصلاح، و على العموم لا ضير ما دام المرتكز هو تقرير المغايرة ما بين الصلاح و الإحسان، لكي ندخل فيه أعمال غير المؤمنين التي وقعت على الوصف الشرعي و معاييره في الصحة و القبول، و لذلك استفاد أطفيش من هذه الدلالة لأن يعمم العاملين فأدخل العاملين من الأمم الأخرى.

- ابن عاشور:

(وافتتاح الجملة بحرف التوكيد (إن) لتحقيق مضمونها. وإعادة حرف (إن) في الجملة المخبر بها عن المبتدأ الواقع في الجملة الأولى لمزيد العناية والتحقيق... لأن الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال بمضمونها من حيث هي مفيدة حكما يعم ما وقعت خبرا عنه وغيره من كل من يماثل الخبر عنهم في عملهم، فذلك العموم في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق

---

[1] هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد أطفيش (٧/ ٤٧٨، بترقيم الشاملة آليا).

حصوله لأربابه...

والإضاعة: جعل الشيء ضائعا. وحقيقة الضيعة: تلف الشيء من مظنة وجوده. وتطلق مجازا على انعدام الانتفاع بشيء موجود **فكأنه قد ضاع وتلف،.... ويطلق على** منع التمكين من شيء والانتفاع به **تشبيها للممنوع بالضائع في** اليأس من التمكن منه **كما في هذه الآية، أي إنا لا نحرم من أحسن عملا أجر عمله. ومنه قوله تعالى: إن الله لا يضيع أجر المحسنين [التوبة: ١٢٠].**

أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا (٣١)

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، **لأن ما أجمل من عدم إضاعة أجرهم يستشرف بالسامع إلى ترقب ما يبين هذا الأجر.**

وافتتاح الجملة **باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أن المشار إليهم** جديرون **لما بعد اسم الإشارة لأجل** الأوصاف **المذكورة قبل اسم الإشارة، وهي كونهم** آمنوا وعملوا الصالحات.)[(١)]

و ما فاضت به قريحة الطاهر ابن عاشور من حسن البيان بقوله: (الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال **بمضمونها من حيث هي مفيدة حكما** يعم **ما وقعت خبرا عنه وغيره من كل من يماثل الخبر عنهم في عملهم، فذلك** العموم **في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق حصوله لأربابه) يعين المعنى المراد و المنطبق على مسألتنا بغض النظر على من يعود الخبر، فهو و غيره يقصروه على الذين آمنوا و لكن من المحتمل أيضا أن يعمهم و غيرهم فيمن تماثلوا في**

[(١)] **التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٠).**

حسن العمل إما أن يكون بحيثية استقلالية الأعمال عن اسم الفاعل (مؤمن - كافر) أو بتقييد الإيمان المصاحب لعمل معين كإخلاص الكافرين و المشركين الدعاء إلى الله في بعض الأحيان، و لكي نسلم لهم هذا الحصر يجب أن يكون هناك دليل على أن إحسان العمل هو الإيمان و عمل الصالحات فقط، أو أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات هم المحسنين الأعمال فقط، أما أن يكون دليلهم هو التقدير و الافتراض لمواقع الجمل على ما تقتضيه صنعة الإعراب من أن هذه الجملة خبر أم لا، أو أنها خبر أول و الثانية خبر ثان، أو أن (مَن) اسم ظاهر أم لا؟ أو غير ذلك فكل هذه التقديرات ناشئة من تفاعل الصنعة مع المعنى المستصحب من نصوص أخرى، و قد يغلب أحدهما على الأخر فيؤول الأخر بناء عليه، و لمرونة التوجيه و تداخل المعاني و مدى ظهورها و تبادرها يكون التأويل أو التفسير، فلو كان معنى التحرز من أن يدخل غير المؤمن في الأجر و وصف حسن الأعمال بدلالة ما يستصحبه من حبط و إضلال و إبطال أعمال الكافرين يميل لأن يقصر و يحصر الأجر بإحسان العمل على الذين آمنوا و عملوا الصالحات فقط بما يؤديه من صنعة الإعراب فيقول به و يكون اختياره و ترجيحه، و إذا تبسط قليلا فلا يمنع أن يكون المعنى عام و لكن لا يصدُق حقيقة إلا على الذين آمنوا و عملوا الصالحات فقط، أو يجعل المعنى عام يطابق عموم معنى من آمن و عمل صالحا فلا يخرج عنهم أيضا، أي جعل العموم مكاني و زماني فقط.

الآية رقم ١٣

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل: ٨٩-٩٠]
﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: ٨٤]

فمن الواضح أن سياق آيتي النمل (٨٩ – ٩٠) فيما بعد الحساب و الميزان و تخطي مرحلة التعادل و الموازنة بدلالة قوله تعالى: يَوۡمَئِذٍ و تعيين نوعية الجزاء أي ذكر السيئة و الحسنة التي تقتضي الجزاء دخول النار أو الجنة، أي بحيثية الجنة والنار بدلالة حرف (الفاء) المشعر بالسببية أو السرعة في انكباب وجوههم في النار، و هذه القرينة الداعية للقول أن المقصود من السيئة هو الشرك على قول أن وجوب دخول النار للكفار و المشركين و المنافقين، و القرينة الأخرى ذكر أمن الذين جاءوا بالحسنة و هو بهذا يحدد هذا الفريق بالمؤمنين.

و نستطيع القول أن السيئة و الحسنة هنا هي كناية عن ما أثقل الميزان و أخفه أي سبب الثقل و الخفة هو الحسنة التي بدأ عندها ثقل الميزان، و السيئة التي عندها بدأ خفة الميزان، و هذه هي أحد الوجوه أو يكون المعني بالحسنة و السيئة جنس الحسنة و جنس السيئة و قرينة ذلك أن أصحاب الحسنة سيكونون آمنين و أصحاب السيئة سينكبون على وجوههم في النار، و من المقطوع به أن الآمن يوم القيامة هو الذي آمن و عمل الصالحات، و الذي يفزع يوم القيامة هو الكافر و المشرك لكفره و عمله السيئ.

يجب أن نؤطر معنى الحسنة و السيئة بإطار دخول الجنة و دخول النار، و من المقطوع به أن الجنة محرمة على المشرك فلا يدخلها إلا نفس مسلمة مؤمنة قد كسبت في إيمانها خيرا بالأعمال الصالحة، أما المشرك و الكافر ففي النار هم خالدون و الذي استوجبها عليهم سيئة الشرك.

قد يكون الأمن من الفزع متعدد في هذا اليوم و متناسب على قدر و نوع الحسنة التي جاء بها المكلف، و أن الخير المتسبب عن الحسنة أيضا متفاوت و متناسب على قدر الحسنة، و قد يكون الأمن من الفزع هو من الخير المتسبب عن الحسنة مصداقا لقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨] و بهذا يكون الخير المجازى به عن الحسنات لشدة التلازم بينهم باقتضاء يوم القيامة لأنه يوم المجازاة على الأعمال، فالحسنة مكتوبة في صحف الأعمال و موزونة في الميزان، أما في المردود النفسي و المادي على المكلف فإما لذة أو ألم و هذا متنوع جدا على حسب المواقف و المراحل يوم القيامة، و هو ما أختزل في كلمتي (خير - شر) و بما أن هاتان الكلمتان قد أضيفتا إلى (يرى) فلا بد أن المقصود هو المردود على نفس و جسم المكلف بالخير و الشر (الحسنة و السيئة)، و يحتمل الرؤية هنا بمعنى الوقوف على كل ما عمله الإنسان من خير أو شر فيعلمها مكتوبة مرصودة و عليه قد يُقال لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على المجازاة و يطلب من غيرها.

و غيرها الذي يدفع هذا الاستشكال كهذه الآية المتكررة بنصها و نظمها لفظا و معنى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٨٩-٩٠]، ﴿مَن جَآءَ

بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ٨٤﴾ [القصص: ٨٤]

و بالتدقيق نرى أن المجازاة مرتبطة بالسيئة و بالسيئات و قد أفصح عنها بالتصريح في قوله (فكبت وجوههم في النار) و في الأخرى تخصيص المجازاة بالذين جاءوا بالسيئات (فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) أما عند ذكر الخير المنوط بالحسنة فقد جاء على أنه مُسبب عن المجيء بالحسنة، فهل هذا الخير هو جزاء أم لا؟، المهم أنه يوجد خير يراه كل من عمل مثقال ذرة من خير، قد يكون هذا الخير هو الأمن من الفزع الخاص بالعقاب المترتب على من عمل السيئة أو السيئات التي تقابل الحسنة في نوعها و قدرها، أي الذي عمل الحسنة قد أمن من عقاب من عمل السيئة (أمر و نهي في التكليف).

فالوعد بالأمن متحقق من باب العدل و عدم البخس و هو وعد لا يخالف الوعيد، بمعنى أن خيرية الأمن من فزع يومئذ لرؤيته استحقاق عقاب السيئة لغيره و هو لم يستحقها فهذا لا يلزم منه أن الكافر الذي جاء بالحسنة و أمن من الفزع بما يناسبها أنه سيدخل الجنة، و لكن هذا هو القسط و العدل و عدم البخس، و هذه مرحلة سابقة على مرحلة تفعيل الحسنة لجزاء متعين بالنعم، لأننا نعلم أن الكافر لا يدخل الجنة و لا يتنعم في الآخرة، فلو جعلنا الجزاء قاصر على التنعم فلن يجازيهم الله على حسناتهم و يكون هذا هو معنى الحبط و الإبطال، و لكن لا يلزم من هذا الحبط أنهم لن ينالهم خيرا على حسناتهم فقد رأينا احتمالية الآية لأن يكتنف معنى أمنهم من فزع معين إزاء رؤيتهم استحقاق عقاب آخرين على سيئاتهم، ثم يأتي مرحلة الميزان التي فيها الموازنة و المعادلة لأنها تنعقد ما بين الحسنات و السيئات.

و نكتة الابتداء بالحسنة و رؤية الخير منها أو عليها في سياق ذكر الكفار خاصة أن حسناتهم قليلة و يروا خيرها و لضآلة العدد و النوع لها يطغى عليها السيئات فلا يجازون إلا عليها فتكب وجوههم في النار، لأن حسناتهم قد رأوا خيرها فيها منعتهم عن فزع أو معادلة و موازنة فخففت قدر استحقاقهم العذاب فضلت و بطلت و حبطت فلا يبقى لهم للمجازاة إلا السيئات التي جاءوا بها.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ٩٠﴾ [النمل: ٨٩-٩٠]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ٨٤﴾ [القصص: ٨٤]

يمكن ترتيب هذه الآيات على تدرج البيان و التفصيل بأن نبدأ بالعام كما في النمل لأن فيها الحسنة بخير منها و السيئة جزاؤها التكبب في النار، ثم القصص ففيها الحسنة بخير منها و فيها بيان و تفصيل السيئة بأنها عند الجزاء هي في الحقيقة سيئات و ليست سيئة، ثم الأنعام ففيها ما يقابل المثل و الأمثال أي أقصى بيان و تفصيل، ففيها الحسنة بعشر أمثالها و التي كانت مجملة فيما سبق من آيات بكونها خير منها فجاء هنا بيان هذا الخير بأنه عشر أمثالها، و جزاء السيئة لا يكون إلا مثلها بدون أي ظلم.

فيكون حصيلة مضمون الثلاث آيات هو أن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، و من جاء بالسيئة فيجازى على سيئاته بأن يكب على وجهه في النار.

و الشاهد أن الآيات الثلاثة تؤكد على عموم تعلق الخير على المجيء بالحسنة و لم تعين فاعل المجيء و لا تعين جزاؤه و لم تقيد نوعية الجزاء بالجنة لكي نقصرها على المؤمنين، **فلم يأتي إلا ما يحتمل التخصيص و هو الأمن من فزع يومئذ، و بتفصيله فقد يحتمل الأمن من العقاب و هو معنى متحقق لمن جاء بالحسنة مقابل لمن جاء بعدمها أو بالسيئة**، و ما زلنا لا نجد دليل أو قرينة تصرف جواز دخول الكافرين الذين لهم حسنات بل الظاهر يدل على ذلك لأنه عام و خال عن الصوارف.

أما إذا جعلنا السيئة و الحسنة كنايات على فريقي الكافرين و المؤمنين فلا بد أن يكون هذا في حال المحصلة النهائية ما بعد الحساب و الميزان و رد المظالم، **لأن الله أثبت في كتابه أنه يوجد من يخلط الحسنة بالسيئة، و أن كل إنسان يوزن له الحسنات و السيئات و أقل دلالة منه أن الكافر يجوز عليه أن يأتي بحسنة أو حسنات توزن له، و ما جعل الوزن إلا للفصل بينهما، فلا يوجد أحد يخلو من سيئة إلا من عصمه الله و وفقه للمغفرة و التوبة و هم قلة لا يقاس عليهم، و هذا يؤكد أنه لو قلنا أن الآيات في الكفار و المؤمنين فلا بد أنهم بعد الميزان و الحساب و رد المظالم**، فمن جاء منهم بالحسنة فهو دليل على ثقل موازينه، و من جاء بالسيئة فهذا دليل على خفة موازينه ثم يجازى على ما زاد منهما كل بحسبه.

و من استقراء آراء المفسرين و علماء السلف يبدوا أن هناك شبه اتفاق على أن المقصود من السيئة هو الشرك، و المقصود من الحسنة هو التوحيد أو لا إله إلا الله، و الذي يبدوا رجحانه أن الشرك هو المعني باعتبار دلالة الكب على الوجوه في النار كعذاب يناسبه شدة هذه السيئة، و باعتبار أن السيئة فيها الألف واللام التي للجنس و مع قرينة الإطلاق أيضا يميل المعنى نحو

كون هذه السيئة هي أعظم سيئة، و معلوم أن أعظم سيئة هي الشرك أو الكفر، أما الحسنة فيوجد قرينة الأمن من فزع يومئذ و إن كانت غير صريحة و لا قوية بما يكفي لتخصيصها بالمؤمنين أو الموحدين كالكب على الوجوه أيضا، و لكن فيها مضمون قوي لترجيح كونها في المؤمنين.

و مع ذلك فلا يوجد مانع من إدخال الكافر أو المشرك في دلالة الآية الظاهرة على اعتبار أن الحسنة و السيئة عامة، و الأمن مقيد بمجيء الحسنة فيأمن صاحبها من العذاب على ما لو أساء فكانت سيئة لما يراه من غيره، و يكون كل حسنة لها مأمنها من الفزع و أعظم الحسنات هي التوحيد فعليه يكون المأمن من الفزع الأكبر، و أما بالنسبة لعموم السيئة فيطول سيئات المؤمنين العصاة التي لم يتوبوا منها أو كفرتها حسنات أخرى أو بشفاعة أو بمغفرة من الله و تفضل منه أو غير ذلك، و مع المضاعفات البليغة لحسناته مع مثلية السيئة فقط يصعب أن يجيء بالسيئة، و لكن مع افتراض أنه جاء بالسيئة فيكب عليها في النار، و مع عدم وجود قرينة أو قيد يفيد الخلود فيحتمل أنه عذاب مؤقت فيرجع لحسنته و جزاؤها في الجنة.

و الخلاصة أننا نستدل على اعتبار الحسنة من الكافر و رؤيته خيرها في الحساب و الميزان و مواقف معينة في يوم القيامة، و بهذه الرؤية فلا تنافي أو تعارض ما بين الآيات و بينها مثل إناطة المجيء بالحسنة على المؤمن فقط، و مجيء السيئة على المشرك و الكافر فقط لأن هذا بعد الحساب و الميزان (الحبط و الإبطال و الإضلال) لحسناتهم مع سيئاتهم.

أي أنه يخاطب الكفار و المشركين الذين سيكون مصيرهم النار أن الله يضاعف لهم حسناتهم بلا بخس، و لا يجازيهم إلا على السيئة فقط بمثلها بدون ظلم، و لا يجازيهم إلا على أعمالهم

فقط و مع ذلك سيخلدون في نار جهنم، فلا ينفعهم كفرهم بالله أو بالآخرة أو حسبانهم أنهم على خير أو حق أو أنهم ينصرون بشفعائهم أو شركائهم أو سيكون لهم عدل أو فدية، أو أنه ينفعهم مال أو بنين.

و بالتالي سنتجاوز نقول العلماء الدالة على أن الحسنة هي الإيمان أو التوحيد أو لا إله إلا الله، و أن السيئة هي الشرك أو الكفر، لأننا لسنا على خلاف معهم و لا قولنا يعارض أو يخالف قولهم لأننا متفقون على هذا برؤية معينة و هي بعد الفراغ من الحساب و الميزان، و نحن نتناول ما قبل ذلك أي نفس مرحلة الميزان و الموازنة و تفاعل الحسنات مع السيئات، و لذلك سننقل أي تفسير يدل أو يشير على ذلك التفصيل من قريب أو من بعيد، أو أي قول يضيف تعميم مدلول الحسنة.

و كذلك كل كلام يدل أو يشير على تنوع مدلول الفزع يومئذ سواء في تدرج الوقت أو تدرج القوة لكي يصلح أن ندخل تحته خيرية حسنات الكافر فيكون له بها أمن على قدر حسناته فقط، و أن الفزع متفاوت و متغاير على قدر الحسنة التي جاء بها فيأمن بها من العقاب و العذاب المستحق على عدمها أو ضدها من السيئة التي تتناوب على جواز و إمكان العمل من عدمه المنهي عنه أو المأمور به.

- الطبراني: (من جآء بالحسنة فله خير منها؛ معناه: من وافى عرصات القيامة بالحسنات، فله ثواب آجر وأنفع منها....

قوله تعالى: وهم من فزع يومئذ آمنون؛ قرأ أهل الكوفة (فزع) منونا بنصب الميم، وقرأ الباقون بالإضافة، واختاره أبو عبيد لأنه أعم ويكون شاملا لجميع فزع ذلك اليوم، وإذا كان منونا كان الفزع دون فزع [1].

وقال أبو علي الفارسي: (إذا نون يجوز أن يكون الفزع واحدا، ويجوز أن يعني به الكثرة لأنه مصدر، والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ كقوله سبحانه: وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير [لقمان: ١٩]).) [2]

- مكي: (أي من جاء بالحسنة فله من ثواب الله ما هو خير من عمله، وله أفضل من ثواب عمله، لأن الله جل ذكره يعطي من الثواب فضلاً لا يستحقه العبد بعمله، زيادة منه وتفضلاً

---

(١) نقله عن أبي عبيدة السمرقندي في تفسيره بحر العلوم (٢/ ٥٩٥) حيث قال: (قال أبو عبيد: وبالإضافة نقرأ، لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم. وإذا قال: فَزَعٍ بالتنوين، صار كأنه قال: فزع دون فزع.). و الواحدي في التفسير البسيط (١٧/ ٣١٩). و كذلك اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٢٠٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني. و قد اختاره الواحدي في التفسير البسيط (١٧/ ٣١٩)، (١٧/ ٣٢٠) فقال: (فهو شامل لكل فزع؛ وهو الأولى). و نقل قول أبو علي السمعاني في تفسيره (٤/ ١١٨). و انظر تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٨٨). تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٤/ ٥٧٥). تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٦٩) قال: (وقرأ الكوفيون بالتنوين لأن المراد فزع واحد من أفزاع ذلك اليوم).

وإحساناً. (١)

... / ...

وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ، من نون فزعاً فمعناه: أنهم آمنون من كل فزع؛ فزع ذلك اليوم، وفزع ما يخافون العقوبة عليه من أعمالهم السالفة.) (٢)

و قد اختار مكي أن يعمم متعلق الحسنة و جزائها، و الفائدة من تأويله أنه جعل الفزع هو الخوف من العقوبة على الأعمال السابقة و هذا فيه دلالة قوية على أن الكافر جائز في حقه أن يأمن من فزع أعمال لو لم يأت بها على وجهها الصحيح الحسن لكان ممن يعاقبون عليها.

- الطوسي: ((من جاء بالحسنة) يعني بالخصلة الحسنة (فله خير منها) أي خير يصيبه منها. وقيل: فله أفضل منها في عظم النفع لان له بقيمتها وبالوعد الذي وعده الله بها) (٣)

- الواحدي: (وقال القرظي وابن زيد: فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا يعني: الأضعاف يعطيه الله بالواحدة عشرًا فصاعدًا، وهذا خير منها. وعلى هذا الذي قالا، يجب أن يكون تفسير الحسنة: الفِعَلة

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٣/ ٢٦٣).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/ ٥٤٧٧ – ٥٤٧٨). تفسير الماوردي = النكت والعيون (٤/ ٢٣١). و بنحوه قول الطيبي: (أي: وهم من فزع العقاب، أو من خوف النار آمنون... لأن الفزع الذي يختص بذلك اليوم هو العقاب، والنار وسائر الأفزاع مشترك.) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١١/ ٥٩٨).

(٣) التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٨/ ١١٦، بترقيم الشاملة آليا).

الحسنة من صلاة وصدقة وتسبيحة، فيضعفها الله تعالى حتى تكتب أضعاف ما عمل، فيكون الإضعاف خيرًا مما عمل.) [1]

- السمعاني: (وأما الحسنة ففي قول عامة المفسرين هي قول لا إله إلا الله، وقيل: هي كل طاعة [2]، وعن أبي ذر أنه سئل وقيل له: قول لا إله إلا الله حسنة؟ فقال: هي أحسن الحسنات.) [3]

- الرازي: (السؤال الثاني: الحسنة لفظة مفردة معرفة، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأنا وأعلاها درجة وهو الإيمان) [4]

---

[1] التفسير البسيط (١٧/ ٣١٩).

[2] قال الخازن كأحد الأقوال: (وقيل الحسنة كل طاعة عملها لله عز وجل) في تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ٣٥٥). و كذلك في اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٢٠٨). و انظر تفسير أطفيش - إباضي (٧/ ٣٤٦، بترقيم الشاملة آليا).

[3] تفسير السمعاني (٤/ ١١٨).

[4] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٤/ ٥٧٥). اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٢٠٨) و قد لخص ابن عادل الحنبلي كلام الرازي مقررا إياه، و منه أن رفع الخلود في عذاب النار هو (خير) و هو المعني به (خير منها) و هذا في حق المؤمن الذي استحق عقاب على سيئاته، و الشاهد أن التخفيف أو الرفع من وقت العذاب أو شدته يسمى خيرا، كما يفيد عموم الجزاء على السيئة و الحسنة بغض النظر عن كونه مؤمن أو كافر، مع تخصيص جزاء الحسنة بالنسبة للكافر بالتخفيف من استحقاق العذاب، و جزاء السيئة بالنسبة للمؤمن وقت معين بشدة معينة ثم يخرج للجنة للجزاء على الحسنات.

قد لاحظنا مدى الاحتياج للتأويل للتخلص من المفارقات التي تنشأ بين قصر المجيء بالحسنة (الواحدة) على المؤمن فقط سواء في فاعلها (المؤمن) أو في صفتها (التوحيد أو الإيمان)، فقد برز لازم قوي بأن المؤمن لا يعاقب على سيئاته فلا يدخل النار أبدا و هذا بخلاف بعض الآثار و الأحاديث التي تفيد أنه سيخرج من النار[1]، و الأمر الثاني عندما قصر الأمر في الأمن على المؤمن فقط يومئذ نشأ لازم تعميم الفزع لمن في السموات و الأرض، فوجب التخلص من أي فزع قد يصيب المؤمن، كما لزم أن نقيد جواز عقاب المؤمن و لكن بدون تخليد في النار لأنه يندر أن يكون هناك مؤمن ليس له سيئات، أما إذا قلنا أن الحسنة المقصود بها الحسنة المفردة و هي جنس ينضوي تحته أنواع كثيرة، و أن الآية تؤكد على أن هناك خير منها و عند التدقيق يكون عشرة أمثالها، بلا قصر أو حصر أو تخصيص أو تقييد لنوعية صاحبها إما لفظا أو دلالة بنوعية الجزاء إلا الأمن و قد اتضح أنه يجوز أن يكون فزع مقيد بشيء معين و هو الأمن من العقاب و هذا متوفر لكل المكلفين على حسناتهم لأن الله لا يجازي إلا على السيئات.

و لا مانع إطلاقا لأن نعمم الأمن من الفزع و من ثم نقيده بنوع الحسنة، فأمن حسنة التوحيد مغاير لأمن حسنة الصدقة أو صلة الرحم، و هكذا فلا مانع يمنع إدخال أصحاب الحسنات من غير المؤمنين في أمنهم من الفزع الخاص بمن يأتي بالسيئة، فيكون أمن المؤمن مغاير لأمن

و كذلك قال النيسابوري: (. واعترض عليه بأنه يلزم منه أن لا يعاقب مسلم. وأجيب بأنه يكفي في الخيرية أن لا يكون عقابه مخلدا.) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥/ ٣٢٣).

[1] و أجاب ابن عادل الحنبلي عنه بقوله: (ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلدا.) اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٢٠٩).

غير المؤمن من الفزع يومئذ، فالأمن من الفزع منوط بقدر و نوعية الحسنة، و على قول بعض المفسرين متمشيا مع ظاهر الآية الخاصة بوضع الموازين أن لكل نوعية عمل ميزان خاص به، فقد يكون لكل ميزان لوزن العمل فزع خاص به.

وقد حل هذه الاستشكالات ابن تيمية فيما سننقله هنا:

ابن تيمية:

(هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها.

منها قوله تعالىمَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا الآية [النمل: ٨٩]، المشهور عن السلف أن الحسنة: لا إله إلا اللهّ، وأن السيئة: الشرك، وعن السدى قال: ذلك عند الحساب ألغى بدل كل حسنة عشر سيئات، فإن بقيت سيئة واحدة فجزاؤه النار إلا أن يغفر اللهّ له.

قلت: تضعيف الحسنة إلى عشر وإلى سبعمائة ثابت في الصحاح، وأن السيئة مثلها، وأن الهم بالحسنة حسنة، والهم بالسيئة لا يكتب.

فأهل القول الأول قالوه؛ لأن أعمال البر داخلة في التوحيد، فإن عبادة اللهّ بما أمر به....

/ فالكلمة الطيبة: التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، وكذلك السيئة، هي العمل لغير اللهّ، وهذا هو الشرك، فإن الإنسان حارث هُمَام لابد له من عمل ولابد له من مقصود يعمل لأجله. وإن عمل للهّ ولغيره فهو شرك. والذنوب من الشرك فإنها طاعة للشيطان.... لكن إذا كان موحداً وفعل بعض الذنوب نقص توحيده.) [١]

و قال أيضا: (فالذين قالوا: إنّ الحسنة هي التوحيد، والسيئة هي الشرك.. دليله: قوله تعالى:

---

[١] التفسير من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٨٢).

من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذٍ ءامنون ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار [النمل: ٨٩، ٩٠]، وذلك لأنّ جميع أعمال البرّ هي داخلة في التوحيد؛ فإنّ التوحيد - وهو معنى قول (لا إله إلا الله) - هو أن يُعبد الله، وهو - تعالى - إنّما يُعبد بما أمر به. فهو: العمل لله، بأمر الله. كما قال تعالى: بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [البقرة: ١١٢].

فكلّ عمل من أعمال البرّ، فهو جزء من التوحيد، ومن العمل لله.. فالكلمة الطيّبة هي التوحيد، وهي كالشجرة. والأعمال ثمارها في كلّ وقت. فجميع الأعمال الحسنة تضاعف لصاحبها. وجميعها من عبادة الله وحده. وهي من فروع قول (لا إله إلا الله). بل الأعمال تحقيق قول (لا إله إلا الله). فإنّ الإيمان قول وعمل.. فمن قال: الحسنة: لا إله إلا الله؛ لم يُرِد أنّ هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها، بل هي عنده الشجرة الجامعة، والأعمال داخلة فيها، وفروع لها. وكذلك السيئة، هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك.. والذنوب كلّها جزء من الشرك، وهي من فروعه [1]) [2]

و يمكن تلخيص نظرية ابن تيمية باستقلالية الأعمال، فكل عمل حسن هو من صور التوحيد، و كل عمل سيء هو من ضروب الشرك، و هو منه لتفسير قول السلف على الحسنة بأنها هي التوحيد و أن السيئة هي الشرك، و بهذا فكل عمل موافق للشرع و مقصود به الامتثال لأمر الله أو حسن الخلق فهو من صور الإسلام أو التوحيد، فكل عمل حسن له إيمان مقيد به

[1] تفسير آيات أشكلت: ١/ ٣٣٥-٣٤٥. (باختصار).

[2] اختيارات ابن تيمية وترجيحاته في التفسير (ص: ٣٧٣).

إذا قارن العمل فقد حسنه، أو بمعنى آخر أي عمل وافق الشرع إذا خلا من شرك فهو حسن.

- ابن جزي: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها **قيل: إن الحسنة لا إله إلا الله،** واللفظ أعم،... وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ **السيئة هنا الكفر، والمعاصي التي قضى الله بتعذيب فاعلها.**)[1]

- ابن كثير: (**وهم من فزع يومئذ آمنون كما قال في الآية الأخرى: لا يحزنهم الفزع الأكبر** [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى: أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة [فصلت: ٤٠] **وقال تعالى: وهم في الغرفات آمنون [سبأ: ٣٧] وقوله تعالى: ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار** أي من لقي الله مسيئا لا حسنة له، أو **قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: هل تجزون إلا ما كنتم تعملون.**)[2]

و استدلال ابن كثير بقوله تعالى (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) [فصلت: ٤٠] للدلالة على أن المقصود بالآمن يومئذ هم المؤمنين، فيمكن توضيحه أن الأمن يومئذ متعدد الأماكن و الأوقات، و أيضا متعدد الأسباب، فهناك أمن من دخول النار و هذا لن يكون إلا للمؤمنين و هذا ما يدل عليه آية فصلت السابقة، لأن المقابلة أتت ما بين من يلقى في النار و غيره الذي لا يلقى في النار، و قد يحتمل أن يكون من المؤمنين العاصين الذين يدخلون النار لسيئاتهم و فقدانه للأمن على قدر سيئاته، و بهذا فيثبت له أمن و فزع بتناسب على قدر السيئات و الحسنات، و لكنه قطعا أمن من الخلود في النار، و عليه فالكافر يأمن من العقوبة

---

[1] تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٠٨). و قال أطفيش: (ولو فسرنا السيئة بالشرك كانت الآية لم تتكلم على غيره من الذنوب) تفسير أطفيش (٧/ ٣٤٦، بترقيم الشاملة آليا).

[2] تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ١٩٦).

للذي أساء العمل بحسناته.

و أما قوله تعالى: وهم في الغرفات آمنون [سبأ: ٣٧] فهذا واضح أن الأمن في الغرفات و هذا بعيد عن محل الاستدلال بمسألتنا.

و يكون لقاء الله بدون حسنة كناية عن الكافر الذي فرغ من الحساب و الموازنة فحبطت كل حسناته فلم يبقى له إلا سيئاته فيكب على وجهه في النار، و كذلك من رجحت سيئاته على حسناته لأنه يلقى الله بسيئاته.

- الشيخ علوان: (مَنْ جاءَ من المكلفين في دار الابتلاء بِالْحَسَنَةِ أي الخصلة الواحدة المقبولة عند الله وعند الناس فَلَهُ في دار الجزاء خَيْرٌ مِنْها إذ يعطى له بدلها سبعمائة من الحسنة...وَمَنْ جاءَ في دار الاختبار بِالسَّيِّئَةِ المردودة عند الله وعند الناس من الأمور التي قد حرمها الشرع والعقل والمروءة) [1]

- أبو السعود: (أي من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها إما باعتبار أنه أضعافها وإما باعتبار دوامه وانقضائها) [2]

- الأعقم: (من جاء بالحسنة من أتى القيامة بحسنات عملها وحفظها، يعني جميع الطاعات فله خير منها يعني خير من الحسنة وهو الأمان من العذاب والفوز بالثواب، وقيل: هو الأضعاف فله عشر أمثالها) [3]

---

[1] الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٧٣).

[2] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٣٠٥).

[3] تفسير الأعقم - زيدي (١/ ٤٩٦، بترقيم الشاملة آليا).

- الشهاب الخفاجي: (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ الآية قيل أكثر المفسرين على أنّ المراد بها الإخلاص، والسيئة ضدّها وهي الشرك لقوله: فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ [سورة النمل، الآية: ٩٠] فليس خير بمعنى أفضل وردّ بأنّ السيئة لا يتعين أن يراد بها الشرك لأن الظاهر منها العموم وذكر الكبّ من نسبة ما للبعض للجميع، وقد مرّت له نظائر مع أنه غير مختص بالمشرك بل يعمّ العاصي...، وفيه أنّ هذا التخصيص منقول عن رئيس المفسرين ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله في مقابلها فكبت قرينة عليه وما ذكره خلاف الظاهر وشرطه مفقود هنا.

/ قوله: (قيل بالشرك) قيل مرّضه لأنّ الظاهر العموم ولا دلالة في قوله فكبت لأنه من نسبة ما للبعض للجمع، وردّ بأنه ممنوع إذ الظاهر حمل المطلق على الكامل، وهو الشرك ولو أريد العموم كان الظاهر التنكير وفي قوله فكبت دلالة ظاهرة تعارضه فتأمّل.) [1]

- إسماعيل حقي: (فخير اسم من غير تفضيل إذ ليس شيء خيرا من قول لا إله إلا الله ويجوز أن يكون صيغة تفضيل إن أريد بالحسنة غير هذه الكلمة من الطاعات... وَهُمْ أي الذين جاؤا بالحسنات مِنْ فَزَعٍ أي عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات) [2]

و الإضافة التي ساهم بها إسماعيل حقي هو بيان المبرر الذي يجعل المفسر يخصص (الحسنة) بلا إله إلا الله و هذا لأنه نظر لدلالة (خير) مجردة من دلالة التفضيل التي بدورها

---

[1] حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٧/ ٥٩ – ٦٠). روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٠/ ٣٦ – ٣٧).

[2] روح البيان (٦/ ٣٧٦). روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٠/ ٣٧).

يلزم منها فاضل و مفضول و هذا لا يتحقق إلا بتفسير الحسنة بما هو دون التوحيد من الطاعات، لأنه في هذه الحال لا حرج من التفاضل ما بين الحسنة نفسها و بين ثوابها الذي هو خير منها، لأنهم ينظرون لـ لا إله إلا الله بأنها لا يوجد ما هو خير منها، بالإضافة لاعتبارات و تداخلات دلالية أخرى مثل (من) التي في (منها) هل هي بيانية أم سببية، و غير ذلك مما هو مبثوث في تفاسيرهم، و الشاهد هو بيان مدى تأثير مردود هذه الدلالات على ذهنية المفسر و مدى تأثيرها على اختياره التأويل المعين للآية.

و من إضافاته أيضا أنه أظهر الأمن من الفزع في وقت الفراغ من الحساب، و أنه أناطه بالحسنات و السيئات، و هذا فيه دلالة قوية على رؤيتنا لتسلسل المواقف و ما ينبني عليها من دلالات و معاني، فهو بهذا يجعل الأمن مناط بالحسنات، و الحسنات تتفاضل فيما بينها و عليه يتفاضل الأمن أيضا فالمسألة نسبة و تناسب، فالذي يأمن من الفزع الأكبر هو المؤمن فقط لأنه أمن من أن يكون مع المعاقبون على الشرك و الكفر، و كلما ذهبت سيئاته بحسناته يزيد الأمن حتى يأمن تماما بدخول الجنة.

* القونوي: (الظاهر أن المراد مطلق الحسنة **والإخلاص داخل فيها دخولا أوليا** كما **أن** السيئة عام للشرك وغيره والتخصيص بالمشرك زيفه المص، وكذا تخصيص الحسنة بالإخلاص ضعيف أيضا.) [1]، و قال: (**ويمكن التوفيق بالقول** باختلاف المواطن ففي موضع يفزع وفي الآخر لا يفزع. ...

---

[1] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٤/ ٤٥٨).

قوله: (قيل بالشرك) مرضه؛ إذ التخصيص خلاف الظاهر **كتخصيص الأول بالإخلاص** والظاهر العموم **والظاهر أن عصاة الموحدين داخلون في الشق الثاني** بالنظر إلى أول حالهم وفي الأول باعتبار الانتهاء **لأنه جاء بالحسنة وهي الإيمان** والسيئة **أيضا وهي المعاصي** أو **حالهم مسكوت عنها** كما هو في أكثر المواضع.)[1]

و هو من أجمع و أدق التأويلات تمشيا مع الظاهر و المتبادر من ألفاظ و سبك و حبك الآية، فقد جعل الحسنة مطلقة عامة تشمل و تعم كل ما يصدق على الفعل أنه حسن و لذلك يدخل فيها دخولا أوليا الإخلاص و التوحيد و الإيمان و كل ما هو دون ذلك، و صرح بأن التخصيص ضعيف و زيف من التأويل، ثم جعل النظرة لمجمل الأمر باعتبارين هما الأول منهما أن ينظر لابتداء الأمر من حال الذي جاء بالحسنة و الذي جاء بالسيئة، و الثاني باعتبار نهاية الأمر لمن جاء بالحسنة و الذي جاء بالسيئة، فيكون حاصل الأمر أن المؤمن الذي جاء بالسيئة سيدخل النار في بداية حاله ثم يخرج منها للجنة باعتبار مآل حاله في نهاية الأمر لأنه ممن جاء بالحسنة (الإيمان)، و الكافر الذي جاء بالحسنة سيجازى عليها خيرا منها في ميزانه و موازنته ثم لا يبقى معه حسنة فيدخل النار فلن يخرج منها لأنه ليس معه أي حسنة فضلا على أن تكون الإيمان.

- الشوكاني: (من جاء بالحسنة فله خير منها **الألف واللام** للجنس، **أي: من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها، أي: أفضل منها وأكثر، وقيل: خير حاصل**

[1] نفسه (١٤/ ٤٥٩).

من جهتها، والأول أولى. وقيل: المراد بالحسنة هنا: لا إله إلا الله، وقيل: هي الإخلاص، وقيل: أداء الفرائض، والتعميم أولى، ولا وجه للتخصيص، وإن قال به بعض السلف.

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار. قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم، حتى قيل: إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسيئة هنا الشرك، ووجه التخصيص قوله: «فكبت وجوههم في النار» فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك)[1]

يجب أن نتنبه من أن الآية لم تذكر نوعية الثواب أو الجزاء لمن جاء بالحسنة إلا بيان مقدار الخير الآتي منها أو بسببها فلم تعين الخيرية بالجنة، و هذا أراه قرينة قوية جدا لعدم تخصيص الذي جاء بالحسنة هنا بل هو عام سواء في نوعيتها أو في فاعل الحسنة، فكل من جاء بحسنة فإنه ينالها خيرا منها، و من ثم تكون الدلالة مفتوحة لأن تستوعب المؤمن و الكافر فكل حسنة معينة لها خيرا منها، فقد تكون الحسنة لا إله إلا الله و قد تكون إماطة الأذى عن الطريق، و في كل الأحوال سينال المحسن الخير على هذه الحسنة.

و بعد هذا التقرير السابق في الحسنة يجب أن يكون في السيئة لو لم يذكر الله نوعية الجزاء عليها بالنار، فهنا يجب أن تفسر السيئة بما يناسب الانكباب في النار، و أظهرها هو الشرك و الكفر لأنه محل إجماع من الكل، ثم يستشكل بالمؤمن الذي رجحت سيئاته عن حسناته، فيقال أنه يدخل النار ثم يخرج منها بحسنة الإيمان، و يرد عليه بأنه لو كان معه الإيمان ما دخلها ابتداءً، و قد يقال أن من ترجح سيئاته على حسناته بعد محاسبة السيئة بمثلها و الحسنة بعشرة أضعافها و أكثر حتى لا يعلم المضاعفة إلا الله ثم تترجح سيئاته بعد ذلك فهذا دليل على أن تسعة أعشار

[1] فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٧٩). و نقله القونجي في فتح البيان في مقاصد القرآن (١٠/ ٧٩).

أعماله سيئة و هذا أقل ما قيل تجاه أقل مضاعفة، لأنه مع المضاعفات الأكثر يزيد نسبة أعماله السيئة أكثر بكثير عن الحسنة، و هذا غير متصور في المؤمن، و الله أعلم.

- الألوسي:

(واستدل بعض المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة بقوله تعالى: مَن جَاء بالحسنة [النمل: ٨٩] الخ على أن المؤمن العاصي لا يعذب يوم القيامة وإلا لم يكن آمناً من فزع مشاهدة العذاب يومئذٍ وهو خلاف ما دلت عليه الآية الكريمة، وأجيب بمنع دخول المؤمن العاصي في عموم الآية لأن المراد بالحسنة الحسنة الكاملة وهو الإيمان الذي لم تدنسه معصية، وذلك غير متحقق فيه أو لأن المتبادر المجيء بالحسنة غير مشوبة بسيئة وهو أيضاً غير متحقق فيه ومن تحقق فيه فهو آمن من ذلك الفزع بل لا يبعد أن يكون آمناً من كل فزع من أفزاع يوم القيامة وإن سلم الدخول قلنا المراد بالفزع الآمن منه من جاء بالحسنة ما يكون حين يذبح الموت وينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت كما سمعت عن ابن جريج أو حين تطبق جهنم على أهلها فيفزعون كما روي عن الكلبي وليس ذلك إلا بعد تكامل أهل الجنة دخولاً الجنة والعذاب الذي يكون لبعض عصاة المؤمنين إنما هو قبل ذلك والآية لا تدل على نفيه بوجه من الوجوه.

واستدل بعض المعتزلة بقوله تعالى: مَن جَاء بالسيئة الخ على عدم الفرق بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن العاصي لأن مَن جَاء بالسيئة يعمهما وقد أثبت له الكب على الوجوه في النار فحيث كان ذلك بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود كان بالنسبة إلى المؤمن العاصي كذلك،

وأجيب بأن المراد بالسيئة الإشراك كما روي تفسيرها به عن أكثر سلف الأمة فلا يدخل المؤمن العاصي فيمن جاء بالسيئة ولو سلم دخوله بناءاً على القول بعموم السيئة فلا نسلم أن في الآية دلالة على خلوده في النار وكون الكب في النار بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود لا يقتضي أن يكون بالنسبة إليه كذلك فكثيراً ما يحكم على جماعة بأمر كلي ويكون الثابت لبعضهم نوعاً وللبعض الآخر نوعاً آخر منه وهذا مما لا ريب فيه، ثم إن الآية من باب الوعيد فيجري فيها على تقدير دخول المؤمن العاصي في عموم من ما قاله الأشاعرة في آيات الوعيد فافهم وتأمل.)(1)

و من فوائد هذا النقل أنه يُظهر مدى تأثير المذهب في التأويل و توجيه دلالات الآية أو العكس بمعنى أن فهم الآية بمنظور معين هو الذي أدى لتبني مذهب عن مذهب و لكن الأشهر الأول، و الشاهد أن نبين أن كثرة المفسرين القائلين بتخصيص الحسنة بالإيمان لزم منها نفي دخول المؤمنين العصاة النار أولا قبل دخول الجنة بحسنة إيمانهم، و كذلك المخصصين السيئة بالشرك لزم منها أيضا أن المؤمن العاصي لن يدخل النار أبدا لأن سيئته ليست شركا، و تعلقت المعتزلة و من وافقهم أن دخول النار لمن جاء بالسيئة يلزم منه تساو المشرك مع المؤمن العاصي بجامع وصف السيئة، و التأويل الأسلم أن يقال:

مجازاة المشرك على حسناته لن تقوى على دفع سيئة الشرك و الكفر، و أيضا لأنه أمر محتوم أن الجنة محرمة على المشركين، فلا مبرر لنفي مجازاتهم على حسناتهم لأنه حتما سيكون هناك سيئة تقتضي دخولهم النار، و أما المؤمن العاصي الذي جاء بالسيئة بعد موازنة حسناته بسيئاته، فلا

---

(1) روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٠/ ٣٨).

يوجد ما يدل على خلوده في النار بعد استحقاقه الكب فيها، و قد يكون التأويل أن الله قضى أنه لن يأتي أحد بالسيئة بعد الحساب و الموازنة إلا المشرك و الكافر، و لذلك لم يعلمنا بقدر المضاعفة النهائية التي من فضله و رحمته، فهذه المضاعفة لن تبقي للمؤمن سيئة، و الله أعلم.

- السعدي: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية...وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ اسم جنس يشمل كل سيئة...)[1]

- ابن عاشور: (والمجيء مستعمل في حقيقته. والباء في بالحسنة وبالسيئة للمصاحبة المجازية، ومعناها: أنه ذو الحسنة أو ذو السيئة. وليس هذا كقوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) في آخر الأنعام [١٦٠]. فالمعنى هنا: من يجيء يومئذ وهو من فاعلي الحسنة ومن جاء وهو من أهل السيئة،...

والحسنة والسيئة هنا للجنس وهو يحمل على أكمل أفراده في المقام الخطابي، أي من تمحضت حالته للحسنات أو كانت غالب أحواله كما يقتضيه قوله (وهم من فزع يومئذ آمنون)، وكذلك الذي كانت حالته متمحضة للسيئات أو غالبة عليه، كما اقتضاه قوله فكبت وجوههم في النار. ...

وهؤلاء هم الذين كانوا أهل الحسنات، أي تمحضوا لها أو غلبت على سيئاتهم غلبة عظيمة بحيث كانت سيئاتهم من النوع المغفور بالحسنات أو المدحوض بالتوبة ورد المظالم. وكذلك

[1] تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٠).

قوله (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار)، **أي غلبت سيئاتهم وغطت على** حسناتهم أو **تمحضوا للسيئات بأن كانوا غير مؤمنين أو كانوا من المؤمنين أهل الجرائم والشقاء.**

وبين أهل هاتين الحالتين أصناف كثيرة في درجات الثواب ودركات العقاب. **وجماع أمرها أن** الحسنة لها أثرها يومئذ عاجلا أو بالآخرة، **وأن السيئة لها أثرها السيء بمقدارها ومقدار ما معها من أمثالها** وما يكافئها من الحسنات أضدادها فلا تظلم نفس شيئا [**الأنبياء**: ٤٧].

/ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون. تذييل للزواجر المتقدمة**، فالخطاب للمشركين) [١]

---

[١] **التحرير والتنوير** (٢٠/ ٥٢ – ٥٣).

الآية رقم ١٤

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ۝٥٣ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ۝٥٤ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٣-٥٦]

* واضح من السياق أنه يتناول الكافرين الذين خسروا أنفسهم و غرتهم الحياة الدنيا و أتخذوا دينهم لهوا و لعبا، و نسوا لقاء يوم القيامة و جحدوا آيات الله، و قد ألزمهم الله الألوهية و الربوبية بأنه هو الذي خلق فله الخلق و الأمر، ثم فرَّع على هذا التأصيل وجوب دعائه تضرعا و خفية و أن الذي لا يدعوه تضرعا و خفية معتدي، و ألزمهم عدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها و بدعائه خوفا و طمعا و أن الذي يدعوه خوفا و طمعا يكون من المحسنين و تناله من الله رحمة قريبة.

الآن إذا أردنا التدليل على شرطية الإيمان قبل الأعمال لأجل اعتبار صحتها و ترتب الجزاء عليها ثوابا، يجب عليه أن يتأول أمر الكفار بدعاء الله تضرعا و خفية، و نهيهم عن الإفساد في الأرض، و أمرهم بدعاء الله خوفا و طمعا، و أنه في حال الامتثال لهذا الدعاء لله يتحلوا بصفة الإحسان و نول الرحمة من الله، و سيكون من البعد و الاغراب بمكان أن نتأول أمرهم بالدعاء

أنه هو أمرهم بالإيمان العام، لأن الإيمان لا يوصف بالتضرع و الخفية، و لا يوصف بالخوف و الطمع، و كذلك لا يمكن تأول الأمر بالإيمان العام أنه هو الأمر بعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

و نحن لا نحيل أن يوجد من يتأول مثل هذه التأويلات لأن لهم طريقين في مثل هذه الحالات التي يكون فيها أمر لمشرك أو كافر بما يسمونه فروع الشريعة، إما أن يُقال أنه ملزم أولا بتحقيق الإيمان العام ثم بما أُمر به من الفروع، فكأن مفاد الكلام أنه مأمور بتحصيل الشرط (الإيمان) لزوما بما يؤمر به من الفروع، على سبيل أن الأمر بالفرع متضمن لزوما الأمر بالأصل أولا بدلالة اعتبار الصحة و استحقاق الأجر و الثواب، و هذا أمر زائد و فيه تكلف لأن يُقحم في دلالة أمرهم بالفروع، خاصة أن أمر الجنة و النار قد فصل مرارا و تكرارا بتوقفه على الإيمان و الكفر، و الطريق الثاني أن يكون دلالة الأمر بالفرع الشرعي للكافر هو كناية عن أمرهم بالإيمان العام ثم بدلالة اللزوم يلحقه الأمر بالفرع الشرعي لأجل صحة وقوعه و اعتباره و ترتب الثواب عليه، و هذا كسابقه من التكلف.

و كان الأقرب للاستقامة و الاعتدال في التأويل أن يُحمل دلالة الأمر الفرعي للكافر نصيبه من الإيمان العام بأن يكون الأمر الشرعي الفرعي دال على قدر من الإيمان يلائمه من حيث نوعية العمل و موضعه من الدين، بمعنى أن كل امر شرعي في حال الامتثال له تتحقق ماهية الإيمان فيه محدودة بماهية العمل و موقعه من الدين الذي لا يقبل من أحد سواه، فإذا وقع العمل محققا ماهية الإيمان المنوطة به مصحوبا بعقد القلب على الديمومة الإيمانية العامة التي تتجاوز هذا العمل المعين لغيره من الأعمال و على الغيب، أي إذا جد في علمه عمل مأمور به من الله فهو

داخل في هذه الديمومة فقد حقق الإيمان العام الذي يكفل له دخول الجنة و الخلود فيها، و مصداق هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقد علقت الآية ديمومة استحقاق صفة الإيمان على القبول و الرضا لأي أمر أو قضاء يأتي من الله و رسوله مستقبلا أي إيمان على الغيب، لأن كل أمر يستجد في الشرع هو في الحال غيب بالنسبة للمؤمن و مع ذلك فهو شرط لثبوت صفة و اسم الإيمان له، لأن من آمن بالله إله و ربا و ملك لن يستنكف أن يخضع له و يمتثل لأي أمر يأتي منه سواء علمه حال إيمانه أو لم يعلمه إلا لاحقا، لأن الخيرة تقدح في الإيمان العام الذي هو محض استسلام و عبودية، و تعود على هذا الإيمان بالنقض و مصداق هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]

فطاعة غير الله في أمر واحد قد جعلتهم مشركين بالله، لأنهم أشركوا غير الله في طاعة الحلال و الحرام فجعلوا من أطاعوه ندا و شريكا مع الله، أي له حق الطاعة مع الله في الحلال و الحرام. و الآية قد أناطت صفة الشرك على الطاعة و ليس الأكل، لأن الطاعة هي التي تحمل وصف الإيمان و ليس الأكل، و لذلك فطاعة واحدة في أمر واحد قد استتبعت وصف الشرك للمطيع لأنها تتضمن الديمومة و الدينونة للمطاع في التزام حكم الحل فيما لم يذكر اسم الله عليه، و هذا كفيل بنقض الوحدانية و الإيمان بحيثية المطاع و ليس المطاع فيه أي الأكل، لأن الله يستحيل أن يكون له شريك إلا دعوى و ظن فقط من المشرك، أي أن الشريك يكون بإزاء المشرك و

ليس بإزاء الله سبحانه و تعالى، و لذلك يصدق على المشرك أن يجتمع فيه وصفي الإيمان و الشرك لأن كل منهما له اعتبار بجهة معينة و هذا من أقوى الأدلة على استقلالية الأعمال و ما يناط بها من إيمان مقيد بالعمل، و لتعدد الأعمال و أنواعها يجوز أن يجتمع في نفس الشخص وصفي الإيمان و الشرك باعتبار تنوع الأعمال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] و كذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]

فقد اجتمع في النفس الواحدة وصفي الإيمان و الكفر باعتبار ما يقيد الوصفين من الأعمال، و بمعنى آخر قد يكون للنفس الواحدة المكلفة عملين أحدهما يثبت لها وصف الإيمان المقيد بهذا العمل، و الآخر يثبت لها وصف الكفر المقيد بهذا العمل، و لكن في ميزان الاسم العام المتعلق به الجزاء يوم القيامة بالجنة و النار فلا يكون إلا مؤمن أو كافر من هذه الحيثية، فالذي جمع بين الكفر و الإيمان هو كافر و مخلد في نار جهنم، و الذي يجمع بين الإيمان و الشرك هو مشرك و مخلد في نار جهنم، أما على مستوى الأعمال و ما يتعلق بها من وصفي الإيمان و الكفر أو الإيمان و الشرك فيجوز عليها الازدواجية الوصفية، و هنا يمكننا القول أن أي عمل إيماني يقع من الكافر أو المشرك فهو مقبول و معتبر بما لحقه من وصف الإيمان، و لا يدل على أن صاحبه يستحق وصف و اسم الإيمان المنوط به الجزاء يوم القيامة بالجنة و الخلود فيها.

الباب الأول

الدراسة القرآنية

الفصل الثالث

تزيين سوء أعمالهم يقتضي وجود الحسن و يبين معنى الحبط

في هذا الفصل نظهر العلاقة الدلالية ما بين حسبان و ظن الكفار و المشركين لأعمالهم السيئة أنها حسنة و أنها نافعة لهم على مقتضى طبيعة الإنسان في جلب المنفعة و درء المفسدة، و نطاق المنفعة و المفسدة دائما ما يكون مرهون باعتقاد و إيمان الإنسان في الحياة، هل هي الحياة الدنيا فقط أم هناك حياة أخرى بعد الموت؟، و أغلب الكفار و المشركين و المنافقين يتم وصفهم أنهم كفار بالآخرة و بالبعث و النشور و الحساب، و لذلك يعلقون آمال المنفعة القصوى على حياتهم الدنيا لأنهم لا يؤمنون إلا بها.

و بناء على رؤيتهم بالمنفعة من جراء أعمالهم للحياة الدنيا و التي منها أكبر همهم و هو ما يخص الصد عن سبيل الله و محاربة الدين بما تنطوي عليهم ضمائرهم من مكر و خداع و نفاق، فأعمالهم تقع منهم على مقتضى هذا الاعتقاد و التصور للمنفعة و المضرة، و من هنا يتجلى معنى الحبط و الإضلال في الدنيا و الآخرة، و إذا أدخلنا أعمالهم الحسنة في معنى الحبط فهو صحيح أيضا على ظنهم أنه سينفع في الآخرة عندما يروا أعمالهم يوم القيامة فيجدونه قد حبط بسيئاتهم فلا يجدون له نفعا.

و أشهر آية في مسألة حبط أعمال الكفار هي آية الكهف ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]، و قد انتابتني الحيرة هل أضعها هنا لأجل أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أم أضعها في فصل

الحبط لأنها أشهر و أدل على هذه المسألة، فآثرت أن أبقيها في فصل الحبط و لكن يجب أن يستحضر معناها هنا أيضا لشدة الوثاقة ما بين الحسبان و الحبط و الإضلال.

و على العموم نوجز فيها دلالة مهمة فالله سبحانه يصفهم هنا بأن أعمالهم خسرانه فلا تأتي بأي مكسب رغم تنكفهم العمل، و أن سعيهم بتوسل هذه الأعمال المعلق عليها تحقيق إنجازات معينة في قصودهم بها، قد ضلت وجهتها التي يأملوها فلم تقع موقعها المظنون و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا بهذه الأعمال على مقتضى ما عقدوا عليه قلوبهم، و أن وصف ما هم عليه من عقد القلوب هو الكفر بآيات الله و بلقائه، فحبطت أعمالهم فلم تأتي بما علقوا عليها من مآل و آمال لا في الدنيا التي ظنوا أنه لا حياة بعدها، و لا في الآخرة التي كفروا بها بمقتضى ما آلت له عقولهم القاصرة و عاداتهم الباطلة من المشاهدات الحسية.

ثم ننتقل لتوصيف حالهم الذي يثبت لهم حسبان الحسن لأعمالهم، أي أنهم كانوا في وضع يثبت لهم الشك و أنهم يطلبون الدلائل و البراهين على مقتضى قصور عقولهم ليقبلوا دعوة الرسل، أي أنهم غير رافضين لأصل الدعوة و لا لذاتها و لكن ينقصهم الاطمئنان لها فقط، و هم بهذا حسبوا أنفسهم بأعمالهم هذه أي التي تقع منهم للتثبت و التحقق و التي تقع منهم خيرة و حسنة بمقتضى دينهم الذي ارتضوه فظنوا أنهم على صواب من الأمر لدرجة التبجح به و وضع أنفسهم في مواجهة و جدال مع دعوة الرسل لإثبات أنهم على الحق، و في الآيات الآتية توضيح لما سبق:

﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأنفال ﴿٣٢﴾ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾ الكهف ﴿٥٦﴾● ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ﴾ هود ﴿١٢﴾● ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام ﴿٣٧﴾● ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ طه ﴿١٣٣﴾● ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ الأنبياء ﴿٥﴾● ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الشعراء ﴿١٥٤﴾● ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ المؤمنون ﴿٢٤﴾● ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ البقرة ﴿٢٦﴾● ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الرعد ﴿٢٧﴾● {﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ الحج ﴿٥٥﴾● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان ﴿٣٢﴾.

الآية رقم ١

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٧-٨]

** بقول (سوء عمله) قد أخرج الحسن منه، فهو تخصيص للسيء منه، و لو كان عمل الكافر كله سوء لم يكن لذكر (سوء) فائدة، و لا بد من سبب شرعي أضفى السوء على أعماله تلزمه الحجة به لو أراد المداركة و هذا يدل على أن الحسن و السوء صفات شرعية[١] و هي التي يناط بها الأجر الكبير و العذاب الشديد، أما صفة الحسن بالمنظور الشخصي لا عبرة بها ما دامت خالفت الوصف الشرعي للعمل، و بالمفهوم من الآية قد يكون له عمل حسن يراه حسنا على مقتضى الحسن الشرعي و هذا العمل معتبر منه، و من خلال وصفهم فإنهم كافرون أي أن حسن أعمالهم ستكون في الفروع التي لا تغني عنهم يوم القيامة لأنهم فقدوا شرط الإيمان الذي يستوجب به المنفعة من الأعمال الحسنة.

و سننقل كلام العلماء على أن المقصود من الكافر الضال هنا أو من يشبهه في ضلاله أنه الذي يرى عمله (السيئ على الحقيقة) حسنا فيتدين به و يجادل عنه و قد يقاتل عليه، و لذلك استبعدوا الذين يعملون السيئات و هم يعلمون أنها سيئة و لا تحل لهم، و نحن نتحدث عن

---

[١] و في هذا الصدد يصرح ابن عرفة قائلا: (المعنى ظنه حسنا من جهة الشرع، أي اعتقد أن الشرع حسنه.) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٣/ ٣٢٩). و القونوي: (والمراد القبح والحسن الشرعيان أي فاعتقد المنهي عنه مأمورا به والمأمور به منهيا) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٦/ ١٨).

عاملين للحسنات و هم يعلمون أنها حسنات، بل و مرجعية الحسن فيها هي الشرع و ليس الاستحسان العقلي فقط، و حال كونهم مؤمنين بالله و بالآخرة و بالحساب و الميزان و الجنة و النار.

- الفراء: (**وقوله: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا يقول: شبه عليه عمله، فرأى سيئه حسنا.**) [1]

- ابن قتيبة: (**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا أي شُبِّهَ عليه.**) [2]

- الطبري: (**يقول تعالى ذكره: أفمن حسَّن له الشيطان أعماله السيئة من** معاصي الله والكفر به، وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان، **فرآه حسنًا فحسب سيىء ذلك حسنًا، وظن أن قبحه جميل، لتزيين الشيطان ذلك له.**) [3]

---

[1] معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٦٦).

[2] غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٦٠). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٥/ ٤٤١)

[3] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٠/ ٤٤١). الوجيز للواحدي (ص: ٨٩٠). تفسير ابن برجان (٤/ ٤٣٨).

- ابن أبي حاتم: (عن أبي قلابة أنه سئل، عن هذه الآية أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا أهم عمالنا هؤلاء الذين يصنعون؟ قال: ليس هم. إن هؤلاء ليس أحدهم يأتي شيئا مما لا يحل له إلا قد عرف أن ذلك حرام عليه. إن أتى الزنا فهو حرام، أو قتل النفس فهو حرام، إنما أولئك أهل الملل. اليهود، والنصارى، والمجوس، وأظن الخوارج منهم، لأن الخارجي يخرج بسيفه على جميع أهل البصرة، وقد عرف أنه ليس ينال حاجته منهم، وأنهم سوف يقتلونه، ولولا أنه من دينه ما فعل ذلك.) (1)

- السمرقندي: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ يعني: قبيح عمله كمن لم يزين له ذلك فَرَآهُ حَسَناً يعني: فظنه حقاً.) (2)

- الثعلبي: (أي: شُبِّه ومُوِّه عليه، وحسن له سُوءُ عَمَلِهِ قبيح فعله./ فَرَآهُ حَسَنًا زين له ذلك الشيطان بالوسواس، ونفسه تميله إلى الشبهة وترك النظر في الحجة المؤدية إلى الحق، والله سبحانه يخلق ذلك في قلبه، وجوابه محذوف مجازه: أفمن زين له سوء عمله كمن زين له حسن عمله ورأى الحق حقًّا والباطل باطلًا، نظيره: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ وقوله أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ونحوهما.)(3)

- الطوسي: (يعني الكفار زينت نفوسهم لهم أعمالهم السيئة فتصوروها حسنة او الشيطان

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم - محققا (10/ 3172).

(2) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (3/ 100). تفسير البغوي - إحياء التراث (3/ 688).

(3) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (22/ 161- 162). تفسير البغوي - إحياء التراث (3/ 688).

يزنيها لهم ...

وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إن المعارف ضرورة، لأنه دل على انهم رأوا اعمالهم السيئة حسنة.) [1]

- القشيري: (معنى الآية: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا كمن ليس كذلك؟ لا يستويان! ومعنى «زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» أن الكافر يتوهّم أنّ عمله حسن، قال تعالى: «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»)[2]

- الواحدي: (وقال سعيد بن جبير: يحسب الناس أن هذا في تزيين الخطايا لمن ركب منها شيئًا وليس كذلك، ولكنها الزينة في الملل والأهواء التي خالفت الهدى، فإن أهلها يحسبون أنهم يحسنون. ألا ترى النصارى يدعون لله ولدًا ويحسبون أنهم يحسنون، وتتقرب بذلك إلى الله ولا يحب أن يزني ويسرق، وله الدنيا وما فيها، واحتج على هذا بقوله: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ قال: ألا ترى ذلك صار في الضلالة والهدى وليس فيها يذهب الناس إليه من العمل.) [3]

- السمعاني: (والأولى أن يقال: إن الآية نزلت في الكفار [4]؛ لأن عليه أكثر أهل التفسير. وعن قتادة: أنه قال: منهم الخوارج الذين يستحلون الدماء والأموال، قال: وأما أهل الكبائر فليس

---

[1] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٨/ ٤٠١، بترقيم الشاملة آليا).

[2] لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ١٩٤).

[3] التفسير البسيط (١٨/ ٤٠٣). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٣/ ٤٠٠).

[4] يقول القرطبي: (قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال، لقوله تعالى: ليس عليك هداهم [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [آل عمران: ١٧٦]) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٢٥).

منهم؛ لأنهم لا يستحلون الكبائر. وكذلك العمال الظلمة، لأنهم يظلمون، ويعلمون أنها ليست بحلال لهم.) (١)

- الرازي: (يعني ليس من عمل سيئا كالذي عمل صالحا،...، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئا إلا قليل، فكان الكافر يقول الذي له العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها، والذي له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فإن المحسن غير، ومن زين له العمل السيء فرآه حسنا غير، بل الذين زين لهم السيء دون من أساء وعلم أنه مسيء فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذي لا يعلم يصر على الذنوب....)(٢)

- البيضاوي: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا تقرير له أي أفمن زين له سوء عمله بأن غلب وهمه وهواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقا والقبيح حسنا، كمن لم يزين له بل وفق حتى عرف الحق واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه) (٣)

- ابن كثير: (قال تعالى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالا سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٤)

---

(١) تفسير السمعاني (٤/ ٣٤٧). تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٦٨٨). تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ٤٥٣).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٦/ ٢٢٤).

(٣) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٥٤). التفسير من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨) (٣/ ٢٨٣). حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٧/ ٢١٥).

(٤) تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٤٧٣)

- ابن عرفة: (الهمزة للإنكار لَا للتقرير، وفيه دليل للمعتزلة القائلين: بأن [العقل] يحسن ويقبح، وجوابه: أن المعنى ظنه حسنا من جهة الشرع، أي اعتقد أن الشرع حسنه.

وفيه دليل ما يقول الفخر: أن العاصي لَا يعصي وهو جاهل، ولا يتصور من العالم حين علمه عصيانه بوجه، فهو يظن أن الأرجح فعل المعصية لقوله تعالى: (فَرَآهُ حَسَنًا).) [(١)]

- النيسابوري: (والمعنى أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ من الفريقين كمن لم يزين له. ولا ريب أن المزين لهم عملهم هم أهل الأهواء والبدع الذين لا مستند لهم في مأخذهم سوى التقليد واتباع الهوى.) [(٢)]

- البقاعي: (وكان الكفار يدعون أنهم الفائزون قناعة بالنظر إلى ما هم فيه، ويدعون أنهم أبصر الناس وأحسنهم أعمالاً وكذا كل عاص ومبتدع، كان ذلك سبباً في إنكار تساويهما، فأنكره مبيناً السبب في ضلالهم... فقال: أفمن ولما كان الضار هو التزيين من غير نظر إلى فاعل معين بني للمفعول قوله: زين له سوء عمله أي قبحه الذي من شأنه أن يسوء صاحبه حالاً أو مآلاً... فقال: فرآه أي السيئ بسبب التزيين، حسناً أي فركبه، بما أشار إليه إضافة العمل إليه، وطوى المشبه به وهو كمن أبصر الأمور على حقائقها فاتبع الحسن واجتنب السيئ،...)[(٣)]

[(١)] تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٣/ ٣٢٩).

[(٢)] تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥/ ٥٠٨). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ١٤٤)

[(٣)] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ١٤). السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٣١٤).

- الشيخ علوان: (**يعنى أيزعم الزاعم ان من زين وحسن الشيطان عمله** السوء **القبيح في الواقع فخيله حسنا بحسب زعمه الفاسد واعتقاده الباطل** كمن كان عمله حسنا في الواقع حقا في نفس الأمر واعتقده ايضا **كذلك حتى يكونا متساويين في استحقاق الأجر الجزيل والجزاء الجميل كلا وحاشا ان يكونا سيان بل شتان ما بينهما**) [1]

- القونوي: (**وهذا صفة الكفار... قوله والقبيح الخ. عطف تفسير لما قبله،** والمراد القبح والحسن الشرعيان **أي فاعتقد المنهي عنه مأمورا به والمأمور به منهيا، ولم يذكر هذا الشق لاستلزام المذكور ذلك، وأيضا الكلام فيمن ارتكب العمل** السوء **وهذا وجه التخصص بالذكر.**

قوله على ما هي له أي في الواقع ونفس الأمر لا بمجرد الوهم والتخييل كما في مقابليه.) [2]

---

[1] الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ١٨٥). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٥٢٠). التفسير المظهري (٨/ ٤٤). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٥٤٥، بترقيم الشاملة آليا).

[2] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٦/ ١٨).

الآية رقم ٢

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: ٧-٨]

- قصر جزاء العذاب الشديد على الكفر فقط فيه إشعار قوي أن أعمالهم الصالحة لا تلقى نفس المصير، و لأجل اختلاف مصيرها لم تذكر في مقتضى جزاؤهم، و العذاب الشديد له صور و كيفيات تتفاوت في القدر و الشدة و لكن قدره الأساسي مشترك بين الذين كفروا جميعهم و المعني به الخلود في النار، و يكون وصف الشدة ثابت للجميع لأنه وصف للعذاب فليس فيه تخصيص أو تقييد، و في المقابل نجد أن الذين آمنوا لم تذكر وحدها مع نوعية جزائهم (مغفرة وأجر كبير) لأن الأعمال الصالحة في موضعها الصحيح المترتب عليه المغفرة و الأجر الكبير في الجنة.

- الحسن و السوء بالنسبة للأعمال له منظورين: من منظور الحق فمن وافقه فهو الحسن و من خالفه فهو السوء، أما من منظور المشرك و الكافر فقد يرى السوء حسن و هذا هو التزيين، و قد يرى الحسن حسنا، و قد يرى الحسن سيئا، و لكن هل رؤيته للحسن بمعيار الشرع؟ بمعنى هل يجعل الشرع مصدر للتحليل و التحريم؟ هل يجعل الله سبحانه و تعالى جهة التلقي و الإقرار؟ و كل هذا على اعتبار رؤيته للحق و الباطل و ما يتدين به.

و الشاهد إذا صادفت رؤيته لما يراه حق في نظره؛ للحق الشرعي فهو حق معتبر، و إذا رأى الباطل الشرعي حقا فهو ضلال، و إذا رأى الحق الشرعي باطلا فهو ضلال، و إذا رأى الباطل

الشرعي باطلا فهو حق، خاصة إذا كان ممن يدعي عبادة الله و التقرب إليه.

فرؤية المشرك لحسن عمله غير كافية و لا دليلا على اعتبار حسنها، لأن مصدر الحسن و السوء هو شرع الله أي البينة، و بما أن الله أخذ عليهم رؤيتهم للسوء حسن فالمفهوم أنه لا يُأخذ عليهم؛ بل يقره إذا رأوا الحسن الشرعي حسنا، أي إذا توافق حسن الرائي مع حسن المرئي فهو الحق.

و من الاستدلالات المهمة من الآية أن الله سبحانه و تعالى وصف رؤيتهم للسوء أنه حسن أنه من إضلاله تعالى لهم:فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ و على ذلك عندما نجد أن الله أضل أعمالهم نعرف أن المقصود أن الله زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، و عليه لا يكون وصف الإضلال لما أحسنوه حقا لأن حسنه آت من الحق و توافق رؤية الكافر له لا تغير وصف الحق فضلا عن أن يكون قصده إصابة حق الله فيما أمر باتباع شرعه، فمثل هذه الأعمال لا يتصور وصفها بأنها ضلال في أصلها، و لكن بالتأويل ينصرف الإضلال للثواب عليها بأن ثوابها يضل في الآخرة فلا يوجد بسبب مانع الكفر و الشرك، فضلال الثواب أو الحسنة يكون بإزاء السيئات في الحساب و الموازنة فقط.

و من الاستدلالات أيضا أننا نجعل رؤيتهم للحسن بالحسبان هي الركيزة الأساسية لتفسير أي وصف لأعمالهم بأنها حابطة، فعندما يذكرهم الله بأن أعمالهم حابطة فلا بد أنها من رؤيتهم للسيء حسن، فيكون المقصود بالحبط هو حبط أعمالهم المحسوبة و المظنونة و هي الأعمال السيئة، و السوء إما لظاهرها و باطنها و هي الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و يظنون أن الله أمرهم بها أو على الأقل راض عنها، و أيضا الصد عن سبيل الله و هم يحسبون أنهم يحسنون

صنعا، و يشمل السيئة باطنا أم صورتها الظاهرية فهي حسنة كإنفاقهم رياء و سمعة و شهرة أو نفاقا. فيكون الحبط بإزاء منفعتها المتوهمة.

* الاستدلال من آيات الحسبان و الظن و التزيين أن أعمالهم السيئة شرعا و التي في نظرهم هي حسنة، و عليه فإن أعمالهم الغير سيئة الخيرة و الموافقة للشرع فضلا على أنها من الشرع و تقع على جهة التعبد و التقرب منهم هي حسنة من منظورين من منظورهم و من منظور الحق، و من جهة استدلالية أخرى نقول أن أعمالهم الموافقة و المتوافقة مع الشرع لا يمكن أن نتنصل من تسميتها حسنة و من نسبتها إليهم، و عليه فكل آية عامة تعلق جزاء أو ثواب على مطلق العمل الحسن فهم داخلون فيها، خاصة و أن منظومتنا المعرفية لمعرفة الحسن و السيء هو الشريعة، فكل عمل تم وصفه بالحسن أو بدلالة الأمر أو النهي، و بدلالة المدح فهو حسن.

و يجب التنبه لمسألة الخلط ما بين المصطلحات أو تعلقاتها، فمثلا هل يمكن الجمع بين عدم القبول و الحسن؟ أي أن يكون هناك عملا لا يُقبل و لكنه في نفسه حسنا، لأن اعتبارات الحسن تغاير اعتبارات القبول، و بمعنى أدق كل عمل مأمور به قد لا يكون مقبولا، و لا يرجع عدم القبول على العمل بالقبح أو السوء الظاهري من حيثية التكليف و الأداء، و بيان ذلك أن النظرة للعمل تكون باعتبارين، الظاهري فقط من حيث التكليف و الأداء، و الظاهري مع الباطني، فنحن المكلفون ليس لنا غير الظاهر فإذا كان متصفا بالشرعية من شروط و انتفاء موانع فهو حسن، حتى و لو كان غير مقبولا بل حتى و لو كان شركا بما لحقه من نفاق أو رياء. فمسألة القبول و عدمه خاصة بمعلومية السر و أخفى و هذه لله وحده من إخلاص و نية وقصد ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ

اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣]، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان: ٢٣]، و أول مثاله ما وقع من قربان قابيل و هابيل، فلا أحد يستطيع أن يقول أن تقرب قابيل بقربانه لله هو في نفسه غير حسن أو سيء على مستوى الظاهر، أما على المستوى الباطني فلم يُتقبل منه لأنه لم يكن من المتقين و هذه لا يعلمها إلا الله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]

و كذلك النفقات في وجوه الخير و في سبيل الله فهذه حسنة بظاهرها أما قبولها و عدم قبولها لا يعلمها إلا الله، و لذلك لم يقبلها الله من المنافقين لأنهم يقرونها بالكره لها، و الكره لها أمر قلبي، و لو فسرناه بالإكراه فهو يحمل الكره القلبي ضرورة، و يكون الخارجي غير ظاهر لأن من أكرههم هو رؤسائهم أو خوفهم أو تقيتهم و كلها شؤون غير مرئية في أداء النفقة ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤]

و من جهة أخرى فإن عمل السوء هو سوء سواء كان صادرا من مسلم أو مشرك، و الله لا يأمر به إطلاقا و لا يرضى عنه، و بالمقابل فإن الله يأمر بحسن الأعمال فالذي لم يُقبل منه السوء لأنه سوء ما المانع أن يُقبل منه الحسن لأنه حسن أو على أقل تقدير ما المانع أن يُقر على عمله الحسن، فالله واحد كمعبود من جهة عبيده كعبيد فاتحدت جهتي الاعتبار بالوحدانية فمن أخرج أحد من عبيده من هذه العلاقة فعليه الدليل، فالله تعالى قد عاتب المشركين على فعلهم السوء و نسبته إليه، و هذا يؤكد على هذه العلاقة أنهم حال كونهم مشركين ما زالوا في معية

وحدانية التعبد بشرعه، و من يريد إخراجهم عن هذا الاقتضاء يريد أن يفرق بين الله و عبيده، و يجعل الله آمرا بالنهي فقط، أي أن الكفار منهيون عن الفواحش و إن فعلوها فيعاقبون عليها، أما إذا فعلوا المحاسن فهي و العدم سواء !، فالذي أمر و نهى واحد، و الذي أؤتمر واحد فمن أين جاء التفريق ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨]﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]

- و قد أثبت الله للمشركين تحليل الحرام و تحريم الحلال، و هذا يدل على أنهم مكلفون و ملزمون بما أحله الله و حرمه الله، و أنهم مؤاخذون على التحليل و التحريم لما خالفوا به أمر الله، و بما أنهم معاقبون على التحليل و التحريم فيدل على أنهم مكلفون بالتزام ما أحله الله و ما حرمه الله، أي أنهم مُعَبَّدون لله فيما حلل و حرم، فمن التزم ما أحل الله فقد أمن العقاب، لأنه لا يقول أحد أن المشرك معاقب على ترك الصلاة كما أنه يعاقب على فعل الصلاة، فلو اعتبرنا الأمن من العقاب بفعل ما أمره الله له إثابة لم يجاوزنا الصواب في القول، و هذا أقل قدر دلالي يلزم الجميع القائلين بتكليف الكفار و مؤاخذتهم على الفروع، و من باب الترقي الدلالي نقول أن ما زاد على أمن العقوبة يتجه لموازنة سيئاته أيضا فيكون هذا هو الخيرية التي وعده الله بها.

- بالنظر لبعض مصادر الدلالة التركيبية في هذه الآية و علاقتها بغيرها مثل نسبة الأعمال للمشركين (عمله) ذكر الضلال كجزاء لهم على هذه الأعمال، و الضلال هنا مبدأه الدنيا التي فيها أعمالهم، أي أن أعمالهم السيئة التي زُنيت لهم فرأوها حسنة ستضل في الدنيا فلا ينتفعون

منها بأي شيء، ثم في الآخرة قد ذكر الله مصيرهم في الآية التي سبقت هذه الآية أن الذين كفروا لهم عذاب شديد، و الدليل على أن المقصود أعمالهم التي في الدنيا التي هي قنطرة للآخرة أن الله عليم بما يصنعون، و نكتة التصريح بيصنعون بدلا من يعملون لبيان التصنع فيها بمزيد قصد و عناية فهي مسبوكة و محبوكة لغرض معين رأوه حسنا.

و الشاهد أن الأعمال التي أبهمت أو أطلقت في مواضع أخرى قد عينت هنا بأنها السيئة و المزينة لهم، و أنها ضلال و متوعدين عليها.

و لشدة ظهور المعنى من الآية فلن نكثر من نقل كلام المفسرين إلا كنموذج يمثل المعنى المراد، أو لنكتة أو فائدة، فكل مفسر سيثبت أن أعمالهم سيئة تُرى منهم على أنها حسنة و هذا الظاهر من الآية، أما الفائدة لو ذكر المفسر أن توقعه منفعة من هذه الأعمال هو محور وصفه بالضلال، خاصة لو قدرنا أن (يضل) أنها للأعمال، فكأن التقدير أن الله يضل أعمالهم.

- الطبري: (يقول تعالى ذكره: أفمن حسَّن له الشيطان أعماله السيئة من معاصي الله والكفر به، وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان، فرآه حسنًا فحسب سيىء ذلك حسنًا، وظن أن قبحه جميل، لتزيين الشيطان ذلك له.) (١)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٠/ ٤٤١). معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٦٦): (فرأى سيئه حسنا.). غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٦٠): (أي شُبِّهَ عليه). لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ١٩٤): (الكافر يتوهّم أنّ عمله حسن).

- الماتريدي: (وقال في آية أخرى: أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ، فيشبه أن يكون هذا في أعمالهم السيئة في أنفسها فرأوها صالحة حسنة؛ كقوله: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) [1]

- ابن عرفة: (المعنى ظنه حسنا من جهة الشرع، أي اعتقد أن الشرع حسنه.) [2]

- القونوي: (والمراد القبح والحسن الشرعيان أي فاعتقد المنهي عنه مأمورا به والمأمور به منهيا) [3]

أي أن هيمنة التصور و الاستمداد من الله سواء كان فعل من بقايا شرع صحف إبراهيم، أو توهما بالتقليد و الاتباع لسلفهم من الآباء، أو بتوهم رضا و مشيئة الله لما يحلونه و يحرمونه، و بهذا فإن منظومة التحليل و التحريم مُأطرة بشرع الله (توهما أو واقعا)، و الحاصل من هذا أن ما رآه المشرك حسن و هو في الواقع حسن شرعا فهو مصيب، و كذلك ما رآه باطلا و هو في الواقع باطلا شرعا فهو مصيب.

و الاستحسان إما أن يكون ديني أو عقلي أو حسي، فإذا وافق العقلي الشرعي فهو معتبر باعتبار الفطرة التي فطر الناس عليها فالكل من الله، فالشرع تذكير و حث لما فُطر عليه الإنسان و العقل شاهد على ذلك.

---

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ٣٧٩).

[2] تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٣/ ٣٢٩).

[3] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٦/ ١٨).

الآية رقم ٣

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٧]

و كما سبق فإنه هنا أيضا تخصيص لنوعية أعمالهم بالسوء و أن هذا ضلال، و كعنوان عام لسوء هذه الأعمال بأنها ما يحلون بها الحرام الذي حرمه الله، مع التأكيد على وجود الإطار العام الشرعي بقصدهم المواطأة، فإنهم يحرمون أربعة أشهر كما حرمها الله و لكن موافقتهم لشرع الله هو في مواطئة عدتهم فقط دون أعيانهم، و الشاهد أن معيار الحسن و السوء داخل المنظومة الشرعية، و أن موضع المؤاخذة على عدم التزامهم بما حرمه الله عينا، أي أنهم لو كانوا التزموا لما عاتبهم الله و أخذ عليهم و لا وصف عملهم بالتزامهم ما حرمه الله بأنه من سوء أعمالهم.

و نذكر أيضا نكتة إضافة الأعمال السيئة لهم بما يشير بتخصيص هذه النوعية لوصفهم بالضلال و الكفر أي بإظهار العلاقة السببية، و تفصيل هذه الأعمال بكونها تحليل ما حرمه الله، سواء في شأن الشهور نفسها، أو ما يحدث في الشهور المحرمة من انتهاك و استحلال للمحرمات، أي أن تحليل ما حرمه الله كفر ثم تحليل ما حرمه الله في الأشهر الحرم زيادة في الكفر.

و هنا تفصيل و بيان لنوعية سوء الأعمال التي جاءت عامة و مطلقة في سورة فاطر آية ٨، و عليه يمكننا الاستدلال على نوعية الأعمال السوء فتكون هي كل عمل فيه مخالفة لأمر الله كما بين الله في شأن النسيء بأنه تحليل لما حرم الله أو تحريم لما حل.

سننقل من التفاسير من صرح بإظهار علاقة المشركين بما شرعه الله و سبب هذا في وصفهم بالكفر و سوء أعمالهم.

و هل هناك من جعل (يضل) وصفا لأعمالهم و بالتالي عندما نرى في سياقات أخرى (أضل أعمالهم) يكون المقصود بها أعمالهم السيئة التي يروها حسنة، خاصة في نطاق الشرع المرتبط بكون أن الله هو المشرع فيلتمسون منه التقرب و الطاعة.

- الهواري: (وتحريفهم أمر الله زيادة في الكفر، أي زيادة في كفرهم.)[1]

- الطبري: (يكون معناه: إنما التأخير الذي يؤخِّره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهن حلالا والحلال منهن حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكامَ الله وآياته.) [2]، و قال: (يقول: حُسِّن لهم وحُبِّب إليهم سيئ أعمالهم وقبيحها، وما خولف به أمرُ الله وطاعته) [3]

- الماتريدي: (فعاب اللهَّ عليهم تحليل ما حرم من الشهر، وجعله زيادة في الكفر) [4]

- الطبراني: (أي حسن في قلوبهم قبح أعمالهم من تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله) [5]

---

[1] تفسير الهواري (٢/ ١٤).

[2] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٤/ ٢٤٣).

[3] تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٤).

[4] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٥/ ٣٦٦).

[5] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

- الجصاص: (فأخبر الله أن النسيء الذي كانوا يفعلونه كفر لأن الزيادة في الكفر لا تكون إلا كفرا لاستحلالهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله فكان القوم كفارا باعتقادهم الشرك ثم ازدادوا كفرا بالنسيء.) [1]

- الماوردي: (سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ها هنا وجهان: أحدهما: أنه ما قدمه من إحلالهم ما حرم الله تعالى وتحريمهم ما أحله الله. الثاني: أنه الرياء، قاله جعفر بن محمد.) [2]

- الطوسي: (وإنما سمي انساؤهم زيادة في الكفر من حيث أنهم اعتقدوا أن ذلك صحيح وصواب فلذلك كان كفرا فلا حجة في ذلك ان تكون افعال الجوارح كفرا.) [3]

- ابن عطية: (وقوله زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ أي جار في كفرهم بالله وخلاف منهم للحق فالكفر متكثر بهذا الفعل الذي هو باطل في نفسه.) [4]

---

[1] أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٤/ ٣٠٩).

[2] تفسير الماوردي = النكت والعيون (٢/ ٣٦٢).

[3] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٥/ ٢١٢).

[4] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٢).

الآية رقم ٤

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام: ١٠٨]

و هذا أيضا بيان لأحد الأعمال السيئة التي يقترفها المشركون الداخلة في التزيين، و التي جاءت تفصيلا لعموم نسبة الأعمال لهم في قوله (أعمالهم)، و فيها دلالة على نوعية الأعمال المقصودة عند ورد تعليق العذاب أو عدم المنفعة بضرب الأمثال في مواضع يقتضي السياق أن تكون عامة، فيجب حينها أن تصرف لمثل هذه الأعمال التي فصلها و بينها الله في كثير من الآيات و هذه الآية منها.

فهنا بيان أن المشركين يدعون من دون الله شركاؤهم و لشدة حبهم لها و حميتهم قد يعتدون فيسبون الله جهلا لأنهم ينكروا الرحمن و ينكروا عبادة إله واحد مع شكهم برسالة محمد ﷺ و فيما يبلغ به عن ربه، و من هنا انتفى في حقهم العمد و سبق العلم لما يسبونه، و الشاهد أن هذه بيان لحال أعمالهم المتوعدون عليها من عبادة غيره و سبهم لله بإنكار نبوة محمد ﷺ.

وفي الآية أيضا بيان لما سبق الإشارة إليه بالمنظومة الشرعية الخاصة بالمشركين، فقد أثبت الله لهم في هاتين الآيتين أنهم عندما يريدوا أن يقسموا مؤكدين بأقصى بيان لما عقد عليه قلبهم أنهم يقسمون بالله، و أثبت لهم أيضا مدى حرمة الله عندهم فهم لا يقصدون التنقص أو سب الله عمدا، و لكن يأتي السب منهم جهلا عندما يسبوا رب المسلمين.

و في هذه الآية دلالة قوية و صريحة أن اسم (الله) قائم على دلالته و مسماه بنفسه حتى من الذين يشركون معه غيره فيعبدون من دونه من خلقه، فإيمانهم بالله مع شركهم تام على مسماه عند

اطلاقه منهم، و من أكبر الأدلة على ذلك هو قياس الأولى أن الله قد جعل سبهم لرب أو إله محمد ﷺ هو سب لله سبحانه و تعالى رغم أنهم لا يقصدون سب الله الذي يؤمنون به، و أن تصورهم لرب أو إله محمد ﷺ أنه من الباطل و رغم ذلك يقع السب منهم على الحقيقة التي لا يقصدونها عمدا و بسبق علم بل بجهل.

ننقل من التفاسير بيان نوعية هذه الأعمال التي أطلقت (عملهم) و (يعملون).

- مقاتل بن سليمان: (وأنزل الله «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله» يعني يعبدون من دون الله من الآلهة فيسبوا الله عدوا بغير علم يعلمونه أنهم يسبون الله يعني أهل مكة كذلك يعني هكذا زينا لكل أمة عملهم يعنى ضلالتهم ثم إلى ربهم مرجعهم في الآخرة فينبئهم بما كانوا يعملون) [1]

- الطبري: (يقول تعالى ذكره: كما زيّنا لهؤلاء العادلين بربهم الأوثَانَ والأصنام، عبادةَ الأوثان وطاعةَ الشيطان بخذلاننا إيّاهم عن طاعة الرحمن، كذلك زيَّنا لكل جماعةٍ اجتمعت على عملٍ من الأعمال من طاعة الله ومعصيته،.... يقول: فيُوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيرًا فخيرًا، وإن كان شرًّا فشرًّا[2]، أو يعفو بفضله، ما لم

[1] تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥٨٣).

[2] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٢١٣).

يكن شركًا أو كفرًا.)[1]

فصَّل الطبري مطلق الأعمال المنسوبة إليهم و المزينة أنها نوعين خيرا و شرا، أي لم يقصر نوعية أعمالهم المزينة بالشر فقط، و فائدة تنويعه لهذه الأعمال المضافة إليهم أنه أثبت في حقهم طاعة و معصية، و أن جزاء الطاعة خيرا و المعصية شرا، و جواز المغفرة لما هو دون الشرك و الكفر، و قد يكون الداع لإدخال الطاعة في مجمل تزيين الأعمال هو ذكر الأمة، فالأمة تجمع الصالح و الطالح، و هذا لا يضر قصر التأويل على الأعمال السيئة عند إطلاق نسبة الأعمال إلى الكفار و المشركين.

- السمرقندي: (قال: كَذلِكَ زَيَّنَّا يقول: هكذا زينا لِكُلِّ أُمَّةٍ يعني: لكل أهل دين عملهم يعني: ضلالتهم في الدنيا عقوبة ومجازاة لهم ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ في الآخرة فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ يعني: فيجازيهم بذلك.)[2]

- الثعلبي: (يعني: كما زَّينا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زيَّنا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية. ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ: يخبرهم ويجازيهم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.)[3]

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٢/ ٣٧).

[2] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٤٧٤).

[3] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١٢/ ١٧٦). نفسه الهداية الى بلوغ النهاية (٣/ ٢١٤٣).

- الواحدي: (﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله لأنهم كانوا يقرون أن الله خالقهم وإن أشركوا به.) [(١)]

و قال: (﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ قال المفسرون. (يعني: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام والأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخِذلان ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر والطاعة والمعصية) [(٢)]، قال ابن عباس في رواية عطاء: (يريد: زينت لأوليائي وأهل طاعتي محبتي وعبادتي، وزينت لأعدائي وأهل معصيتي كفر نعمتي وخذلتهم حتى أشركوا)، قال الزجاج: (وهذا هو القول، لأنه بمنزلة: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨])[(٣)]

- السمعاني: (كذلك زينا لكل أمة عملهم للمؤمنين إيمانهم وللكافرين كفرهم) [(٤)]

- الزمخشري: (زينا لكل أمّة من أمم الكفار سوء عملهم، أو خليناهم وشأنهم ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم: أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم. وقولهم إن

---

(١) التفسير البسيط (٨/ ٣٤٧). زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٥).

(٢) الوجيز للواحدي (ص: ٣٦٩). و نفسه تفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ١٥٠). زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٥).

(٣) التفسير البسيط (٨/ ٣٤٨).

(٤) تفسير السمعاني (٢/ ١٣٥).

الله أمرنا بهذا وزينه لنا فَيُنَبِّئُهُمْ فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.) (١)

- ابن عطية: (كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ إشارة إلى ما زين الله لهؤلاء عبدة الأصنام من التمسك بأصنامهم والذب عنها وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير والشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو بما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء، وقوله ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ يتضمن وعدا جميلا للمحسنين ووعيدا ثقيلا للمسيئين.) (٢)

* الرازي: (صدور الفعل عن العبد يتوقف على حصول الداعي. وبينا أن تلك الداعية لا/ بد وأن تكون بخلق الله تعالى، ولا معنى لتلك الداعية إلا علمه واعتقاده أو ظنه باشتمال ذلك الفعل على نفع زائد، ومصلحة راجحة،....

ثبت أنه يمتنع أن يصدر عن العبد فعل، ولا قول ولا حركة ولا سكون، إلا إذا زين الله تعالى ذلك الفعل في قلبه وضميره واعتقاده،... إنما يختاره لاعتقاده كونه إيمانا وعلما وصدقا وحقا....

الثاني: ثم إنا ننقل الكلام إلى أنه لم اختار ذلك الجهل السابق،...، وهو بسبب ذلك الجهل ظن في الكفر كونه إيمانا وحقا وعلما وصدقا،... فثبت بهذين البرهانين القاطعين أن الذي يدل عليه ظاهر هذه الآية هو الحق الذي لا محيد عنه، وإذا كان الأمر كذلك، فقد بطلت

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٦). قال أبو حيان بعد نقله كلامه: (وهو على طريقته الاعتزالية) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦١٢).

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٣٢). نفسه في البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦١٢).

التأويلات المذكورة بأسرها، لأن المصير إلى التأويل إنما يكون عند تعذر حمل الكلام على ظاهره.

أما لما قام الدليل على أنه لا يمكن العدول عن الظاهر، فقد سقطت هذه التكليفات بأسرها والله أعلم.

وأيضا فقوله تعالى: كذلك زينا لكل أمة عملهم بعد قوله: فيسبوا الله عدوا بغير علم مشعر بأن إقدامهم على ذلك المنكر إنما كان بتزيين الله تعالى. فأما أن يحمل ذلك على أنه تعالى زين الأعمال الصالحة في قلوب الأمم، فهذا كلام منقطع عما قبله، وأيضا فقوله: كذلك زينا لكل أمة عملهم يتناول الأمم الكافرة والمؤمنة، فتخصيص هذا الكلام بالأمة المؤمنة ترك لظاهر العموم [1]، وأما سائر التأويلات، فقد ذكرها صاحب «الكشاف»: وسقوطها لا يخفى، والله أعلم.) [2]

و قد تناول الرازي نسبة تزيين العمل إلى الله على ظاهر الخبر، ثم استدل بالسياق على أن سبهم الله جاء في معرض الحديث عن التزيين فكأن سبهم لله هو من التزيين، و كفرهم بالله هو من التزيين، و الشاهد من كلامه هو تأصيله لداعي العمل من الإنسان عموما و أنه في كل إنسان و هو علمه و اعتقاده أو ظنه أن توقيع هذا العمل فيه نفع و مصلحة زائدة و راجحة، و

---

[1] تفسير القرطبي (٧/ ٦١) حيث قال: (زينا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر). و أبو حيان البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦١٢) حيث قال: (فالآية على عمومها في كل أمة وفي عملهم.). و البيضاوي: (لكل أمة عملهم من الخير والشر) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٧٧).

[2] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٣/ ١١٠ – ١١١).

انه عندما يحصل فيه الداعي نحو الكفر فإنه يراه الحق و الإيمان و الصدق و العدل، ثم تعبيره بصورة قاطعة يقينية عن المسألة بقوله: (يمتنع أن يصدر عن العبد فعل، ولا قول ولا حركة ولا سكون، إلا إذا زين الله تعالى ذلك الفعل في قلبه وضميره واعتقاده) وهو محل الشاهد من كلامه، أن هذا الوصف القائم بالكافر هو الذي يجعل ما يصنعه الله تجاه أعماله موصوفا بالحبط و الإضلال و الإبطال في الدنيا قبل الآخرة، و هذا ظاهر جدا في الآيات أنها تأتي دائما مع أعمالهم السيئة المحسوبة حسنة، و دائما تأتي عندما يحبطها الله فيبطل منفعتها المتوهمة منها، و منفعتها المتوهمة طالما ينص عليها في كثير من المواضع بأنها الصد عن سبيل و إطفاء نور الله و الإنفاق على محاربة الله و رسوله، و كثير من هذه الأعمال.

و الغرض هو إظهار مدى ضعف و وهن محاولة إقحام أعمالهم الحسنة في حبط و إبطال أعمالهم.

- البيضاوي: (كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر بإحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا وتخذيلا، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكل أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم[1]، والمشبه به تزيين سب الله لهم. ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون بالمحاسبة والمجازات عليه.) [2]

---

[1] و هذا هو اختيار ابن كثير تفسير ابن كثير ط العلمية (٣/ ٢٨٣).

[2] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٧٧).

- النسفي: (كذلك مثل ذلك التزيين زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ من أمم الكفار عَمَلَهُمْ وهو كقوله أفمن زين له سوء علمه فرآه حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي من يشاء) [١]

- ابن كثير: (وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه،... فينبئهم بما كانوا يعملون أي يجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.) [٢]

و نكتفي بهذا للتدليل على أن الكافر إذا أقبل على عمل ما فإنه يراه حسنا و ينتظر المنفعة من وراءه، و أن هذه الأعمال يتم توصيفها في تضمين قول الله (يضل من يشاء)، أي أنها أعمال ضالة، فيرتكز إبراز و تبرير استعمال (الحبط) أن يكون دائما بإزاء هذه الأعمال لأنهم يظنونها حق و صواب و إحسان منهم و أن الله امرهم بها او راض عنها أو لم ينهاهم عنا، فتصورهم للحسن تجاه هذه الأعمال الضالة هو في نطاق التصور الشرعي.

---

[١] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٥٢٩).

[٢] تفسير ابن كثير ط العلمية (٣/ ٢٨٣).

الآية رقم ٥

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨]

و تزيين الشيطان لأعمالهم قد تم التصريح به في الآية السابقة و هو خروجهم للصد عن سبيل الله لمحاربة المؤمنين و الرياء، و في (أعمالهم) جمع و عليه يكون خروجهم للصد عن سبيل الله أحد هذه الأعمال، و أي عمل يكون من تزيين الشيطان فلا بد أنه عمل سيء، و هذا يؤشر لتخصيص نوعية الأعمال التي تنسب إليهم في مواضع قرآنية تكون فيها عامة أو مطلقة، و هذا هو الأليق و الأنسب للذين كفروا أو أشركوا، لأن أعمالهم الكفرية و الشركية هي الغالبة عليهم و المقتضية لأن يسموا بالمشركين و الكفار، فلا مجال لإقحام أعمالهم الحسنة أو الخيرة في مجمل أعمالهم التي تكون سيئة و من ثم يلصق بها الجزاء و الوصف السيئ و ما ضربت له الأمثال بالهباء المنثور و بالتراب على الحجر الصلد و بالسراب و ما إلى ذلك، إلا بتأويل معين مفاده عدم منفعتهم بأعمالهم الحسنة كما وضعها الله مقرونة بالإيمان فيكون مكان أثرها الجنة، و الجنة محرمة عليهم فلا يمكن أن يكون أثرها هناك، و لا يمكن أن يكون أثرها في النار، فلا يبقى إلا الحساب و الميزان و استحقاق قدر العذاب فيقل و يخفف.

و سنسرد مجموعة الآيات التي في نفس الدلالة على أن أعمال المشركين و الكفار في المواضع القرآنية هي من تزيين الله أو الشيطان لهم أو من غيره، و كلها أعمال سوء إما قد صرح بها في نفس الآية أو فيما سبقها أو لحقها من آيات، و يعبر عنها بأسلوب العموم و الإطلاق، و أن هذه الأعمال سبب الخسران أو العذاب الأليم أو البوار أو العمى أو عدم الهداية، و كل هذه الأوصاف أو الجزاءات لا يمكن تصورها أنها في أعمال حسنة:

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣]

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤]

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥]

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤]

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢]

﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٧]

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ۝٢٤﴾ [النمل: ٢٤]

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ۝٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ۝١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠]

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝١٨٨﴾ [آل عمران: ١٨٨]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٤]

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ [الأعراف: ٣٠]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ۝٥٩﴾ [الأنفال: ٥٩]

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا۝١٠٢﴾ [الكهف: ١٠٢]

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٤]

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤]

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٧]

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴿٣﴾﴾ [القيامة: ٣]،﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴿٥﴾﴾ [البلد: ٥]

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴿٧﴾﴾ [البلد: ٧]. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴿٣﴾﴾ [الهمزة: ٣]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١-١٢]

الاستدلال العام من مجموع هذه الآيات التي تبين رؤية الفاعل لما يفعله و وصفها الحقيقي و الجزاء عليها، أن حسبانهم و ظنهم أنهم مصلحون و مهتدون و مجازون خيرا على أعمالهم السيئة التي هي إما سيئات أو صد عن سبيل الله أو شر أو إثم أو اتخاذ الشياطين أولياء أو اتخاذ

أولياء من عباد الله، فالشاهد أن ترتيب العذاب على مثل هذه الأعمال لا يكون إلا للأعمال السيئة، فلا مدخل لأعمالهم الحسنة فيها لأنها لا تسمى شرا أو إثما و لا يمكن أن تكون من اتباع الشياطين، و لا يمكن تسميتها ضلال، و لا يجوز أن يكون جزاؤها يوم القيامة هو العذاب عليها، فلا بد أن نخرج الأعمال الحسنة للكفار من عموم الجزاء بالعذاب و من توصيفات الذم عليها أو أن يصير اسم الحسنة سيئة لأن الله وصف أعمالهم بالسيئات.

و بعد عرض كل الآيات التي تناولت المشركين و الكفار و المنافقين تجدها مرصودة لبيان حالهم مع آيات الله و ما يقع منهم من أعمال السوء و المؤاخذة عليها و العذاب المستحق لأجلها، لكي يتذكروا و يرجعوا للحق لينقذوا أنفسهم من عذاب النار، فلا مجال معنوي و دلالي من التعرض لأعمالهم الحسنة أولا لقلتها و ندرتها خاصة التعبدية، أما غير التعبدية فلأجل حظ النفس من الدنيا، ثانيا لأن المقام مقام خلود في عذاب جهنم و لا يدفعه إلا الإيمان و العمل الصالح و بهذه الحيثية لا يوجد موضع لبيان حال أعمالهم الحسنة لأنها ستضل و تبطل و تهلك مع كفرهم و شركهم ونفاقهم، و لن دفع الخلود في نار جهنم، فالأولى هو بيان الكفر و الشرك و ما يؤول إليه من مصير في الدار الآخرة.

و على ما سبق فإن بدلالة المفهوم اللزومي يكون حسبانهم مع العمل الصالح الشرعي يجعل حسبانهم معتبرا خاصة لو كان الله غرضا للتعظيم بغض النظر عن ضلالهم و شركهم و هذا راجع لقطعية دلالة الاسم على المسمى، أي بين اسم الله و الله نفسه، فأي عمل يكون الله قصدهم به يكون صحيحا و معتبرا، لصحة المسمى و لصحة العمل و صحة التكليف.

الباب الأول

الدراسة القرآنية

الفصل الرابع

جزاء أعمالهم الحسنة في الدنيا

في هذا الفصل يتم تناول الآيات التي تفيد مجازاة الكفار على أعمالهم في الدنيا على سبيل التوفية و عدم البخس و نفي الظلم، و هذه القرائن قاطعة على أنها مردود حسن على أعمال حسنة، و بقرائن أخرى في الآيات خاصة منها ما يدل على أنهم بهذه التوفية لن يكون لهم في الآخرة أي نصيب أو خلاق أو طيبات.

و لشدة التشابك و التشاجر ما بين معنى توفية أعمالهم في الدنيا و بين معنى حبط أعمالهم و بطلانها توجد آية تتجاذب مناسبة وضعها في فصلين، فصل الحبط، و فصل توفية الأعمال في الدنيا، و لأهمية هذه الآية و نصيتها في توفية الأعمال سأضعها هنا في فصل توفية الأعمال و لكن يجب أن تظل حاضرة في الذهن مع توضيح معنى الحبط و الإضلال لأعمالهم و هذه الآية هي:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

و سيكون مدار هذا الفصل على محاولة استخراج مناطات توفية الثواب بالنسبة للكافر على أعماله فيما يخص نوعية أعماله (حسنة –حسنة ظاهرا فقط) و مدى ارتباطها بإيمانه (الدنيا فقط – الدنيا و الآخرة)، و كذلك في تسمية هذا المردود على أعماله بـ (حرث الدنيا – ثواب الدنيا – الحياة الدنيا – العاجلة) هل هو منوط بمدى إيمانه بالحياة الدنيا فقط أو لكونه كافر فقط؟.

و هل تسمية التوفية ثوابا يجعلها حسنة شرعية صحيحة الاعتبار الشرعي أو بمجرد إثبات مقابل لها يتصف بالتنعم و المتاع و الطيبات يجعل العمل صحيحا فيعود عليه بوصف الاعتبار

و الصحة الشرعية، بمعنى أن الإثابة مترتبة على الاعتبار، و الاعتبار مترتب على الصحة، و الصحة مترتبة على التكليف، فيكون الحاصل أن الكافر مكلف بالشريعة كلها على حد سواء بدون ترتيب مشروط بأسبقية الإيمان.

و هل العمل الذي يستحق الإثابة يكون له ثوابين: أحدهما في الدنيا و الثاني في الآخرة، أم هو ثواب واحد و له صورتان أحدهما في الدنيا و الثانية في الآخرة؟

و هل توفية ثواب الدنيا يلغي كتابة الحسنة في صحائف الأعمال أم يبقيها كما هي مكتوبة و الذي يلغى فقط هو الثواب في الآخرة؟ و كتابتها في الصحف سيكون لها أثرا في المحاسبة و الموازين أم لا؟

و هل الحكم على الكافر و المشرك و المنافق بأن أعماله حابطة في الدنيا و الآخرة له تأثير على توفيته ثوابه في الدنيا و وزن حسناته في الآخرة، أم هذا دليل على أن الحبط لا يكون إلا في الأعمال السيئة المراد منفعتها بحسبانهم؟

أن الذي يريد ثواب الدنيا فهو مؤمن بالله و يعمل له ما يرضيه طلبا لتحصيل ثوابه و لكن على قدر إيمانه بمكان الثواب يعطيه الله على قدر إيمانه، فلو كان مؤمن بالدنيا كافر بالآخرة يوفيه حسابه و ثوابه في الدنيا و ليس له في الآخرة من نصيب و لا خلاق، و هناك من يطلب في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة فهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا، و هناك من يؤتيه الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة و لا أعلم هل هؤلاء الذين لا يطلبون و يكون مبتغاهم رضا الله فقط فالله أعلم، و الشاهد أن هناك ثلاث فئات من الناس مع ثواب الدنيا و الآخرة

الآية رقم ١

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥-١٦]

توجد بعض القرائن هنا تعين على تعيين نوعية الأعمال المنسوبة للذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، فواضح أنها هي الأعمال الحسنة التي تستحق جزاء عليها، بقرينة توفيتها و قرينة عدم البخس فيها، و يحتمل أيضا أن تكون هي الأعمال الدنيوية المحضة التي لأجل اكتساب و تكاثر للأموال و الأولاد و التمتع بمتاع الدنيا، أي أن من أراد الدنيا و زينتها و عمل لأجل ذلك فلن نمنعه عن التسبب من التكاثر على مقتضى السنن الكونية و الإلهية التي خلق عليها الكائنات و المخلوقات، لأن ليس كل من أراد الدنيا و زينتها نالها، و ليس كل من عمل لها نجح في ذلك، فالتفاضل إذن ناتج من خبرة و جهد العامل و علمه بالأمور مع فضل الله يؤتيه من يشاء.(١)

(١) و هذا المعنى قاله أبو السعود فراجعه في موضعه: إرشاد العقل السليم، ج ٤ ص ١٩٣. و الصاوي أيضا حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص ٨٣٥. والشوكاني في فتح القدير، ج ٢ ص ٥٥٣. و أضاف: (وظاهر قوله: نوف إليهم أعمالهم فيها أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمن ينال من الدنيا أمنيته، وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه.). و مثله تماما فتح البيان للقونجي، ج ٦ ص ١٥٣. أما نفس هذا المعنى قد استفدته من محمد رشيد رضا فهو من نظر له في تفسيره كثيرا فأنظره على سبيل المثال في تفسير المنار، ج ١٢ ص ٤١.

و قد أبدع في تصويره ابن عاشور: (فليس معنى الآية أن من أراد الحياة وزينتها أعطاه الله مراده لأن ألفاظ الآية لا تفيد ذلك لقوله: نوف إليهم أعمالهم، فالتوفية: عدم النقص. وعلقت بالأعمال وهي المساعي. وإضافة الأعمال إلى ضمير هم

و من الفوائد أنه تم الجمع بين توفية الأعمال و عدم بخسها و بين وصفها بالحبط و البطلان، أي أن حبط العمل لا يمنع من توفيته و عدم البخس فيه، و قد يكون التوفية و عدم البخس على الأعمال هي المؤدية لوصف الحبط للأعمال، و أيضا من الفوائد أن استحقاقهم للنار في الآخرة: هل هو بسبب توفية أعمالهم في الدنيا و عدم بخسهم فيها؟ بالطبع لا، و لكنها تقرر أنهم ليس لهم جزاء في الآخرة إلا النار، فعلى افتراض أنهم استهلكوا كل ثوابهم و أجرهم في الدنيا و أن هذا هو السبب، فلا يصلح أيضا سببا لأن العذاب بالنار يكون بسبب الكفر و الشرك و المعاصي، و لا يكون على أعمال استهلكت ثوابها في الدنيا.

و تقرير استحقاق النار في الآخرة يكون أيضا للكفار الذين لهم حسنات يذهبون بها في الآخرة فتوزن لهم و لن تنجيهم من النار، فاتفاق هذه الصورة و التي في الآية في استحقاق النار في الآخرة تنتج أن الجزاء على الأعمال الحسنة لها وجهان: وجه في الدنيا و الآخر في الآخرة، و أن استيفائه في الدنيا لا ينقص من قدره في الآخرة عند الوزن و الموازنة، لأن هذا له صورة جزائية منوطة بالدنيا و الآخر صورته منوطة بالآخرة فتتغاير صفاته و آثاره في كليهما بصفات الدار المجازى فيها.

و قد يحتمل السياق القرآني أن يكون التوفية و عدم البخس لنوع من الأعمال، و الحبط لنوع

تفيد أنها الأعمال التي عنوا بها وأعدوها لصالحهم أي نتركها لهم كما أرادوا لا ندخل عليهم نقصا في ذلك. وهذه التوفية متفاوتة والقدر المشترك فيها بينهم هو خلوهم من كلف الإيمان ومصاعب القيام بالحق والصبر على عصيان الهوى، فكأنه قيل نتركهم وشأنهم في ذلك. وقوله: وهم فيها لا يبخسون أي في الدنيا لا يجازون على كفرهم بجزاء سلب بعض النعم عنهم بل يتركون وشأنهم استدراجا لهم وإمهالا) التحرير و التنوير، ج ١٢ ص ٢٤.

آخر و الباطل لنوع ثالث، و عليه يمكن القول أن التوفية و عدم البخس هي للأعمال الحسنة المستحقة ثواب، و الحبط هي للأعمال السيئة المظنون بها الحسن و المنفعة، و الباطل يكون للأعمال الدنيوية البحتة، و قد يكون الحبط لكل عمل علق عليه منفعة حقيقية أو متوهمة.

و لكن بكل يقين التوفية شيء حسن، و سببها التي هي الأعمال فيها حسن استوجب ذلك و هذا يقيني أيضا، و أن عامل العمل هو الذي ينال هذا الخير، و أن وقوع هذا الخير في الدنيا فقط، و إرادة الدنيا بالأعمال لأجل كون العامل لا يؤمن إلا بها و لا يؤمن بالآخرة، لا أنه يختار ثواب الدنيا على ثواب الآخرة و هو يؤمن بالآخرة، فالآية تتحدث عن منكرو البعث و الحساب، و هذا الاعتقاد لا يمنع من أن يكون منكر البعث يؤمن بالله و يخلص له بعض الأعمال و هذا لأجل الفضل و الرضوان في الدنيا، و عليه فالأعمال هنا المقصود بها ما كانت صحيحة ظاهرا و باطنا و لكن يراد بها ثواب الدنيا، "و النار لأنهم لن يجدوا عملا يثابوا عليه يوم القيامة لأنهم لم يعملوا لها"[1]، "و البطلان لأجل ما يعملون له من ثواب الدنيا لأنه يهلك بهلاك الدنيا "[2].

---

[1] محمد رضا: ((أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار) أي أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار ; لأن الجزاء فيها كالجزاء في الدنيا على الأعمال، وهم لم يعملوا لنعيم الآخرة شيئا) تفسير المنار، ج ١٢ ص ٤١.

[2] ثم وجدت الألوسي قال معناه: (ويحتمل عندي على بعد أن يراد بما كانوا يعملون هو ما استمروا عليه من إرادة الحياة الدنيا وهو غير ما صنعوه من الأعمال التي نسب إليها الحبوط وإطلاق مثل ذلك على الإرادة مما لا بأس به لأنها من أعمال القلب ووجه الإتيان بكان فيه موافقته لما أشار هو إليه وفي الجملة تصريح باستمرار بطلان تلك الإرادة وشرح حالها بعد شرح المريد وشرح أعماله أراد بها الحياة الدنيا وزينتها) روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٣ – ٢٤. و لمحمد رشيد رضا كلام

و ما يقوي هذا التأويل السابق أن الرياء في العمل يجعله فاسدا لا يستحق الثواب عليه أصلا، و يكفيه أنه تم وصفه بأنه شرك كما في الصحيح من الأحاديث و كذلك فيها أن الله لا يثيب عليه أبدا بل يترك الثواب عليه لمن أشرك به معه في العمل، و أن الرياء من صفات الكفار و المنافقين، و قد جعل الله المن و الأذى يبطل الصدقات فكيف بالرياء و عدم الإخلاص فإبطاله للعمل أولى. و هذا ما اختاره تأويلا، و كل ما يأتي فهو مجرد تفاعل مع تأويلات المفسرين لتوجيهها بما لا يعود عليها بالبطلان أو المخالف.

و إذا تنبهنا لأن الله عندما يخبرنا عن الكفار و المشركين يوم القيامة بمحادثاتهم مع الله أو مع غيرهم أو عندما يصف حالهم الله يوم القيامة بمثل أوصاف أنهم الخاسرين و غيرها فإنها تدل على سبق علم منهم أن هناك آخرة، و لكن الحقيقة أن منهم من أنكر و كفر بالبعث و الحساب و الآخرة، فكيف نفهم وصفهم بالخاسرين و هم كانوا غافلين عن هذه الدار و ما فيها فلا تؤثر على قصدهم بالأعمال؟ فهذا يشير أن معاينة الآخرة تغني عن سبق العلم بها أو الإيمان بها و لذلك لم نسمع أن أحدهم تفاجئ بوجود برزخ أو بعث أو حساب و تعذر بذلك بجهله أو عدم علمه أو غفلته، و الشاهد أنه عندما نعلم وصف أعمالهم في الآخرة و حبطها هناك أنه يلزم من ذلك سبق إيمانهم بالآخرة، فكفرهم بها لا يغني عنهم اعتبار سعيهم بأعمالهم كله في الآخرة على نوعي الحسنة و السيئة كما توزن في الموازين كأن لأعمالهم بُعد أخروي على حساب

نفيس: ((وباطل ما كانوا يعملون) أي وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا ; لأنه لا ثمرة له ولا أجر في الآخرة، وإنما الأعمال بمقاصدها، والنتائج تابعة لمقدماتها، فإن كان في عملهم خير ونية حسنة يجازون عليه في الدنيا.) تفسير المنار، ج ١٢ ص ٤١ – ٤٢.

الحسنة و السيئة حتى و هم كافرون بالآخرة، و من هنا يتم وصف أعمالهم بالحبط في الآخرة فهي لها اعتبار وزني في الموازين بمقتضى التصنيف بالحسنة و السيئة، فحسنتهم حسنة وزنية و لكن لكفرهم فلن تصل أبدا لمرحلة إثابتها لأن إثابة الحسنات تكون بعد الموازين و الموازنة و هم لن يبقى لهم أي حسنة بعد الموازنة و هذا هو تحقيق معنى الحبط في حق حسناتهم في الآخرة، فالحبط ليس لكونها من كافر بل الحبط لكونها وزنت مع الكفر. و ما يقوي هذه الرؤية هو إتيان حبط بصيغة المضي لغرض تحقق وقوعه في العقبى [١].

الشاهد: أن وصف العمل بالحبوط و البطلان لا يمنع توفيته و عدم بخسه. و يحتمل أن يكون التوفية و عدم البخس في الدنيا أو في الآخرة، و الذي لا يحتمل أنهم في الآخرة ليس لهم إلا النار على احتمالي عدم بخسهم و توفيتهم سواء قلنا في الدنيا لأعمالهم أو في الآخرة لأعمالهم.

و عليه يكون توفية أعمالهم التي عملوها في الدنيا سيكون في الآخرة و لأنها كانت للدنيا و زينتها فلن تنفعهم في الآخرة فيكون مصيرهم النار بعد توفيتها و عدم بخسهم فيها، و هذا فيه تدليل بلاغي على أن الأعمال التي للدنيا تحبط و تبطل في الدنيا و يكون جزاؤها في الآخرة أنها لن تدفع عنهم عذاب النار بالرغم من توفيتها و عدم البخس فيها.

من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها بأعماله نوف إليهم أعمالهم التي عملوها فيها و هم في أعمالها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة عند الحساب و الميزان على أعمالهم إلا النار و

---

[١] يقول القونوي: (وصيغة المضي إما لتحقق وقوعه إن أريد له عدم الجَزَاء في العقبى أو لكونه واقعًا إن أريد به عدم حصول الثواب في أول الأمر وهذا المَعْنَى الأخير وإن كان مجازيًا للحبط؛ إذ معناه إبطال العمل والثواب بعد تحققهما لكنه هُوَ المُنَاسب للمقام في أداء المرام.) حاشيتا القونوي و ابن التمجيد على البيضاوي، ج ١٠ ص ٤٥ – ٤٦.

حبط ما صنعوا في الدنيا و باطل ما كانوا يعملون لأجلها لأنها لن تدفع عنهم عذاب النار لاقتضاء عملهم للدنيا أنهم كفروا بالآخرة و بأعمالها.

و الآية فيها اقتضاء لعموم الأعمال، و لا يمكن تصور أن كل الأعمال تقع من الذي آمن رياء أو لأجل الدنيا، فهذا التعميم لا يكون إلا من منافق أو كافر لا يؤمن بالآخرة و الحساب و الجزاء الأخروي، و من القرائن القوية أن الله جعل جزاء هذه الأعمال تستنفد في الدنيا بحيث لا يبقى لصاحبها في الآخرة إلا النار، و المؤمن يجازى على أعماله في الدنيا و الآخرة، و أيضا إذا كانت الأعمال قد جوزوا عليها فلم يبقى لهم ما يجازون عليه في الآخرة فلا يبقى في حقهم إلا الأعمال السيئة التي جزاؤها النار، و هذا المعنى لا يكون إلا في الكافر و المنافق، و بهذا يتبين أن الآية في حق الكفار و ليس المؤمنين أو الذين آمنوا، خاصة لو قلنا أن أعمال المؤمن التي كانت للدنيا و ليست لله قد جازاه الله في الدنيا و لم يبخسه شيئا فمن المفترض أن معه أصل الإيمان و التوحيد و بعض الأعمال التي لم يدخلها رياء و دنيا، و هذا يستوجب دخوله الجنة و لا يستوجب أن لا يكون له في الآخرة إلا النار، فأين موقع التوحيد و الإيمان من هذه النار المستوجبة لهم على معنى المكافئة لأعمالهم.

و إن قلنا أنهم يدخلون النار ثم يخرجون منها فإن الآية لم تذكر هذا الأمر و لم تشر عليه لا من قريب و لا من بعيد، بل نجد السياق و مكوناته الدلالية و الخطابية تفرض على الفهم و التشكيل الدلالي و المعنوي أنها في حق الكفار لأن متعلق الجزاء بالنار كان على الأعمال و يصعب تصور أن يكون كل عمل المؤمن للدنيا فقط، و ثانيا أنه سبق في القرآن أن المؤمن يجازى على أعماله في الدنيا و الآخرة، و ثالثا أن المؤمن ثوابه في الآخرة و هذا ما أكده الله تعالى في كثير

من المواطن فذكر أن الذي لا خلاق له في الآخرة هو الذي يأخذ نصيبه في الدنيا، و هنا قد ذكر الله أنه وفاه نصيبه في الدنيا و هذا فيه دلالة قوية أن السياق عن أعمال الكافرين، و رابعا قد ذكر الله أن من شيم الكفار و المنافقين أنهم يطلبون الدنيا و زينتها، و غير ذلك من الدلائل و القرائن.

و من ينظر في أبعاد الموضوع يجد أن موضع الاستشكال يكمن في نظرة المفسر لماهية العمل الصحيح، فمن اشترط في عامله أن يكون مؤمنا و أن يكون له ثوابا في الدنيا و الآخرة جعل (الحبط) من نصيب وصف عمل أهل القبلة الذي فيه رياء، و (الباطل) من نصيب عمل الكفار فلا يثابون في الدنيا و الآخرة، و من أخرج من شرط العمل الصحيح أن يكون عامله مؤمنا اقتصره على الكفار في نطاق ما لا يفتقر لنية تقرب و عبادة كصلة الأرحام و الصدقة و كل ما من شأنه منفعة للغير، و جعل ثوابه في الدنيا فقط و من ثم يناسبه وصف (الحبط)، و عليه فإما أن تعتبر في نظرك لتوصيف العمل الصالح: دين عامله، أو ثوابه، أو الإثنين: دينه و ثوابه، فلا عمل صالح إلا للمؤمن المثاب عليه في الدنيا و الآخرة أو في الآخرة خصوصا، أو العمل الصالح يكون للمؤمن بثواب الدنيا فقط و لا ثواب له في الآخرة، و يشترك فيما سبق مطلق الإثابة و أن العامل مؤمن. و من هنا يتم إلصاق أوصاف الباطل للكفار حصريا، و الحبط للمؤمنين.

أما إذا اتسع أفق التأويل للمفسر فأدخل الكافر في العاملين فلا يكون له إلا ما حَسُن من الأعمال التي ليست عبادات، فيثاب عليها في الدنيا دون الآخرة، و إذا تسع التأويل قليلا قد يدخل الإثابة في الآخرة و لكن بلا دفع عذاب أو نعيم في الجنة، و حينها إما لا يطلق على هذه

المنفعة إثابة أو يوضح دورها فقط في الميزان، و لو اتسع قليلا و هم القلة من العلماء قد يدخل في نطاق أعمالهم أيضا العبادات التي أخلصوها لله و وقعت منهم على شروطها الشرعية فقد جعلوها تخفف عنهم العذاب يوم القيامة.

و كما رأينا أن هناك شبه إجماع على أن هناك أعمال ظاهرها الصحة أي ليست صالحة تماما يثاب عليها في الدنيا تقع من الكفار لا لكونه من عمل الكافر بل لكونها لم تكن خالصة لله أو لم تكن لوجه الله، و عليه فمن عمل من الكفار العمل الصالح بشرطيه الظاهر و الباطن فهو أدخل و أولى بالثواب في الدنيا، و هذا فيه تفنيد لمن قصر الأعمال التعبدية على المؤمنين فقط لأنه لا يتصور عقلا أن يتقرب الكافر إلى الله بالعبادات و الإخلاص و قد مر كثيرا أن أظهر صور إخلاصهم العبادة لله كانت في الدعاء، فلا وجه إذن لإخراج الكافر من دائرة التكليف و صحة الوقع و الاعتبار لكل ما من شأنه أنه عبادة لله و هذا يتضمن لزوما كل طاعة لله فيما أمر به أو نهى عنه، بغض النظر عن أي عمل أو قدر من الأعمال تعطيه اسم المؤمن فهذه مسألة أخرى.

و بعد تقرير أن علة الاستحقاق و التوفية لثواب الأعمال منوطة بصور الأعمال و ظاهر الأحوال، و هذا يقتضي أن نستبعد أمر النوايا و القصد لأن هذا خاص بعلم الله و محل معرفته يكون في الآخرة عندما تحبط أعمالهم.

و بالضرورة يتعين مصدر معرفتنا بصور الأعمال يكون عن طريق الشرع، فهو المنوط بتحديد الصالح من الطالح من الأعمال، و نحتكم إليه عند التنازع في تعيين الوصف الشرعي لأحد هذه الصور، فكل عمل له وصف شرعي بالحسن أو البر أو الصلاح أو بالأمر به أو بالمدح عليه فهو داخل في نطاق هذه الأعمال التي يمكن أن تقع من الكافر فيستتبعها استحقاق و توفية

ثمرات عمله من ثواب و جزاء في الدنيا.

و نحن نعلق على هذا الأصل (استحقاق و توفية جزاء الأعمال) أنه يلزمه بطريق الأولى أن صور هذه الأعمال الواقعة من الكفار يستتبعها لحوق الابتناء الشرعي عليها لأنه ما دامت استحقت الثواب فلا بد أنها داخلة في حيز الإقرار و الاعتراف و هذا هو الجزء البحثي الذي نتدارسه من هذه الآيات في صورة موقف المسلم من هذه الأعمال و ما يلحقها من أعمال أخرى، بمعنى هل هي صالحة لأن يتعلق بها أعمال شرعية أخرى فتكون محكومة بالشرع كأحكام المسلمين مع بعضهم تماما، فمثلا هل وضوئهم ناجز و فاعل في صفة الطهارة فيتعلق به صلاحية الدخول في الصلاة، و إذا صلى هل تقوم به الجماعة؟. و هل إذا أدى زكاة ماله يتطهر ماله و يسقط من عليه فرض الزكاة؟ و غير ذلك من أحكام شرعية قد أمر الله بها الناس جميعا في نصوص كتابه.

و قد نستنبط من مجمل كلام العلماء أن استحقاق الثواب الأخروي على الأعمال الصالحة مرهون بالموت على التوحيد و الإخلاص لله، و معنى الثواب الأخروي حينئذ هو ثمرة الأعمال التي تكون على صورة نعيم في الجنة، هذا الثواب لا يكون إلا للموحد فقط و هذا أمر مقطوع به، و بهذا المعنى فلا ثواب في الآخرة إلا للموحدين فقط، أما الاحتساب و الوزن لهذه الأعمال الحسنة التي تقع من الكافر فإن الله لا يظلم أحدا و لكن في مقابل استحقاق العذاب في النار و الخلود فيها على اقتراف ذنب الشرك و الكفر لا يظهر لها أي أثر و عليه فلا ثواب عليها لانتفاء محل و ظرف ظهور أثرها لأن أثرها و ظرف ظهورها الذي هو الجنة منتف تماما عن صاحبها و بهذا المعنى فالثواب عليها منتف تماما، و لا يلزم من هذا النفي انتفاء احتسابها عند وزن

الأعمال و تقدير الدركات، و استحقاق النار قد يكون بإزاء الكفر و الشرك و ليس بإزاء استنفاد ثواب أعمالهم الحسنة في الدنيا فلم يبقى لهم في الآخرة من شيء، و قولنا هذا قد أتى من الآيات التي ذكرت الأوزان في الآخرة، و من الحس و الواقع أن ليس الكفرة الذين أرادوا الحياة الدنيا و زينتها قد استوفيت أعمالهم فيها فتحقق مرادهم و إرادتهم فيها، و هذا جار على الحكمة الإلهية فلا نستطيع الوقوف عليها إلا بالقدر الذي يسمح به الله، فقد ذكر الله تعالى أن ذلك متوقف على مشيئته، و مشيئته غيب عنا.

و على هذا يمكننا اجمال تصورنا للمسألة على النحو الآتي: إفادة الآية حتمية النار لهؤلاء جار على قانون أن المشرك و الكافر جزاؤه جهنم خالدا فيها، و هذا هو مثواه الأخير بعد العرض و الميزان، و عليه يمكننا أن نخرج استحقاق الثواب في الدنيا على أعمالهم من مسألة استحقاقهم النار لا محالة من ذلك فلا نعلق استنفاد ثواب أعمالهم في الدنيا فلأجل ذلك استحقوا النار، لأنه مهما عملوا من هذه الأعمال فلا تفي لأن تدفع استحقاق الخلود في النار، ثم بجمع دلالات الآيات الأخرى نقول أنهم لا ينالون استحقاق ثوابهم كله في الدنيا فقد يبقي لهم الله ثواب يكون محله في الآخرة ليس بمعنى التنعم و لكن بمعنى توقيع العدل و نفي الظلم فيستوجبون عليه دركة في النار أخف من دركة أخرى و هذا في موضع الحساب و الأوزان أما إذا دخلوا دركتهم في النار فلا تخفيف بعدها بمنطوق الآيات.

و على ما سبق يكون منطوق الآيات و تعلق الضمائر فيها على النحو الآتي: أن التوفية و عدم البخس واقع لا محالة في حقهم لأن هذا وعد الله، أما محل هذه التوفية و عدم البخس قد يكون في الدنيا أو الآخرة أو كليهما، و هذا لأن الله جعل معرفة ذلك لنفسه فعلقها على المشيئة، أما

الأرزاق و القوة و المدد فلم يعلقها الله على الأعمال فقال أنه يمد هؤلاء و هؤلاء من عطائه، و ذكر ان الأيام دِوَل بينهم و ما إلى ذلك من معاني، و أن كل من عمل عملا خيرا سيره، و أن الله لا يظلم أحدا، و نحن نؤمن بما وعد الله به و لكنه غمى علينا قدر الاستفاء و زمانه و مكانه على أعمال الإنسان، و بهذا تلتئم كل الآيات.

الخلاصة: أن وصف العمل الحسن بالبطلان أو بالحبط لا يمنع استحقاقه ثواب الدنيا أو الآخرة، و ما دام استحق توفيته و عدم بخس صاحبه فبالضرورة يستحق اقراره و البناء عليه في الدنيا على وفق جريان الشريعة من أحكام و مناطات و علل.

- و على العموم يوجد للكافر جنسين من الأعمال، أعمال حسنة و أعمال سيئة، و بالنسبة لموضع استحقاق جزائها إما في الدنيا أو في الآخرة، و بالنظر لهذه الأعمال و الجزاء عليها يجب أن يحكم هذه التصورات أن الله ليس بظلام للعبيد، و أن الله وعد بالتوفية و عدم البخس على هذه الأعمال، و الأمر الثاني هو موضع و زمن هذا الجزاء معلق بالمشيئة الإلهية.

هناك أنواع من الأعمال تستوجب خسارة أو خزي في الدنيا مع خسارة و عذاب في الآخرة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ۝٩ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ۝١٠ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ۝١١ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ۝١٢ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ۝١٣﴾ [الحج:٨-١٣]

و استيفاء الجزاء على الأعمال و عدم بخسها في الدنيا لا يقتضي سعادة الدنيا من ناحيتين، الأولى أن الأعمال تتفاوت في نوعها و قدرها (الكم و الكيف)، و الثانية أن الكافر قد استوجب بكفره و ذنوبه الأخرى ما يستحقه من فتنة و عذاب في الدنيا، و بهذا الجمع لا يمكن تصور تمتع تام في الدنيا لأي كافر، و لا داع لأن نقحم الواقع و الحس المشاهد للكفار في تقييد أو تحجيم دعوى استيفاء جزاء أعماله الحسنة في الدنيا، و هذا لأن المؤمن نفسه لن يترك في الدنيا بدون فتنة و خوف و نقص في الأموال و الأنفس، فالفكرة تقبع في التمحيص بالنسبة للمؤمن و لتوفية الجزاء بالنسبة للكافر، فلا عبرة بظواهر الأمور التي تفهم بدون حكمة العواقب التي أعلمنا الله بها، فيجب أن ينظر للأمر بطرفيه أي في الدنيا و الأخرة.

و بمعنى آخر نحن أمام طرفان يمثلان حصيلة حياة الكافر في الأرض، جزاء سيئاته و جزاء حسناته، فجزاء الحسنات و السيئات تظهر في حياة الكافر الدنيا على هيئات مرغوبة و مطلوبة للنفس البشرية قد تكون في جميع أصناف و أنواع الأموال، و الأولاد و الصحة، و الأمن و الرياسة و العلم و غير ذلك و عكس ذلك بسلبها في حالة جزاء السيئات ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] و﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: ٤١]، ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٧﴾ [يونس: ٢٧]، ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم: ٣٦]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ

عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴿٤٨﴾ [الشورى: ٤٨]

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩]﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨]

و قد يبتلي الله الكفار بالسيئات من باب الاستمالة و تهيئة النفوس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤]

أما ظهور الحسنات عليهم في الدنيا أو دفع ظهور السيئات عنهم يمثله قول الله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦]

و هناك كثير من الآيات تنص على أن توفية الأعمال تكون بعد الموت و مفارقة الحياة الدنيا، و لكن هل يلزم من هذا انتفاء أي توفية في الدنيا، أو تنويع التوفية على الأعمال فيكون بعضها في الدنيا و بعضها في الآخرة، و من الممكن أن يتضح التصور بالنظر لنوعية الأعمال نفسها، فمن الأعمال الحسنة ما يراد بها نفع الدنيا و طلب زينتها، و منها ما يقتصر نفعها على النفس فقط و هذه تظهر بجلاء في العبادات و الطاعات النفسية، و منها ما يكون مزدوج النفع

كالزكاة فنفعها للغير و للنفس، أما الصلاة و الحج و الصيام مثلا لا يتجاوز النفع للغير عادة، ثم يظهر في بعض الأعمال النفع للغير بقوة كإماطة الأذى عن الطريق، و إنشاء الطرق و تعبيدها و التطبيب و ما إلى ذلك.

و الفارق الأساسي الذي نستجلي من خلاله توضيح المعنى من وراء نص الآية هود ١٥ يقبع في استحضار النية، فالكافر الذي لا يؤمن بالآخرة أو على شك فيها لا يمكن أن يصدر منه نية بعمله يكون محل ثوابها في الآخرة، فهو لا يرى ثوابا إلا في الدنيا فقط و الذي يجري قانونه و سننه الكونية على مقتضى الإحساس المادي و النفسي فقط، فإذا عمل عملا حسنا فإما يكون قاصر عليه فقط أو له و لغيره أو لغيره، و لكن وراء كل ذلك استحضار الذكر الحسن أو الشهرة و التفاخر أو الرياسة أو العصبية أو الرحمة بالأخرين أيا كان ذلك، فما دام فيه نفع و إعمار و عدم فساد في البر و البحر لكل مخلوقات الله فهو عمل حسن خيِّر.

هل استيفاء الأعمال في الآخرة فقط أم في الدنيا أيضا؟ و ما صور هذا الاستيفاء على الأعمال؟

لو جعلنا مصدر تلمسنا لتصوير حقيقة المسألة يبدأ من أن الله سبحانه و تعالى قد جعل المستقر في دارين فقط هما الجنة و النار أي الرحمة و العذاب، و نجد في الذكر الحكيم أن الرحمة و العذاب لهم متعلق في دار الدنيا أيضا أي أن الدنيا ظرف لتحقيق الرحمة و العذاب، و هناك مسلمة يقينية و عقدية تقول أن الله لا يظلم أي نفس، و أن من عمل خيرا سيراه و من عمل شرا سيراه، و أن الجزاء يكون على قدر العمل، و أن الجزاء يكون على الكاسب و المتسبب في العمل و لا يقع جزاء عمل على غير صاحبه.

و القانون الأخر أن الأصل في استيفاء الأعمال هو في الدار الأخرة و لكن قد يُعجل الله لصاحب الأعمال الاستيفاء في الدنيا إذا أراد صاحب العمل ذلك بأن يكون مريدا للحياة الدنيا و زينتها أو منكرا للآخرة أو متعجل ثواب أعماله، و أن من يعمل للآخرة يؤتيه الله ثوابه في الدنيا و الآخرة، و باستقراء الكثير من الآيات نجد فيها أن الله يرحم و يعذب بما كسب العامل في الدنيا بالسيئات و الحسنات، و من صور الرحمة كثرة الغيث و الرزق و القوة و الأموال و البنين و الأمن، و من صور العذاب الشدة و الخوف و الجوع و الخسف و غير ذلك.

و أيضا من القوانين أنه قد يعترض المؤمن في الحياة الدنيا ما يكون مظهره صورا من العذاب و لكن بغرض التمحيص و التثبيت و التكفير عنه، و قد يظهر على الكافر صورا من صور الرحمة و لكن يكون مكرا من الله فيستدرجهم به ليزدادوا، و بهذا فلا نستطيع التمييز بين الرحمة و العذاب في ظاهر الأمر كما نراه في الدنيا على المؤمنين و الكافرين.

و أن الله يعطي المؤمنين و الكافرين و يرزقهم لمن يشاء و بغير حساب، و جعل هذا معلقا بالمشيئة، و هذا يجعل أمر الظاهر في الدنيا أكثر تعمية علينا فقد يعطي الله الكافر و لا نعلم هل هذا جزاء أعمال حسنة يستوفيها في الدنيا أم هل هذا استدراج من الله لهم و كيد و مكر بهم، أم هل هذا من عطاء و رزق الله الذي بغير حساب.

و أيضا لا يوجد إنسان ليس له ذنوب، فالمؤمن إذا أصابه الله بسيئة فجريا على ظاهر الأمر فإنه مما كسبت يديه من ذنوب، و القصد أن الله سبحانه و تعالى لا يظلم أحدا فلا يحاسبه على شيء لم يكسبه، و ما دام له ذنوب و لا محالة من ذلك فقد تكون من هذا الباب، فيكون من باب التكفير عن الذنوب و بالصبر عليها يكتسب حسنات و هذا من رحمة الله به، أن يضاعف له

المجازاة على نفس العمل في اتجاهين كلهما خير له، جهة التكفير و جهة الحسنات.

و الشاهد هو أن العمل الذي يقع من الكافر فيقع موقع الاستحقاق الاستيفائي فقد وجب اعتباره في النطاق الشرعي لقبول الأعمال و اعتبارها صحيحة في نفسها بغض النظر عن محل هذا الاستيفاء هل هو في الدنيا أو في الأخرة، و دخول العمل في حيز الاستيفاء دليل على دخوله في حيز القبول، و معنى دخوله في حيز القبول الاستيفائي أنه داخل في حيز القبول الشرعي، و دخوله في حيز القبول الشرعي معناه أنه موافق لأمر الله، و علامة ذلك بالنسبة لنا أنه يستدل له من خلال القرآن و السنة الصحيحة، و هذا القدر هو محل البحث، أما ما يتعلق به من جزاء و ثواب قد يستلزم حسنات أو رفع سيئات أو يأخذ صور التخفيف في عذاب الدنيا أو عذاب الأخرة فهو مسألة أخرى.

و هذا ما يبرر تعرضنا لمسألة ثواب أعمال الكافر خصوصا و صور هذا الثواب سواء في الدنيا أو في الآخرة من خلال ذكر أوصاف تتعلق بأعماله و من خلال ما وصف الله به نفسه تجاه أعماله، و من خلال ما وصف الله به نفسه بما يتعلق بمسألة العدل و الحساب و المغفرة و التوبة و الجزاء، فوجه الاستدلال على مسألتنا عن طريق التلازم الاقتضائي لاعتبار تحقيق التمام الوظيفي لكل مرحلة ما بين المراحل التي تبنى بعضها على بعض في اتجاه تقرير و اعتبار اللاحق على السابق، فهي على صورة حلقات سلسلة تتشابك فيها الواحدة تلو الأخرى، فمثلا أول حلقة هي خلق الإنسان فتعلق به حلقة أخرى و هي تعبيده لله، لأن خلقه قد تم اعتباره لأن يتعلق به عبادته، و يتلوها اعتباره لأن يرسل إليه رسول، فيلزمه الكتاب الذي مع الرسول، ثم التكاليف التي في الكتاب و هكذا حتى يتم اعتبار عمله الموافق لما في الكتاب، ثم يتعلق به

استحقاق الجزاء، ثم نوعية الجزاء بالثواب، ثم محل الثواب، ثم نوع الثواب، ثم استيفاء الثواب.

و على جميع تأويلات المفسرين و العلماء في مسألة استيفاء أعمال الكافر الحسنة سواء كان في الدنيا فلا يبقى له أي حسنة للآخرة، أو أنه في الدنيا و الآخرة فيخفف عنه العذاب في الآخرة بقدر ما اكتسب من أعمال حسنة و استحق عليها ثواب و جزاء حسن، فيلزم منه تحقق مناط الاستحقاق الذي علق الله عليه الجزاء الحسن، و أن هذه القضية بكل تفاصيلها من مناطات و توصيف جزاء و مواضع الاستحقاق هي شرعية في الكتاب و السنة الصحيحة، فيلزم منها على أقل تقدير أن الكافر لو عمل عملا مأمور به في الشرع و هو لا يعلم به فقد وقع استحقاقه على الله، سواء كان كافرا بالآخرة أو لا، و في نطاق الحياة الدنيا سواء كان في عمله يمتثل أمر الله أم لا باعتقاد أنه لا بعث و لا نشور، و سواء كان من كفار أهل الكتاب الذين يعتقدون بالآخرة و بالجنة و النار، فكل هؤلاء لو وقع من أحدهم عملا موافقا فيه الشرع اعتباطيا بدون قصد أو بقصد الحياة الدنيا فقط أو بقصد الدنيا و الآخرة فقد وقع أجره على الله.

أما قول بعض العلماء أن أعمال الكافر باطلة و فاسدة في أصلها لفوات شرط الإيمان و الإخلاص فهو قول مجانب للصواب، و يمكن توجيهه بأن مقصودهم أنه لا فائدة مرجوة من أعمالهم لأنها هباء منثورا و بهذا ننتقل بالمسألة إلى نطاق الموازنة ما بين الحسنات و السيئات، و هو أمر محتوم مع ثبوت ذنب الكفر و الشرك، فلا بد من الخلود في النار و بمنظور أن الحسنات التي تقابل العمل الصالح جعلت للترقي في الجنة، فإذا انعدمت الجنة فلا يبقى لها أثر و فائدة لأن محل تأثيرها انعدم فأصبحت عليهم حسرات و هباء منثورا.

ثم ما يعكر صفو تأويلهم وجود مخاطبة صريحة للكفار ببعض العبادات و استحقاقهم على فواتها منهم عذابا مخصوصا، فإذا استحقوا عليها عذابا لعدم اتيانهم بها في الحياة الدنيا فلا أقل إن عملوها أن لا يعذبوا عليها، و عدم تعذيبهم المخصوص عليها بإتيانها يُفهم على أنه تخفيف من العذاب و هذا أقل تقدير يلزم من ثبوت إتيانها و هذا الاستدلال مأخوذ من تخصيص عذاب معين مقابل هذه الأعمال، فتخصيص شيء لغياب شيء فلا بد أن ينتفي بوجوده، لأن لو الحالتين سيان فلا معنى للتخصيص إذن، و بملحوظية أن هذه العبادات هي نفسها المأمور بها المؤمنين نستدل على تماثل كل الأوامر و النواه الشرعية في حق الجميع على قدم المساواة.

— تشعر الآية أن أعمالهم قد وقعت موقع المجازاة عليها في الدنيا و الآخرة لو قارنها الإيمان بالآخرة، و لكن لأجل أنهم لا يريدون إلا الحياة الدنيا أو بمعنى أدق لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا فمن باب العدل الإلهي سيوفيهم الله على أعمالهم ما يستحقون عليها من جزاء يتمثل في المنفعة الدنيوية، و بذلك فلن يبقى لهم في الآخرة أي جزاء على أعمالهم لأنهم استهلكوها في الحياة الدنيا فلن يبقى لهم إلا النار بسبب أن أعمالهم حبطت و بطلت كلها في الدنيا فإذا حُسِبوا على أعمالهم فلن يجدوا إلا السيء منها و أعظمها هو الشرك و الكفر الذي يخلد صاحبه في النار.
- الآية خاصة في كيفية الجزاء على الأعمال و مكانه في سياق الحديث عن من يدخل النار، و سبقها الحديث عن المشركين و الكفار، فظاهر الأمر أن الآية تتحدث عن الكفار و المشركين و أعمالهم بحيثية عدم البخس و الموافاة و هذا يدل على أن هذا الجزاء سيكون محبب و مراد من العاملين بقرينة أن هذا الثواب و المنفعة هي من زينة الحياة الدنيا، و لا بد أن يكون هذه الأعمال

هي الحسنة، و بقرينة ما يستحقونه في الآخرة بالنار يشعر بأن ما استحقوه في الدنيا بخلافها و أن ما استوفوه على أعمالهم في الدنيا كان سببا مباشرا لدخولهم النار و سيكون بالتأكيد هو كفرهم بالحياة الآخرة أو شكهم في البعث و من ثم الحساب.

إثبات أي جزاء أو ثواب أو توفية على أعمال منسوبة للكفار أو المشركين أو المنافقين بالحسن أو بالخيرية أو بالمنفعة فهو دليل برهاني على اعتبار العمل و صحة وقوعه و هذه هي نكتة البحث، لأنها هي موضع تكليفنا بها في الدنيا تجاه هذه الأعمال، أما مسألة الجزاء فلا نحن نعلمها و لا نكلف العلم بها و لا نشهدها في الدنيا. و الشاهد أن الكافر و المشرك و المنافق سيجازى خيرا على عمله الخير في الدنيا، و محل استدلالنا هو اعتبار العمل الحسن و الصالح الموافق للشرع من الكافر و المشرك و جريان الأحكام الشرعية بما يقتضيه من أحكام.

— و بتحقيق أقوال العلماء المفسرين نجدها تلتف حول العمل ذاته أي برؤية تحقيق شروطه أو موانعه، و إذا ذكروا دين أو اسم الفاعل المشتق من (الكفر أو الشرك) فلأجل أن يُكَنّوا به على عدم اكتمال شروط العمل ليتصف بأنه طاعة مقبولة أو أنه يستحق ثوابا في الآخرة، و في نفس الوقت لا يمنع ما أثبتوه لنوعية هذه الأعمال أن يتم مجازاتهم عليها في الدنيا، و لذلك ينصوا على أن هذه الأعمال لا يراد بها وجه الله أي انتفى شرط الإخلاص فيها، أو أنها لا يراد بها ثواب الآخرة لأجل أن العامل كافر بالآخرة، أو أنه يرائي بها لأجل مكاسب دنيوية، و لو كان المانع يناط بدين الفاعل أو اسمه لما كان هناك أي داع لذكر هذه المناطات و لأكتفي بأنه عمل من كافر أو مشرك أو كتابي، و لكن ذكر المانع المتصل بذات العمل يدل على تجاوز دينه أو اسمه الشرعي كعلة شرعية.

سنتتبع وصف العمل بما وصفوه بما لا يجوز شرعا (لغير وجه الله - رياء) و وصف الفاعل (مشرك - كافر - مرائي - كتابي) و إثبات وصف الحبط و البطلان للعمل، و أن هذا العمل له ثواب يستوفيه في الدنيا و هو مما أمر الله به أو على الأقل مما يحسن من وجوه البر. و لكن لأن هذه الآية قد بحثت بتوسع في مبحث الحبط فلتراجع هناك لمزيد من الفائدة، و سنكتفي بهذا خشية الإطالة و طلبا للاختصار، إنما من الممكن أن نضع المصادر فقط التي رجعنا إليها لتصوير معنى الآية.

و سيكون غرضنا في تتبع التفاسير لهذه الآية أن ننقل منها ما يفيد هذه الرؤية تحديدا أي كل ما من شأنه إثبات الحبط و البطلان لنفس الأعمال التي وصفت بأن الله يوفيها لهم و لا يبخسهم فيها، و خاصة لو أشير أن التوفية و عدم البخس هما في الآخرة، و على كل حال فكل تقرير يتجه نحو توصيف هذه الأعمال بأنها الحسنة و أنها استحقت ثوابا عليها تم توفيته لهم و عدم بخسهم فيها يدل على نكتة المسألة و هي أن أعمالهم الحسنة معتبرة منهم دالة على تكليفهم و مخاطبتهم و صحة الوقوع الشرعي و من ثم استتباع حقوقي للثواب عليها، رغم أنهم من أصحاب النار و أن الله وصف أعمالهم بالحبط و البطلان، و الاستنباط يكون على قبولها و إقرارها الشرعي بالنسبة لنا كمسلمين نتعامل مع هذه الأعمال و عامليها أثناء العمل و بعده، و قبله من ناحية الأمر و الحث عليها.

- مقاتل بن سليمان: (من كان من الفجار يريد بعمله الحسن الحياة الدنيا وزينتها لا يريد وجه الله نوف يعني نوفي إليهم ثواب أعمالهم فيها يعني في الدنيا من الخير والرزق نظيرها في «حم عسق [1]» ثم قال: وهم فيها لا يبخسون نسختها الآية التي في بني إسرائيل عجلنا له فيها ما نشاء [2] يقول وهم في الدنيا لا ينقصون من ثواب أعمالهم ثم أخبر بمنزلتهم في الآخرة فقال: أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها يقول بطل في الآخرة ما عملوا

---

(1) يشير إلى الآية ٢٠ من سورة الشورى وهي: من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب.

(2) سورة الإسراء: ١٨ وتمامها من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. و حكى مكي أن القائل بالنسخ هو ابن عباس و رد هذا القول فقال: (وقال ابن عباس: نسختها مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا (لَهُ) فِيهَا مَا نشاء لِمَن نُّرِيدُ [الإسراء: ١٧]. وهذا مردود، لأنه خبرٌ، والأخبار لا تنسخ.) الهداية إلى بلوغ النهاية، ج ٥ ص ٣٣٦٠. و قال ابن الجوزي: (نُسخ ذلك بقوله: عَجَّلْنَا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، وهذا لا يصح، لأنه لا يوفّي إلا لمن يريد) زاد المسير، ج ٢ ص ٣٦٢. و قد أبان عن دقة في الفهم و الجمع، أن الله ما دام قد أوفى العامل على عمله ثوابا فقد أراد الله ذلك، و بهذا فلا وجه لتعارض احتمالية إرادة الله كما في الآية الأخرى مع ثبوت إرادة الله في الموافاة على أعمال العامل كما في هذه الآية.

و قال ابن الفرس: (اختلف فيها هل هي محكمة أو منسوخة؟ فذهب الأكثر إلى أنها محكمة وأنها عامة يراد بها الخصوص، فيكون التقدير نوفي إليهم أعمالهم فيها إن شئنا ونحو ذلك وذهب جماعة إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: من كان يريد العاجلة عجلنا فيها ما نشاء لمن نريد [الإسراء: ١٨] والقول بالنسخ ضعيف جدًا. فإن إرادة الله تعالى لا يخلو عنها شيء.) أحكام القرآن، ج ٣ ص ٢٠٧ - ٢٠٨. و قال القرطبي: (والصحيح ما ذكرناه، وأنه من باب الإطلاق والتقييد... والنسخ في الأخبار لا يجوز، لاستحالة تبدل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى) تفسير القرطبي، ج ٩ ص ١٤ - ١٥.

في الدنيا وباطل ما كانوا يعملون فلم يقبل منهم أعمالهم لأنهم عملوها للدنيا فلم تنفعهم)[1]

يعتبر تفسير نموذجي لشموله على أطراف المسألة، أن هناك أعمال حسنة استوجبت توفية ثوابها في الدنيا بالرغم أنها لم تكن لوجه الله (على حد تعبيره) و أن الحبط و الإبطال لهذه الأعمال هو في الآخرة لأجل أنها لم تقبل منهم و لم تنفعهم. و بقياس الأولى يكون من عمل أعمالا حسنة شرعية لوجه الله و ابتغاء مرضاته و بقصد منفعتها في الآخرة يكون ثوابها في الآخرة. فقد اتضح الآن أن وصف البطلان و مثله الحبط و عدم القبول و عدم المنفعة المقصود منهم في الآخرة بإزاء دخول النار، و أن هذا لا يمنع من وصف عمل الكافر و المشرك بالحسن و باستحقاقه الثواب و العدل فيه بعدم نقصانه و توفيته كاملا.

- سفيان: (عن مجاهد في قوله إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يبخسون قَالَ مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ صالح صلوة أَوْ صَوْمٍ يُجَازُونَ بِهِ فِي الدنيا يبخسون لا ينقصون منه شيئا.) [2]

و إثبات ثواب الصلاة و الصوم لأناس ليس لهم في الآخرة إلا النار في سياق يُشعر و بقوة أنه في الكفار لتأويل مهم من مجاهد، و لكن لن نستطيع القول أنه قال ما يفيد أنهم كفار أو مشركين، و كذلك فإن الآية لم تعين قرينة قوية للتدليل على أنها في الكفار لأنه لم يذكر خلودهم فيها أو وصفهم بأنهم أصحابها، و إن كان هذا أيضا ليس بدليل قوي لأنه يوجد جزاء بالخلود في النار أبدا في سياق الحديث مع المؤمنين ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا

---

[1] تفسير مقاتل، ج ٢ ص ٢٧٥.

[2] تفسير سفيان الثوري، ص ١٢٩.

فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣]، و عليه يكون الراجح أن آيتنا تتحدث عن الكفار خاصة لو قلنا أنهم ليس لهم في الآخرة مطلقا إلا النار، فقد نفت عنهم احتمالية أن يكون لهم غيرها أي الجنة حتى و لو بعد حين، و حينها يحتمل القول أن مجاهد يقرر أن العبادات الشرعية قد تقع من الكافر موضع الجزاء عليها، و هذا يتضمن إقرارها و اعتبارها.

وذكره الصلاة و الصوم يشعر أنه يقصد المنافقون أو المراؤون من أهل القبلة، و إن يكن فالمنافقون أو المراؤون عملهم حابط أو فاسد في الدنيا و الآخرة بنص الآيات، فيكون الشاهد أن حبط العمل في الدنيا و الآخرة لا يمنع وصفه بالحسن و باستحقاقه من فضل الله و عدله الثواب عليه في الدنيا، و بهذا نستنبط أن الحبط و الإبطال على الأعمال يؤكد حسنها و صلاحها الظاهري المترتب عليه الجزاء الحسن في الدنيا.

- الفراء: (وهم فيها لا يبخسون يقول: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس أي لم ينقص في الدنيا.) (١)

قد جعل الفراء الآية في أهل القبلة و هذا قريب جدا من قول مجاهد و كأن قول مجاهد الصلاة و الصيام تمثيلا لبعض أعمال أهل القبلة التي يريدون بها الدنيا و زينتها و أن ليس لهم في الآخرة إلا النار !. و كأنهم يتحاشون من إلزام ظاهر الآية و سياقها لهم بأن للكفار أعمال حسنة تستتبع ثوابا عليها.

---

(١) معاني القرآن، ج ٢ ص ٦.

و إن كان مقصوده الرياء في العمل فإن الله لا يقبله و يتركه لشريكه يعطي عليه الثواب كما في نص الحديث الصحيح، فكيف يستقيم هذا مع إثبات الثواب عليه إلا أن يكون ترك الله لهذا العمل و عدم الإثابة عليه يكون في الآخرة، اما في الدنيا فيعطيه الله ثواب الدنيا، او أن نجري الظاهر و العموم فيكون العمل الذي وقع به الرياء لا ثواب عليه لا في الدنيا و لا في الآخرة، و أن المقصود بالعمل في الآية هو العمل الحسن الخالص و لكن بغرض ثواب الدنيا فقط، و الله أعلم.

- عبد الرزاق الصنعاني: (عن مجاهد، في قوله تعالى: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ممن لا يقبل منه جوزي به يعطى ثوابه في الدنيا) (١)

و لم يفصل علة عدم القبول هل لأجل خلل في شروط العمل أم لأجل العامل، و على كلا الحالين فلا مانع من الجزاء على العمل بالإثابة في الدنيا، و أن القبول عندهم له معنى مخصوص بالآخرة بحيثية دخول صاحبه الجنة، و بهذا فقبول العمل عندهم هو عمل المؤمن الصالح الذي سيدخل الجنة و ينتفع بعمله في درجاتها، أما غير ذلك من أعمال صالحة فلا تقبل من صاحبها و لا ينتفع بها بل يستحق ثوابها في الدنيا، و أيا كان التأويل فهو دليل برهاني على اعتبار نوعية هذه الأعمال الموافقة للشرع على ظاهرها من أي كافر أو مشرك أو منافق.

- ابن قتيبة: (أي: نؤتهم ثواب أعمالهم لها فيها. وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أي: لا ينقصون.) (٢)

---

(١) تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (٣/ ١٦٩).

(٢) غريب القرآن، ص ٢٠٢. باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، ج ٢ ص ٦٥٤.

- التستري: (يعني من أراد بعمله غير الله آتاه الله أجر عمله في الدنيا، فلا يبقى له في الآخرة شيء، لأنه لم يخلص بعمله لله لما أحب له من المنزلة في الدنيا، ولو علم أن الله سخر الدنيا وأهلها لطلاب الآخرة لم يراء بعلمه.) (١)

توصيف أعمالهم بأنها لغير الله و أنها لم تكن خالصة لله مع إثبات الأجر عليها. مع أن هذه الأوصاف تستوجب وقوع العمل فاسدا أصلا بل و تجعله مستحق للوعيد و العقاب. فإن الله لا يجازى أجرا على الرياء و النفاق و مع ذلك وقع له الإثابة في الدنيا.

- الهواري: ("مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا يعني المشرك الذي لا يؤمن بالآخرة نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ أي جزاء حسناتهم فِيهَا أي: في الدنيا. وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أي في الدنيا لا يبخسون، أي: لا يظلمون، لا يُنقصون حسناتهم التي عملوها في الدنيا ". يُجَازَوْنَ بِهَا في الدنياأُوْلَئِكَ يعني المشركين الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الأَخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ أي: من حسنات الآخرة لأنهم جوزوا بها في الدنيا.) (٢)

هنا تم التصريح بأنه المشرك، و لإثبات وصف الحسنات على أعماله، و إثبات الجزاء عليها، و الفائدة المهمة أن الهواري جعل مجازاته على حسناته في الدنيا سببا مباشرا لأن يحرم من حسناته في الآخرة لأنه استهلكها كلها في الدنيا، و عليه لو عمل المشرك العمل الحسن و نوى بحسناته الجزاء عليها في الآخرة لأنه مؤمن بها لوجدها مستوفاة و لا يبخسه الله منها مثقال ذرة، و هذا

---

(١) تفسير التستري، ص ٧٨. و الخازن جعلها عامة، لباب التأويل، ج ٢ ص ٤٧٦. نظم الدرر، ج ٩ ص ٢٥١ – ٢٥٢.

(٢) تفسير الهواري، ج ٢ ص ٩٢ – ٩٣. و نفسه عند ابن أبي زمنين في تفسيره القرآن العزيز، ج ٢ ص ٢٨٢.

فيه تقرير لحسنات المشرك و الكافر من ناحية الخطاب و التكليف و صحة الوقوع، و لا دلالة إطلاقا لاسم الفاعل في علة منع الثواب لا في الدنيا و لا في الآخرة.

- ابن جرير الطبري:

(من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وإيّاها وَزينتها يطلب به، نوفّ إليهم أجور أعمالهم فيها وثوابها (وهم فيها) يقول: وهم في الدنيا، لا يبخسون، يقول: لا ينقصون أجرها، ولكنهم يوفونه فيها.

وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل.

...، عن ابن عباس قوله: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية، وهي ما يعطيهم الله من الدنيا بحسناتهم، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرًا. يقول: من عمل صالحًا التماس الدنيا، صومًا أو صلاةً أو تهجدًا بالليل، لا يعمله إلا لالتماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعملُ التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين.

...، عن سعيد بن جبير: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، قال: ثوابَ ما عملوا في الدنيا من خير أعط ه في الدنيا، وليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صَنَعوا فيها. ..../ ص ٢٦٣/

...، عن مجاهد: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، قال: من عمل عملا مما أمر الله به، من صلاة أو صدقة، لا يريد بها وجهَ الله، أعطاه الله في الدنيا ثوابَ ذلك مثلَ ما أنفق، فذلك قوله: نوفّ إليهم أعمالهم فيها، في الدنيا، وهم فيها لا يبخسون، أجر ما عملوا فيها، (أولئك الذين ليس

لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها)، الآية.

... عن مجاهد في قوله: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، قال: ممن لا يقبل منه، جُوزِي به، يُعطَى ثوابَه.

... عن مجاهد: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، قال: ممن لا يقبل منه، يعجّل له في الدنيا. (١)

... عن قتادة... أي: لا يظلمون. يقول: من كانت الدنيا همَّه وسَدَمه وطَلِبته ونيتّه، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطى بها جزاءً. وأما المؤمن، فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة وهم فيها لا يبخسون أي: في الآخرة لا يظلمون. (٢) ... / ص٢٦٤/ ...

... عن محمد بن كعب القرظي: أن النبي ﷺ قال: من أحسن من محسن، فقد وقع أجره على الله في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. (٣)

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ج ٦ ص ٢٠١١. قال السمعاني: (وقال مجاهد وجماعة: نزلت الآية في كل من عمل عملا وأراد به غير الله.) تفسير السمعاني، ج ٢ ص ٤١٧.

(٢) الكشف و البيان للثعلبي، ج ١٤ ص ٣٢٧ – ٣٢٩. أخرجه عبد الرزاق في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٠٢، والطبري في جامع البيان ١٥/ ٢٦٤، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠١٢، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٥٨٥ وإسناده صحيح. المحقق.

(٣) الكشف و البيان للثعلبي، ج ١٤ ص ٣٢٧ – ٣٢٩. حديث ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٠٢، والطبري في جامع البيان ١٥/ ٢٦٥ كلاهما من طريق ليث بن أبي سليم، عن محمد بن كعب مرفوعًا به.

...، سمعت "الضحاك يقول... من عمل عملا صالحًا في غير تقوى يعني من أهل الشرك أعطي على ذلك أجرًا في الدنيا: يصل رحمًا، يعطي سائلا يرحم مضطرًّا، في نحو هذا من أعمال البرّ، يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، ويُوسِّع عليه في المعيشة والرزق، ويقرُّ عينه فيما خَوَّله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا، في نحو هذا، وليس له في الآخرة من نصيب." [(١)]

... "عن أنس في قوله: نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، قال: هي في اليهود والنصارى." [(٢)]... عن الحسن: نوف إليهم أعمالهم فيها، قال: طيباتهم. / ص ٢٦٥/ ... أن مجاهدًا كان يقول في هذه الآية: هم أهل الرياء، هم أهل الرياء.) [(٣)]

و قال أيضا: (... عن مجاهد: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية، قال: ممن لا يتقبل منه، يصوم ويصلي يريد به الدنيا، ويدفع عنه هَمّ الآخرة (وهم فيها لا يبخسون)، لا ينقصون.) [(٤)]

ثم إن الحديث من طريق ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. انظر: تهذيب الكمال للمزي ٨/ ٤٦٥، تقريب التهذيب لابن حجر (٥٧٢١). المحقق.

[(١)] تفسير ابن أبي حاتم، ج ٦ ص ٢٠١١. و رواية أخرى قال فيها: (ما عملوا من عمل صالح في شركهم، عجل الله لهم ثوابه في الدنيا، ولم يكن لهم في الآخرة إلا النار.). أما الواحدي قال: (وقال الضحاك: من عمل عملًا صالحًا من أهل الإيمان من غير تقوى، عجل له ثواب عمله في الدنيا) التفسير البسيط، ج ١١ ص ٣٦٧ – ٣٦٨. و قال السمعاني: (قال الضحاك: نزلت الآية في المشركين.) تفسير السمعاني، ج ٢ ص ٤١٧.

[(٢)] تفسير ابن أبي حاتم، ج ٦ ص ٢٠١٠. و ذكر الخازن أنه قول للحسن أيضا، لباب التأويل، ج ٢ ص ٤٧٧. و كذلك ابن كثير قال: (وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٢٦٩.

[(٣)] جامع البيان، ج ١٥ من ص ٢٦٢ حتى ٢٦٦).

[(٤)] جامع البيان، ج ١٥ ص ٢٦٨.

و قال أيضا: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

... هؤلاء الذين ذكرت أنّا نوفيهم أجور أعمالهم في الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا النار، يصلونها وحبط ما صنعوا فيها، يقول: وذهب ما عملوا في الدنيا، وباطل ما كانوا يعملون، لأنهم كانوا يعملون لغير الله، فأبطله الله وأحبط عامله أجره.) [١]

و لعدم الإطالة بالنقول أبقينا البعض و حذفنا البعض، و لذلك نلخص ما أورد الطبري عن الكل فعن ابن عباس[٢] أنهم الذين يصومون و يصلون و يتهجدون في الليل لأجل الدنيا، و مع ذلك سمى ما نتج عن أعمالهم هذه: حسنات، و سمى أعمالهم صالحة، و أثبت لهم إثابة عليها، فالظاهر أنه يقصد الرياء من أهل القبلة، و بنفس هذا المعنى أورده عن مجاهد التصريح بأنهم أهل الرياء، و مرة التصريح بأن هذه الأعمال هي الصلاة و الصدقة و وصفها بأنها لا يريد بها وجه الله، و أثبت لها ثوابا و أجرا، و برواية أخرى عن مجاهد صرح فيها مجاهد أنهم ممن لا يقبل منهم مع إثبات الجزاء و الثواب على هذه الأعمال.

---

[١] جامع البيان، ج ١٥ ص ٢٦٩.

[٢] و لكن الواحدي قال: (فقال ابن عباس في رواية عطاء: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب، وهذا يدل على أن الآية نازلة في أهل الكفر.) التفسير البسيط، ج ١١ ص ٣٦٦. ثم قال بعدها: (وقال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي صالح عنه أنها نزلت في أهل القبلة). و لكن هذا اسناد تالف. و لكن ابن كثير قال: ((قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل... أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٢٦٩.

و أهم ما في قول مجاهد أنه وصف العامل بأنه ممن لا يقبل منه، في الوقت ذاته يثبت لهم الأجر و الثواب على العمل الذي أمر الله به، إذن الحكم بعدم القبول من العامل لا يمنع إثابته على عمل قد أمر الله به مع أنه رياء، فالأولى أن العامل الذي لا يقبل منه لو عمل عملا مما أمر الله به يريد به وجه الله خالصا له فإنه يستوجب الثواب عليه في الدنيا و الآخرة، لأنه يريد به الآخرة، و نستنبط أيضا ان قول بعض السلف بأن العامل ممن لا يقبل منه أو أن العمل غير مقبول أنهم يقصدوا قبول الإثابة عليه في الآخرة على ما يستحقه من نعيم في درجات الجنان. فكأنه كناية عن العمل الصالح المستحق ثوابا لغير المؤمن، فإما ان يثاب عليه في الدنيا و هو قول الأكثرين، او في الآخرة بتخفيف قدر استحقاقه العذاب لتحابطه مع ما يوازيه من سيئات تستحق عذابا.

أما ما أورده عن قتادة فقد جعلهم غير مؤمنين لأنه قارنهم بالمؤمنين و مع ذلك اثبت لهم حسنات و مجازاة عليها و لكن يذهب للآخرة بلا أي حسنة بخلاف المؤمن. أما الضحاك فقد صرح بأنهم المشركين و وصف أعمالهم بالصالحة مع أنها في غير تقوى، و وصفها أيضا بأنها من البر و أن لها ثواب في الدنيا و ليس له في الآخرة من نصيب. ثم نقل الطبري بإسناده عن أنس أن الآية في اليهود و النصارى، و هم بطبيعة الحال مشركين فلا يبعد عن تصريح الضحاك بكونهم المشركين، و عن ما يلزم من قول قتادة أنهم غير المؤمنين.

و أما سعيد بن جبير لم يعين من هم العاملين و لكنه أثبت وصف الخير للأعمال و الثواب عليها،

و لكن بذكر أنهم ليس لهم إلا النار في الآخرة يُشعر أنه يريد غير المؤمنين و الله أعلم [(١)]. و كذلك الحسن لم يعين و لكنه أشار بكون ما أعطوه هو (طيباتهم) و بهذا فكأنه يشير للآية ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]، و عليه يكون قصده أنهم الكفار و الله أعلم.

أما ما أورده عن محمد بن كعب عن النبي ﷺ ففيه إطلاق وصف الإحسان و المحسن و جعل الأجر عليه في الدنيا و الآخرة، و على هذا فهو يثبت أن للعمل الحسن أجران في الدنيا و في الآخرة. أما ابن جرير فلم يعين من هم العاملين، و لكنه وصف هذه الأعمال بأنها لغير الله و أن الله أبطلها و أحبط أجرها لعاملها في الآخرة، و أنهم استوفوا أجورهم في الدنيا، و أثبت لهم وصف الثواب و الأجر.

و الشاهد من كلام الجميع أن الأعمال وصفت بأنها لغير الله و لم تكن خالصة لله بل كانت رياء لبعض عامليها، و مع ذلك تم وصفها بأنها صالحة و حسنة و من البر، و ترتب عليها الأجر و الثواب في الدنيا، و أن عامليها إما مشركين أو يهود و نصارى أو من أهل القبلة، و عليه لو عمل الكافر عملا حسنا خالصا لله فله ثوابه و أجره في الدنيا لو أراد ذلك أو في الآخرة لو أراد ذلك، و لكن في النهاية له النار بكفره و شركه.

---

(١) ثم وجدت للواحدي هذا القول: (معنى قول سعيد بن جبير: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا، قال: ثواب ما عملوا من خير أعطوا في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار، فإذا جاء هذا الكافر في الآخرة رد منها على عاجل الحسرة؛ إذ لا حسنة لها هناك.) التفسير البسيط، ج ١١ ص ٣٦٦ – ٣٦٧.

و من مجمل كلام ابن جرير الطبري و بما ذكره مماثلا لتأويله عن بعض الصحابة و التابعين و غيرهم يؤكد أن المذكورين هم الكفار و المشركين و المنافقين و المرائين، و بالجملة ممن لا يقبل عمله فيحبطه الله باستهلاك ثوابه كاملا و تاما في الدنيا فلا يبقى له في الآخرة إلا النار، و على كل فعمل هؤلاء الصالح أو الحسن فإنه معتبر و يجازى عليه ثوابا في الدنيا و إذا اعتبره الله فوجب علينا اعتباره، مع بقاء وصفه بأنه حابط و باطل.

و الشاهد أن الحبط: استحقاق الثواب في الدنيا و منعه في الآخرة، و البطلان هو أن يقع العمل لغير الله، و العمل الذي أمر الله به إذا امتثل له العامل ظاهرا و في حقيقة الامر وقع باطلا و حابطا فإنه مقبول في الدنيا و تبرأ ذمته التكليفية من العمل.

- الماتريدي: (اختلف فيه:

قَالَ بَعْضُهُمْ: الآية في أهل الإيمان الذين عملوا الصالحات مراءاة للخلق يقول: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا من الذكر فيها والشرف، وما طلبوا بأعمالهم في الدنيا من المباهاة وغيره، آتاهم اللهَّ في الدنيا جزاء لتلك الأعمال التي عملوها وبطل ما صنعوا وباطل ما كانوا يعملون؛ لأنهم عملوا لغير اللهَّ، فلا يجزون في الآخرة بأعمالهم تلك، وإلى هذا يذهب ابن عَبَّاسٍ. [1]

---

[1] بحر العلوم للسمرقندي، ج ٢ ص ١٤١ حيث قال: (قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل القبلة.). و لكن الواحدي قال: (فقال ابن عباس في رواية عطاء: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب، وهذا يدل على أن الآية نازلة في أهل الكفر.) التفسير البسيط، ج ١١ ص ٣٦٦. ثم قال بعدها: (وقال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي صالح عنه أنها نزلت في أهل القبلة). و لكن هذا اسناد تالف. و قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: فعلى هذا القول، المعني [بهذا الوصف] قوم من أهل الإسلام). أما ابن القيم قال: (ابن عباس من كان يريد تعجيل الدنيا فلا

وروي في بعض الأخبار أن نبي اللهَّ – ﷺ –... فقال: المؤمن تكون له ذنوب فيجازى بها عند موته، فيفضي إلى اللهَّ في الآخرة ولا ذنب عليه، والكافر يكون له الحسنات فيجازى بها عند الموت يخفف عنه بها كرب الموت، ثم يفضي إلى الآخرة وليست له حسنة أو كلام نحوه.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: الآية في أهل الكفر يعملون أعمالا هي في الظاهر صالحة؛ نحو: التصدق على الفقراء وعمارات الطرق واتخاذ القناطر والرباطات هي في الظاهر صالحة، يقول: نوف لهم جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا لا ننقص منها شيئا فهو ما وسع عليهم الدنيا.

وجائز أن يكون قوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ أي: نرد إليهم أعمالهم التي عملوها فلا نقبلها ويكون إيفاء أعمالهم الرد. وقوله – عَزَّ وَجَلَّ –: وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أي: لا ينقصون ما قدر لهم من الرزق إلى انقضاء مدتهم وآجالهم بشركهم باللهَّ.

وقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ على هذا التأويل الظاهر ليس لأهل الكفر في الآخرة إلا النار، وعلى التأويل الذي قال: إنها في أهل الإيمان، أي: لا يستوجبون بتلك الأعمال التي عملوها مراءاة إلا النار؛ لأنه إذا راءى فيها لم يخلصها لله وضيع أمره، وكل من ضيع أمر اللهَّ وفريضته يستوجب التعذيب عليه وله العفو، وليس في الآية أنه لا محالة يعذبهم بعملهم المراءة، واللهَّ أعلم.) [1]

يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب قالوا والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس) مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن القيم الجوزية، ج ٧ ص ٢٠٨.

[1] تأويلات أهل السنة، ج ٦ ص ١٠٧ – ١٠٨. و انظر تفسير البغوي، ج ٢ ص ٤٤٢. فذكر الوجهين (أهل الإيمان – أهل الكفر) و استشهد لكل وجه بحديث.

محاولة التأويل لأن يتجه بالسياق أن يكون متعلقه هم أهل الإيمان الذين يعملون بعض الأعمال رياء أو لطلب الدنيا بها، توجيه قَلِق و فيه مقابلة للظاهر و المتبادر من سوق الآيات، و لا يوجد مبرر لأن نتكلف مثل هذا التوجيه التأويلي ما دام الظاهر و السياق و القرائن متسقة و منسجمة نحو أن هؤلاء هم أهل الشرك و الكفار الذين يعملون الصالحات سواء من باب الرحمة و الشفقة أو من باب الإنسانية أو من باب اتباعهم للشرع على ظنهم و حسبانهم، و الشرع قد يكون بقايا كتاب أو وصايا نبي أو رسول متوارثة عبر الأجيال، أو هو القرآن بما يحويه من شرائع و أخلاقيات.

و القلق في التناغم الدلالي لمكونات الآية يظهر بشدة عند تأويلها أنها في أهل القبلة، و من الشواهد على هذا القلق أنهم جعلوا العمل المأمور به شرعا في حال أهل القبلة (صالح) و مع الكفار (ظاهره الصلاح)، ثم يتحدا في كونهما لغير الله و أنهم لم يخلصوها لله، و ما دام العمل لغير الله و هو للدنيا و ابتغاء حرثها و ثوابها فقد اتحدا في كل الأوصاف، خاصة أن هذه الأعمال حُكم عليها بأنها تورد صاحبها النار في الآخرة [1]، و يبلغ الضعف التأويلي مداه عندما يجعلوا

---

[1] و ما يقوي هذا ما نقله السمعاني عن مجاهد و جماعة من العلماء فقال: (وقال مجاهد وجماعة: نزلت الآية في كل من عمل عملا وأراد به غير الله.) تفسير السمعاني، ج ٢ ص ٤١٧ – ٤١٨. و قال الخازن: (وقيل إن حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذي هذه صفته والمؤمن الذي يأتي بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة) لباب التأويل، ج ٢ ص ٤٧٧. و الصاوي: (والحمل على العموم أولى، فيندرج فيه الكافر والمنافق والمؤمن) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص ٨٣٥. و مال إليه الشوكاني: (وقيل: الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم. والمعنى أن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك) فتح القدير، ج ٢ ص ٥٥٣. و القونجي: (وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على العموم أولى.) فتح البيان، ج ٦ ص ١٥٣.

الثواب الدنيوي هو الحصول على الثناء و المدح و الشهرة التي يبتغي بها العامل من وراء عمله فيخصصوا هذا الثواب بأهل القبلة، أما الكفار فينحصر الثواب في التوسعة بالرزق و الأولاد و الصحة و كأنهم لا يلتمسون هم أيضا الرياء و السمعة و الشهرة، فهو تفريق بدون دليل و لا يكون أولى لأحد دون أحد فهو تخصيص بدون مخصص.

و أما مسألة عدم القبول و رد هذه الأعمال فهو ثابت في حق أي إنسان بدلالة الحديث أن الله يتركه و شركه [1] و فيه أنه لا يثاب عليه، أي أن علة الرد و عدم القبول قاصرة على العمل نفسه و ما تلبس به أثناء وقوعه من قصد و نية، فلا دخل لاسم الفاعل هنا هل هو مسلم أو مشرك، لأنه لا يوجد علية مأخوذة من اسم الفاعل كي تصحح أو تفسد العمل، بل العبرة بالعمل في ذاته ظاهرا و باطنا.

و كل هذا الاضطراب ناتج مما قر في نفوس أغلب العلماء أن أي عمل صالح من الكافر هو

---

[1] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه. أخرجه مسلم في صحيحه (٨ / ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥). و أما في رواية ابن خزيمة في صحيحه: (وهو للذي أشرك . وقال بندار: قال: فأنا منه بريء وليلتمس ثوابه منه.) (٢ / ١٤١) برقم: (٩٣٨). و الشاهد أن الله لا يثيبه عليه، فكل عمل وقع نفاقا أو رياء لا يكن له ثوابا، فكيف نثبت للرياء ثواب. و في صحيح ابن حبان: (فأنا منه بريء، هو للذي أشرك به) (٢ / ١٢٠) برقم: (٣٩٥).

و في حديث آخر: (من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك.) حديث أبي سعد بن أبي فضالة الحارثي، أخرجه الترمذي في جامعه (٥ / ٢٢٠) برقم: (٣١٥٤) وابن ماجه في سننه (٥ / ٢٩١) برقم: (٤٢٠٣) وأحمد في مسنده (٦ / ٣٣٩٤) برقم: (١٦٠٨٠)، (٧ / ٤٠٣٧) برقم: (١٨١٧١) وابن حبان في صحيحه (٢ / ١٣٠) برقم: (٤٠٤)، (١٦ / ٣٤٠) برقم: (٧٣٤٥) والطبراني في الكبير (٢٢ / ٣٠٧) برقم: (٧٧٨).

مستحيل الوقوع أصلا، ثم لو قدر تصوره في الوجود فإنه مردود و غير مقبول أي يقع فاسدا أصلا، و لو تصور وقوعه صحيحا أي بشروطه الشرعية فلا يستتبع ثوابا، و لو قدر و استتبع ثوابا فهو ممنوع بمانع الكفر، و لو قدر له استتباع ثواب فإنه في الدنيا فقط، و لو قدر أنه ذهب به للآخرة فإنه لا يوزن له أعمال أصلا، و لو قدر أنه يوزن له الأعمال فإنها تبطل كلها فلا قيمة لها و لا وزن، و من قدر أن لها قيمة و وزن يقول أنها تحبط كلها بإزاء السيئات، و منهم من قال أنها تحبط و لكن بموازنة قدرها من السيئات فيخف عنه قدر العذاب المستحق بإزاء ما بقي من السيئات.

و في تأويله نوف بأنه رد الأعمال و عدم قبولها و بالتالي لا ثواب عليها و لا أجر، و يكون تأويله حينئذ و هم فيها لا يبخسون بمعنى أن هذا الرد و عدم القبول لا يؤثر على ما قدر لهم من الرزق، و هذا أيضا تخصيص بلا مخصص و تحكم غير مبرر، لأن الله لا يمنع أحدا من رزق هو مقدر له سواء أكان كافر أو مسلما (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا، بل قد يكون العكس أحيانا أن الله يمد لهم و يزيدهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، إذن مسألة تأويل عدم البخس بعدم نقص رزق المشركين مقابل أن أعمالهم مردودة عليهم لا وجه لها من السداد، لأن أرزاقهم مكفولة لهم بل قد تزاد و هم مازالوا كفارا يعملون الكفر و الشرك و ليس أعمالا ظاهرها الصحة.

و الخلاصة أن هذه الأعمال هي أعمال صالحة حقيقة للمشركين و لكن يبتغى من وراءها الفضل و الرضوان من الله في الدنيا ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ

آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴿٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠]، و لاحظ أن موسم الحج يجمع المشركين و المسلمين، و أن المعنيين هنا بأنهم لا يريدون إلا الدنيا هم المشركين، و ما يقوي هذا المعنى قوله تعالى فمن الناس و القرينة الأخرى و ما له في الآخرة من خلاق، ثم نزيد الأمر وضوحا و تأكيدا بهذه الآية أيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٢﴾ [المائدة: ٢]

فقد وصف الله الحجاج المشركين بأنهم يبتغون فضلا من ربهم و رضوانا، و قد اتضح أن الفضل و الرضوان بالحج و الهدي و القلائد كان لأجل أن يأتهم الله ما في الدنيا من ثواب و حرث و زينة.

و على كلا الاحتمالين بأن المعني أهل الإيمان أو أهل الكفر، فإن العمل في نفسه مردود و غير مقبول و ظاهره يكون الصحة و الصلاح، و أن هذا العمل حابط و باطل، و في ظل احتمالية أن المتعلق هو أهل الإيمان فهذا يدل على أن دين العامل مهمل لا يعلل به رد أو قبول العمل، فالأعمال مستقلة الشروط و الموانع.

و في ذلك أيضا (كلا الاحتمالين) دليل على أن اتصاف العمل بالحبط و البطلان لا يمنع الإثابة عليه

- أبو جعفر النحاس: (**قال الضحاك يعنى** المشركين **إذا عملوا عملا جوزوا عليه في الدنيا وقال سعيد بن جبير من عمل عملا يريد به** غير الله **جوزي به في الدنيا**، وقال مجاهد من عمل عملا ولم يتقبل منه أعطي ثوابه في الدنيا **قال أبو جعفر** وأحسنها قول الضحاك **لقوله بعد ذلك أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار قال مجاهد لا يبخسون لا ينقصون**) (١)

---

(١) معاني القرآن، ج ٣ ص ٣٢٥. و أشار بذلك المعنى الثعلبي في الكشف و البيان، ج ١٤ ص ٣٢٧ – ٣٢٩. و ذكره الواحدي في التفسير البسيط، ج ١١ ص ٣٦٦ – ٣٦٧. و نقل اختيار النحاس القرطبي في تفسيره ج ٩ ص ١٣. و كذلك من رجح كونها في الكفار ابن جزي: (أرجح لتقدّم ذكر الكفار المناقضين للقرآن، فإنما قصد بهذه الآية أولئك) التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١ ص ٣٦٧. و أشار لذلك الخازن في لباب التأويل، ج ٢ ص ٤٧٧، فقال: (ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار الآية وهذه حالة الكافر في الآخرة). و قال أبو حيان: (مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه تعالى لما ذكر شيئا من أحوال الكفار المناقضين في القرآن، ذكر شيئا من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة... والحصر في كينونة النار لهم ظاهر في أن الآية في الكفار)البحر المحيط، ج ٦ ص ١٣٣. و ابن القيم: (قال هؤلاء فالآية في الكفار بدليل قوله أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قالوا المؤمن من يريد الدنيا والآخرة فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن....وهذا القول أرجح) مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن القيم الجوزية، ج ٧ ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

و يقول الثعالبي: (قالت قتادة وغيره: هي في الكفرة، وقال مجاهد: هي في الكفرة وأهل الرياء من المؤمنين. وإليه ذهب معاوية، والتأويل الأول أرجح بحسب تقدم ذكر الكفار) الجواهر الحسان، ج ٣ ص ٢٧٦. و يقول القونوي على من قال بأنها في أهل الإسلام: (ويرده [قَوْلُه تَعَالَى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ...].) حاشيتا القونوي و ابن التمجيد على البيضاوي، ج ١٠ ص ٤٥.

و يقول الشربيني: (وقال أكثر المفسرين: إنّها نزلت في الكافر) السراج المنير، ج ٢ ص ٤٩. و الشوكاني: (قوله: أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار الإشارة إلى المريدين المذكورين، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار) فتح القدير، ج ٢ ص ٥٥٣ –

- الطبراني: (في الآيةِ وجهَان: أحدُهما: أنَّ المرادَ بالآيةِ إذا أتَى بالأعمالِ التي تكون حَسَنَةً في العقلِ مثل صِلَةِ الرَّحمِ والتصدُّقِ وإعانةِ المظلوم، فإن اللهَ يجازيهِ على هذه الأعمالِ في الدُّنيا بأن يُمَكِّنَهُ مما حولَهُ ويعطيهِ ما يسعَى لطلبهِ وافراً عليه ويُقِرَّ عَيْنَهُ بذلك.

والثاني: أنَّ المراد بها المنافقُ إذا خرجَ للغزوِ مع المسلمين وهو يريدُ الغنيمةَ دون الثواب ونصرةِ الدِّين، يجزيهِ الله على غزوهِ بأن أمرَ بإعطائه سَهْمَهُ من الغنيمةِ لا يُبْخَسُ عنه شيءٌ من سهمهِ.[1]

قَوْلُهُ تَعَالَى: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ؛ معناهُ: إنَّ الذين عَمِلُوا لغيرِ الله من الكفارِ والمنافقين ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا؛ من العمالِ الحسَنة؛ لأنَّهم لم يرَوا لها ثواباً، وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ من خيرٍ.) [2]

---

٥٥٤. و يقول الألوسي: (والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة الذين يعملون البر لا على الوجه الذي ينبغي... والسياق يقتضي أنها في الكفرة مطلقا) روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٣ – ٢٤. و قال محمد رضا: (وموضوعهما عام فيمن لا يؤمن بالآخرة ولا يعملون لأجلها) تفسير المنار، ج ١٢ ص ٤٢.

و يقول ابن عاشور: (وإلا النار استثناء مفرغ من ليس لهم أي ليس لهم شيء مما يعطاه الناس في الآخرة إلا النار. وهذا يدل على الخلود في النار فيدل على أن هؤلاء كفار عندنا.) التحرير و التنوير، ج ١٢ص ٢٥.

[1] ذكر هذا القول مكي في الهداية إلى بلوغ النهاية، ج ٥ ص ٣٣٦٠. والطوسي في التبيان في تفسير القرآن، ج ٥ ص ٤٥٣. و قال القرطبي: (وقيل: من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبي ﷺ وفيها، أي وفي أجر الغزاة ولم ينقص منها، وهذا خصوص والصحيح العموم.) تفسير القرطبي، ج ٩ ص ١٣ – ١٤. و ذكره كأحد الأقوال الخازن في لباب التأويل، ج ٢ ص ٤٧٧.

[2] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني. و نفسه للجصاص في أحكام القرآن، ج ٤ ص ٣٧٦. و جعل قول مجاهد و الضحاك واحدا في معناه، و بهذا أيضا قال الطوسي في التبيان في تفسير القرآن، ج ٥ ص ٤٥٣. أما السمرقندي قال: (وقال الحسن: نزلت في المنافقين والكافرين) بحر العلوم، ج ٢ ص ١٤١.

قد جعلها الطبراني في أهل الكفر (المشركين و المنافقين)، و جعل أعمال أهل الكفر التي يكون حسنها في العقل، لأنه لا يتصور على الكافر أن يتعبد الله بما شرع في كتابه خالصا له (هكذا هو تصورهم للكافر فليتنبه لذلك) فإذا جوزوا على ما حسنه العقل و لا يريدون به وجه الله و لا قاصدين به الآخرة، فما بالك بالذي يتعبد الله بما شرعه في كتابه قاصدا الإخلاص و الثواب في الآخرة أفلا يكون أولى بالمجازاة على أعماله.

و من فوائد إدخاله المنافقين و ضرب المثل لأحد أعمالهم و هو الغزو جعل المجازاة أن الله مكنهم من الغنائم كالمؤمنين، و لكن هذا التوجيه منه ليس بقوي لأن المنافق غير معلوم لكل المؤمنين، و لأن المنافق المعلوم نفاقه لا يطالب بقضاء أو إعادة بل يطالب و يؤمر بما شرعه الله و يقبل منه عمله على ظاهر الأمر، و هذا هو محل الشاهد أن عمله في حقيقته غير خالص لله و لا يراد به ثوابا لأنه كافر بالآخرة، و مع ذلك سيجازى عليه في الدنيا و يقبل منه من طائفة المؤمنين على أنه صحيح، أفلا يكون من الأولى العمل الخالص المراد به ثواب الآخرة. و على ما سبق البطلان لا يلزم منه عدم المجازاة و الثواب لأنه قد ثبت أن لهم ثواب في الدنيا على أعمالهم الباطلة، و أيضا صفة البطلان لا تنفي استتباع الأحكام الشرعية على العمل الموصوف بالبطلان كاستحقاق السهم من الغنيمة للمنافق.

- الجصاص: (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فيها وجهان، أحدهما: أن يصل الكافر رَحِماً أو يعطي سائلاً أو يرحم مضطراً أو نحو ذلك من أعمال البر فيجعل الله له جزاء عمله في الدنيا بتوسعة الرزق وقرة العين فيما خوّل ودفع مكاره الدنيا، رُوي ذلك عن مجاهد والضحاك.

والوجه الثاني: **من كان يريد الحياة الدنيا بالغزو مع النبي ﷺ للغنيمة دون ثواب الآخرة فإنه يستحق نصيبه وسهمه من المغنم، وهذا من صفة** المنافقين. **فإن كان التأويل هو الثاني فإنه** يدل على أن الكافر إذا شهد القتال مع المسلمين استحق من الغنيمة نصيباً.) [1]

- ابن أبي زمنين: (**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها يعني**: المشرك لا يؤمن بالآخرة **نوف إليهم أعمالهم فيها يعني: جزاء** حسناتهم **وهم فيها لا يبخسون لا ينقصون** حسناتهم **التي عملوا. وحبط ما صنعوا فيها بطل ما عملوا في الدنيا من** حسنات في الآخرة؛ لأنهم جوزوا بها في الدنيا.) [2]

- مكي: (**المعنى: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، نوف إليهم أجورهم فيها . وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ: هذا** للكافر**، فأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة.**) [3]

و هذا استدلال من مكي على أن الآية في الكفار و ليست في المؤمنين، لأن المؤمن يثاب على عمله في الدنيا و الآخرة، و المذكورين في الآية لا يثابون في الآخرة إذن هم الكفار.

- الواحدي: (**من كان يريد الحياة الدنيا أَيْ: مَنْ كان يريدها من** الكفَّار ولا يؤمن بالبعث ولا بالثَّواب والعقاب **نوف إليهم أعمالهم جزاء أعمالهم في الدُّنيا يعني: إنَّ مَنْ أتى من** الكافرين فِعلاً حسناً **من إطعام جائعٍ وكسوة عارٍ ونصرة مظلومٍ من المسلمين عُجِّل له** ثواب **ذلك في**

(١) أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٤/ ٣٧٦).

(٢) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ٢٨٢).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية، ج ٥ ص ٣٣٦٠. التفسير البسيط، ج ١١ ص ٣٦٦ – ٣٦٧.

دنياه بالزِّيادة في ماله وهم فيها في الدُّنيا لا يُبخسون لا يُنقصون ثواب ما يستحقُّون فإذا وردوا الآخرة وردوا على عاجل الحسرة إذ لا حسنة لهم هناك) [1]

(فإن قيل: " "على هذا القول الآية الثانية توجب تخليد المؤمن في النار؛ لأنه قال: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، قيل: من مات على الإيمان [لم يخلد في النار]" [2] وظاهر هذه الآية يدل على أن من راءا بعمله ولم يلتمس ثواب الآخرة، ونوى بعمله الدنيا، بطل إيمانه عند الموافاة؛ لأن قوله تعالى وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ شامل للإيمان وفروعه.) [3]

---

(1) الوجيز للواحدي، ص ٥١٥. و بنحوه (نقصد أن تفسيرهم أنها في الكفار بتغيير بعض العبارات): تفسير ابن برَّجان، ج ٣ ص ١٩ – ٢٠. و بنحوه إيجاز البيان عن معاني القرآن لنجم الدين النيسابوري، ج ١ ص ٤٠٨ – ٤٠٩. و بنحوه تفسير الجلالين، ص ٢٨٦.

(2) اللباب في علوم الكتاب، ج ١٠ ص ٤٥٤.

(3) التفسير البسيط للواحدي، ج ١١ ص ٣٦٨ – ٣٦٩. و قال القرطبي: ((أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار) إشارة إلى التخليد، والمؤمن لا يخلد، لقوله تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك [النساء: ٤٨] الآية. فهو محمول على ما لو كانت. موافاة هذا المرائي على الكفر. وقيل: المعنى ليس لهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج، إما بالشفاعة، وإما بالقبضة. والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان، وفي الحديث [الماضي] يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في النساء ويأتي في آخر الكهف) تفسير القرطبي، ج ٩ ص ١٥. و قال ابن القيم: (من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهذا لا يكون مؤمنا ألبتة... فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان) مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن القيم الجوزية، ج ٧ ص ٢٠٨ – ٢٠٩. و في تفسير الجلالين، ص ٢٨٦، حيث قال: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها بأن أصر على الشرك). و قال محمد رضا: (وموضوعهما عام فيمن لا يؤمن بالآخرة ولا يعملون لأجلها) تفسير المنار، ج ١٢ ص ٤٢. و قال السعدي: (فهذا لا يكون إلا كافرا، لأنه لو كان مؤمنا، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا) تفسير السعدي، ص ٣٧٨.

و الشاهد من هذه المناظرة حول دلالة الآية إذا جعلت في أهل الإيمان هو ما قيل أن الرياء يبطل العمل (الفرع) و يبطل الإيمان (الأصل) و هذا يدل على أن اسم الفاعل (مؤمن) لا يعصم صاحبه من سلبه ما أدى لتسميته (الإيمان) و كل هذا لأن العمل هو الذي يشتق منه الاسم، و نقصد العمل المنظور إليه و ليس العمل السابق الذي أعطاه الاسم، فاسم الفاعل تابع و ليس متبوع في توصيف العمل و عامله، و موضع الشاهد أن بهذا التأويل الكل متساو إذا وقع الرياء سواء أكان من مؤمن أو من كافر[1] لأنه في الحالتين لا يوجد إيمان، فالذي كان مؤمنا سلب الإيمان، و الذي كان كافر جرى على طبيعته، فلا وجه للقول باستحقاق هذا العمل جزاء و ثواب في الدنيا إذا كان من مؤمن فقط، فيقصروا تأويل الآية على المؤمن دون الكافر، و يجعلون أعمال الكافر هي الحسنة عقلا أي بلا نية تقرب إلى الله، و المعنى فيهما واحد، فالعملان للدنيا من دون الله، فلا فارق إذن.

و قال ابن عاشور: (فالمعنى من كان لا يطلب إلا منافع الحياة وزينتها. وهذا لا يصدر إلا عن الكافرين لأن المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلا لذلك، فمورد هذه الآيات ونظائرها في حال الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة.) التحرير و التنوير، ج ١٢ ص ٢٣.

[1] و ما يقوي هذا ما نقله السمعاني عن مجاهد و جماعة من العلماء فقال: (وقال مجاهد وجماعة: نزلت الآية في كل من عمل عملا وأراد به غير الله.) تفسير السمعاني، ج ٢ ص ٤١٧ – ٤١٨. و كذلك قول ابن عطية: (قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة: هذا قول قتادة والضحاك، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أهل الرياء من المؤمنين) المحرر الوجيز، ج ٣ ص ١٥٦. و يقول ابن العربي: (قال القاضي: هي عامة في كل من ينوي غير الله بعمله، كان معه أصل إيمان، أو لم يكن.) أحكام القرآن، ج ٣ ص ١٥. و قال ابن الجوزي: (أحدها: أنها عامة في جميع الخلق، وهو قول الأكثرين) زاد المسير، ج ٢ ص ٣٦٢.

- عبد القاهر الجرجاني: (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ: المحمودة لظواهرها [1]، لا لوجه الله تعالى، كقوله عليه السّلام: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

ما صَنَعُوا فِيها: في الحياة الدّنيا. وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ: لوقوعها باطلا عند الله في الأحكام العقباويّة.) [2]

نلاحظ هنا أن الجرجاني قد جعل علة التوصيف بالبطلان العائدة على الأعمال من حيث العاقبة الأخروية، و هي لفتة دقيقة، حيث قرر أن هذه الأعمال في الدنيا ظاهرها الصحة و الصلاح، و قد خصصها بالظاهر فقط لأنها لا تستوجب ثوابا في العاقبة، فانفردت في الدنيا بما يليق بها من صفات المدح فقيدها بقيدين، الأول كلمة الظاهر و الثاني العاقبة، لكي يخرجها عن دائرة الأعمال الصالحة المستوجبة بفضل الله و رحمته الثواب الأخروي، لأن من صفة هذه الأعمال أنها تقع من الذي آمن و عمل صالحا فقط. و الشاهد اجتماع وصف البطلان للعمل

---

[1] يقول أبو السعود: (أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبةً لذلك بناءً للأمر على ظاهر الحالِ ومحافظةً على صور الأعمالِ) إرشاد العقل السليم، ج ٤ ص ١٩٣. أي أن صورة العمل الظاهرية هي سبب الإثابة. و يقول الألوسي: (الصالحة بحسب الظاهر) و نقل أيضا قول أبو السعود السابق، روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٣.

[2] درج الدرر، ج ٢ ص ٩٨. و يقول الزمخشري: (نوف إليهم نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا،... وباطل ما كانوا يعملون أي كان عملهم في نفسه باطلا، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له.) الكشاف، ج ٢ ص ٣٨٤. ويقول ابن عطية: (من كان يريد بأعماله الدنيا فقط إذ لا يعتقد آخرة، فإن الله يجازيه على حسن أعماله- في الدنيا... والباطل كل ما تقتضي ذاته أن لا تنال به غاية في ثواب ونحوه) المحرر الوجيز، ج ٣ ص ١٥٦ - ١٥٧.

الذي يستوفيه لصاحبه في الدنيا لأن ظاهره الصلاح، و تأويله يميل أن الآية في المؤمنين، و عليه يكون عمل المؤمن الذي لا لوجه الله و ظاهره الصلاح و هو عند الله باطل و حابط يتم التعامل معه في الدنيا على ظاهره شرعا، و هذا هو موطن الاستنباط، أنه لا ضير من أن العمل باطل و حابط حقيقة و ظاهره الصلاح أن يعتبر صلاحه في ظاهر الأمر [1]، و صلاح العمل لم يأتي وصفه من كونه من المؤمن بل لكونه مطابقا للشريعة لا يظهر فيه مانع أو خلل في شروطه، فاسم الفاعل (مؤمن) لا يصلح العمل الفاسد أو الباطل الواقع منه و بهذه الحيثية لا فرق بينه و بين غير المؤمن.

و الزمخشري أيضا يقرر أن أعمال البر و الخير في نفسها باطلة و أن العمل الباطل لا ثواب له، رغم أنه قد أثبت التوفية على هذه الأعمال في الدنيا و سماها أجور، فقد يكون أنه يخصص كلمة الثواب للآخرة فقط، و الأجور للدنيا، هذا من جهة و من جهة أخرى، فقد ذكر تعدد التفسيرات التي وردت في المعني بهذه الأعمال و من هم أصحابها، فمرة جعلها للكفار و مرة لأهل الرياء، و مرة لليهود و النصارى، و مرة للمنافقين، و ما يهمنا و هو أيضا محل الشاهد أن هذه الأعمال لها استحقاق تشريعي عملي في الدنيا من قبل المسلمين، فما دامت هذه أعمال بر

---

[1] و تفسير ابن كثير لقول ابن عباس خير شاهد على ذلك: (عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٢٦٩. و محل الاستشهاد هو اعتبار مثل هذه العبادات على ظاهر الأمر مع ثبوت وصفها بالحبط و البطلان.

فقد استوجبت من الناحية الشرعية التعاون عليها و توقيع ما يتعلق بها من حقوق و تشريعات، كما في المجاهد المنافق فله سهمه من الغنيمة، و عليه كل الأعمال الشرعية التي تقع منه من صلاة و زكاة و حج و خلافه.

و بهذا فإن الزمخشري متفق مع الطوسي أن العمل الحسن من الكافر لا يكون على شرط الإيمان و الإخلاص فهو باطل في نفسه و لا يتعلق به ثواب.

و هناك شبه اتفاق على أن العمل الباطل في نفسه لا ثواب عليه في الآخرة، و هذا مستقيم مع رؤيتنا لأن هذه الأعمال لم تكن صحيحة و مشروطة بالشروط الشرعية التي لا دخل فيها بدين العامل لأن تنصيصهم على علة الإبطال بكونه رياء أو لكونه يراد به الدنيا من كافر بالآخرة، و من جهة أخرى فإن الذين حكم عليهم بالنار لن يثابوا بمعنى لن ينتفعوا بأي عمل ليدفع عنهم النار أو يخفف عنهم العذاب بعد الدخول، و بهذا فالإطلاق صحيح، أما مسألتنا في العمل المحقق الشروط و منتفي عنه الموانع الشرعية النصية الواقع من الكافر أو المشرك.

لأن هذه الأعمال الباطلة و المحبطة و التي يثاب عليها في الدنيا فقط إن كانت قاصرة في الوجود و الشرع على الكافر و المشرك فلا حاجة لتعديد مناطات الإبطال و الإحباط، فكان يكفي أن يناط الحكم عليها بكونها من كافر أو مشرك و فقط، لأن هذا يعتمد على العمل نفسه هل هو باطل في نفسه أم لا؟، و من أبدل من العلماء أو المفسرين بطريق الكناية أو التسبب أو الملازمة ما بين الخلل في العمل نفسه و بين عمل الكافر أو المشرك أو المرائي أو الكتابي لأنه ينظر للعمل نفسه الذي تسبب في تسمية عامله بالمشرك أو الكافر (أهل الكتاب) أو المرائي فإنه لا بد فيه أنه يستصحب عقائدهم المختلفة المتحدة في الشرك و الكفر، حتى المرائي مشرك بعمله لأنه

أشرك فيه غير الله، و لذلك فالأعمال الظاهرة في الصلاح قد بطلت لأجل إرادة ثوابها في الدنيا من الكافر بالآخرة.

- ابن برجان: (أي: نوفِّ إليهم أعمالهم؛ أي: الأعمال التي تشبه البر من إطعام طعام وقول حسن وإصلاح وإحسان لمخلوق ورفق بمؤمن، يجازون عليها بأرزاق وعوافٍ ونحو ذلك، لا يبخسون من أعمالهم شيئًا.

(تنبيه): في مفهوم هذا الخطاب من زيادة اليقين أن الله جل ذكره يجازي الكافر على أعماله التي تشبه البر لا يبخسه منها شيئًا...

والمبتلي أن نية العبد وإرادته إحدى الدارين عليها مجزي الله لهذا العبد... حبط في أحكام الآخرة ما صنعوا في الدنيا (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا) في الدنيا) [1]

- ابن عطية: (قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة: هذا "قول قتادة والضحاك، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أهل الرياء من المؤمنين: [2]...

فأما من ذهب إلى أنها في الكفرة فمعنى قوله يُرِيدُ يقصد ويعتمد، أي هي وجهه ومقصده لا مقصد له غيرها. فالمعنى: من كان يريد بأعماله الدنيا فقط إذ لا يعتقد آخرة، فإن الله يجازيه على حسن أعماله- في الدنيا- بالنعم والحواس وغير ذلك: فمنهم مضيق عليه ومنهم موسع له، ثم حكم عليهم بأنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا بالنار ولا تكون لهم حال سواها.

---

(1) تفسير ابن برجان (٣/ ١٩).

(2) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين ابن جماعة، ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١.

"قال القاضي أبو محمد: فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية." [1] وهو عندي أرجح التأويلات- بحسب تقدم ذكر الكفار المناقضين في القرآن- فإنما قصد بهذه الآية أُولئِكَ. [2]

... وقال أنس بن مالك: هي في أهل الكتاب. قال القاضي أبو محمد: ومعنى هذا أن أهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية، لا أنها ليست في غيرهم....

"والباطل كل ما تقتضي ذاته أن لا تنال به غاية في ثواب ونحوه" [3]وبالله التوفيق.) [4]

و ابن عطية يقرر أيضا أن العمل الباطل هو الذي لا ثواب له و قد وصفه قبلا بالحسن و استتباعه المجازاة، و عليه فإن بطلان العمل لا يزيل عنه وصفه بالحسن و لا ينفي استحقاقه الثواب أو المجازاة الدنيوية عليه، و جريا على قبوله ما ذكره من تأويلات أخرى فنستطيع القول أنه لا مانع عنده أن يكون للعمل الباطل الاستتباع الشرعي في الدنيا على ظاهره من

---

[1] نقله ابن عرفة في تفسيره، ج ٢ ص ٣٥٤.

[2] نقله بحروفه معزوا لابن عطية مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن في تفسير القرآن، ج ٣ ص ٣٢٧.

[3] و قال البيضاوي: (وَباطِلٌ في نفسه) أنوار التنزيل، ج ٣ ص ١٣٠. و قال ابن عرفة: (وقوله وَبَاطِلٌ إشارة إلى ما هو فاسد من أصله) تفسير ابن عرفة، ج ٢ ص ٣٥٤. و قال الثعالبي: («الباطل: كل ما تقتضي ذاته ألا تنال به غاية في ثواب ونحوه) ص ٢٧٧. و ابن التمجيد: (والباطل لا يثمر الثواب)حاشيتا القونوي و ابن التمجيد على البيضاوي، ج ١٠ ص ٤٥. و البقاعي: (وباطل أي ثابت البطلان في كل من الدارين) نظم الدرر، ج ٩ ص ٢٥٢. و الإيجي: ((وَبَاطِلٌ ما كانوا يَعْمَلُون) أي عملهم في نفسه باطل لأنَّهُم لم يعملوا بوجه صحيح)جامع البيان في تفسير القرآن، ج ٢ ص ١٦٧. و مجير الدين الحنبلي: (وَبَاطِلٌ في نفسِه مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لأنه عمل لغيرِ الله تعالى) فتح الرحمن في تفسير القرآن، ج ٣ ص ٣٢٧. تفسير الأعقم، ج ١ ص ٢٩٠.

[4] المحرر الوجيز، ج ٣ ص ١٥٦ – ١٥٧.

الأمر و هذا ظاهر جدا في أعمال المنافقين و المرائين، أما أعمال الكفار و المشركين فقد نستجلب تصوره عنها من خلال قوله التفسيري في معنى الأمر الإلهي بالتعاون على البر.

فإذا أخذنا قول البعض بظاهر الآية الذي يفيد العموم مع قول الآخرين الذين خصوها إما بأهل الرياء من المؤمنين أو بأهل الكتاب أو بالكفار و المشركين، فمن الجهتين فإنها عامة، و عمومها قد اكتسب قوته من كونه مقتصر على وصف العمل في نفسه، فلما نظر في شروط العمل وجدوها ناقصة على حسب العامل، فكل عامل منتسب لدين ما قد أبطل عمله من جهة ما، و بما أنه يستحيل جمعهم على دين واحد لأن فيهم الكافر و المؤمن، فدل هذا على أن الدين ليس داخلا في مناط الإبطال و أن شروط و موانع العمل نفسه هي المناط، و الدليل على تسلط هذه الحيثية أنها سادت على دين العامل و تجاوزته للتصريح بعلة الإبطال بذكر الرياء أو الكفر بالآخرة الذي يقتضى تعجيل المثوبة في الدنيا لأن الآخرة ليست في حسبانه مكانا لتحصيل المنفعة من وراء الأعمال.

- ابن العربي: (فيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: قوله: من كان يريد الحياة الدنيا بيان لما قال النبي ﷺ: إنما الأعمال بالنيات؛ وذلك؛ لأن العبد لا يعطى إلا على وجه قصده، وبحكم ما ينعقد ضميره عليه، وهذا أمر متفق عليه في الأمم من أهل كل ملة.

المسألة الثانية: أخبر الله سبحانه أن من يريد الدنيا يعطى ثواب عمله فيها، ولا يبخس منه شيئا.

...

المسألة الثالثة: اختلف في المراد بهذه الآية؛ فقيل: إنه الكافر، فأما المؤمن فله حكمه الأفضل الذي بينه الله في غير موضع. وقال مجاهد: هي في الكفرة، وفي أهل الرياء.

"قال القاضي: "هي عامة في كل من ينوي غير الله بعمله، كان معه أصل إيمان، أو لم يكن.""""" " (١)

وقد قال النبي ﷺ: "قال الله: إني لا أقبل عملا أشرك فيه معي غيري، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك". ....

ثم قال تعالى: أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون [هود: ١٦] أي في الدنيا، وهذا نص في مراد الآية، والله أعلم.) (٢)

و المستفاد من كلام ابن العربي أن مناط و علة الموافاة على حسن الأعمال الظاهرية لا يعلمه

(١) بحرفه نقله القرطبي في تفسيره بدون عزو، ج ٩ ص ١٤، و زاد: (قال مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى. وقال ميمون بن مهران: ليس أحد يعمل حسنة إلا وفي ثوابها، فإن كان مسلما مخلصا وفي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافرا وفي الدنيا.). و من اختار العموم الخازن في لباب التأويل، ج ٢ ص ٤٧٦، (نزلت في كل من عمل عملا يبتغي به غير الله) ثم ذكره كأحد الأقاويل: (وقيل إن حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذي هذه صفته والمؤمن الذي يأتي بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة). و قال أطفيش: (مَن كَانَ يُرِيدُ من المشركين والموحدين... أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ثواب أعمالهم) تفسير أطفيش، ج ٤ ص ١٧٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي، ج ٣ ص ١٤ – ١٥. و انظر أيضا أحكام القرآن لابن الفرس حيث قال: (واختلف فيمن هي الآية، فقيل هي في الكفرة خاصة وليست على عمومها، وهذا قول قتادة والضحاك. وقيل هي في الكفرة وأهل الرياء من المؤمنين، وهو قول مجاهد، وإليه ذهب معاوية.... ومعنى هذه الآية راجع إلى قوله عليه الصلاة والسلام: ((إنما الأعمال بالنيات)).)، ج ٣ ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

إلا الله وحده فهو أمر غيبي فلا أحد يستطيع أن يقف على نية أحد في عمله، فلا يبقى إلا ظاهر الأعمال و هي في ظاهرها موافقة للشرع و تتصف بالحسن و البر، و قد استحقت المجازاة عليها في الدنيا على أقل تقدير بحيثية أنها من كافر أو منافق أو مرائي، و لها ثواب الدنيا و الآخرة إذا كانت من المؤمن الذي أخلص لله و انتوى الآخرة.

و الأمر الثاني أن القاضي ابن العربي جعل الموافاة على الأعمال الحسنة لا يتقيد بالإيمان، فهو سواء كان من مؤمن أو كافر فقد استوجب من الله المجازاة الوافية عليه في الدنيا، و أنه لا مانع أن يكون العمل الحسن من الكافر يراد به الآخرة و إن لم ينص على هذا و لكنه مفهوم من كلامه، خاصة ذكره حديث أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فإنه يدل على أن المشرك قد يقع منه العمل بغير شرك فيه و بهذا فهو يقع في حيز القبول، و هذا مستفاد من مفهوم الحديث، فتكون هذه الأعمال الحسنة من المشرك قد استوجبت المجازاة عليها بنص الآية في الدنيا، و لكنه لم يعين المقصود من هذه المجازاة و نص على أن المراد منها غير متعين و أنه خلافي.

و الأمر الثالث اتفاقه مع الزمخشري و الطوسي أن اتصاف العمل بالبطلان لا يؤثر بالسلب على اتصافه بالحسن و لا على استحقاقه المجازاة الوافية عليه في الدنيا، و بنفس المفهوم و اللزوم يدخل فيه أعمال المنافق و المرائي فهي باطلة في نفسها فلا تستوجب ثواب في الآخرة و لكن تستوجب مجازاة في الدنيا و يتعلق بها الاستحقاقات التشريعية المنوطة بها، فإذا زكى ماله فلا مطالبة تقع عليه، و إذا صلى فلا عقاب و لا ملامة عليه، و إذا جاهد أخذ سهمه من الغنيمة و هكذا في كل الأحكام الشرعية تستوجب تعلقها للغير من المسلمين فيبنوا عليها ما أناطه الله من أحكام.

و بقول القاضي بعموم الآية و تنصيصه على علة الحكم بالقصد الواقع من وراء العمل و لم يعلقه بدين العامل لأن صفة العمل أعم من دين العامل، و بذلك يكون دين العامل أخص و إن ذكر فيكون على سبيل التمثيل و ليس الحصر، و هذا ما قال به المحققون من المفسرين.

* الرازي:

(المسألة الأولى: اعلم أن في الآية قولين:

القول الأول: أنها مختصة بالكفار، لأن قوله: من كان يريد الحياة الدنيا يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق، لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر، لأن قوله تعالى: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون لا يليق إلا بالكفار، فصار تقدير الآية: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أي تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالبا لسعادات الآخرة، كان حكمه كذا وكذا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه، فمنهم من قال: المراد منهم منكرو البعث فإنهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون إلا في سعادات الدنيا، وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر.

والقول الثاني: أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

والقول الثالث: أن المراد: اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس.

والقول الرابع: وهو الذي اختاره القاضي أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، وعمل الخير "قسمان: العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوان"[1]، ويدخل في هذا القسم الثاني البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعي في دفع الشرور وإجراء الأنهار فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء في الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين، فكلها تكون من أعمال الخير، فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم.

وأما العبادات: فهي إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

وإذا عرفت هذا فنقول قوله: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها المراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكافر.

القول الثاني: وهو أن تجري الآية على ظاهرها في العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذي يأتي بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذي هذا صفته، وهذا القول مشكل[2]، لأن قوله:

أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار لا يليق المؤمن إلا إذا قلنا المراد أولئك الذين ليس في

---

(1) محمد بن عمر الجاوي، مراح لبيد، ج ١ ص ٥٠٢.

(2) لباب التأويل للخازن، ج ٢ ص ٤٧٧ . وقال الصاوي: (والحمل على العموم أولى، فيندرج فيه الكافر والمنافق والمؤمن، الذي يأتي بالطاعات على وجه الرياء والسمعة) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص ٨٣٥.

الآخرة إلا النار بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخبارا كثيرة في هذا الباب....

المسألة الثانية: المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب فإنه يصل إليهم حال كونهم في دار الدنيا، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات، بل ليس لهم منها إلا النار.) [1]

ظاهر الآية و سلاسة جريان المعاني و سياقها يدل على أنها في الكفار بأنواعهم التي مثل لها العلماء و السلف (المنافق - الكتابي - المشركين)، لأن القصد بالعمل الحياة الدنيا دون مقرونية الحياة الآخرة لا يدل إلا على شاك أو منكر للحياة الآخرة، خاصة أن إرادة الحياة الآخرة و ثوابها لا ينقص و لا يمنع من ثواب الحياة الدنيا، و التعبير بكلمة (الإرادة) دون غيرها يزيد قوة الدلالة نحو الاقتصار على الحياة الدنيا بدون الالتفات للآخرة و هذا بسبب الشك فيها أو التكذيب بها لأنه لا يوجد مبرر لذلك على الإطلاق إنما يتصور ذلك في حال الحب الشديد و الحرص على طلب الحياة الدنيا لو كان هناك مقاسمة في الثواب و تناسب موزع على الحياتين فالمتعجل سيريده كله في الحياة الدنيا، و لما انتفى ذلك بل ثبت العكس بقول الله أنه يزيد في حرث الآخرة و أنه عنده ثواب الدنيا و الآخرة و أنه يعطي من ثواب الدنيا لمن أراد الدنيا و الآخرة.

و عندما تحدث الرازي عن الطاعات التي لا تحتاج لنية مخصوصة و التي تحتاج لنية مخصوصة

---

(1) مفاتيح الغيب، ج ١٧ ص ٣٢٧ – ٣٢٨. غرائب القرآن للنيسابوري، ج ٤ ص ٩ – ١٠، حيث عدد وجوه التأويل بالمقصود من من كان يريد و نقل قول القاضي أيضا.

(العبادات) كان مبناها على صحة تصور وقوعها من عدمه بالنسبة للكافر و المشرك، أي أن وصفه بـ(صحة الصدور من الكافر) لم يكن من الناحية الشرعية أو من الناحية الواقعية بل من الناحية التصورية فقط، لأن الكافر و المشرك الذي لا يؤمن بالآخرة و لا بالحساب و الجزاء في الحياة الآخرة كيف يتصور منه طاعة مخصوصة بنية مخصوصة كالصلاة و الصيام و الجهاد في سبيل الله و ما شابه ذلك، أما مسألتنا فيمن حكم عليه بالكفر أو الشرك من باب لا يقتضي إنكار الآخرة و لا الحساب و لا أصل العبادة لأنه يعبد الله بعبادات أخرى كثيرة تقع منه على وفق الشريعة و بنية صحيحة لأنه يعملها بانتسابه للإسلام و بكونه مسلم مطيع لله.

ثم تعرض للعبادات التي تقع بغرض الرياء فقال إنها كعدمها فلا تستحق ثواب أصلا و لذلك فاقتصر على نوعية من الأعمال التي يتصور صدورها من الكافر المكذب بالآخرة فتكون هي الأعمال التي ينتفع بها أي إنسان أو حيوان منفعة مباشرة في الحياة الدنيا فهذه التي تستحق الإثابة عليها في الدنيا، و بهذا فإن الكافر الذي يعمل العبادات بنية صحيحة و على إيمان بالآخرة و الثواب لأجل حرث الآخرة فهي أشد قوة في وصف العلية المنوط باستحقاق الثواب و مراعاة الشروط القرآنية.

و مع قوله الثاني في أن الآية عامة للمؤمن و الكافر في الطاعات التي فيها مراءاة و سمعة، فما نزال في توثيق و تأكيد أن المعول عليه هو العمل بدون الالتفات لدين العامل و هذا أوضح صورة له في هذا التأويل، فأصحاب هذا القول أعادوا استحقاق النار على نوعية هذه الأعمال لأنها فاسدة و باطلة في أنفسها و استحقاق العذاب لأجل الشرك الذي دخلها مع الله، و لكي يتماشى هذا التأويل مع حال المؤمن قالوا أن الآية ليس فيها قطع على أنهم سيدخلون النار

بسبب هذه الأعمال بل كل ما فيها استحقاق النار كجزاء عليها ثم يجوز دخول العفو فلا يدخلوها، و المهم في صدد مسألتنا أن الأصل هو العمل نفسه بالنسبة لشروطه و موانعه بدون إدخال دين العامل فيها إلا لإظهار المناسبة ما بين الاسم المشتق منه (الكفر - الشرك - النفاق) اسم الفاعل (كافر - مشرك - منافق).

و لا يجانبنا الصواب إذا قلنا أن ما ينتظم كل هذه التفسيرات يندرج تحت قانون عام ألا و هو أن الله خلق الناس لعبادته، و صور هذه العبادة بلَّغها للناس عن طريق الرسل و الكتب، فكل خير أو بر أو خلق حسن فمنشأه إما شرعي سمعي أو من كان أقرب للعقل فمنشأه قدري كوني و هو أيضا مرجعه لله، و من هذه الحيثية فكل عمل خير و بر فلا بد فيه من أصل سمعي شرعي، فمثلا إعمار الأرض و عدم الفساد فيها هو أمر شرعي و هذا يندرج تحته كل ما من شأنه أن ينفع الناس في الأرض و البحر و الجو فإما أن يجلب نفع أو يدفع ضر، فكل إنسان عمل عملا فيه نفع أو دفع ضر فمرجعه للشرع كل على حسب ملته و دينه أو موافقته للعقل و مقتضى العلم و هذا أيضا في حقيقته شرعي لأن الشرع يحث عليه و يأمر به لأنه من الفطرة التي خلقها الله.

فأعمال الخير التي لتحصيل المنافع و دفع المضار قد اعتبرها الرازي طاعات بحيثية كونها شرعية سواء قصد ذلك أو لم يقصد من عملها فبمجرد مضمونها النفعي قد استوجب لها ثوابا و مجازاة من جنسها، فما بالك إذا كان العامل لها يتحرى الشرع و مرضاة الله و تحصيل الثواب في الآخرة، فلا بد أن يقابله التأكيد و التقرير على استحقاق الثواب سواء في الدنيا أو في الآخرة أو كليهما معا، لأن أمر النية و القصد المتعلق بتوقع تحصيل الثواب في الآخرة هو الفيصل ما

بين أعمال المؤمن و أعمال غيره من الكافرين و المنافقين، و عليه يتم التمييز و الفصل بين استحقاق الثواب في الدنيا فقط أو في الدنيا و الآخرة، و على هذا فمن عمل عملا حسنا قاصدا به ثواب الآخرة و مرضاة الله فلا بد أن يكون هذا العمل قد استوفى شروط اعتباره التام و الكامل عند العلماء و المفسرين.

يبقى تصور هذا مع ما حكمنا عليه بالشرك و الكفر، فالظاهر من أقوال العلماء و المفسرين أنهم لا يتصورون أن يكون مثل هذا العامل كافرا أو منافقا، لأن الكافر و المنافق عندهم هو من لا يؤمن بالآخرة و البعث و الحساب فأمر الآخرة ليس في حسبانه و لا قصده و نيته من العمل الحسن، و هذا يجرنا إلى أن هذا العامل الناظر لثواب الآخرة لا يمكن أن يكون كافرا أو منافقا فلا بد أنه مؤمن، و هذا يعود بالنقض على من كفرناه ممن ينتسب لأهل القبلة لأننا نعلم يقينا أنه يعمل الكثير من الأعمال و العبادات و الطاعات مرضاة لله و لثواب الله في الدنيا و الآخرة، فأقل أحواله أن يكون ما صح من إيمانه القلبي مقيد بما صح له في العملي.

و انطلاقا من القواطع التي لا مجال للتأويل فيها مثل أن المشرك لن يدخل الجنة و أن مأواه النار، فنقول أن هذا المشرك الذي يعمل أعمال البر و الطاعات بامتثال أمر الله و مرضاته و طلبا لثوابه في الآخرة قبل الدنيا، فإنه على مقتضى الآيات فإن الله سيوافيه ثوابه في الدنيا و هذا مقطوع به، و يحتمل بظاهر المعنى أنه سيوافيه ثوابه في الآخرة التي آمن بها و عمل لها، و عليه فإن ثوابه عن أعماله الحسنة لن يبلغ به أن يزحزحه عن النار فلا بد للمشرك من النار و قد نفى الله عنه المغفرة، فلا يوجد إلا أن الله سيخفف من عقابه على قدر ما بقي من معاصيه و ذنوبه مع الشرك، فيكون له بها دركة من دركات النار، ثم تأويل عدم التخفيف عنهم في النار أنه لا تخفيف في العذاب

بعد استحقاقه دركته التي نالها بعد التخفيف عنه في الحساب بقدر أعماله الحسنة و بهذا لا تنافي و لا قلق في مجمل الآيات.

- البيضاوي: (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها بإحسانه وبره. نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد....

وَهُمْ فِيها لاَ يُبْخَسُونَ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء. وقيل في المنافقين. وقيل في الكفرة وغرضهم وبرهم.

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيها لأنه لم يبق لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف ب صَنَعُوا على أن الضمير ل الدُّنْيا. وَباطِلٌ في نفسه. مَا كانُوا يَعْمَلُونَ "لأنه لم يعمل على ما ينبغي "[1]، وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها.)[2]

قد انتقى البيضاوي كلمات تناسب الجمع ما بين أهل الرياء و المنافقين و الكفار، فكان وصف الأعمال هو الإحسان و البر، و وصف المردود هو الأجر، و مكان الأجر هو في الدنيا، و جعل الأجر مقابل الحسن، و الوزر مقابل العزائم السيئة، و جعل الحبط مسبب عن فقدان الثواب في الآخرة أو لأنهم لم يريدوا بتلك الأعمال الحسنة وجه الله، ثم جعل عمدة اقتضاء

---

[1] فسرها القونوي بقوله: ((لأنه لم يعمل عَلَى ما يَنْبَغي) أي عَلَى وجه شرعي فيكون باطلًا في نفسه) حاشيتا القونوي و ابن التمجيد على البيضاوي، ج ١٠ ص ٤٥ – ٤٦.

[2] أنوار التنزيل، ج ٣ ص ١٣٠.

الثواب في الآخرة هو الإخلاص، و جعل صفة البطلان وصف للعمل ذاته أنه لم يكن كما ينبغي، و هذا فيه أن البطلان لا يمنع من وجه حسن في العمل و لا يمنع لحوق الجانب الحسن في العمل من أن يستتبعه أجر عليه، أما سبب إطلاق البطلان عليه أنه لم يكن خالصا لله أو لم يكن لوجه الله.

نلاحظ أن البيضاوي و النسفي [1] قد خصصوا كلمة (ثواب) للآخرة إما بتقييدها بالآخرة بالإضافة (ثواب الآخرة) أو جعل ظرفها الاستحقاقي في الآخرة، و استعملوا كلمة (أجر – جزاء) لتوصيف الاستحقاق عن العمل الحسن للكافر أو المنافق أو المرائي في الدنيا، و هو العمل الباطل في ذاته لأنه لم يكن بإخلاص لله أو بغرض صحيح. [2]

و مما سبق يمكننا القول أن سبب حبط العمل أي أنه لا ثواب عليه الآخرة و سبب بطلان العمل هو في عدم الإخلاص، و ذكر هذه العلة في سياق التصريح بأن العامل كافر أو منافق أو مرائي، يدل بقوة أنه كما يجوز وقوع الإخلاص و صحته من المرائي كذلك يجوز و يصح من المنافق و الكافر، و أن السبب في الحبط و البطلان سببا عاما لا يتعلق إلا بالعمل نفسه و ما يصحبه من نية و قصد النفس البشرية و هي أعم متعلق للتكليف و اعتبار الأعمال، لأنها أعم من كون الفاعل اسمه مؤمن أو منافق أو كافر.

---

(١) مدارك التنزيل، ج ٢ ص ٥١. لكنه لم يضع المنافقين في تأويله فقصره على الكفار والمنافقين و خلا ذلك فكلامهما متماثل تقريبا.

(٢) يجب استحضار كلامهم في آية الأمر بالتعاون على البر لكي نثبت تعلق التتابع الحكمي الشرعي من قبل المسلمين لأي عمل حسن و شرعي من الكافر أو المنافق.

الخلاصة أن تعليق الأجر يكون فيما يخص العمل من الظاهر من الحسن؛ و أجره يكون في الدنيا، أما تعليق العقاب يكون فيما يخص نفس العمل من الباطن من السوء و يكون في الآخرة، و من ثم يكون الحبط و البطلان مسببان عن الباطن السيء، و نحن مكلفون بظواهر الأعمال فقط أي الجانب الحسن منها لكل عمل من كل (كافر – منافق – مرائي)، فإذا قال قائل أننا نتعامل بغلبة الظن و لذلك فالكافر و المنافق ستكون أعمالهم غير خالصة لوجه الله، يقال له: إذ كان الله قد أثاب عليها و هو يعلم حقيقتها و نحن لا نعلم إلا ظاهرها فيكفينا أن نتعامل مع حسنها الظاهري و نعتبره باعتبار الله له بدلالة توقيع الأجر عليه في الدنيا، و ثانيا لأن البواطن من علم الغيب فكيف نعلق أحكامنا على ما لا علم لنا به، ثالثا نحن نعلم بغلبة الظن عكس ما تقول فإن ما نتعامل معهم يعملون وفق دين الإسلام، أي أن الأصل في أعمالهم أن تقع خالصة لله و لوجهه، بنفس قدر غلبة الظن أن الكفار و المنافقين لا يعملوا مخلصين لله و لا يريدون وجه الله لأنهم كافرون بالبعث و الحساب و الجنة و النار.

– ابن عرفة: (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

قال ابن عرفة: "هذا تأسيس وليس بتأكيد،"[1] فقوله وَحَبِطَ إشارة إلى ما هو صحيح باعتبار أصله، وعرض له ما أوجب فساده.

وقوله وَبَاطِلٌ إشارة إلى ما هو فاسد من أصله، فكذلك أتى بلفظ الاسم، والأول بالفعل هذا

---

[1] نكت و تنبيهات في تفسير القرآن المجيد للبسيلي، ج ٢ ص ٢٣٠.

كعمل الكافر وعمل المسلم المرائي) [(١)]

و في تفسير ابن عرفة إشكال، لان الآية تنص على توحيد علة توفية الأعمال في الدنيا و ما يحكم عليها في الآخرة من حبط و بطلان و جزاء النار، و بمعنى آخر أن هذه الأعمال لم تستوفي شروط الصحة لتنال ثوابها في الدنيا و الآخرة، و بهذا لا يستقيم تفسيره أن (حبط) لما هو صحيح باعتبار أصله و عرض له ما أوجب فساده، لأنه باطل في الأساس لكونه عمل للدنيا و زينتها، و لكن يمكننا القول في ظل رجحان عموم الآية أن الحبط قد وقع مقابل ما استوفوه على الأعمال في الدنيا من الأعمال الصالحة و الحسنة، و أن صفة البطلان تلاحق الأعمال الأخرى التي يظنونها حسنة و صالحة أو نافعة و هي في الأصل باطلة في ذاتها لمخالفتها شرع الله.

أي أن تفسيره لـ (حبط – باطل) المنصوص عليها في الآية و إرجاع متعلقاتها على تأويله بأن الآية تعم الكفار و المؤمنين لا يقوى بإزاء نص الآية و عمومها الظاهري، فالأولى إرجاع الوصف أو العلة لأمر مشترك عام ما بين الكفار و المؤمنين، و هو إما أن نقول كقول البعض أن المؤمن لو راءى بعمله فقد أشرك بالله و استحق على شركه النار و بذلك قد خرج من دائرة أهل الإيمان، و بذلك فقد تساوى مع الكافر في نوعية الأعمال و الجزاء عليها في الدنيا و الآخرة كما في نص الآية.

و إما أن يقال أن الآية عامة في الإرادة الدنيوية بخصوصية معنى هذه الإرادة بالاستدلال عليها

---

(١) تفسير ابن عرفة، ج ٢ ص ٣٥٤. و انظر توجيه تأويلي آخر في قول ابن التمجيد في حاشيتا القونوي و ابن التمجيد على البيضاوي، ج ١٠ ص ٤٥. خلاصته أن الحبط قد يأتي لنفي أي إثابة فيكون للعمل الباطل، و قد يأتي لنفي الإثابة في الآخرة فقط.

من نصوص أخرى مثل قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فقد جعل جزاء من أراد العاجلة أن يصلى جهنم مذموما مدحورا، ثم يزداد هذا المعنى قوة بالمقابلة النصية للفريق الآخر الذي يريد الآخرة مما يؤكد أن إرادة العاجلة تستوجب النار، و قوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب فيها أيضا أن من أراد الدنيا فليس له في الآخرة من نصيب، فالثلاث آيات تؤكد على أن إرادة الدنيا يستوجب النار إما صراحة أو لزوما، و تؤكد دخولهم النار في الآخرة لأنه استهلك نصيبه من الثواب و الحرث و الجزاء في الدنيا فحبط عمله و بطل منفعته في الآخرة، و قد يكون تحقيق صفتي الحبط و البطلان بحيثية أن هذه الأعمال لا ترفع للسماء فلا تستوجب ثواب في الآخرة.

و هذا التفريق ما بين (حبط – باطل) المتعلقين بـ (يعملون) فيه فائدة كبيرة و لعله أول تصريح بهذه الدقة لأنه كان في بعض تفاسير العلماء بمضمونه أو بما يلزم منه و لم يكن بهذا الحد التعريفي الواضح، و ملهم ابن عرفة هنا هو التفريق ما بين دلالة الاسم و دلالة الفعل المتعلقتين بأعمال المشار إليهم في الآية، و ابن عرفة من المحققين و الغواصين، فقد أنشأ قاعدة تدل على افتراق الدلالة بالاسم و الفعل على طروء عامل الفساد من عدمه، فإن كان العمل فاسد من أصله فيناسبه التوصيف بالاسم (باطل)، أما ما كان أصله صحيح ثم طرأ عليه عامل الفساد فيناسبه الدلالة عليه بالفعل (حبط).

قد يتبادر أن ابن عرفة يخصص (باطل) لأعمال الكفار، و (حبط) لأعمال المسلمين و المنافقين،

لأجل أن المسلمين و المنافقين على ظاهر حالهم يكون الأصل في أعمالهم الظاهرة الصحة ثم يطرأ عليها ما يفسدها، أما الكفار فالأصل في أعمالهم الفساد، و لكن ما يعكر صفو هذا التبادر هو نقله عن ابن عطية أن الآية في الكفار كما نقله هو بدوره عن قتادة و الضحاك، و نقله عن مجاهد أنها عامة في الكفار و في أهل الرياء من المسلمين، ثم شرع في توجيه الآية على كلا الأمرين، أي أن ابن عرفة إما قائلا بخصوص الكفار أو بالعموم، و على كلا الحالين سيكون تأويله للحبط لكلاهما، و الباطل لكلاهما، و يكون الفارق في العمل نفسه، فإذا كان أصله الفساد كان وصفه بالبطلان و هذا في الكافر و أهل الرياء، و إذا كان أصله الصحة فهو أيضا يصلح وصفا لأعمال الكافر و لأهل الرياء.

أي أن الكافر قد يقع منه ما هو صحيح و لكن كفره يفسد عليه عمله فلا يثاب عليه إلا في الدنيا و يحرم الثواب في الآخرة، و كذلك قد يقع منه ما هو على طبيعته الدينية من إرادة الدنيا فقط فهو باطل، و أيضا المنافق و المرائي قد يقع منه العمل صحيحا ثم يعرض له بما يفسده، كالكفر للمنافق و الرياء و المن و الأذى لأهل القبلة.

و حتى لو لم يكن هذا معنى تأويله فالقدر الثابت من تأويله أن هناك أعمال (حابطة – باطلة) ظاهرها الصلاح يجازى عليها عاملها في الدنيا و لا يثاب عليها في الآخرة إلا النار، و أن العامل قد يكون كافر أو مسلما مرائيا، و عليه فوصف العمل بأنه فاسد في أصله (باطل) أو فسد بما يعترضه (حابط) لا يمنع الإثابة عليه فيما يخص الجانب الحسن فقط، و يستحق عليه التوعد بالعذاب فيما يخص الجانب السيء مع جواز عدم وقوع العذاب و جعلوا هذا في حق أهل القبلة فقط، و إن كنت لا أعلم له دليلا بل قد يعارض قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، فجواز المغفرة على ما هو دون الشرك مكفول للجميع على حسب مشيئة الله.

و قد يكون لب تأويله أن الحبط لغرض نفي ثواب الآخرة دون الدنيا، أما الباطل فإنه لا يكون له ثوابا لا في الدنيا و لا في الآخرة، ثم تتبلور الرؤية بأن المقصود من الباطل هنا هو غرضهم بهذه الأعمال الدنيا حتى مع تضمنها ثوابا عليها ينالوه في الدنيا فهو عمل باطل أي إرادة الدنيا دون الآخرة عمل باطل لا ثواب عليه في الدنيا و لا في الآخرة بل هو سبب العذاب.

- أبو السعود: (لاَ يُبْخَسُونَ أي لا يُنقَصون وإنما عبر عن ذلك بالبخْس الذي هو نقصُ الحقِّ مع أنه ليس لهم شائبةُ حقَ فيما أوتوه كما عبّر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاءُ الحقوقِ مع أن أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبةً لذلك بناءً للأمر على ظاهر الحالِ ومحافظةً على صور الأعمالِ...

أولئك الخ فإنه إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار إرادتِهم الحياةَ الدنيا أو باعتبار توْفيتِهم أجورَهم من غير بخسٍ أو باعتبارهما معاً...

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا أي ظهر في الآخرة حُبوطُ ما صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدِّي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة أو حبط ما صنعوه في الدُّنيا من أعمال البرِّ إذ شرْطُ الاعتدادِ بها الإخلاصُ وباطل أي في نفسه

مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ في أثناء تحصيلِ المطالبِ الدنيويةِ ولأجل أن الأولَ من شأنه استتباعُ الثوابِ والأجرِ وأن عدمَه لعدم مقارنتِه للإيمان والنيةِ الصحيحةِ وأن الثانيَ ليس له جهةٌ صالحة قطُّ

عُلّق بالأول الحُبوطُ المؤذِنُ بسقوط أجرِه بصيغة الفِعل المنبئ عن الحدوث وبالثاني البُطلانُ المُفصِحُ عن كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلاً بالاسمية الدالةِ على كون ذلك وصفاً لازماً له ثابتاً فيه وفي زيادة كان في الثاني دون الأول إيماءٌ إلى أن صدور أعمال البرِّ منهم وإن كان لغرض فاسدٍ ليس في الاستمرار والدوامِ كصدور الأعمالِ التي هي من مقدِّمات مطالبِهم الدنية وقُرىء وبطَل على الفعل أي ظهر بطلانُه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيويةِ مما لا طائلَ تحته أو انقطع أثرُه الدنيويُّ فبطَل مطلقاً...

وعن أنسٌ رضيَ الله عنه أنَّ المرادُ بقولِه تعالَى مِنْ كَانَ يُرِيدُ الخ اليهودُ والنصارى...وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسْهم لهم في الغنائم وأنتُ خبيرٌ بأنَّ ذلكَ إنما كان بعد الهجرةِ والسورةُ مكيةٌ وقيل هم أهلُ الرياءِ... وهكذا لغيره ممن يعمل أعمالَ البرِّ لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله تعالى لَهُمْ إلاَّ النار بأنْ ليس لهم بسبب أعمالِهم الريائيةِ إلا ذلك والذي تقتضيهِ جزالةُ النظمِ الكريمِ أن المرادَ به مطلقُ الكفَرة بحيث يندرِجُ فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً...)(١)

و قد أبدع أبو السعود بما أتاه الله بملكة البلاغة و الإحاطة بزمام المعاني و بتلابيب الدلالات، فقد أشار و ألمح و صرح في كلامه في نقاط كثيرة نذكر ما يهمنا في محل بحثنا، فقد صرح بأن البلاغة و الوجازة للسياق القرآني تقتضي أن يكون المقصود من أصحاب الأعمال هم الكفرة، و قد استبعد أن يكونوا المنافقين أو أهل الرياء، ثم الأمر الثاني الهام أنه جعل علة

---

(١) إرشاد العقل السليم، ج ٤ ص ١٩٣ – ١٩٤. روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٣– ٢٤، فقد جعل تأويل أبو السعود للتفرقة ما بين البطلان و الحبط هو الأولى. فتح البيان، ج ٦ ص ١٥٥ – ١٥٦.

الاستحقاق و التوفية لثواب الأعمال منوطة بصور الأعمال و ظاهر الأحوال، و هذا يقتضي أن نستبعد أمر النوايا و القصد لأن هذا خاص بعلم الله و محل معرفته يكون في الآخرة عندما تحبط أعمالهم.

* الشهاب الخفاجي: (قوله: (والآية الخ) وإذا كانت في الكفرة وبرهم أي إحسانهم فهي على العموم لأنهم يعجل لهم ثواب أعمالهم في الدنيا على المشهور، "وقيل إنه يخفف به عنهم عذاب الآخرة، ويشهد له قصة أبي طالب" [1]فلا وجه لما قيل إنّ الظاهر إنها في منكري البعث أو المرائين من مقريهم إذ لا يتمشى على القولين لكن حصرهم في الكينونة في النار يقتضي أنها في الكفار، ومنافقيهم لا في أهل الرياء... والحاصل أنه تعالى ذكر بطلان أعمال هؤلاء، والأعمال الباطلة إما أعمال الكفار أو أعمال أهل الرياء إذ غيرهم لا يبطل عمله فلذا اختلف فيه المفسرون، ورجح العلامة الأوّل لأنّ السياق في الكفرة، ولأن قوله ليس لهم في الآخرة إلا لنار لا يليق على إطلاقه إلا بهم، وعلى تفسير. بأهل الرياء لا بد من تقييده فيقال ليس لهم في الآخرة بسبب أعمالهم الريائية إلا النار كما في شرح الكشاف، والأصل عدم التقييد...

قوله: (لأنه لم يبق لهم ثواب في الآخرة) لم يقل لم يبق لهم ثواب في الآخرة على أنه تفسير لحبط العمل لأنه ليس معنى الحبط إذ معناه إبطالها بعد تحققها، وليس بمراد بل المراد أنهم لا يجازون في الآخرة إمّا لجزائهم عليها في الدنيا أو لأنها لا تستحق شيئاً من الجزاء،...

وقوله: (في نفسه) قيده به ليفيد ذكره بعد الحبط فالمراد بالبطلان الفساد لعدم شرط الصحة،

[1] انظر أيضا ما قاله الألوسي مؤيدا هذا القول، روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٤ إلى ٢٥.

وإلا فإن أريد به عدم بقائه لعدم بقاء الأعراض فجميع الأعمال كذلك، وإن أريد عدم الانتفاع رجع إلى الحبط، وقوله (لأنه لم يعمل على ما ينبغي) فلذا كان في نفسه باطلا، وهو توطئة لما بعده.

فإن قيل حبط ما صنعوا، وبطلان ما عملوا يقتضي أن لا ينتفعوا به لا أن يكون لهم النار فكيف تصح العلية.

قلنا إذا بطل عمل الجوارح لم يبق لهم إلا أوزار العزائم السيئة كما أشار إليه المصنف رحمه الله تعالى فلهم النار في مقابلته [1]فإذا عرفت بهذا وجه تعليل الحبوط لما قبله، وعلمت أنّ علة الحبوط لكونه لم يكن كما ينبغي، وهو معنى بطلانه كما أشار إليه المصنف رحمه الله تعالى ندفع ما قيل. إنه لقائل أن يقول ما قبلها مركب من أمرين ثبوت النار لهم ونفي الثواب عنهم، وحبوط ما عملوا ليس بعلة للأوّل لأنّ علته أوزار العزائم كما أشار إليه، ولا للثاني لأنّ الحبوط نفس نفي الثواب فلا يكون علة لنفسه.) [2]

و يمكن القول أن الحبط للأعمال الصالحة التامة الموافقة للشرع و الخالصة النية لله و لكن بقصد المنفعة الدنيوية فهذه يجازى عليها في الدنيا و لا يبقى لها أثر في الآخرة و هذا هو الحبط، و الأعمال المظنون بها الصلاح و الحسن و المنفعة و في ذاتها فاسدة لمخالفتها شرع الله أو لفقدها

---

[1] و لكن الأصح أن النار تقابل بالشرك و الكفر و هذا ما أشار به كثير من العلماء فيما سبق، و مثاله ما قاله أطفيش: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ جزاءَ ما أَصروا عليه من شرك وما دونه من عمل أَو اعتقاد). تفسير أطفيش، ج ٤ ص ١٨٠.

[2] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ج ٥ ص ٨٢.

الإخلاص لله، فهذه باطلة في نفسها و لا يشفع لها الحسبان و الظن بالحسن و التقرب إلى الله بها أو المنفعة، و بهذا فإن كلا نوعي العمل لا يستحقوا ثوابا في الآخرة لاستهلاك الجزاء عليها في الدنيا و للبطلان، و الأعمال الموافقة للشرع و الخالصة لله و يراد بها الآخرة فهي صحيحة و لكن ستحبط أيضا بإزاء الشرك و الكفر فيقل بها قدر العذاب فيخفف، و عليه لا يبقى لهم إلا النار يوم القيامة.

و استحقاق الثواب في الآخرة مأخوذ من مفهوم الآية، لأن الله أعطاهم الثواب في الدنيا لأجل أن هذه إرادتهم و قدر إيمانهم، فلو تغيرت إرادتهم للآخرة فالمفهوم أنها تستوجب ثوابا في الآخرة و لكنه سيحبط مقابل جزاء الشرك و الكفر فلن يظهر لها منفعة لدرء النار عنهم، و لكن يقل مقدار و دركة العذاب على حسب الموازين.

- الشوكاني: (قوله: أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار الإشارة إلى المريدين المذكورين، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدم وحبط ما صنعوا أي: ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلوص، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: وباطل ما كانوا يعملون أي: أنه كان عملهم في نفسه باطلا غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح

يوجب الجزاء، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح.)[1]

و كلام الشوكاني ظاهر جدا أن المفسد لعمل الكفار الذي صورته صورة العامل الصالح أنه كان غير خالص لله و قصدوا به الدنيا، و أنهم فوتوا على أنفسهم الجزاء في الآخرة بعدم إخلاصهم لله بهذه الأعمال، فأول ما يؤخذ من كلامه أن علة بطلان عمل الكافر ليس لكونه كافر بل لكون العمل لم يقع صحيحا، ثانيا أن الكافر لو عمل عملا صحيحا لجوزي عليه في الآخرة، ثالثا أنه بالرغم من أن العمل وقع باطلا في نفسه إلا أنه استحق عليه الجزاء و المكافئة مطلقا، ثم قيدت في الدنيا لأجل أنهم لا يؤمنون بالآخرة أو لأجل أنهم أرادوا ذلك، فصفة بطلان العمل لا تمنع عنه استتباع الجزاء عليه.

❊ الألوسي: (ومن هنا اشتهر أن الكافر يجعل له ثواب أعماله في الدنيا بتوسعة الرزق وصحة البدن وكثرة الولد ونحو ذلك وليس لهم في الآخرة من نصيب، لكن ذهب جماعة إلى أنه يخفف بها عنه عذاب الآخرة ويشهد له قصة أبي طالب، وذهب آخرون إلى أن ما يتوقف على النية من الأعمال لا ينتفع الكافر به في الآخرة أصلا لفقدان شرطه إذ لم يكن من أهل النية لكفره وما لا ينتفع به ويخفف به عذابه، وبذلك يجمع بين الظواهر المقتضي بعضها للانتفاع في الجملة

---

(1) فتح القدير، ج ٢ ص ٥٥٣ – ٥٥٤. فتح البيان، ج ٦ ص ١٥٤ – ١٥٥. و يقول الألوسي: (أي ظهر في الآخرة حبوط صنعهم أو الذي صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدي إلى الثواب الأخروي لو كانت معمولة للآخرة)، و قال أيضا: (والمراد بحبوط الأعمال عدم مجازاتهم عليها لفقد الاعتداد بها لعدم الإخلاص الذي هو شرط ذلك) روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٣– ٢٤.

وبعضها لعدمه أصلا فتدبر) [1]

و في كلمة الألوسي: (و من هنا اشتهر) دلالة دقيقة نستخرج منها أن قولهم ليس عليه دليل قاطع ظاهر فهو مجرد شهرة من موضع دلالي محتمل بدليل مخالفة غيرهم في التأويل، و فيه أيضا تضمين وجه التأويل المخالف في الاعتبار بل ترجيحه لأنه أجمع لأطراف الأدلة، فالذي ارتآه هنا التفصيل لنوعية الأعمال التي للكفار بعد التسليم أن منها ما ينفع في الآخرة بتخفيف قدر استحقاق العذاب، فجعل الأعمال التي لا تفتقر لنية تنفعهم مطلقا في الدنيا و الآخرة، أما التي تفتقر لنية فإنها لا تتصور من الكافر أصلا و هذا كما قلنا من قبل و كما سيتبين في الدراسة الأصولية أن الكافر عندهم هو الجاهل المكذب بالآخرة و بالله و لذلك يستحيل تصور وقوع عبادة منه لله، و هذا الكافر نخالف تماما لما نبحثه هنا، و جريا على تصورهم للكافر كما وصفوه يكون من الهراء مباحثة أعماله التي هي عبادات لله ما دام يستحيل أن تقع منه، لأنه لو أقدم عليها خاصة بعد معرفتها ستصبح دليلا على تركه الكفر و دخوله الإيمان و هذه المسألة قد اختلف فيها العلماء بالطبع لاختلاف تصورهم عن الكافر و عن العمل، و هي مبحوثة بتوسع في الدراسة الأصولية.

- أطفيش: (مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ والكلام على المجموع لأَن بعض الأَشقياءِ العاملين لا جزاءَ لهم في الدنيا ولا في الآخرة وبعض يثاب في الدنيا فقط وبعض في الآخرة فقط، مثل أَن ينقص من عذابه، وبعض يثاب فيهما، وثواب الآخرة للشقي النقص في الآخرة، روى قومنا أَنه رؤى أَبو

---

[1] روح المعاني، ج ١٢ ص ٢٤ إلى ٢٥. و حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ج ٥ ص ٨٢.

لهب فقال يخفف عنى في كل الاثنين لأَنى سررت بمحمد إِذ ولد يوم الاثنين وأُعتقت ثويبة لما بشرتني وسقى في مثل نقرة الإِبهام والله أَعلم بصحة ذلك، وكونه خصوصاً من عموم أَن الكافر لا يخفف عنه) [1]

الشاهد تجويزه أن يخفف العذاب بالأعمال الحسنة في الآخرة للكافر و هو لا يرضاه و لكنه يحكيه كقول من الأقوال في مذهبه. و لفتته في قوله أن الأعمال التي تبطل المقصود بها مجموع الأعمال كلها و هذا يعطي جواز لأن يكون بعضها له منفعة دونية أي منفعة تخفيف دون منفعة الثواب على الحسنات لأن الكافر محرم على الجنة.

- السعدي: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ خالدين فيها أبدا، لا يفتَّر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب. وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.) [2]

لفتة دقيقة من السعدي أن يدخل في الأعمال الحابطة التي يكيدون بها الحق و أهله، جنبا بجنب مع أعمالهم الحسنة التي تحبط أيضا لأجل أنها لم تكن مع الإيمان الذي يستوجب دخول الجنة ثم التدرج فيها يكون على الأعمال الحسنة، و بما أنهم حرام على الجنة فلن يروا ثوابا على حسناتهم من التنعم أو دفع العذاب.

---

(1) تفسير أطفيش، ج ٤ ص ١٨٠ .

(2) تفسير السعدي، ص ٣٧٨.

الآية رقم ٢

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]

قد يكون التفاوت في الفضل بينهم راجع للتفضل و ليس للجزاء و الإثابة، و كذلك أيضا العطاء لا يكون على سبيل الجزاء و الإثابة، و بهذا فإن عنوان الآية في مسائل الإيمان و الكفر و جزاؤها الجنة و النار، و ليست من مسائل الأعمال و جزاؤها بنوعيها (الحسنة و السيئة) و بظرفيها (الدنيا و الآخرة).

و من الواضح أن إرادة العاجلة لا يجتمع معها الإيمان بالله أو بالآخرة لأن حصر الجزاء في تصلية النار يفيد ذلك بقوة، بينما إرادة الآخرة قد تتسع لأن يكون مريدها غير مؤمن و لذلك اشترط الله معها أنه يكون مؤمن و يسعى لها سعيها لأن يكون سعيه مشكورا، لأنه يسهل أن يريد أحد ما الآخرة بمجرد معرفته ما فيها تنعم و لكن استحقاق التنعم يشترط له شرطان الإيمان و السعي بالعمل الصالح، لكي لا يظن ظان أنه مجرد إيمانه المفرغ بالآخرة من الأعمال الصالحة يكفي للتنعم فيها.

و ذكر الله لنا في كيفية التعجيل لمن أراد العاجلة أنه بمحض مشيئته في من يُعجَّل له و فيما يُعجَّل به، و هذا غرضه أن لا نربط التعجيل بكونه جزاء أو إثابة على أعمال ما، لأننا قد نرى من عُجل

له و ليس له مزية بكثرة أعمال صالحة عن غيره الذي لم يُعجل له أو عجل له و لكن بما لا يتساوى معه حتى في التفضل و العطاء، و بهذا يقرر و يؤكد على أن المشترَك العام بينهم كلهم أنهم سيصلون جهنم في الآخرة و هذه قرينة على أن إرادة العاجلة يعنى بها الكفر.

و إبهام تعيين من يُعجل له و بما يُعجل به يفيد تحذير المُقْدِم على إرادة العاجلة لأنه قد يكون ممن خسر الدنيا و الآخرة، و هذه رحمة بالناس من الله بالغة، و دليل هذا من قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]، فلو قطع الله لكل من يريد العاجلة بكفره أن يؤتيه الله منها ما يريد لاجتمعت الناس على الكفر، و أيضا من قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]، نستفيد أن من أصابته فتنة فرجع للكفر فقد خسر الدنيا و الآخرة، فما بالك بمن أراد العاجلة فقط مع عدم القطع بما يُعجل له فيها، فمثل هذه الفترات أو النكسات قد خسرها من العاجلة و لا بد من ذلك، فهذه خسارة العاجلة و الدنيا فيضيف لها خسارة الآخرة أيضا بكفره فيجمع خسارة الدنيا و الآخرة.

و يقول الله تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢]، ففيها أن الله قسم بينهم معيشتهم بحيث يكونوا بعضهم فوق

بعض درجات لكي يعمل الأدنى عند الأعلى للحاجة المالية و يعطي الأعلى للأدنى المال للحاجة إليه خَدَميا، في هذا توقيف بأنه لا يجوز تعجيل الدنيا لكل من أرادها بدون تسبب بالأعمال مع المشيئة الإلهية، فالعاقل لا يشتري احتمالا بعيدا على أن يتنعم في العاجلة و لا ضمانة له على ذلك؛ فيبيع الآخرة الرابحة قطعا مع الإيمان و العمل الصالح، لأن الله قطع و وعد بذلك بالمضاعفة و الزيادة و بدون حساب في الآخرة.

فقسمة المعايش و تفضيل بعضهم على بعض، و رفعة البعض على الآخر درجات، و إصابة الخير لبعضهم، و كل ما يشبه ذلك يدل على أن إرادة البعض للحياة الدنيا أو العاجلة أو ثواب الدنيا لا يقابله مردود واقعي دنيوي إلا بمشيئة الله و تقديره و رحمته و لم يعلق الله هذا التحقيق بمجرد الإرادة من المريد، و لكن الله علق التعجيل على إرادة المريد للعاجلة بقوله مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا أما نوعية و كيفية و قدر المُعَجَّل له فيها فهو بمشيئة الله و إرادته، و لكن سيناله تعجيل و لا بد من ذلك، و هذا التعجيل متفاوت بينهم بما نص عليه الله بتقسيم معايشهم و رفع بعضهم على بعض درجات، و يكون على ذلك المناط الذي يستحق عليه الخسران و تصلية جهنم هو إعراضه عن الآخرة فلا يعمل لها عملها الصالح و لا يسعى لها سعيها الموجب للتنعم فيها.

و العاجلة ليست متعينات يمكن أن نشير إليها مما نسميه متاع أو أموال أو أولاد...، و لذلك ناسبها القطع بالتعجيل على اليقين لمن أرادها، أما المتعينات الممثلة لها فهي التي تقع تبعا لمشيئة الله و إرادته و للتمثيل عليها في قوله تعالى زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ آل عمران ١٤، و أمثل مثل محسوس و مشاهد في قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: ٤٩]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧]، ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ٣٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فإرادة الإناث أو الذكور أو الإنجاب، و إرادة الخير على عمومه و الرزق على عمومه و الغيث و الملك و الجسم فلا يتحصل عليه إلا بعد مشيئة الله و ليس بإرادته فقط.

و من الممكن اختصار معنى الآية على الآتي: أن من كفر بالآخرة بإرادة العاجلة لن يأخذ أكثر مما قسمه الله له من رزق و خير، و في الآخرة سيصلى جهنم مذموما مدحورا، و بقرينة المقابلة بفريق المؤمنين فإنه يسعى للعاجلة سعيها و هو مؤمن بالعاجلة (كافر أو غافل أو تارك أو ناسي أو جاحد) الآخرة، و من القرائن الجلية أيضا الدالة على أن الأعمال الحسنة غير مرادة كجزاء لهم بتعجيل ثوابها لهم في الدنيا أن الله لم يجعلها منوطة بالأعمال في وعد التعجيل بها

شاءه لمن يريده، أولا لأنها لم تذكر و لا يوجد دليل على تقديرها في الآية، ثانيا لأن الله جعل المُتَعجل به بما شاءه لمن يريده غير منوط بجهة تتناسب مع الأعمال الحسنة، أي لم يجعل في الآية أمارة أو علامة تشير للعلاقة اللزومية ما بين قدر الأعمال و قدر التعجيل بالنسبة لها، بل جعل المتعجل به و له تحت مشيئته، و هذا الإبهام بالنسبة لنا لا يجعلنا على علم بهذه العلاقة السببية المفترضة خاصة أن الله قد ذكر في العديد من الآيات أن رزقه و فضله و رحمته يصيب بها من يشاء فلم يجعلها منوطة بعمل عامل على جهة الإثابة و الجزاء.

إرادة ثواب الدنيا لا ينافي إرادة ثواب الآخرة بل الأفضل أن يجتمعوا الإرادتين لأن الله عنده الثوابين، و الآيات الثلاث التي ذكر فيها (ثواب الدنيا) لم يأتي بمقابلة دلالية على مصير أو جزاء من اقتصر عليها أو نتيجة الاقتصار عليها يحتم عكس إرادة الآخرة و لم يأتي فيهم مصير أو جزاء من أراد ثواب الدنيا بنفي نصيب الآخرة أو جهنم، و كل هذا يشير أن ثواب الدنيا إرادته صحيحة و لا يلزم من وجوده نفي إرادة الآخرة.

أما إرادة (الحياة الدنيا) أو (العاجلة) أو (حرث الدنيا) فيلزم منها أن يكون جزاء المريد لهم النار أو نفي نصيب الآخرة، و الأشد قوة على معنى الذم و الأخذ هما (الحياة الدنيا – العاجلة)، و نستطيع الوقوف على مدى التلازم القرآني ما بين العاجلة و ترك شأن الآخرة في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ الإنسان ٢٧، و قوله أيضا ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ القيامة ٢٠، و كذلك أيضا نستطيع الوقوف على مدى التلازم ما بين الحياة الدنيا و الآخرة فيمن يحب أو يريد (و ما في معناهما) الحياة الدنيا من قوله تعالى ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة

٨٦، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ الأنعام ٧٠،﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ الأنعام١٣٠،﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ الأعراف٥١، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يونس٧، اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ الرعد٢٦، ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ إبراهيم٣، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾النحل١٠٧.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام ٣٢، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ القصص٦٠، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت ٦٤، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم ٧، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ لقمان ٣٣،

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ غافر ٣٩، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾النجم ٢٩، ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾النازعات ٣٨، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾الأعلى ١٦.

فكل ذكر للحياة الدنيا يكون إما تحقيرا لها أو ذم لمريديها أو ظرفا لحلول عذاب أو خزي فيها، فورودها على أنها ظرف مكاني أو زماني فليس فيها مدح أو ذم، أما سائر الموارد ففيها ذم و تحقير و منوطة دائما بالذين كفروا أو نافقوا، و من هذه الموارد الجلية ما حدث مع قارون و قول من شاهدوه الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩] ثم ذكر الله قولهم و الشاهد فيه ذكر (الكافرون) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢] و هذا يبرز مدى العلاقة ما بين حب أو إرادة الحياة الدنيا و الكفر.

و قوله تعالى ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥]، فيها دلالة قوية بأن من يريد زخارف و متاع الحياة الدنيا لا يكون من المتقين الذين يستحقون الآخرة.

و قوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية: ٣٥]، و هذه الآية أيضا من حيث دلالتها أقوى

و تقترب من النصية في نكتة المسألة لأنهم غرتهم الحياة الدنيا و كانت النتيجة أنهم لا يخرجون من النار و لا يستعتبون.

بل وصل الأمر للنهي عن مد النظر لزهرتها أو إرادة زينتها، و في هذا شدة و قوة للمعنى، لأنه لم يكن النهي بمد النظر للحياة الدنيا بل لزهرتها و إرادة زينتها فقط، و هذا في النهي أبعد و أوغل لو كان للحياة الدنيا مباشرة كما في قوله تعالى وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى طه ١٣١، و وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً الكهف ٢٨، و في ظل هذا المعنى قوله فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ التوبة ٥٥. و أما قوله تعالى لنساء النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩] فمن خلال الدلالة الآتية من المقابلة ما بين وضعين أحدهما عكس الآخر يتبين مدى خطورة إرادة الحياة الدنيا و زينتها لأن الله قابل بها إرادة الله و رسوله و الدار الآخرة، و هذا دليل قوي على أنهما لا يجتمعان معا أبدا و في هذا إظهار دلالة التضاد ما لا يخفى على أحد.

و لن ننقل أقوال العلماء و المفسرين ما يفيد في دلالة الآية على أن المراد هنا مسألة الإيمان و الكفر بالدنيا و الآخرة و ما يلزم منهما من السعي ونتيجة ذلك من كلا الفريقين، لأنها مسألة قطعية

و من خلالها يتقرر عدم منفعة الأعمال الحسنة مع مصير الكافر و المشرك في الآخرة و هذه خارج دائرة البحث، أما لو وجدنا ما يشير لنوعية الأعمال التي تقع من الكافر و يكون لها إثابة أو منفعة له في الدنيا (عجلنا له فيها) و أنها حسنة أو شرعية و يكون هذا هو سبب التعجيل فسنذكره، و كل ما له دور دلالي في ترسيخ أو تجلية مسألة البحث أيضا.

ملحظ: لو اعتبرنا هذه الآية في الإيمان و الكفر و الجزاء عليهما بالجنة و النار فإن التعجيل يكون سببه الكفر بالآخرة و عدم السعي للآخرة و إرادة العاجلة و هذا قول أغلب المفسرين، أما المُعَجَّل به سيكون مقابل أعمالهم الحسنة أم هو محض عطاء يتساوى فيه المؤمن و الكافر على ما تقتضيه مشيئة الله؟.

و الخلاصة: أن الجنة (سعيه مشكورا) لمن أراد الآخرة و سعى لها سعيها و هو مؤمن، أما قبول العمل فيشترط له شرطان أن يكون موافقا للشرع و أن يكون خالصا و هذا جائز الوقوع من المشرك و الكافر بالآخرة و لكنه لن يدخل الجنة.

و الذي أميل إليه أن المراد هنا بمريد العاجلة هو الكافر بالآخرة الذي لا يؤمن إلا بالدنيا و أعماله كلها تجري على وفق هذا المعتقد، و أنه يضعُف أن تكون إرادة العامل أو المريد للعاجلة تعجيل ثواب عمله في الدنيا فهذا بعيد أن يكون هذا مبلغ علمه أو طلبه تحديدا و نصا على ذلك، بل كل ما في قصده و إيمانه هو الدنيا فقط بما تعاهده فيها بالحس و المشاهدة على ما يقتضي الأسباب و العلل، لأنه لم يقنع بالحجج و البراهين الشرعية و لا العقلية، لأنه غلبت عليه شقوته و ضلاله، و القصد من هذا أن عمله الموافق للشرع أي أعمال البر و الإحسان و الإصلاح التي تنفع الناس و الخلق لها ثوابين عند الله: ثواب الدنيا و ثواب الآخرة، و هم أرادوا

ثواب الدنيا الذي هو في نظرهم و وعيهم منفعة حالية محسوسة أو منفعة نفسية كالمدح و الشهرة و الثناء و الرياسة و لذلك بطل ثواب الآخرة.

و في بعضهم ممن يؤمنون بالله في الدنيا و لكن يرجون فضله و رضوانه على أعمالهم التعبدية الموافقة للحق يريدون ثوابها صحة و مال و أولاد و غير ذلك، و هذا منهم عين ثواب الدنيا فلا يطلبون ثوابا للآخرة لأنهم لا يؤمنون بها، و هم من قال الله عنهم ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ البقرة ٢٠٠، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ النساء ١٣٤، و قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران ١٤٥.

و التعجل لمنفعة ثواب الدنيا في حد ذاته غير معذب عليه و لا فيه مذمة إلا إذا قارنه كفر بالآخرة، أما في ذاته فقد أخبرنا الله أن من يأخذه فلن يكون له في الآخرة نصيب و لا خلاق لأنه استهلك ثوابه فقصره على الدنيا فقط هذا فيمن يؤمن بالآخرة و لكنه يتعجل الثواب، أما تعجل المنافق و المرائي فهو إرادة دنيوية بحتة تجري على وفق الأعراف و القواعد سواء كانت شرعية أو غير شرعية.

و القصد باختصار أن رؤية المتعجل لا تكون عن قصد تعجيل ما يجوز في علمه أن يؤجل للآخرة فيؤثر أن يتعجله، و لكن هو لا يعتقد و لا يؤمن بغير هذا فلا يُقبل على عمل إلا لتحصيل منفعته في حياته أو بعد مماته لمن يحب و على كل هي الحياة على الأرض فقط و تنتهي بعد الموت ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الجاثية ٢٤، و

يقول الله عنهم أيضا ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ الأنعام ١١٣، أي أن أعمالهم تجري على وفق ما تصغي إليه أفئدتهم في نطاق كفرهم بالآخرة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ النمل ٤، فأعمالهم مزينة في نظرهم و هي بالطبع أعمال السوء، فإذا كانت هذه عاجلتهم و ما تعجلوا فيها فلا ريب أن جهنم يصلوها، و لا أدل على هذا من وصف الله لهم في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الزمر ٤٥، أي أن الشرك و الكفر يملئ قلوبهم فماذا ينتظر منهم أن تكون نوعية أعمالهم، فلا يمكن أن يكون لهم أعمال آخروية، فتنحصر كل أعمالهم على الدنيا (العاجلة) أي كل ما يتعدى نفعه للغير و لأنفسهم فقط، فما وافق فيه الحق اعتباطا أو بقصد القربة لله لأجل منفعة الدنيا.

- الطبري: (يقول تعالى ذكره: من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقن بمعاد، ولا يرجو ثوابا ولا عقابا من ربه على عمله (عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) يقول: يعجل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته.)[1]

و لم يذكر الطبري نوعية هذه الأعمال التي يعملها الكافر، و لكن الواضح الجلي أنه لم يجعل أعماله و لا نوعية أعماله أي علاقة سببية أو جزائية لأنه قد جعل هذا الكافر ما بين ثلاث احتمالات: البسط أو التقتير أو الإهلاك. و ما ذكره الطبري من صفات لهذا المريد العاجلة تجعله من المستبعد أن يقع منه عمل مما يراد به الآخرة فلم يبقى إلا أعمال حسنة يراد بها منفعتها العاجلة، هذا لو أدخلنا الأعمال عموما ثم الحسنة خصوصا في دلالة التعجيل.

- الزجاج: (أي من كان يريد العاجلة بعمله، أي الدنيا، عجل اللهَّ لمن أراد أن يعجل له ما يشاء اللهَّ... وقوله: (ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ). لأنه لم يرد اللهَّ بعمله [2].... أي نُمِدُّ المؤمنين والكافرين مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ.) [3]

- الماتريدي: (يحتمل هذا وجهين: أحدهما: أنهم كانوا يعملون بأعمالهم الحسنة في حال كفرهم من نحو الإنفاق والصدقات وبذل الأموال، وغير ذلك يريدون بذلك العز والشرف والذكر في الدنيا؛ فأخبر أنه من أراد بها يفعل ذلك عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ.

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٤٠٩). الهداية الى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٦٨).

[2] التفسير البسيط (١٣/ ٢٩٣).

[3] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢٣٣). تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ٤٥٢).

والثاني: يكون قوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ، أي: لا يريد بها إلا جمع الأموال وسعتها عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ....

كأنه قال: من كان يريد العاجلة، وهو كافر بربه مكذب بالآخرة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ومن كان يريد الآخرة، وهو مؤمن بربه مصدق بالآخرة، وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، هذا يدل أنهم إنما أرادوا العاجلة بكفرهم بالآخرة،....) [1]

- الطبراني: (أي من كان همه مقصورا على طلب الدنيا دون الآخرة، نحو أن يكون يريد بالجهاد الغنيمة وبعمله الذي فرضه الله عليه في الدنيا ويغنمها خاصة....

قوله تعالى: ثم جعلنا له جهنم؛ أي بهذا الذي لم يرد الله بعمله،....

قوله تعالى: ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن؛ شرط الله تعالى في ذلك ثلاثة شرائط: أحدها: أن يريد بعمله ثواب الآخرة بالإخلاص في النية. والثاني: أن يسعى في العمل الذي يستحق به ثواب الآخرة. والثالث أن يكون مؤمنا؛ لأنه إذا كان كافرا لا ينتفع بشيء من عمله.) [2]

- السمرقندي: (أي: من كان يريد بعمله الذي افترض الله عليه ثواب الدنيا عَجَّلْنَا لَهُ أي: أعطينا له فِيها مَا نَشاءُ من عرض الدنيا) [3]

---

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ٢٢ – ٢٣).

[2] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

[3] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٣٠٥).

- الواحدي: (هذا ذم لمن أراد بعمله وطاعته وإسلامه الدنيا ومنفعتها وعروضها، وقد بين الله تعالى أن من أرادها لم يدرك منها إلا ما قَدَّره اللهُ له إذا أراد أن يُقَدّر له؛ لأنه قال: عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ، أي: القَدْر الذي نشاء، نُعَجّل له في الدنيا لا الذي يشاء هو.)(١)

- عبد القاهر الجرجاني: (والدليل على جواز طلب الدنيا بعمل الآخرة هو طلب الغنائم بالجهاد، والاستسقاء بالدعاء والاستشفاء... ... /

وفي الآية دلالة أنّ غير المؤمن قد سعى للآخرة، وأنّ الإيمان غير العمل، وأنّ الآخرة قيمة سعي المؤمن لا قيمة إيمانه؛ لأنّ جزاء الإيمان أجلّ وأنفع من الآخرة بأسرها، وهو الدخول في جملة الأولياء) (٢)

و الفائدة من كلام عبد القاهر هو تصريحه أنه يجوز أن يسعى للآخرة ساع و هو غير مؤمن و بهذا قد يجتمع في المكلف أنه يسعى للآخرة بالعمل الحسن أو ما يحسبه حسن (٣) و مع ذلك فهو غير مؤمن و عليه لن يدخل الجنة كأهل الكتاب و من شابههم ممن يسعون للآخرة حال كونهم غير مؤمنين.

- الكيا الهراسي: (فيه دلالة على أمور، منها أن من يريد بها يتكلفه من الطاعات أحوال الدنيا، أو يريد تحصيل العاجلة بغير الطاعة فهو متوعد، مثل أن يتزهد مراءاة للناس، أو لاعتمادهم

---

(١) التفسير البسيط (١٣/ ٢٩٢).

(٢) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر (٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩).

(٣) يقول الألوسي: (فيخرج من يتعبد من الكفرة بما يخترعه من الآراء ويزعم أنه يسعى لها) روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٤٧).

على أقواله وائتمانهم له على أموالهم، فهو متوعد بالنار، وأن من يريد الله تعالى بمساعيه فله الثواب بحكم وعد الله تعالى.) (١)

- ابن برجان: (وجاءت آية في سورة هود: فيها بعض الإشكال، قوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥). وهي إخبار/ لا يجوز عليها النسخ التوفية في هذه - والله أعلم - هو أن يطعم بعمله ويسقي؛ فتحسب عليه العوافي، ونعم السمع والبصر والحواس، يكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء الله، وربما زاده على مراده هو، ثم يحسب له ذلك كله فيما ذكرناه. دلّ على هذا التأويل قوله - جلَّ جلالُه -: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا يعني: الدنيا والمؤمن ليس كذلك) (٢)

و قد تأول ابن برجان ليجمع بين الموضعين الموهمين التعارض بينهما، و هما توفية الأعمال للكفار في الدنيا بلا بخس و هو كمما ترى وعد من الله و هو لا يخلف وعده، ثم هنا يجعل التعجيل في الدنيا على حسب مشيئته لما سيعجل به و لمن يُعجَّل له، فقال أن التوفية على الأعمال ستوفى لهم بتمامها على قدر أعمالهم، و عطاء الله غير ممنوع عنهم أيضا فسينالون منه ما شاء الله لهم و يكون على سبيل التوفية و على سبيل أنه ربهم و متكفل بأرزاقهم (٣).

---

(١) أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٥٣).

(٢) تفسير ابن برجان (٣/ ٣٨٤ - ٣٨٥).

(٣) يقول الرازي في تفسيره: (لأن الكل مخلوقون في دار العمل، فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح فبين تعالى أن عطاءه ليس بمحظور). و انظر فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٣٢٢).

- الزمخشري: بعد أن ذكر قوله (وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة، كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهد للغنيمة والذكر، كما قال ﷺ «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» مدحورا مطرودا من رحمة الله سعيها حقها من السعي وكفاءها من الأعمال الصالحة.) [1]

- ابن العربي: (قد قدمنا أن الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى، وبينا أن من أراد غير الله فهو متوعد) [2]

و ما يلزم من قوله أن المتعجل عمله خالص النية لله و لكنه لا يريد به ثواب الآخرة.

- الطبرسي: (وروي عن ابن عباس أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: معنى الآية من كان يريد ثواب الدنيا بعمله الذي افترضه الله عليه، لا يريد به وجه الله والدار الآخرة، عجل له فيها ما يشاء الله من عرض الدنيا، وليس له ثواب في الآخرة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يؤتيه ذلك ليستعين به على الطاعة، فيستعمله في معصية الله، فيعاقبه الله عليه. ...

(سؤال): فإن قيل هل يجوز أن يريد المكلف بعمله العاجل والآجل؟ والجواب: نعم إذا جعل العاجل تبعا للآجل، كالمجاهد في سبيل الله، يقاتل لإعزاز الدين، ويجعل الغنيمة تبعا. ...

---

[1] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٦٥٦).

[2] أحكام القرآن لابن العربي (ط التراث) (ن حواشي) (٣/ ١٥٣).

وفي الآية دلالة على أن الطاعة لا تزيد في رزق الدنيا، وإنما تزيد في درجات الآخرة.)[1]

- ابن الجوزي: (يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبَّر بالنعت عن الاسم، عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ من عَرَض الدنيا)[2]

- الرازي: (قال القفال رحمه الله:... فمنهم من يريد بالذي يعمله الدنيا ومنافعها والرياسة فيها، فهذا يأنف من الانقياد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدخول في طاعتهم والإجابة لدعوتهم، إشفاقا من زوال الرياسة عنه....)[3].

و قال أيضا: (الشرط الأول: أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة، فإنه إن لم تحصل هذه الإرادة، وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل....

والشرط الثاني: قوله: وسعى لها سعيها وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي بها ينال ثواب الآخرة، ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب القرب والطاعات، وكثير من الناس يتقربون إلى الله تعالى بأعمال باطلة، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان[4]، ولهم فيه تأويلان:

التأويل الأول: يقولون: إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من

---

(1) تفسير الطبرسي ت ٥٤٨ هـ.

(2) زاد المسير في علم التفسير (٣/ ١٦).

(3) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٠/ ٣١٦).

(4) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٢٩١).

عباد الله تعالى،...، إلا أنه لما كان فاسدا في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به.

والتأويل الثاني لهم: أنهم قالوا: نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند الله تعالى. وهذا الطريق أيضا فاسد،...، إلا أنه لما كان الطريق فاسدا لا جرم لم ينتفع به، وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون إلى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب.

والشرط الثالث: قوله تعالى: وهو مؤمن وهذا الشرط معتبر، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان[1]، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط) [2]

الفائدة أنه جعل ما يفسد العمل هو عدم نية الثواب به في الآخرة، مخالفة العمل لشرع الله، و لم يعلقه على اسم الفاعل، أما في الشرط الثالث الذي فيه النص على اسم الفاعل (مؤمن) جعل متلق شرطه هو إيجاب الثواب على الأعمال، أي أن الثواب على الحسنات لا يكون إلا للمؤمن لأنه من سيدخل الجنة فيظهر فيها قدر و درجة التنعم على قدر حسناته، أما غير المؤمن فتقتصر المنفعة من الحسنات على تقليل قدر استحقاقه العذاب.

---

[1] يقول النيسابوري: (لأن شيئا من صور الأعمال الصالحة لا يوجب الثواب إلا بعد تقديم الإيمان) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٣٣٤). و يقول الشوكاني: (لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين إنما يتقبل الله من المتقين) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٥٧) و تابعه القنوجي في فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ٣٧٠).

[2] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٠/ ٣١٧).

- القرطبي: (وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين **المداجين، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قسم لهم. ...**

(وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها من الطاعات. (وهو مؤمن) لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن.) (١)

أي هؤلاء يقبل منهم العمل على ظاهره في الدنيا. و عندما جاء وقت الآخرة فلا تقبل منهم هذه الأعمال أما المؤمن فتقبل منه هذه الأعمال، فوضح الآن أن المفسر عندما يذكر عدم قبول العمل الحسن من الكافر و المشرك فهو يريد عدم قبوله في الآخرة بمعنى عدم لإثابته عليه إثابة المؤمن، و الشاهد أن الطاعة من غير المؤمن تقع صحيحة شرعا و مقبولة من المؤمنين و هذا في حال كونها غير خالصة لله و لا يراد بها ثواب الآخرة، فالأولى أن تقبل ممن يؤمن بالآخرة و يعمل لها و العمل طاعة في نفسه.

- **البيضاوي: بعد ذكره قوله:** (. وقيل **الآية في** المنافقين **كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها.)** (٢)

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٣٥).

(٢) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٥١)، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٢/ ٣٨٢)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٢٩١). و يقول ابن التمجيد شارحا قول البيضاوي: (قوله: كانوا يراءون المسلمين. وهم الذين يريدون الدنيا بعمل الآخرة.) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١١/ ٤٧١). و لكن بعد ذكر هذا القول تعقبه أبو السعود قائلا: (وقيل الآية في المنافقين كانوا يراءون

- أبو حيان: (**والعاجلة هي** الدنيا **ومعنى إرادتها إيثارها على الآخرة**، ولا بد من تقدير حذف دل عليه المقابل في قوله: **من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن** فالتقدير: من كان يريد العاجلة وسعى لها سعيها وهو كافر.

وقيل: **المراد من كان يريد العاجلة بعمل الآخرة** كالمنافق والمرائي **والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة والذكر كما**

قال عليه السلام: «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وقال عليه الصلاة والسلام: «من طلب الدنيا بعمل الآخرة فما له في الآخرة من نصيب».

وقيل: **نزلت في** المنافقين **وكانوا يغزون مع المسلمين للغنيمة لا للثواب)** (١)

و تأويل أبو حيان المعتمد على إظهار ما اقتضته المقابلة أن أعمال الكافر هنا هي أي عمل معلق عليه من فاعله منفعة دنيوية فقط لأنه غير مؤمن بالآخرة، و هذا أعم من كونه منافقا أو مرائيا (٢)، لأن هناك كفار لا تعتمد مصالحهم على إيهام الانتماء لجماعة المؤمنين و هذا إما أنهم

المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها ويأباه ما يقال إن السورة مكية سوى آيات معينة) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ١٦٤).

(١) **البحر المحيط في التفسير** (٧/ ٢٨).

(٢) **يقول** القونوي: (وقيل الآية في المنافقين الخ. لكن هذا لا ينافي عموم الحكم... **المراد بمن في (من كان)** الكافر مطلقا وإرادته العاجلة لعدم اعتقاد الآخرة **فاتضح ما ذكرنا أن** الحصر منفهم من و (جعلنا له جهنم) الآية.) **حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي** (١١/ ٤٧١ - ٤٧٢).

يعيشون في ديارهم على وفق عقيدتهم أو أنهم لا دين لهم أصلا، و كل هؤلاء يريدون العاجلة بلا أن يظهروا طاعات لينتفعوا من ورائها من الجماعة المؤمنة.

- السمين الحلبي: (قيل: **وفي الكلام حذف**، وهو حذف المقابل؛ إذ الأصل: من كان يريد العاجلة وسعى لها سعيها وهو كافر لدلالة ما بعده عليه. وقيل: بل الأصل: من كان يريد العاجلة بعمله للآخرة كالمنافق.) [1]

- الجلالين: (**من كان يريد** بعمله **العاجلة أي الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد**) [2]

- زكريا الأنصاري: (**قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ... الآية.**

إن قلتَ: قضيَّتُه أنَّ من لم يتركِ الدنيا يكونُ من أهل النار، وليس كذلك؟!

قلتُ: **المراد من لم يُردْ** بإسلامه وعبادته **إلَّا الدنيا، وهذا لا يكون إلَّا كافراً، أو منافقاً.**) [3]

* أبو السعود: (**من كان يريد بأعماله التي يعملها** سواء كان ترتب المراد عليها **بطريق** الجزاء **كأعمال البر** أو **بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب** أو **بأعمال الآخرة** فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة **وعلى** الثاني أهل الرياء والنفاق **والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة العاجلة فقط من غير أن يريد معها الآخرة** كما **ينبىء عنه الاستمرار المستفاد من**

---

[1] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ٣٣١). و بحرفه في اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٢٤١).

[2] تفسير الجلالين (ص: ٣٦٨).

[3] فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٣٢٢).

زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة في قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبإرادتها إرادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها لكن الأول أنسب بقوله عجلنا له فيها أي في تلك العاجلة) [1]

و كلام أبو السعود مشعر بأن الكافر بالآخرة الذي يعمل البر لأجل الدنيا يعجل له فيها، أو على الأقل يُقر على أعماله ظاهريا كما في الفاسق و المرائي و المنافق.

- القونوي: (قوله: (لا التقرب بما يخترعون بآرائهم) رد لزعم الكفرة أنهم سعوا سعيها بما يخترعون من العبادة الصورية، ويدخل فيه أهل البدعة والهوى حيث يخترعون من الأعمال ما لا يرد إذن الشرع به وإن أتعب نفسه فهو لا يعدل جناح بعوضة عنده تعالى.) [2]

التمحور حول وصف الفعل نفسه لا على اسم الفاعل.

و قال أيضا: (قوله: (إيمانا صحيحا لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة) فإنه أي الإيمان العمدة في قول الأعمال وصحتها. قوله (وهو مؤمن) حال مؤكدة لأنه داخل في حق السعي.

---

(1) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ١٦٣). روح البيان (٥/ ١٤٤). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٠٤٥، بترقيم الشاملة آليا) حيث قال: (الكافر والمنافق، ويدخل في ذلك المراؤون بأعمالهم، إذ لولا المدحة والثناء عليهم ما فعلوا الطاعات.). و أيضا فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٥٧) حيث قال: (من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤون والمنافقون) و تابعه القنوجي في فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ٣٧٠).

(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١١/ ٤٧٢).

وجه التأكيد الإشارة إلى أن ما عمله الكفار كرماد أو كسراب.

قوله: (الجامعون للشروط الثلاثة) نبه به على أن الإشارة راجعة إلى جميع ما قبله من الشرائط الثلاثة لا الأخير فقط فإن الإيمان وإن كفى في دخول الجنة لكن كون سعيهم مشكورا موقوف على الشروط المذكورة) [1]

الفائدة أن تفسير كون أعمال الكفار رماد أو كسراب هو ما سبق و وضحه أنهم يخترعون عبادة من تلقاء أنفسهم و بهذا يكون بيان الرماد و السراب و الهباء المنثور هو من حيث حسبانهم أنهم يعبدون الله و يتقربون إليه.

- ابن عجيبة: (والآية في الكفار، وقيل: في **المنافقين، الذين يغزون مع المسلمين لقصد الغنائم.** والأصح: أنها تعم كل من اتصف بهذا الوصف.) [2]

و الفائدة أن أي عمل موافق للشرع فهو على ظاهره صحيح و مقبول من أي أحد كان، هذا في شق المعاملة و التكاليف، أما في شق الجزاء فإن الله وحده هو من يعلم بالنية و القصد و الإرادة.

- الألوسي: (ليس المراد بأعمالهم **في قوله تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** أعمال كلهم ولا كل أعمالهم **وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر**...

---

[1] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١١/ ٤٧٣).

[2] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ١٩٠).

ولا يخفى أن هذا ظاهر في أن الآية تدل على الخلود وحينئذ يتعين عندنا أن يكون ذلك المريد من الكفرة وفي إرشاد العقل السليم من كان يريد أي بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثاني أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة وأنت تعلم أن إدراج/ الفاسق والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة إذا كان مؤمنا في التمثيل على القول بدلالة الآية على الخلود مما لا يستقيم على أصولنا نعم يصح على أصول المعتزلة وقد أدرج الزمخشري الفاسق في ذلك ودسائس الاعتزال منه عامله الله تعالى بعدله أكثر من أن تحصى.

وظاهر كلام أبي حيان اختيار كون المريد من الكفرة حيث قال: العاجلة هي الدنيا ومعنى إرادتها إيثارها على الآخرة ولابد من تقدير محذوف دل عليه المقابل في قوله تعالى ومن أراد الآخرة إلخ أي من كان يريد العاجلة وسعى لها سعيها وهو كافر عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، وقيل المراد من كان يريد العاجلة بعمل الآخرة كالمنافق والمرائي والمجاهد للغنيمة والذكر والمهاجر للدنيا إلى آخر ما قال فحكى غير القول الأول والذي يكون يتعين عليه كون المريد من الكفرة بعد أن قدمه بقيل ويؤيده تفسير كثير من كان يريد العاجلة بمن كان همه مقصورا عليها لا يريد غيرها أصلا فإن ذلك مما لا يكاد يصدق على مؤمن فاسق فإنه لو لم يكن له إرادة للآخرة ما آمن بها.

وعلى القول بدخول الفاسق ونحوه ممن لا يحكم له عندنا بالخلود يمنع القول بدلالة الآية على الخلود ويقال لمن أدخل النار مبعد من رحمة الله تعالى ما دام فيها فيصدق على الفاسق مادام فيها كما يصدق على الكافر المخلد.

وزعم بعضهم أن المريد هو المنافق الذي يغزو مع المسلمين للغنيمة لا للثواب فإن الآية نزلت فيه وفيه أنه يأبى ذلك ما سبق من أن السورة مكية غير آيات معينة ليست هذه منها على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب **فافهم**.)[1]

فالألوسي هنا و من خلال ما استشهد به و نقله من تفاسير غيره يشير على أن التعجيل مسبب بالأعمال التي ظاهرها الحسن و البر سواء أكانت من كافر أو من مرائي أو منافق أو فاسق، و الشاهد هو اعتبار أعمالهم على ظاهرها و استتباعها شيء من التعجيل و التوفية في الحياة الدنيا على ما تقتضيه مشيئة الله لهم، و أن منطلق التأويل هو في مسألة أن ظاهر الآية في خلود المعجل له في نار جهنم، و بهذا يجب إخراج المرائي و المؤمن الفاسق، و إن تم إدخالهم فيجب أن يصرف الخلود في النار و هذا غير مؤثر على الشاهد من الكلام.

- أطفيش: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ بعلمه من العبادة الْعَاجِلَةَ **همته مقصورة عليها وهي الدنيا**...

وقيل: **المراد بالآية المنافق، يريد بعمله الصالح كالجهاد مع رسول الله ﷺ، والصلاة معه والصوم أمر الدنيا كالأخذ من الغنائم....**

---

[1] روح المعاني لمحمود الألوسي (١٥/ ٤٦ – ٤٧).

... والمراد بمن كان المشرك والمنافق بإضمار الشرك، والمنافق بالجارحة.) [1]

و قال أيضا: (وسمى ذلك تعجيلا باعتبار أن ما يعطيهم ثواب لما قد يعلمونه فلا ثواب لهم في الآخرة ولكن هذا لا يطرد، إِذ قد لا يعمل المشرك شيئاً من الأَخلاق، ولا المنافق شيئاً لله، والأَولى أن يكون ذلك باعتبار ما ادخر لهم في الآخرة من العذاب عجل لهم متاعاً قليلاً وادخر لهم عذاباً أليماً مؤجلا إِلى الآخرة كما قال ثُمَّ جَعَلْنَا لهُ في الآخرة جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا يدخلها في الآخرة) [2]

---

[1] تفسير اطفيش - إباضي (٥/ ٢١٩، بترقيم الشاملة آليا).

[2] هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (٧/ ٢٨٠، بترقيم الشاملة آليا).

الآية رقم ٣

﴿اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ١٧-٢٠]

— قد يكون و الله أعلم المعني بالحرث؛ خاصة أنه أضيف للدنيا و للآخرة فاستوجب التعميم في معناه لكي يصلح لهما، فقد يكون هو (كل ما خلق للإنسان و له منفعة له مستحبة و مرغوبة فينال به لذة و سرور) يتوسل إليه الحارث بالعمل المباشر أو غير المباشر (التمهيدي أو مقدماته المتوقع منه المنفعة المرتقبة) فهو كل حركة و سكنة تقع من الحارث (العامل) بقصد جلب المنفعة و دفع المضرة، و على قدر إيمانه بالحياة من حيث انتهائها يعمل لها، فالذين لا يؤمنون بالساعة و من ثم بالآخرة فلن يقدموا أو حتى يلتفتوا لأي عمل [الأعمال التي للآخرة المتوسل بها لـ(حرث الآخرة)] لا يعطي منفعة حياتية في الدنيا قبل موتهم أي في معيشتهم الدنيوية، و كلا نوعي الأعمال المتوسل بهم للحرثين هي من (مقدور و طاقة و سعة) الإنسان في الدنيا و لذلك تعلقت بهما الإرادة (يريد حرث الدنيا – يريد حرث الآخرة) و استحق عليها الجزاء (نؤته – نزد).

و من أمثال الحرث في الدنيا (النساء) كما في قوله﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ البقرة ٢٢٣، و (الزروع و الثمار) كما من قوله ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ

الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ البقرة ٧١ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الواقعة ٦٣، ﴿و أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ القلم ٢٢، ﴿و وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ الأنبياء ٧٨، و ﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ﴾ الأنعام ١٣٨، و الحرث من متاع الدنيا و يقابله ما هو أحسن منه عند الله في الآخرة كما في قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عمران ١٤، فذكر النساء هنا مع الحرث يدل على أن الحرث المضاف للدنيا و للآخرة يعم بدلالة النص النساء و الزروع، و بالتبعية كل ما فيه تشهي لتملكه و استعماله.

و مما ذكره الله في الجنة أي من حرث الآخرة و هو صريح في تسميته حرث الدنيا (النساء) ففي الآخرة سيكون الحور العين ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الدخان ٥٤، أما بالنسبة لحرث الدنيا من الزروع بأنواعها و أجناسها ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ الرحمن ٦٨ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يس ٥٧، و ما يدخل تبعا في معنى عموم الحرث: (اللحم) لأنه لا يوجد في الدنيا إلا بوجود المرعى﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الطور ٢٢ و ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾الواقعة ٢١، و كذلك أيضا (الشراب) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ص ٥١، و قوله تعالى الجامع ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾محمد ١٥.

و من مصاديق حرث الدنيا الذي في الآخرة الذهب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ الحج ٢٣، و نلاحظ التصريح في الآيتين الأخيرتين أن مثل هذه النعم هي للذين آمنوا و عملوا الصالحات و المتقين.

و مما يقابل نعمة البنين أو الأولاد التي هي من متاع الدنيا قوله تعالى في الآخرة ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ الإنسان ١٩و الواقعة ١٧.

و الدليل العام على التقابل مع المفارقة العينية (بثبوت التشابه) ما بين حرث الدنيا و حرث الآخرة في أشهر مصاديقه التشابه في الزروع و الثمار و الفواكه كما في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة ٢٥، فالآية صريحة أن كل هذه النعم جزاء الإيمان و العمل الصالح، فالإيمان بالآخرة هو ما أدى لإرادة حرث الآخرة فصدقه بالعمل الصالح ليطابق قوله عمله.

و الشاهد من هذه الآيات جميعا أن نشير لواحدية الحرث مع اختلاف معيناته، و لذلك قد صلح إضافته للدنيا مرة و للآخرة مرة ثم يأتي التخصيص و التميز من دلالة الإضافة للدنيا و الآخرة، أي أن ما يعطي المفارقة و الاختلاف لمصاديق الحرث هو حقيقة كل من الدنيا و الآخرة، و من القرائن القوية على تقرير هذا القدر المتشابه الذي يقتضي الحرمان التام للذين كفروا في الآخرة هو قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ الأحقاف ٢٠، لأنهم تعجلوا الطيبات في حياتهم الدنيا فأرادوا حرث الدنيا و الاستمتاع به لأنهم لم يؤمنوا بالآخرة فلم يريدوا حرثها، والاستمتاع هو طلب التمتع بالمتاع، و قد سبق في آية آل عمران ١٤ تعديد أنواع المتاع في الحياة الدنيا (النساء و البنين و الذهب و الفضة و الخيل و الأنعام و الحرث).

أي أن إرادة الحرث هو الدافع للتخطيط الممنهج المتبوع بتصديقه بالأفعال بقصد إنجاز العمل المتصور من أجل منفعته، فمن يريد حرث الدنيا فلا بد أنه يطلب نتائج أعماله في الدنيا، أما من يريد حرث الآخرة فإنه يحرث في الدنيا (لا للدنيا) حرث الآخرة؛ لينتفع بما حرثه في الدنيا في الآخرة، بمعنى آخر أن هناك فارق جوهري بين إرادة استعمال الدنيا و حرثها كظرف مكاني و زماني لإرادة حرث الآخرة، و بين استعمال الدنيا كغرض لحرثها، أي أن المعني من الآية هو القصد و الغرض من الحرث، فإذا أضيف الحرث للدنيا فالمقصود الحرث في الدنيا للدنيا، و حرث الآخرة فالمقصود منه الحرث للآخرة في الدنيا، لأن الدنيا هي دار التكليف و العمل، فمن جعلها دار للعمل و الجزاء فله ذلك و لكن لن يكون له في الآخرة من نصيب و خلاق.

و من الأدلة القوية على أن الطيبات من حرث الدنيا يستمتع بها كلا الفريقين و لكن الخلاف في الإرادة و القصد، فمن اقتصرت إرادته على حرث الدنيا فيحرم عليه ما في الآخرة من حرثها، فأما المؤمن يستعين باستمتاع هذه الطيبات من حرث الدنيا ذخيرة لإرادة حرث الآخرة و لذلك ستكون خالصة له يوم القيامة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٢، و هذا يدل على أن المقصود بإرادة حرث الدنيا المقرون بالكفر أو

الاقتصار في القصود و النيات على حرث الدنيا فقط بدون إرادة حرث الآخرة و هذا علامة على الكفر أيضا و هذا ما نص عليه في الآية التي تسبقها تمهيدا لهذه الحقيقة ﴿يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ **آية ١٨، و لذلك تجد من صفات الكفار الأكل كالأنعام، و كنز الذهب و الفضة، يمنعون الماعون، لا يتصدقون، لا يزكون، لا يصلون، لا يسجدون لله، ألهاهم التكاثر، و غير ذلك و كل مؤشرات و دلائل على كفرهم بالآخرة فلا يفوتون أي تكاثر أو تلذذ أو تمتع إلا آتوه، فلا يستوقفهم إلا الأسباب المادية فقط لأنهم لا يخشون عقابا و لا يريدون ثوابا في الآخرة و لذلك فلا يرون إلا الحياة الدنيا.**

و في هذه الآيات دلالة قوية على أن موضوع حرث الدنيا و العاجلة و الحياة الدنيا هي مقصود الذين لا يؤمنون بالساعة و الآخرة أو على شك منها ﴿يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ **آية ١٨، و في الآيات هنا أيضا تقرير لمبدأ عدل و رحمة و لطف الله بعباده كلهم أي المريد للعاجلة و حرث الدنيا أنه يمدهم و يعطيهم و يرزقهم جميعا على مقتضى مشيئته النافذة، فلا حب الدنيا و حرثها و التعجل يعطي أكثر مما شاءه الله له، و لا ينقص أو يدفع عن مريد الآخرة و حرثها أي رزق أو عطاء قدره الله له، لأن الله قدر معيشتهم بينهم لِحِكم عليا.**

أي أن حقيقة المسألة هي مسألة إيمانية بالساعة و الآخرة و الحساب، **لأنه على مستوى الحياة الدنيا و حرثها و ثوابها فكل إنسان له قدر و معيشة و رزق معين من قبل الله قد قدره الله له لا يتوقف في قدره على إيمانه أو كفره، و هذا التفاوت المشاهد بين الناس في امتلاك المتاع و المعيشة و الأرزاق مُسَلَّم به و لا يوجد له سبب يمكن توقيف الإنسان عليه للاستكثار منه حقيقة أما قصد الاستكثار فهو واقع لدرجة التلاهي** ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ **التكاثر ١، و هو خصيصة لمن لا**

يريد الآخرة و يريد العاجلة و الحياة الدنيا وحرثها ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ الحديد ٢٠.

و مقياس الإيمان و عدمه بالنسبة للحياة الدنيا و الآخرة تتجلى على المستوى العملي في اللهو و الزينة و التفاخر و التكاثر، فمن اقتصر على الحياة الدنيا و العاجلة فستكون كل أعماله لها و هذا دليل على كفره بالآخرة، و تتناسب قوة و ضعفا على حسب ما يصيب المؤمن من التلاهي و التفاخر و اللعب و اللهو و الزينة و التكاثر في الأموال و الأولاد.

و من لا يريد حرث الآخرة فلا يتصور أن يكون له منفعة في الآخرة لانتفاء إرادة حرثها أصلا، قد يكون لأنه لم يرصد لها عملا و لا إيمانا فهو عدم لعدم، فيكون قوله تعالى وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ تذكير و تنويه له و تهديد، و قد يكون أن ما يعمله مما لا ينتفع به في حياته الدنيا و لا يقصد به ثناء و تخليدا لذكراه في الدنيا، و هو بر و صلاح أنه سيستهلكه في الدنيا مقابل ما أنعم الله عليه من نعم و ما زاد من النعيم سيسأل عنه يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر ٨ و لا بد من زيادة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النحل ١٨، و قوله أيضا ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ النحل ٥٣.

و هناك علاقة ما بين النعم و الشكر، و بالطبع الشكر من العبادة و الإيمان و لا بد أن يكون عملا (قلبي و جوارحي) و يمكننا القول أن أعمال البر و الإحسان و الصلاح هي نوع من

الشكر على النعم، و بهذه المجازاة بينهما كما في قوله ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ القمر ٣٥، إن وقعت على مراد الله و مرضاته فقد قابلت هذه الأعمال الصالحة في الدنيا لأنها وقعت للاستزادة من هذه النعم و الاستكثار منها، و لذلك يذم الله على ما أنعمه فنسي ﴿إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ﴾ الزمر ٨ و أيضا ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الزمر ٤٩، و من لم يشكر فكفر بها و وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ العنكبوت ٦٧ ﴿وأَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً﴾ إبراهيم ٢٨، أو جحدها أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ النحل ٧١، و إذا أتى العامل في الآخرة لا يجد لأعماله هذه من نصيب و لا خلاق ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ الشورى ٢٠ و أيضا ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ البقرة ٢٠٠.

- جزاء الله تعالى على أعمال عباده تكون في الدنيا و الآخرة (ثواب الدنيا و الآخرة) و لأن كل شيء بقدر و مشيئة الله، فكل نعمة او رزق أو متاع أو رحمة ينالها العبد في الدنيا إما أن تكون تفضلا و عطاء أو على سبيل الجزاء، و التفضل و العطاء و الرزق مكفول لكل نفس بما قدره الله و ما شاءه لمن أراده، و التي على سبيل الجزاء تكون مقابل الأعمال الحسنة و الصالحة، أو على سبيل الفتنة و الابتلاء، فمن شكر المنعم فقد أدى ما عليه بإزاء النعم، و من لم يشكر فقد استوجب العقاب و العذاب، و الشكر إما أن يكون في نطاق إيمانه بالحياة الدنيا فقط أو بالدنيا و الآخرة، فمن كان شكره في نطاق الحياة الدنيا فسيكون نفعه مقتصر على الدنيا فقط، إما نفع مادي أو معنوي.

و المادي يتمثل في المتاع كالمال و الأولاد و الصحة و الزينة و ما شابه، و النفع المعنوي كالمدح و الثناء و الشهرة و الرضا و الغرور و الزهو و ما شابه، فكلها منافع منوط تأثيرها في الحياة

الدنيا، و كل منفعة تطول أي إنسان او حيوان بسبب أعماله ستدخل في نطاق عدم الإفساد في الأرض و إصلاحها، و هو أمر شرعي سواء قصد الامتثال له أم لا، لأنه في كل الأحوال من الفطرة و العقل الذين أنعم بهما الله على الإنسان، فيكون الامتثال بأمر الله الكوني و الخِلْقي، فشُكْرِها بتعدي منفعتها لغيره على صور كثيرة و متنوعة، و كل شيء في الدنيا من متاع لا يأخذه الإنسان في قبره فلا منفعة له في الآخرة، أما كل شيء ينتفع به في الآخرة فهو قلبي إيماني غيبي، فلذلك لا يلقي له الكافر بالآخرة بالا، أما الأعمال التي تصلح للآخرة و الدنيا لو انتوى بها ذلك و لن ينتوي بها ذلك لأنه كافر أو شاك في الآخرة، و هي أعمال كثير كالصدقة و الزكاة و بر الوالدين و القسط و توفية الكيل و الميزان و غيرها الكثير.

فمثل هذه الأعمال يصلح لها الثوابين أي ثواب الدنيا و ثواب الآخرة، و يصلح بها الحرثين أي حرث الدنيا و حرث الآخرة، فإن كان قصده منها تحصيل ثواب و حرث الدنيا فقط فهو له و لن يكون له في الآخرة نصيب و لا خلاق، لأنه أذهب طيباته في الدنيا و قد وفاه الله حسابه على أعماله فلا يظلمه شيئا، لأنه لم يقبل على عملها و إلا له قصد و غرض و هذه هي طبيعة الإنسان، و ما دامت وقعت له في الدنيا فهي محكومة بأسبابها و علاتها و موانعها و قبول محالها، لأن الله قد أوكله للدنيا لأن هذه إرادته، أما الذي ينتوي بالعمل الله فقد وقع أجره على الله و إن لم يقع عمله في الوجود لأجل الموانع الصارفة و عدم قبول المحل لها، فيكفي أنه قد هم بالحسنة.

أما أسباب الدنيا فلا تعرف لغة الهم و القصد و النية، فهي منوطة بالعلات و الأسباب على حسب الوجود و الوقوع، و هذه ضريبة من ينتظر ثوابها أو أن يريد حرثها في حياته الدنيا فيتعجل منفعة أعماله فيها، و أعمالهم على ثلاثة أضرب: منها ما يعلمون حسنه و صلاحه، و

منها ما يعلمون سوؤه و فساده، و منها ما يحسبونه حسنا و صالحا و هو في الحقيقة سيئ و فاسد، و الثلاثة بالنسبة للدنيا و الآخرة سيتحقق فيهم وعد الله بالحبط و الإضلال و البطلان، لأن كل هذه الأعمال عملت للحياة الدنيا و للعاجلة و لحرث الدنيا و ثوابها على تنوع هذه الأعمال، فيأتون للآخرة و لا حسنة لهم، فتنعدم المنفعة لكل أعمالهم فلا يبقى لهم إلا النار، و هذه النوعية من الكفار يتفاوتون في قدر العذاب في الآخرة بناء على كم و نوع أعمالهم السيئة.

أما على مبدأ تجزيء الإيمان أو ما يسمونه الإيمان العملي فيكون العمل الذي قصد به الله أي خالصا لله سواء كان صاحبه يؤمن بالآخرة أم لا، و لا يتعجل ثوابه في الدنيا، فقد يؤجل الله بما يخص ثوابه الأخروي في الآخرة و هذا ما يكون له وزن فيساعد في تخفيف قدر العذاب، أما إذا قلنا أن العامل يؤمن بالآخرة و الحساب و الميزان و يرجو من عمله ثواب الآخرة و حرث الآخرة فما يمنعه من ذلك إذا حكمنا عليه نحن بكفر أو شرك، فإما أن لا يكون شركا أو كفرا حقيقيا، أو لو كان حقيقيا فهذا يمنعه من دخول الجنة و يستوجب له النار أما أنه يمنعه من ثواب أعماله فلا دليل على ذلك و لا حتى أمارة، و تنحصر منفعة و ثواب أعماله الحسنة في تقليل موزون أعماله السيئة فيخف قدر استحقاقه العذاب الممثل بالدركات أو الدرجات و هذا ما نص عليه في القرآن.

— قد اتفقوا على تمييز نوعية العمل في الآية على أنه العمل الحسن، و تنوعت وجهات نظرهم في اسم الفاعل هل هو المنافق أم المرائي أم المشرك، على حسب إرادة العامل بالعمل، فمن كان لا يؤمن بالآخرة فهو المشرك الكافر و المنافق، و إن كان ممن يشمله اسم الإيمان بالآخرة فهو المرائي، و نستطيع الوقوف على القدر المشترك و هو العامل الأساسي في التأويل لكل المفسرين

و إن لم يصرحوا به: أنه هو العمل نفسه مع ما يصحبه من إرادة أو نية، فإن كان العمل حسن و يريد به الدنيا أو يريد به الآخرة، بغض النظر عن اسم فاعله (مشرك أو منافق أو مرائي) فتلخيص المسألة في شروط العمل نفسه (موافقته للشرع و الإخلاص و إرادة الآخرة).

أو نوحد العمل من حيث أنه صفة ملازمة للإنسان في حياته، أي أعم من كونه حسنا أو سيئا، و يكون العامل الأساسي في التصنيف و تابعية الجزاء هو الإرادة، فمن كان يريد بعمله حرث الدنيا فليس له في الآخرة من نصيب، و من يريد بعمله حرث الآخرة يزيد الله له في حرث الآخرة، و لكن بما أن الإرادة تعلقت بالحرث، و الحرث يأخذ صفته النوعية ممن أضيف له (الدنيا – الآخرة) فيلزم تحديد ماهية حرث الدنيا و حرث الآخرة من خلال ماهية و صفة الدنيا و الآخرة، و بهذا نقف على معنى حرث الدنيا و حرث الآخرة و من ثم يتم تصور إرادة أي الحرثين من المريد في الدنيا.

و إذا نظرنا للحرث نفسه على أنه هو المراد لأنه شيء مرغوب فيه من المتاع و الطيبات و الزينة، فقد وضع الله له شروطا لمن أراده على صورته المثالية في الآخرة أن يكون مؤمن و يعمل الصالحات و قد وعد الله بذلك بل و الزيادة فيه، أما حرث الدنيا فإن شرطه هو إرادة المريد له، و لكن المحكوم بالمشيئة الإلهية من التقسيم و التقدير بلا ضمانة التحقيق لكل ما يريد فضلا أن يكون به زيادة و أيضا يوفيه الله أعماله في الدنيا بلا بخس، و كل هذا من رحمة و لطف الله بخلقه بأن يرغبهم في الآخرة و يزهدهم في الدنيا الفانية.

و الحرث هو الشيء القابل للاستمتاع به، قد يكون على صورة كاملة و يكون العمل من أجل الحصول عليه فقط، أو يكون غير كامل على صورته النهائية فيحتاج عمل لتجهيزه و رعايته و

العناية به حتى يصل لصورته الجاهزية للاستمتاع به، و لأن حرث الدنيا موجود مع وجود الإنسان في الحياة الدنيا على صوره الجاهزة و الغير جاهزة فهو يفتقر للعمل من أجل التمتع به، فأبسط عمل هو الاتصال المباشر بالحرث من أجل الحصول على المنفعة، أو العمل بمقدمات و تهيئة ضرورية للحصول على الحرث، و إذا وجد العمل الملائم فلا بد من حصول التأثير و الغرض، و لا يخلو إنسان من استمتاع بحرث الدنيا، و لا يخلو إنسان من تمني أنواع كثيرة من الحرث، و لذلك وعد الله المريد لحرث الدنيا أن يؤتيه منها.

أما في حال المريد لحرث الآخرة فلم يقل له نؤتيه منها، لأن الذي في الدار الدنيا لا يصل إليه حرث الآخرة لاختلاف ماهيات الدارين، و لكن وعده الله بزيادته ليقابل إتيان المريد لحرث الدنيا و تعجله، كأن المعنى أن من أراد حرث الدنيا أتاه الله منها في الحياة الدنيا و يحرم عليه في الآخرة، و أن المريد لحرث الآخرة بما أنه لا يمكن إتيانه منها في الحياة الدنيا فقد قابله الله بزيادة حرث الآخرة، فهو وعد من الله من قوله ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ القصص ٦١، أما ثواب الآخرة فقال الله فيه ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ و هذا لأن الثواب هو جزاء الأعمال، و الجزاء يكون في الدنيا و الآخرة، و قد يكون التأويل أن من يرد ثواب الآخرة نؤته منها في الآخرة فيكون على نفس النسق الدلالي عندما غاب الإتيان مع حرث الآخرة، لأن ثواب الدنيا لا بد له أن يكون في الدنيا و استصحابا يكون ثواب الآخرة لا بد أن يكون في الآخرة.

و قول الله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص ٧٧، قد يشير لثواب و

حرث الدنيا المباح إرادته بلا أن يطغى أو يوازي الدار الآخرة، فلكل إنسان نصيب من الدنيا فمن أراده فقط ناكرا الدار الآخرة فذاك الكافر المشرك الذي لا نصيب له في الآخرة، و من أراده يبتغي به الدار الآخرة و يتبلغ به لها فلا يفسد في الأرض و يحسن فيه فقد أحسن و سلم من المؤاخذة.

و الخلاصة أن إرادة حرث الدنيا كناية من إحدى الكنايات الدالة على كفر أو شك لهذا المريد بالآخرة أو على غلبة الشِقوة و النتيجة واحدة أنه يريد الحياة الدنيا فقط ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ النجم ٢٩ مع قوله ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ النازعات ٣٨ و ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾الأعلى ١٦، و حيث يخبرنا عن قولهم سبحانه و تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ المؤمنون ٣٧، ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ الأنعام ٢٩، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية ٢٤، و يقول عنهم ﴿إَنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يونس ٧، و ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ إبراهيم ٣، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ النحل ١٠٧، و إرادة حرث الآخرة كناية عن المؤمن، و قد تنوعت الإضافات التي ما بين الإرادة و الدنيا أو الآخرة، فوردت (يريد الدنيا – يريد الآخرة) و (يريد الحياة الدنيا) و (يريد العاجلة) و (يريد ثواب الدنيا – يريد ثواب الآخرة) و (يريد حرث الدنيا – يريد حرث الآخرة) و (يريدون عرض الدنيا).

- و لو أولنا الحرث بأنه العمل الأولي الأساسي الذي يتبعه أعمال أخرى المبتغى من وراء كل عمل منها فائدة معينة لأجل الحصول على فائدة كبرى و هي المحصول الذي يتمتع به، فمن يعمل هذه الأعمال و ينتظر منفعتها في حياته الدنيا لأنه لا يرى غيرها فيعمل فيها لها سيتركه الله للدنيا فهي دار عمله و جزائه و هي لا تجري على وفق الإرادات فلها مقادير و تقاسيم، فحرث الدنيا هي الأعمال التي تعطي منفعتها في الدنيا بمنظور الدنيا على ما يراه و يدركه مريد الدنيا فيها، و هذا محكوم بقوانين الدنيا بالأسباب و العلل و الشروط و الموانع، و لأنه لا يؤمن بالغيب فلا يرى ما وعده الله في الآخرة لو أراد حرثها، فلا تثيره هذه المنفعة و لا يعمل على مقتضاها من شروط و موانع لأنه لا يؤمن بها فلا تنفعل قواه و تصوراته وفقا لها.

فمن يحرث الأرض ليضع البذر فيها فهو ينتظر نبتها و زرعها في نفس الأرض و في نفس الموسم، لينتفع بها في حياته، فلا ينتظرها في أرض غيرها ممن يجاورها فضلا عن أن تكون بعيدة عنها فما بالك في أرض غير الأرض و سماء غير السماء، فمن يريد حرث الآخرة فهو يعمل في الدنيا و هو يعلم بأنه لن يرى منفعة في حياته الدنيا و هذا شديد على من لا يؤمن بالآخرة بل لا يستطيعه أصلا لأنه لن تتولد فيه همة و إرادة و عزم فضلا عن أن يكون عمل و فعل، ففاقد الشيء لا يعطيه

و سيكون تتبعنا لأقوال المفسرين في نوعية أعمال الكفار الحسنة التي يبتغون بها حرث الدنيا و هل لها جزاء في الدنيا أو في الآخرة؟ و هل في الآخرة لها دور في الموازين و الحساب أم لا؟ و أي فائدة تدل على أن أعمالهم الموافقة للفطرة و الشرع سواء قصدوا أم لم يقصدوا تسمى حسنة، و بتسميتها حسنة استوجبت ثوابا أو جزاء حال كونهم كافرين، و أن العمل الذي صورته

حسنة كاف في أن يتعلق به جزاء للكافر بالآخرة أو بالرسول فالأولى لمن يؤمن بالله و برسوله و بالآخرة.

- مقاتل بن سليمان: (**من كان يريد بعمله الحسن، حرث الآخرة... ومن كان من الفجار يريد بعمله حرث الدنيا يعني ثواب الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة يعني الجنة لهؤلاء الثلاثة من نصيب آية يعني من حظ ثم نسختها** [1]**:من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد الإسراء:١٨.)** [2]

- ابن قتيبة: (**وإنما أراد: من كان يريد بحرثه الآخرةَ، أي بعمله.نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ أي نضاعفْ له الحسناتِ.**

[1] ابن الجوزي يقول: (: أن الآيتين مُحكَمتان متَّفقتان في المعنى، لأنه لم يقل في هذه الآية: نؤته مُراده، فعُلِم أنه إنما يؤتيه الله ما أراد، وهذا موافق لقوله: «لِمَنْ نُرِيد»، ويحقِّق هذا أن لفظ الآيتين لفظ الخبر ومعناهما معنى الخبر، وذلك لا يدخُله النسخ، وهذا مذهب جماعة منهم قتادة.) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٦٣). و يقول ابن الفرس: (والقول بالنسخ في هذا وأشباهه بعيد، والصواب أنها محكمة.) أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٤٦٦). و يقول القرطبي بعد نقل قول ابن عباس بنسخها: (ثم نسخ ذلك في سبحان:من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد [الاسراء. ١٨]. والصواب أن هذا ليس بنسخ، لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عز وجل.) تفسير القرطبي (١٦/ ١٩).

[2] تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٧٦٨).

وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا أي أراد بعمله الدنيا آتيناه منها.) [(١)]

- الهواري: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ يعني العمل الصالح يرجو به ثواب الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وهو تضعيف الحسنات، في تفسير الحسن وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا أي: من الدنيا.... قال وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ يعني في الجنة مِن نَّصِيبٍ وهو المشرك، لا يريد إلا الدنيا، لا يريد الآخرة].) [(٢)]

- الطبري: (وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا يقول: ومن كان يريد بعمله الدنيا ولها يسعى لا للآخرة، نؤته منها ما قسمنا له منها.) [(٣)]

نلاحظ حتى الآن و سنلحق في الهامش كل من خصص نوعية العمل مع مريدي حرث الآخرة بأنه هو العمل الحسن أو الصالح، و عندما جاءوا إلى مريدي حرث الدنيا لم يزيدوا عن قولهم (عمله) بدون تمييز لنوعية هذا العمل [(٤)]، و من لزوم دلالة التقابل يكون التقدير بالنسبة

[(١)] غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٩٢).

[(٢)] تفسير الهواري (٣/ ٣٤٥، بترقيم الشاملة آليا). تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ١٦٦).

[(٣)] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢١/ ٥٢١).

[(٤)] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ١١٨ - ١١٩). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٢٣/ ٣٤٢). التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٤٩). الوجيز للواحدي (ص: ٩٦٤). تفسير السمعاني (٥/ ٧١ - ٧٢). تفسير البغوي - إحياء التراث (٤/ ١٤٢). تفسير ابن برجان (٥/ ٦٨). تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢١٨). تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٢). زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٦٣). تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٥٩١). تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ١٤١). تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٨٠). تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل

لمريدي حرث الدنيا أنه سيكون بعملهم الحسن أيضا، كما كان مريدي حرث الآخرة بعملهم الحسن، و بما أنهم لم يصرحوا فلن نتقول عليهم و لكن سنضعه كاحتمال تقديري فقط و الله أعلم.

- الزجاج: (جاء في التفسير أن معناه مَنْ كان يُرِيدُ عملِ الآخرة. فالمعْنَى - واللهّ أعلم - أنه من كان يريد جَزاءَ عمل الآخرة نزِدْ له في حرثه، أي نوفقه، ونضاعف له الحسنات.

ومن كان يُريدُ حرث الدنيا، أي مَنْ كَانَ إنما يقْصِدُ إلى الحظِّ من الدنيا وهو غير مؤمن بالآخرة نؤته من الدنيا أي نرزُقه من الدنيا لا أنه يُعطَى كل ما يريدُهُ وإذا لم يؤمن بالآخرة فلا نصيب له في الخير الذي يصل إليه من عمل الآخرة.) [1]

و قد لمس الزجاج التأويل القيم الذي يقتضيه النظم و السياق أن المراد من حرث الآخرة هو الجزاء، و أن موضع الزيادة يكون في الحسنات لأنه هي الدالة على قدر الجزاء في الآخرة،

(٣/ ٢٥١). تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٤٧). تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٩٧). البحر المحيط في التفسير (٩/ ٣٣١). تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ١٨١). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٧٢). تفسير الجلالين (ص: ٦٤١). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ١٥٦). تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٦٢). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ١٨٣). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٢٩). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٢٠٨). التفسير المظهري (٨/ ٣١٦). روح المعاني لمحمود الألوسي (٢٥/ ٢٧). تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٨/ ٣٦٢). هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (١٢/ ٢٥٥، بترقيم الشاملة آليا).

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٣٩٧).

فيرجع على الجزاء بالزيادة الذي هو حرث الآخرة، و كذلك فسر حرث الدنيا بأنه حظوظ الدنيا و هي موضع تعلق الإرادة، و يشعر تصديره ما جاء في التفسير أنه لا يرتضيه تفسيرا.

و الفائدة أنه جعل مع الكافر بالآخرة أنه لو له خير يقتضيه على عمل له كان من أعمال الآخرة أنه لن يصيبه لكفره بالآخرة، و هو تصريح ضمني أنه يجوز أن يقع من الكافر عمل حسن من أعمال حرث الآخرة و لكن كفره سيكون مانع من نوله هذا الخير في الآخرة.

- النحاس: (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها (آية ٢٠) في معناه ثلاثة أقوال: أ - منها أن المعنى نؤته منها ما نريد كما قال سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ب - ومنها أن يكون المعنى ندفع عنه من آفات الدنيا والقول الثالث أن المعنى: من كان يفعل الخير ليثنى عليه تركناه وذلك ولم يكن له في الآخرة نصيب) [1]

- الطبراني: (ومن كان يريد حرث الدنيا؛ أي ومن كان يريد بعمله نفع الدنيا من رزق أو محمدة، نؤته منها؛ ما نشاء على ما تقتضيه الحكمة، وما له في الآخرة من نصيب؛ من ثواب؛ "

---

[1] معاني القرآن للنحاس (٦/ ٣٠٦). الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٥٧٩ - ٦٥٨٠)، و زاد مكي: (وقيل نزلت في الغزو، والجهاد. والتقدير: من كان يريد بغزوه وجهاده الآخرة وثوابها نعطه ذلك ونزده، ومن كان يريد بذلك الغنيمة والكسب نزته منها، أي: نخلي بينه وبين ذلك. وكان النبي ﷺ لا يمنع المنافقين من أخذ الغنيمة ومن أجلها غزوا معه لا لله سبحانه. ففيهم (وفي أشباههم نزلت الآية) فتكون الآية على هذا القول مخصوصة.)، و كذلك قال الطوسي: (وقيل: إن الذي وعدهم الله به أن يؤتيهم من الدنيا إذا طلبوا حرث الدنيا هو ما جعل لهم من الغنيمة والفيء إذا قاتلوا مع المسلمين، لأنهم لا يمنعون ذلك مع إظهارهم الايمان لكن ليس لهم في الآخرة نصيب من الثواب.). التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٩/ ١٥١).

لأنه عمل لغير الله " [١]، قال السدي: (هذا المنافق، وكان رسول الله ﷺ يعطيه سهمه من الغنيمة). [٢]

- الكَرَجي القصَّاب: (إنما يستفزهم حرص الدنيا. فيريدون جمعها - لأنفسهم - بأي وجه اجتمعت لهم من خير، أو شر. كما قال الله - ها هنا -: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا)[٣]

- الماوردي: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ الآية. فيه وجهان: أحدهما: أن الله تعالى يعطي على نية الآخرة من شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا، قاله قتادة. الثاني: معناه من عمل للآخرة أعطاه الله بالحسنة عشر أمثالها، ومن عمل للدنيا لم يزد على من عمل لها.) [٤]

على هذا التأويل يمكننا القول أن أي عمل من أي إنسان إما أن يستوفيه كاملا في الدنيا فلا يبخس فيها و لكن ليس له في الآخرة من نصيب، و أن يستوفيه في الدنيا كاملا بلا بخس و لكن يزيده الله منه من أجل إرادته حرث الآخرة، فيكون على كلا الحالين كل عمل حسن أي ظاهره الموافقة الشرعية، بدون اعتبار لنية و إرادة العامل بعمله هل الدنيا أم الآخرة، يجازي عليه الله في الدنيا فيوفي صاحبه بلا بخس، و عليه فهذا العمل معتبر شرعا بالنسبة للمؤمنين

---

[١] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٢٤١). تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ١٢١، بترقيم الشاملة آليا).

[٢] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني. الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٥٧٩ - ٦٥٨٠).

[٣] النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٤/ ٩٦).

[٤] تفسير الماوردي = النكت والعيون (٥/ ٢٠١).

تجاه هذا العمل و عامله، مع اعتبار أنه قد يكون مشرك أو كافر أو منافق أو مرائي أو مؤمن، فلا فرق بينهم بالنسبة لصحة اعتبار العمل و اقراره.

- القرطبي: ((وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل:من كان يريد حرث الآخرة من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرةنزد له في حرثه أي في حسناته.ومن كان يريد حرث الدنيا أي من كان من الفجار يريد بعمله الحسن الدنيانؤته منها))[1]

- الأعقم: (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها أي نزد له بعمله، أي نعطيه رزقه ما قسم له من الدنيا، وقيل: من جاهد مع المؤمنين وطلب الغنائم يعطى من الغنائم ولا نصيب له في الثواب، وقيل: أراد بذلك المنافقين، وقيل: أراد الجهاد وسائر العبادات وما له في الآخرة من نصيب أي لا حظّ له في الآخرة) [2]

- القونوي: (قوله: (إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى) أشار به إلى أن المعنى من كان يريد بعمله الصالح، ولما كان إرادته مقصورة على متاع الدنيا وزخارفها لم يكن له بسبب ذلك العمل حظ من ثواب الآخرة، وإن كان هذا على الاستمرار كما يدل عليه جمع الماضي مع المضارع فلا حظ له من ثواب الآخرة أصلا، وإن كان في بعض الأحيان فلا نصيب له من ثواب العمل الذي أريد به حرث الدنيا، وأيضا إن الذي أريد به الدنيا لو كلي غالبا لحبط عمله

---

[1] تفسير القرطبي (١٦/ ١٩).

[2] تفسير الأعقم - زيدي (٢/ ١٢١، بترقيم الشاملة آليا).

وإلا فينقص ولا يحبط، وهذا غير ما ذكر في سورة الإسراء؛ إذ المراد هناك من كان همه مقصورا على الدنيا وتحصيلها بأن لا يعمل أصلا أو يعمل ويقصد به الدنيا وهنا المراد من كان يريد بالأعمال الخ.

ثم القول الأولى الاقتصار على ذكر الشطر الثاني من الحديث؛ إذ لا دلالة لصدره على المعنى الآية إلا على مذهب الحنفية الخ. ضعيف فإن المعنى إذ الأعمال أي صحة الأعمال فإذا نوى بعمله متاع الدنيا لم يصح فلا يكون له فيها نصيب على ما ذكره الشافعية أيضا.)[١]

تفصيل جيد مبناه على أن هناك عاملين للأعمال الموافقة للشرع، واحد لا يعملها إلا قاصدا الدنيا فقط، و الثاني يعملها صحيحة و لكن يقصد بها ثوابها في الدنيا، فالأول عمله حابط لأنه لا يريد إلا الدنيا فقط فغالبا لا يعمل للآخرة إطلاقا و إذا عمل فللدنيا فقط، و الثاني كل ما عمله للدنيا فهو حابط لأنه لا يجازى عليه في الآخرة، و إذا كان بعضها للآخرة أو هو الغالب على العمل فيكون له حظ في الآخرة منقوص، و هذا التأويل يتوافق مع مسألتنا فمن عمل صالحا محقق الشروط الثلاثة (مريد ثواب الآخرة – موافقا للشرع – خالصا لله) فقد استوجب الثواب، أما حصول الثواب في الآخرة على صورته التي وضعها الله فلن تكون إلا لمن مات على الإسلام لأنه سيدخل الجنة فيرى ثواب أعماله هناك، أما الذي مات مشركا فتقتصر المنفعة في الحساب و الموازنة و الميزان.

---

[١] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٧/ ٢٢٤). حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٧/ ٤١٦).

- الصاوي: (وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا إلخ، أي بعمله وخدمته، والمعنى: من صرف نيته للدنيا، وجعل عمله وخدمته لها، نعطيه ما قسم له منها، وبعد ذلك ليس له في الآخرة حظ ولا نصيب،....

قوله: وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ أي حظ من النعيم، واعلم أن المقام فيه تفصيل، فإن تجرد عمله للدنيا، وقدم السعي فيها على الإيمان، فهو مخلد في النار، وليس له في الآخرة نعيم أصلاً، وأما إن كان التفريط فيما عدا الإيمان، كأن يرائي بعمله قصداً لطلب الدنيا، فهم مسلم عاص، له نعيم في الآخرة غير كامل.) [١]

فالعمل الذي راءى فيه المسلم قد أنقصه من ثواب الآخرة و هو من الأعمال التي صورتها حسنة و شرعية، و عليه فالذي أراد حرث الدنيا فقط و لم يكن له في الآخرة نصيب بالتأكيد كانت له بعض الأعمال التي صورتها حسنة و شرعية أراد بها الدنيا، فكما وقعت من المسلم على ظاهر أمرها مع أنها حابطة فكذلك ما يقع من الكافر الحقيقي من صور الأعمال الصالحة ما دام الحبط لا يعود على العمل الذي وقع في الدنيا بالفساد.

- الشوكاني: (قال القشيري: والظاهر أن الآية في الكافر، وهو تخصيص بغير مخصص. ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة فقال: وما له في الآخرة من نصيب لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها.) [٢]

---

[١] حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٧١٦، بترقيم الشاملة آليا).

[٢] فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦١١). فتح البيان في مقاصد القرآن (١٢/ ٢٩٣).

و قول الشوكاني تعليقا على قول القشيري بأن ظاهر الآية في الكافر أنه تخصيص بدون دليل مخصص لها، فبهذا فهو يراها عامة لكل من المؤمن و الكافر أي المؤمن و المنافق و المرائي و الكافر، و بهذا فالآية مقيدة بالعمل و ما يصحبه من إرادة هل هي لحرث الدنيا أم لحرث الآخرة، و بالبداهة لن يقع من كافر بالآخرة و بالحساب أن يريد بعمله حرث الآخرة فهذا تناقض و لا يتصوره عقل، فإذا أراد بعمله حرث الآخرة و ثوابها فهو مؤمن بالآخرة و بثوابها و لذلك عمل هذا العمل لأجل الانتفاع بثوابه في الآخرة.

و الشاهد أن من عمل عملا لحرث الآخرة فهو مؤمن بالآخرة لا محالة، في حين أنه كافر بجزئية أخرى من الدين فيجب على ظاهر هذه الآية أن يزد الله له في حرثه بالنسبة لهذا العمل، و كذلك لو مؤمن بالآخرة عمل عملا لحرث الدنيا فقد حُرم نصيب هذا العمل في الآخرة، و بهذا فالآية خاصة بالأعمال و ثوابها في الدنيا و الآخرة بغض النظر عن دين العامل.

الآية رقم ٤

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]

* في الآية دلالة صريحة أنه من جملة الناس من يدعي الله بأن يمتعه في الدنيا من شتى الأنواع و الأجناس، و حال هذا الداع أنه ليس له في الآخرة من خلاق، فقد يكون سبب هذا أنه لا يؤمن بالآخرة أو أن همه كله مقتصر على الحياة الدنيا فقط، و هذه الناس نوع من المشركين الذين يؤمنون بالله ربا و رازقا و يتوجهون له بالدعاء و بعض العبادات كالحج و العمرة من أجل الصحة و السلامة و الأمن في الدنيا لأن هذا مبلغ علمهم و مقتضى إيمانهم.

و القرينة هنا دالة على أن توسلهم إلى الله بالدعاء و بالحج و بالعمرة و ما فيهما من مناسك كالهدي و القلائد، و هذا صريح في هذه الآية و غيرها، أي أنها أعمال حسنة، و يريدون ثوابها من الله في العاجلة أي يريدون ثواب الدنيا و حرث الدنيا كما هو مفصل في آيات أخرى.

و قد سُمي عمل مناسكهم و دعاؤهم و ذكرهم الله كسبا و أنه اقتضى لهم نصيبا و هذا من سرعة حسابهم مع الله، أي أن أعمالهم هذه اعتبرت و قُبلت في حيثية الحساب بأن ينالوا منها في حياتهم الدنيا، و الشاهد أنها وقعت منهم على هذه الحال موقع الجزاء عليها من جنسها، فالإنسان لا يطلب إلا حسنا و نافعا.

و يتضح من ذكر اسم (الحسنة) مرة في الدنيا و مرة في الآخرة مقابل عدم ذكرها لمن يطلب الدنيا فقط أن الأعمال الحسنة المراد بها ثواب الآخرة هي التي تسمى حسنات، فقد يكون مدلول الحسن مقتصر على نوعية الأعمال الصحيحة التامة أي مكتملة الشروط الثلاثة: (موافقة الشرع و الإخلاص و إرادة الآخرة)، و أن هذه الأعمال لها ثوابين: في الدنيا و الآخرة، أما التي أريد بها الحياة الدنيا فقط فهي لا تستحق إلا ثوابا واحدا يقع في الدنيا و يستهلك فلا يتعلق به في الآخرة نصيبا و لا خلاقا فلا يسمى حسنة.

و قول الله ﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ثم قوله وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ دلالة على أن الحديث عائد على الذي﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، فدلالة سرعة الحساب مع وعدهم الإتيان في الدنيا يدل و بقوة أنهم لا يؤمنون بالآخرة و يتأكد ذلك بدلالة المقابلة بين الذين يدعون للدنيا و الآخرة و بين الذين لا يدعون إلا للدنيا فقط، و أيضا بدلالة قول ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾يدل بالمقابلة على أن المسرع لهم الحساب فيأتيهم نصيب مما كسبوا في الدنيا التي أنهم لا يؤمنون إلا بها، لأنهم لو يؤمنوا بالآخرة و بالحساب و الجزاء بالنار لبادروا بالدعاء لله أن يقيهم منها لأنهم عائدون إلى الله بعد الموت لا محالة.

و لا يمنع من أن الآيات قد استوعبت المشركين و الكفار في بعض عقائدهم و أعمالهم في الدنيا و مصيرهم في الآخرة أن لا يدخل تحتها الذين آمنوا، فنجعل الإيمان العام مانع و عاصم من دلالة الآيات على بعض أعمالهم، فمن كان بعض أعماله تتجه إرادتها على الدنيا فقط و تعجل ثوابها في حياته الدنيا فإن عمله هذا لا يكون له في الآخرة نصيب و لا خلاق.

و في هذه الآيات سياق بعض أعمال الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق و هو الحج و مناسكه و الدعاء أي ذكر الله، و أن هذه الأعمال هي من كسبهم، و أن الله لما وعد بإتيانهم نصيب مما كسبوا فهذا يشير بكونه جزاء عن كسبهم، و أن ما طلبوه من الله في الدنيا و إن لم يذكر و لكنه من الوضوح بمكان لأن يدركه أي إنسان، و لكنه محقق لوصف الحسن بدلالة المقابلة بالفريق الآخر، فيلزم أن يكون هو في نفسه محققا لوصف الحسن أي نستطيع القول أنها أعمال حسنة التي سيؤتون نصيبا مما كسبوه بها، فالأعمال الحسنة لها جزاء حسن، و عليه فأعمالهم معتبرة و مقبولة في نطاق مؤمنيها بالدنيا فقط، فلم يبطلها كونهم لا يؤمنون بالآخرة، بل لم يبطل جزاؤها كونهم لا يؤمنون بالآخرة، بل لم يبطل إتيانهم نصيب مما كسبوها كما وعدهم الله.

و هذه الآيات تتميز بأن موطن استحقاق الجزاء فيها هو سوقها لأجل مما كسبوا من أعمال، و هذا مغاير لما قسمه الله لهم في معيشتهم أو نصيبهم من الدنيا من الأرزاق لأن هذا النصيب و القدر و الرزق مكفول لأي إنسان لأنه من لطف الله بعباده و فيض ربوبيته و مقتضى حكمته لتوقيع التكليف و الجزاء، و عليه يكون الجزاء على أعمالهم الحسنة بالحسنات في الدنيا قدر زائد نالوه بمقتضى الحساب الإلهي و نالوه في الدنيا لسرعة حسابه لهم و تحقيقا لقوله بأنهم لا خلاق لهم في الآخرة.

و بنفس هذا المعنى (آية البقرة ٢٠٢) تكون آية هود ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ هود ١٥، و يكون تفسير قوله (أعمالهم) بـ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ و موضحة لنوعية هذا الكسب (أعمالهم) كما ذكر في سياق الحج و المناسك و الدعاء أي الأعمال الحسنة.

و لو استعملنا قرينة نفي (الخلاق) في الآخرة من قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ الآتية من موارد دلالية أخرى ذكر فيها نفي الخلاق فستكون قرينة قوية على أن المراد بهم الكافرين و المشركين.

و من القرائن القوية أن الله فرع على صفة الإنسانية (من الناس) و هي أعم من كون أحدهم مؤمنا أو كافرا، أي أن الدعاء و أداء الحج و المناسك (و قياسا على غيرها من العبادات) جائزة الوقوع و الاعتبار من أي إنسان لو موافقة للشرع و خالصة لله، ثم يتفرع الجزاء و الثواب عليها على حسب إيمان العامل بالدنيا و بالآخرة، فمن اقتصر على الدنيا و تعجل ثوابها فله نصيب من أعماله فيها و ليس له في الآخرة من نصيب أو خلاق.

و بإبهام كلا الفريقين فلم يخصص بصفة أو اسم كالمؤمنين أو الذين آمنوا أو الكافرين أو الذين كفروا أو أشركوا أو ما شابه ذلك، فاكتفي في البيان أن الله بَعَّضَهُم من الناس فمرة يقول فمن الناس و ومنهم أي علق مناطات الجزاء و المدح على الأفعال و الأقوال و الاعتقادات، فإذا وقع من آحاد الناس دعاء بأن يأتيه الله في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و أن يقيه الله عذاب النار، فيجب أن ننظر لقوله و فعله بدون النظر لتعليل الأحكام بأسماء الفاعل المشتقة من الدين، فلا نقول هذا قول مؤمن أم كافر؟ بل نقول أن هذا عمل معتبر شرعا و له تبعاته من الاستحقاق الجزائي تقع على وفق إيمانه و كفره بالآخرة، و لا يلزمنا معرفة ذلك في ما كلفنا الله به تجاه هذه الأعمال من التعاون عليها و اعتبارها من عامليها فيتعلق بها الأحكام التي أناطها الله بها في كتابه و فقط.

و الشاهد بما أنه لا يوجد تخصيص أو قيد يعين و يحدد نوعية العاملين بأسمائهم (كافر أو مشرك – مؤمن أو مسلم) و اكتفي بذكر المدعو به بالدعاء مقيد بقرينة إيمانهم بالدنيا أو بالدنيا و الآخرة يدل على أن صفة الإنسانية هي المناط لتعلق الأعمال و الجزاء عليها، لأن السياق و الدلالة العامة مشعرة و بقوة أن توقع تبادل الأدوار جائز و مكفول بصفة الإنسانية فلذلك لم تقيد أو تخصص، فقد يعمل المشرك أو الكافر بعمل المؤمن، و العكس كذلك صحيح، أي الذي يجب أن يشغلنا هو العمل و مدى صحته و ما يترتب عليه من أحكام بالنسبة لنا كمسلمين تجاه هذه الأعمال، و لا نعلق هذه التبعات الشرعية بالنسبة لنا مع هذه الأعمال على معرفة هل سيثابون عليها أم لا، و هل يثابون عليها في الدنيا أم في الآخرة؟

* من الثابت المقرر أن ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ قد قضى مناسك الحج و عند ذكر الله يدعوه وحده لأجل الدنيا ثم يكون وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ تشير لأنه لا يدعوا بها في الآخرة أو لأنه سيمت على الشرك و الكفر، أو لأن جزاء عمله بالحج و بالدعاء قد استوفاه مقابل ما سيناله في الدنيا.

أن العلة أو السبب في أنه لا خلاق له في الآخرة لم يكن كونه مشركا أو كافرا نصا بل لأنه لا يريد الآخرة بعمله بل يريد الدنيا، و هذا القدر يخرجه من دائرة اشتباه الرياء لأنه يدعوا الله و يتوسل إليه بعمله الصالح فهو منتظر الجزاء من الله، أي أنه يعمل للدنيا و لكن بطلب المنفعة من الله و ليس من الناس.

و لكل عمل صالح ثوابين، إحداهما في الدنيا و الآخر في الآخرة، فمن اقتصر على ثواب الدنيا يؤتيه الله منها و ليس له في الآخرة من نصيب لأنه استهلك نصيبه في الدنيا على قدر إيمانه بها،

و من يطلب الثوابين فعند الله ثواب الدنيا و الآخرة، و الثواب القابل للزيادة و التضاعف هو ثواب الآخرة فقط على العمل الذي يراد به الآخرة، أي الذي يمنع ثواب الآخرة على العمل الصالح هو عدم الإيمان بها.

فالله سبحانه و تعالى يعامل العبد العامل للعمل الصالح على قدر إيمانه به، فالذي يؤمن به ربا و إلها في الدنيا دون الآخرة لأنه كافر بالآخرة يعامله فيها فيوفيه كل أعماله فيها بدون أن يبخسه شيئا، مع أنه لو منع من العطاء و الرزق و الثواب لكان على قدر حكمتنا أجزى له و أدعى لأن يعلم أن الله هو إله و رب الدنيا و الآخرة، فعندما كفر به في الآخرة منعه من الدنيا فيعلم أنه إله و رب الدنيا و الآخرة و أنه رب و إله واحد، و لكن من حكمة الله و لطفه و رحمته بعباده لا يكفره عمله الصالح في الدنيا على قدر إيمان العامل لدار الجزاء.

فإذا كان هذا جزاء المشرك و الكافر بالآخرة على عمله الصالح فما هو جزاء المشرك أو الكافر على عمله الصالح لو كان مؤمنا بالآخرة و يريد ثواب و حرث الآخرة، فهذا مكفول و محفوظ له حسناته و مضاعفتها في الآخرة و لكن مع الشرك لن تنفع في درء النار عنه و لن تستوجب له الجنة لأن الله حرمها على المشركين.

النفي كان على الخلاق في الآخرة خاصة أن موضعه كنتيجة أو مسبب عن قصر إتيانهم الدنيوي فقط فهذا يشير على أنهم يستوفوا نصيبهم كاملا في الدنيا بحيث أنه لن يبقى لهم أي نصيب في الآخرة لهذا العمل، أما الذين طلبوا حسنة في الدنيا و حسنة في الآخرة على العمل فإنهم لهم نصيبهم مما كسبوا يعطى لهم في الدنيا و الأخر يكون في الآخرة، و لذلك كان التعبير موحي بتجزيء استيفاء النصيب فالذي في الدنيا لأنها محل التقابل ما بين الفريقين، فأظهر الله أنهم لن

يكون لهم نصيب أو خلاق في الآخرة، فيكون الفريق الثاني له نصيب في الآخرة كما أعطاه نصيب في الدنيا، فيظهر فضل و مكسب فريق الدنيا و الآخرة بتفاضله بنصيب و خلاق الآخرة مع أنه نفس العمل في الظاهر بالجوارح بينهم و كأنه راس مال واحد و اختلفت مكاسبه و أرباحه بين الفريقين.

- مجاهد: (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا يعني: «نصرا ورزقا، ولا يسأل لآخرته شيئا») [١]

- مقاتل: (فإذا قضيتم مناسككم بعد أيام التشريق فاذكروا الله كذكركم آباءكم "وذلك أنهم كانوا إذا فرغوا من المناسك وقفوا بين مسجد منى وبين الجبل يذكر كل واحد منهم أباه ومحاسنه، ويذكر صنائعه في الجاهلية وأنه كان من أمره كذا وكذا، ويدعو له بالخير،...، وكانوا إذا قضوا مناسكهم قالوا: اللهم أكثر أموالنا، وأبناءنا، ومواشينا، وأطل بقاءنا، وأنزل علينا الغيث، وأنبت لنا المرعى، وأصحبنا في سفرنا، وأعطنا الظفر على عدونا، ولا يسألون ربهم

---

[١] تفسير مجاهد (ص: ٢٣٠).

عن أمر آخرتهم شيئا، فأنزل الله تعالى فيهم: فمن الناس من يقول ربنا آتنا، يعني أعطنا في الدنيا، يعني هذا الذي ذكر" [1]، فقال سبحانه وما له في الآخرة من خلاق يعني من نصيب، نظيرها في براءة فاستمتعوا بخلاقهم (التوبة: ٦٩) يعني بنصيبهم، فهؤلاء مشركو العرب.

فلما أسلموا وحجوا دعوا ربهم، فقال سبحانه: ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ...) [2]

و هذا فيه الدليل على أن المشركين يؤدوا مناسك الحج، و يدعوا الله وحده، و أن التوبيخ عليهم لم يكن لأنهم يدعون الله و يطلبون منه مسألة الدنيا، و لا لأن هذا دعاء من مشرك، بل محل التوبيخ هو دعاؤهم الدنيا دون الآخرة فإنهم غافلون عن الآخرة، و إن كانت الآية هنا لم تبلغنا بما يفعله الله لهم على دعائهم و سبب الاستجابة هل هو مجرد أنهم عباده فدعوه، أم مسبب ببعض أعمالهم الحسنة فيوفون عليها في الدنيا و لا يبخسون منها شيئا، و كما سبق في تحقيق استجابة الدعاء فإنها تكون من خلال مقام العبودية من العبد و الربوبية و الألوهية و الملوكية من الله، ثم المدعو به سيكون عرضة للمشيئة الإلهية.

و الشاهد أن الله يستجب دعاؤهم لأن الدعاء عبادة و طاعة لله و ليس في الآية رد دعاؤهم أو عدم قبوله منهم، و من باب آخر عملهم الحسن الذي هو قصدهم بالحج طاعة الله يوفون عليه

---

[1] معاني القرآن للفراء (١/ ١٢٢).

[2] تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ١٧٥ - ١٧٦). و عن قتادة في شأن ذكر الآباء في تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (١/ ٢٣٢). و انظر أيضا غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٧٩). تفسير الهواري (توفي في النصف الثاني من ق ٣ هـ) (١/ ٩٠، بترقيم الشاملة آليا). تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤/ ٢٠١ - ٢٠٢).

في الدنيا ما داموا لا يؤمنون بالآخرة [(١)].

- الهواري: (﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وهم المشركون، ليس لهم هِمَّة إلا الدنيا. لا يسألون الله شيئاً إلا لها، ولا يدعونه أن يصرف عنهم سوءاً إلا لها، وذلك لأنهم لا يُقِرّون بالآخرة، ولا يؤمنون بها.) [(٢)]

- الطبري: (...: قال ابن زيد في قوله: فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، قال كانوا أصنافًا ثلاثة في تلك المواطن يومئذ: رسول الله ﷺ، وأهلُ الكفر، وأهلُ

[(١)] قال ابن قتيبة: (﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي لهم نصيب من حجهم بالثواب.) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٨٠)، و لكن لا نعلم على من يعود كلامه، و الشاهد أن الحج عمل له ثواب و لا مانع ان يكون من مشرك ما دام وقع صحيحا.

[(٢)] تفسير الهواري (١/ ٩٠، بترقيم الشاملة آليا) و هذا مروي عن ابن عباس رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره١/ ٣٥٧، وهو مروي عن أنس ومجاهد وقتادة والسدي وأبي وائل وأبي بكر بن عياش، وابن زيد ومقاتل بن حيان. ينظر: تفسير الطبري(٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩). معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٢٧٤). تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ١٣٤). تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ٢١١). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٥/ ٢٢٦). الهداية الى بلوغ النهاية (١/ ٦٧٠). التفسير البسيط (٤/ ٦٠ - ٦١). درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر (١/ ٣٠٣). تفسير السمعاني (١/ ٢٠٤). تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٢٤). تفسير البغوي - إحياء التراث (١/ ٢٥٧). تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٧٦). تفسير القرطبي (٢/ ٤٣٢). تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١١٦). تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ١٣٣). تفسير الجلالين (ص: ٤٢-٤٣). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١/ ٤٢٤). فتح الرحمن في تفسير القرآن (١/ ٢٨٦). السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ١٣٣). روح البيان (١/ ٣١٩). التفسير المظهري (١/ ٢٤٠). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٥٣، بترقيم الشاملة آليا).

النفاق. فمن الناس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خَلاق إنما حجوا للدنيا والمسألة، لا يريدون الآخرة، ولا يؤمنون بها ومنهم من يقول: ربنا آتنا في الدنيا حَسنة، الآية قال: والصنف الثالث: ومنَ الناس مَن يُعجبك قوله في الحياة الدنيا الآية.)[1]

و قال أيضا: (وأما قوله: والله سريع الحساب، فإنه يعني جل ثناؤه: أنه محيط بعمل الفريقين كليهما اللذين من مسألة أحدهما:رَبنا آتنا في الدنيا، ومن مسألة الآخر:ربنا آتنا في الدنيا حَسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فَمُحْصٍ له بأسرع الحساب، ثم إنه مجازٍ كلا الفريقين على عمله.[2]

... لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يَعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ثم هو مُجازٍ عبادَه على كل ذلك.) [3]

بعد الوضوح و الجلاء من الطبري سواء من تفسيره أو بمن استشهد بهم: أنهم منافقون و مشركون و كافرون بالآخرة أي الذين يسألون الدنيا فقط بدعائهم بعد قضاء الحج و المناسك، و لزيادة الوضوح نصيغ المعنى في الألفاظ الآتية: أن الله يعتب على الكفار و المشركين و المنافقين مخبرا عنهم أنهم يطلبون بحجهم و مناسكهم و دعائهم الله وحده الدنيا و زينتها و لا يلتفتون لما في الآخرة من حسنات و ثواب لكونهم شاكين أو كافرين بالآخرة، فمثل هؤلاء الكفار و المشركين و المنافقين ليس لهم على أعمالهم الحسنة هذه أي نصيب أو خلاق في الآخرة، و

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤/ ٢٠٢).

[2] الهداية الى بلوغ النهاية (١/ ٦٧١).

[3] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤/ ٢٠٧).

سيأتيهم الله نصيبهم في الدنيا كما آمنوا بها فقط غير منقوص و لا مبخوس، لأن الله له الدنيا و الآخرة و عنده ثواب الدنيا و ثواب الآخرة، و قدر ثواب الدنيا يختلف عن قدر ثواب الآخرة لو كانوا يعلمون، لتفاوت قدر الدارين فلذلك حق عليهم وصفهم بالأخسرين أعمالا، أما الذي يكد و يشقى بأعماله لكسب متاع الدنيا حال كونه كافرا بالآخرة فلن يأخذ أكثر مما قدره الله له و ذلك حق عليه وصفه بمن خسر الدنيا و الآخرة.

و قد أختار الطبري أن يعمم معنى الحسنة (لأن الله عز وجل لم يخصص بقوله - مخبرًا عن قائل ذلك- من معاني الحسنة شيئًا، ولا نصب على خُصوصه دلالة دالَّةً على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فالواجب من القول فيه ما قلنا: من أنه لا يجوز أن يُخَصّ من معاني ذلك شيء، وأن يحكم له بعمومه على ما عَمَّه الله.). [ج٤ ص ٢٠٦]

و بنفس هذه المنهجية التأويلية و ما تشتمل عليه من احتياط و التزاما بظاهر الألفاظ و السياق نقول نحن أيضا في دلالة كلمة الناس البعض لمن يريد الدنيا و البعض لمن يريد الدنيا و الآخرة، و لأن الله لم يخصص من الناس بعضهم بذكر وصفهم (مؤمن أو كافر) فسنحتاط و نلتزم الظاهر و نقول أن هناك نوعين من الناس تبعضوا عن بعضهم بما وجب لكل بعض منهم بصفات تستوجب ذلك، و كان المناط أو العلة التي اقتضت التقسيم أن بعضهم يريد الدنيا و ليس له في الآخرة من خلاق، و بعضهم يريد في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و يدعوا الله أن يقيه النار، و بهذا لن ننسب أيا منهم للإيمان أو الكفر أو النفاق، بل سنتعامل مع العمل و إرادته به، فمن ابتغى به الدنيا فليس له في الآخرة من خلاق، و من يبتغي به الدنيا و الآخرة و التقاة من النار، و من اكتسب بعمله الدنيا فلن يكون له في الآخرة من خلاق، و من اكتسب بعمله

الدنيا و الآخرة فسيكون له في الدنيا و الآخرة.

فقد علق الله الجزاء و الثواب على العمل و إرادة عامله به من الناس، و لم يُرجع أيا من الثواب أو الجزاء على اسم فاعله أو دينه، بل على العمل فقط يكون القبول و استحقاق الجزاء، ثم على عقيدة العامل المتوقعة منه الجزاء و الثواب يكون قدر ثوابه و محله أي ظرفي المكان و الزمان، و لو كان قبول أو رد الأعمال مناط بأسماء فاعليها (مؤمن و كافر) فما فائدة ذكر تفاصيل وصفية لهذه الأعمال على المستوى الشرعي الظاهري و القلبي.

ثم أختار الطبري أن أُولَئِكَ في قوله أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ عائدة على القائلين رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ و أنهم هم المؤمنون و لم يعلل اختياره، فقال:

(يعني بقوله جل ثناؤه: أولئك الذين يقولون بعد قضاء مناسكهم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وَقِنا عذاب النار، رغبةً منهم إلى الله جل ثناؤه فيما عنده، وعلمًا منهم بأن الخيرَ كله من عنده، وأن الفضل بيده يؤتيه من يَشاء. فأعلم جل ثناؤه أنّ لهم نصيبًا وحظًّا من حجِّهم ومناسكهم، وثوابًا جزيلا على عملهم الذي كسبوه، وبَاشروا معاناته بأموالهم وأنفسهم، خاصًّا ذلك لهم دون الفريق الآخر، الذين عانوا ما عانوا من نَصَب أعمالهم وتعبها، وتكلَّفوا ما تكلفوا من أسفارهم، بغير رغبةٍ منهم فيما عند رَبهم من الأجر والثواب، ولكن رجاء خسيس من عَرض الدنيا، وابتغاء عَاجل حُطامها.) ج ٤ ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

و الظاهر أنه اعتبر إرادتهم بأعمالهم الدنيا هو المخصص لإنالة العاملين نصيبا مما كسبوا، و لا أعلم على ماذا خصصها للمؤمنين فقط مع أن الله لم ينص على هذا، فلم يذكر المؤمنون في سياق هذه الأعمال لا تعليقا و لا تضمينا بل جعل هذا الفريق بعض الناس فقط، ثم إرادة الدنيا بالأعمال الحسنة لا تدل على إبطالها بل كل ما تفيده تعجيل ثوابه في الدنيا و انتفاء ثوابه في الآخرة كما في الآيات الأخرى، غير أن السياق و أماراته تدل على عكس ذلك فمناسبة سرعة الحساب و إيفاء النصيب كجزاء على الأعمال يناسب غير المؤمنين أكثر من المؤمنين، و عليه فالآية عامة تعم كل الأعمال لكل الناس، في الدنيا و الآخرة و لذلك ناسب ذكر السرعة فدلالتها أن إرادة العامل بعمله غير منتظر حسابها في الآخرة فقط بل يتم حسابها و تقديرها آنيا للعامل الذي يريد ثوابه في الدنيا.

و الطبري نفسه قال أن الله محص أعمال عباده كلها أي الفريقين الذين دعوا في حجهم و أنه مجاز كلا الفريقين على مقتضى علمه لأعمالهم، و فريق الدنيا قد دعا الله وحده بأن يعطيه ما في الدنيا بعد فراغه من الحج و المناسك، و ما هو المتوقع من جزاء على هذه العبادات و الطاعات أعني دعاء الله مخلصا له، و حجه و مناسكه له، فكيف يكون الجزاء على مثل هذه الأعمال؟!، فلا بد أن يكون الجزاء من جنس العمل و بمقتضى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝١٦﴾ [هود: ١٥-١٦].

* الماتريدي: (الآية في قوم لا يؤمنون بالبعث والإحياء بعد الموت، طلبوا خيرات الدنيا، ولم يطلبوا الخيرات في الآخرة، فأعطوا ما سألوا من حسنات الدنيا، وهو كقوله: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، فأعطوا ما سألوا من نصيب) (١)

و إن كان الله قد استجاب لهم بالدعاء و هو عبادة، فكذلك حجهم و هو عبادة أيضا، و الشاهد أنهم يجازوا على حسناتهم في الدنيا، و من فوائد تأويل الماتريدي أنه استعمل موضع حرمانهم من نصيب الآخرة ليثبته لهم في الدنيا، و بذلك يدخلوا في دلالة قوله تعالى أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب و من ضمن مكاسبهم دعاؤهم و حجهم و مناسكهم فهي التي جعلت لهم نصيبا في الدنيا و أن ذلك من جملة حسابهم.

* الطبراني: (نزلت في مشركي قريش...، كانوا لا يرجون إلا نعيم الدنيا، ولا يخافون البعث والنشور. فبين الله تعالى بقوله: وما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب ولا ثواب.

والمعنى: من يطلب بحجه أمور الدنيا لا يريد بذلك ثواب الله تعالى، فلا نصيب له في ثواب الآخرة.) (٢)

- الطوسي: (والخلاق: النصيب من الخير، وأصله التقدير، فهو النصيب من الخير على وجه الاستحقاق.

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٢/ ٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

النصيب: الحظ، وجمعه أنصباء وأنصبة. وحد النصيب الجزء الذي يختص به البعض من خير أو شر.

والكسب: الفعل الذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر. وقوله تعالى: والله سريع الحساب يعني في العدل من غير حاجة إلى خط ولا عقد، لأنه (عزوجل) عالم به. وإنما يحاسب العبد مظاهرة في العدل، وإحالة على ما يوجبه الفعل من خير أو شر.)[١]

و تعريفات هذه الكلمات من الطوسي يرسم و بدقة تأويل الآية و نحن مستعملوه: نفي الخلاق عن المشركين في الآخرة على أعمالهم الحسنة يلزم منه استحقاقهم الخير كجزاء على أعمالهم و بما أنهم أخذوه في الدنيا و هم كافرون بالآخرة فليس لهم خير ينالونه بوجه الاستحقاق في الآخرة، و أن سبب هذا الاستحقاق هو كسبهم لهذه الأعمال، و بهذا فالصورة واضحة لأعمال الكفار و المشركين الحسنة أنها تستحق جزاء خير عليها في الدنيا التي لا يؤمنون إلا بها، فيأخذون مما كسبوه بهذه الأعمال نصيبا من الخير في الدنيا و يمنع عنهم في الآخرة و هذا هو نفي الخلاق عنهم في الآخرة. و لو كان نفي النصيب و الخلاق مطلقا لم يكن ليأتي النفي مقيدا بالآخرة فقط.

- الواحدي: (وقال ابن الأنباري: معناه: سريع المجازاة للعباد على أعمالهم، وإن/ كان قد أمهلهم مدة من الدهر، فإن وقت الجزاء عنده قريب[٢]،...، فسَمَّى المجازاةَ حسابًا؛ لأن ما

---

[١] التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٢/ ١٧٢، بترقيم الشاملة آليا).

[٢] الزاهر لابن الأنباري ١/ ٩٧ - ٩٨، وينظر: الوسيط للواحدي ١/ ٣٠٨، البحر المحيط ٢/ ١٠٦.

يجازى به العبد هو كِفَاء لفعله، أو لأنه يجازى عند الحساب، وإنما يحاسب ليجازي، فذكر الحساب وهو يريد الجزاء.

"وقيل: "تأويل الآية: أنه سريع القبول لدعاء عباده، والإجابة لهم،...، فيجزي كلَّ عَبْدٍ على قدر استحقاقه،...، ثم تأويله يعود إلى سرعة القبول والإجابة " [1]....)[2]

لو اتَّبَعْنا التفسير فقط أي معاني الكلمات و تراكيبها مع غيرها لما تدل عليه بمعونة السياق الوارد فيه هذه التراكيب و المفردات مع السياقات الأخرى القرآنية بدون أن نستصحب أحكام مسبقة و معاني مستخلصة و مستنبطة لم تصح و لم تضطرد أي لم يقم عليها الدلائل الكافية لأن نُحكِّمها في غيرها، فإذا اتبعنا التفسير فقط لهذه الآيات وجب أن نسلم أن هناك قسمين من الناس، كل قسم حكى الله عنهم دعائهم و إرادتهم بأعمالهم بالنسبة للدنيا و الآخرة، ثم جاء اسم إشارة حكم للمشار عليه بأن لهم نصيب مما كسبوا في ظل سرعة الحساب.

فهذه المفردات و التراكيب و ما تؤدي إليه من معنى لم يرد خصوصيته لفريق دون فريق، لا في هذه الآيات (سياقها الخاص) و لا في سياقها العام (آيات أخرى) بل المثبت أن هناك كثير من الأدلة تنص على المعنى الذي يصرفوه عن فريق و يثبتوه لفريق آخر، و كان من الأحوط و الأسلم أن يكتفوا بعموم الآيات لكل الناس، فإتيان أحد من الناس نصيب مما كسب بأعماله

---

[1] و هذا ما رجحه رشيد رضا قائلا: (وهذا أحسن بيان لما قالوه في تفسير (سريع الحساب) من أنه إجابة الدعاء) (٢/ ١٩٣)

[2] التفسير البسيط (٤/ ٦٥ – ٦٦).

فأراد ثواب الدنيا أو العاجلة أو الحياة الدنيا أو حرث الدنيا و من ثم لم يعد له حق في الآخرة فلا نصيب و لا خلاق له قد ذُكرت مرارا في العديد من الآيات بالنص و بالدخول في العموم. فما هو الداع لأن نقصر إنالة نصيب مما كسب أحد ما من الناس على المؤمنين فقط، فصرح أحدهم ان أعمال الكافرين محبطة و دعاءهم من أعمالهم فلا تقبل و لا تستحق ثوابا، مع أن هناك الكثير من الآيات التي نصت على إجابة دعاء الكافرين و المشركين في تنجيتهم من الغرق و السوء و غيرها من أمور حياتية دنيوية، و هناك الكثير من الآيات التي نصت على حبط الأعمال و إضلالها و إبطالها و مع ذلك فقد ثوب الله عليها لأصحابها في الدنيا و اعتبرها منهم و رتب عليها أحكام شرعية تماثل تماما المؤمنين في أعمالهم بلا فرق.

و هذا فضلا على أن بلاغة السياق و اقتضاء التراكيب و النظم لا يساعد على ما تأولوه بل كله يتجه نحو التعميم لكل الناس، أولا لخلوه من محدد أو مخصص أو معين لفريق دون فريق من حيث الألفاظ، و ثانيا من حيث المعاني أيضا فلا أمارة و لا علامة معنوية أو دلالية تشير على تعيين أو تحديد، و القول المستقيم أن يكون المعنى عاما و يدخل فيه دخولا أوليا هم المشركون بدلالة اقتصارهم على الدنيا فقط المشعر بأنهم لا يستأهلون أي جزاء حسن على أعمالهم و لأنهم كافرون بالآخرة أو شاكين فيها، فينطبع في ذهن الناس أنهم لا نصيب لهم إطلاقا في أي جزاء، فناسب هذا الظن بأن يدفعه الله بقوله أنهم لهم نصيب مما كسبوا، و أن نصيبهم هذا يقتضي عدمه في الآخرة بقوله تعالى في نفس الآية وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ و في آية أخرى وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ الشورى ٢٠.

و يؤكد الله أيضا أن إتيانهم نصيبهم مما كسبوا في الدنيا هو تحقيق للعدل الإلهي ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، و لدفع توهم أن من أراد الحياة الدنيا فقط بأعماله أنه لا يأخذ منها و أن الله يمنعه لكونه كافر بالآخرة أو أنه يبطل أعماله فلا يعطي عليها جزاء فيقول وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ آل عمران ١٤٥.

* الزمخشري: (أولئك الداعون بالحسنتين لهم نصيب مما كسبوا أي نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، [١] وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو من أجل ما كسبوا، كقوله: (مما خطيئاتهم أغرقوا). أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب: بما كسبت أيديكم.

ويجوز أن يكون (أولئك) للفريقين جميعا، وأن لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا) [٢]

و هذا تصريح بجواز أن يكون النصيب المترتب على الكسب لفريق الكافرين أو المشركين، و يكون الكسب هو الدعاء أو الحج و مناسكه و بذلك يكون المنفي في حقهم هو الخلاق في الآخرة، و من سبق الزمخشري من المفسرين إما أن يعمم تفسير الآية فلا يعيين من هم الذين

---

[١] يقول ابن عطية: (وعد على كسب الأعمال الصالحة في) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٧٦).

[٢] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٢٤٨). السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ١٣٣).

لهم نصيب مما كسبوا، و منهم من يعينهم بأنهم المؤمنين فقط، و التعميم أولى لأنه ظاهر الآية و ما يقويه انتفاء ما يخصص أو يقيد الذين لهم نصيب مما اكتسبوا.

* الرازي: (أما قوله تعالى: أولئك لهم نصيب مما كسبوا ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالىأولئك فيه قولان أحدهما: إنه إشارة إلى الفريق الثاني فقط الذين سألوا الدنيا والآخرة، والدليل عليه أنه تعالى ذكر حكم الفريق الأول حيث قال: وما له في الآخرة من خلاق.

والقول الثاني: أنه راجع إلى الفريقين أي لكل من هؤلاء نصيب من عمله على قدر ما نواه، فمن أنكر البعث وحج التماسا لثواب الدنيا فذلك منه كفر وشرك والله مجازيه، أو يكون المراد أن من عمل للدنيا أعطي نصيب مثله في دنياه كما قال: من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب [الشورى: ٢٠]. ...

السؤال الثالث: ما الكسب؟

الجواب: الكسب يطلق على ما يناله المرء بعمله فيكون كسبه ومكتسبه، بشرط أن يكون ذلك جر منفعة أو دفع مضرة) [١]

- أحمد بن عمر: (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [البقرة: ٢٠٢]، لكلا الفريقين فيما سألوا أي: يعطيهم بحسن نياتهم على قدر هممهم وطوياتهم، لقوله تعالى: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي

---

[١] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥/ ٣٣٨).

حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ [الشورى: ٢٠]، وكقوله تعالى: وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ [ابراهيم: ٣٤]) [(١)]

- المنتجب الهمذاني: (أي: لهم نصيب ثابت من جنس ما صدر منهم من الأعمال والأفعال المرضية. ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الفريقين جميعًا؛ لأن لكل فريق نصيبًا من جنس ما كسبوا.) [(٢)]

نلاحظ أن تعيين المشار إليه بـ(أولئك) يرجع لرؤية المفسر أو المعرب و ليس لدلالة في نفس اللفظ (أولئك) و لا يوجد قاعدة تشير لذلك التعيين أو لكيفية الاستدلال عليه، فمن المفسرين من يرى أن الله يجازي الكفار و المشركين بأعمالهم الصالحة في الدنيا فلا مانع عنده أن يكون الإشارة لكلا الفريقين، و لأن بعض المفسرين تأويل النصيب عنده متجه للمدح و التقرير للعمل فيتحرج أن يلحق الكفار و المشركين لأن أعمالهم عنده غير معتبره و غير مقبولة و يزيد بأنها باطلة و محبطة و ضالة، فيقصر الإشارة على الفريق الثاني فقط، و البعض يرى التعميم بحيثية أن النصيب و الكسب يكون على قدر النية و نوعية العمل أي كلٌّ يجازى على نوعية أعماله، فيكون للمشركين و الكفار بما يستحقون، و للمؤمنين على ما يستحقون.

---

(١) التأويلات النجمية لأحمد بن عمر (١/ ١٥٨). تفسير المنار (٢/ ١٩٢) قال: (العطف يشعر بمحذوف كأنه قال: هذا الفريق له حظه من الدنيا وما له في الآخرة من حظ سواه، ومجموع الكلام في الفريقين بمعنى قوله تعالى: (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) (٤٢: ٢٠) وقد بينت الآية صريحا أنهم يعطون ما دعوا الله تعالى فيه بكسبهم، وهذا نص فيما تقدم من معنى الدعاء).

(٢) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (١/ ٤٨٠).

و الأحوط و الأصح أن يكون النصيب على ما اكتسبوا من الأعمال الصالحة لكلا الفريقين في الدنيا ثم يختص بالفريق الثاني في الآخرة. أي فأولئك الداعين بما اكتسبوا لهم نصيبهم في الدنيا بما دعوا الله به.

- البيضاوي: (**أولئك إشارة إلى الفريق الثاني**. وقيل إليهما. **لهم نصيب مما كسبوا** أي من جنسه وهو جزاؤه، أو من أجله **كقوله تعالى: مما خطيئاتهم أغرقوا** أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدرناه **فسمي الدعاء كسبا لأنه من الأعمال**.)[1]

- النسفي: (**وسمى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال والأعمال موصوفة بالكسب** ويجوز أن يكون أولئك للفريقين أو **أن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا**)[2]

- الخازن: (أُولئِكَ **إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين ووجه هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله. فقال: (وما له في الآخرة من خلاق)**، وقيل: يرجع إلى الفريقين **لَهُمْ جميعا أي لكل فريق من هؤلاء نَصِيبٌ أي حظ مِمَّا كَسَبُوا يعني** من الخير والدعاء بالثواب والجزاء على الدعاء بالدنيا من جنس ما كسب ودعا.) [3]

---

[1] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ١٣٢). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ٢٠٩ - ٢١٠). التفسير المظهري (١/ ٢٤٠).

[2] تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ١٧٣). و قال النيسابوري: (ويجوز أن يكون أُولئِكَ للفريقين جميعا وأن لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا.) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٥٦٩).

[3] تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ١٣٣).

و وجه قوله أن أولئك تشير على فريق المؤمنين فقط بحجة أن الله ذكر حكم الفريق الأول أي الكافرين بأن ليس لهم في الآخرة من خلاق، و هذا تدليل على المقصد ضعيف لتخالف الموطنين، فإن الله قد قال عن الفريق الأول أنه ليس له في (الآخرة) و ليس في (الدنيا) من خلاق، ثم بالمقابل ذكر أن الفريق الثاني من ضمن دعائه أيضا الدنيا مع الآخرة، أي أن الدنيا من مقصده بالعمل سواء كان الحج و الدعاء أو الدعاء على السببية أو الجزاء، و لذلك فقد وحد الله لهم الإثنين ثواب الدنيا على ما تقتضي حكمته إزاء ما اكتسبوا من أعمال صالحة.

* الطيبي: (قوله: (ويجوز أن يكون أُوْلَئِكَ للفريقين) عطف على قوله: أولئك الداعون. اعلم أن المشار إليه بقوله: أُوْلَئِكَ إما الفريق الثاني، وهو القائل: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، أو مجموع الفريقين، فعلى الأول قوله: مِمَّا كَسَبُوا إما مجرى على حقيقته أو مجاز عن الدعاء بقرينة قولهم: رَبَّنَا، فعلى الحقيقة من: إما بيان نصيب، وهو المراد من قوله: أي: نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال، وقوله: وهو الثواب: بيان لجنس ما كسبوا، والجنسية بحسب الحسنة، ولذلك وصف كلاً من الأعمال والمنافع بالحسنة، أو ابتداء، وهو المراد من قوله: من أجل ما كسبوا، وعلى أن يراد بما كسبوا الدعاء، فهو من وضع المظهر موضع المضمر من غير لفظه السابق؛ لأن المفهوم من قوله: رَبَّنَا آتِنَا الدعاء والكسب، وسمي كسباً؛ لأنه من الأعمال والأعمالُ موصوفة بالكسب،

وعلى الثاني: الأسلوب من باب الجمع مع التقسيم التقديري؛ لأن التقدير: أولئك الفريقان اللذان اختص كل واحد بنوع من الدعاء، لهم نصيب مما دعوا، من اقتصر على طلب الدنيا فله

نصيب منها فحسب، ومن طلب الدنيا والآخرة جميعاً فله ذلك، والأول أقرب إلى النظم؛ لأن قوله: أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ في مقابلة قوله: وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) [1]

و في كلام الطيبي على تفسير الزمخشري تفصيل لجواز أن يكون المشار إليه بـ(أولئك) هم الفريقين، و بالنظر لهذا الجواز نجد فيه بعض المعاني الهامة:

مثل أن النصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال، و أن الثواب بيان جنس ما كسبوا أي أن وصف الأعمال و المنافع بالحسنة، و أن الدعاء من الكسب لأن الأعمال موصوفة بالكسب، و هذا يثبت هذه الأوصاف في حال دخول الكافرين في المشار إليه أي أن حجهم و دعاؤهم من كسب الأعمال الحسنة التي تستحق الجزاء الحسن.

و عندما أتى لتوضيح الجواز مع الفريق الثاني قال أن الأسلوب من باب الجمع مع التقسيم التقديري، و قد جعل الاختصاص بالدعاء و أراه بالمدعو به لا بالدعاء، فالدعاء عمل عبادي متحد الوصف فيهما فهو طلب العبد من الرب مع الإيقان بالقدرة الكاملة و المشيئة التامة، و لكن التغاير بينهما في المدعو به و هو ليس تغايرا تاما، بل تغاير في الظرف الزمكاني فقط، لأن الفريقان طلبا إتيان في الدنيا، ثم الفريق الثاني زاد الآخرة.

و إذا نظرنا أن الإتيان و تحققه لا يكون إلا في الدنيا فقط لأنها القدر المشترك بينهما و هو المحل الجامع الـمُبَيَّن في أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ، و هو نفسه مناط الخسارة للفريق الأول بأنه لن يكون له في الآخرة من خلاق بإتيانه في الدنيا، و بهذا فهو تأكيد على نفي الخلاق الأخروي، و هو أمر

---

[1] فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٣/ ٣١٠). و بنحوه مختصرا روح المعاني لمحمود الألوسي (٢/ ٩١).

مُستقبِل ليست الدنيا التي هي موطن إيمان الفريق الأول محلا لإتيان المدعو به في الآخرة لأن يجتمعوا في إتيان نصيبهم مما كسبوا، و هذا مستند من يخصص المشار إليه بالفريق الثاني دون الأول لأن الله حكم عليه بنفي الخلاق عنه.

و بهذا يكون معتمده لترجيح اختصاص الإشارة بـ(أولئك) على الفريق الثاني غير قوي، لأنه اعتمد دلالة المقابلة ما بين أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ في مقابلة قوله: وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ، و هذا يصح لو كان محل الإتيان هو الآخرة فقط لأنه حينئذ سيكون محل لعدم خلاقهم و إتيان خلاق الفريق الثاني، و لكن المقابلة ليست بين الفريقين في إثبات و نفي الخلاق أو النصيب الأخروي، لأنه يمكننا القول بأن غرض إثبات إتيان النصيب هو تحقيق العدل و عدم البخس و توفية الأعمال لكلا الفريقين و هو المعني في قوله تعالى ثواب الدنيا و حرث الدنيا، و الغرض من نفي الخلاق الأخروي فهو خاص بالفريق الأول لأن هذا مبلغ إيمانه الحياة الدنيا فقط لو كان المعني هم الكفار و المشركين، أما لو عممنا يكون المعنى أن من يريد بعمله ثواب الدنيا فقط نؤتيه منها و ليس له في الآخرة من نصيب لهذا العمل.

و الأليق بالسياق أن يكون المشار إليه بقوله (أولئك) هو الفريق الأول، لأنهم دعوا الله بإتيانهم في الدنيا و كان خبر الله عنهم بأنهم ليس لهم في الآخرة من خلاق، فأين الإجابة أو الخبر عن ما دعوا الله به في الدنيا، فيكون الأنسب أن يكون أن لهم نصيب مما كسبوا فيأتونه في الدنيا كما أرادوا بأعمالهم و هذا مثبت في آيات أخرى، فيكون البيان قد شمل ما دعوا به في الدنيا و ما استحقوا بإرادتهم الدنيا ما يقع في الآخرة، و بما أنهم موضع الذم و بيان الخسارة فهم المعنيون بحال مصيرهم في الآخرة و بحالهم في الدنيا مع دعائهم و حجهم، أما الذين دعوا في الدنيا و

الآخرة و البعد عن النار فهم المؤمنون الذين كثر في القرآن مصيرهم في الدنيا و الآخرة فلا يحتاج مزيد بيان لخصوص شأنهم خاصة و أنهم قد جاءوا في هذه الآيات في موضع مقابلة ليُظهر الله حال كل فريق منهم بحال الآخر، فالذي ليس له في الآخرة خلاق فيقابله أن الفريق الثاني لهم في الآخرة خلاق، و لو قلنا أنهم أيضا لهم في الدنيا نصيب مما كسبوا لنستدل به على حال الفريق الأول في الدنيا بأنهم ليس لهم في الدنيا نصيب مما كسبوا فيكونوا خسروا الدنيا و الآخرة فيكون مخالف للآيات الأخرى التي وعد الله فيها أن من أراد الدنيا و حرثها و ثوابها يؤته منها و أنهم يوفيهم أعمالهم فيها و هم فيها لا يبخسون.

و مما يدل على هذا التأويل السابق أن الآيات في سياق المناسك و الحج و الدعاء الذي هو ذكر الله في هذه الأيام أي أعمالهم، فيوفيها الله لهم على ما وعد من ثواب الدنيا و حرثها لمن أراد و هم أرادوا ذلك، أي أن توفية الأعمال و إتيان ثوابها في الدنيا مكفول لهم على الصور و الأقدار التي يريدها الله لهم، و وعد الله نافذ لا محالة، أما خسارة الدنيا و الآخرة فليست لمن عمل الصالحات و استعجل ثوابها في الدنيا، فالذي خسر الدنيا و الآخرة من كفر حين أصابه الفتن فلا هو صبر و احتسب فيأخذ الأجر و الجزاء الحسن و لا هو تقلب في النعم و المتاع ليتمتع في الدنيا و هذا من قوله تعالى وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الحج ١١.

- أبو حيان: (أولئك لهم نصيب مما كسبوا تقدم انقسام الناس إلى فريقين: فريق اقتصر في سؤاله على دنياه، وفريق أشرك في دنياه أخراه، فالظاهر أن: أولئك، إشارة إلى الفريقين، إذ

المحكوم به، **وهو كون: نصيب لهم مما كسبوا**، مشترك بينهما، والمعنى: أن كل فريق له نصيب مما كسب، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ولا يكون الكسب هنا الدعاء، بل هذا مجرد إخبار من الله بما يؤول إليه أمر كل واحد من الفريقين، وأن أنصباءهم من الخير والشر تابعة لأكسابهم.

وقيل: **المراد بالكسب هنا الدعاء، أي: لكل واحد منهم نصيب مما دعا به. وسمي الدعاء كسبا لأنه عمل، فيكون ذلك ضمانا للإجابة ووعدا منه تعالى أنه يعطي كلا منه نصيبا**/ مما اقتضاه دعاؤه، **إما الدنيا فقط، وإما الدنيا والآخرة، فيكون كقوله: من كان يريد حرث الآخرة، ومن كان يريد العاجلة، ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآيات.**

وكما جاء في الصحيح: وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا ما عمل الله بها، **فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها.**

وفي المعنى الأول لا يكون فيه وعد بالإجابة.

و: من، في قوله: مما كسبوا، يحتمل أن تكون للتبعيض، **أي: نصيب من جنس ما كسبوا،** ويحتمل أن يكون للسبب، **و: ما، يحتمل أن تكون موصولة لمعنى الذي أو موصولة مصدرية أي: من كسبهم**[1]، وقيل: **أولئك، مختص بالإشارة إلى طالبي الحسنتين فقط، ولم يذكر ابن عطية غيره. وذكره الزمخشري بإزائه.**

قال ابن عطية:...، وقال الزمخشري:.... انتهى كلامه.

---

[1] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٢/ ٣٤٣) بتقسيم أحسن. اللباب في علوم الكتاب (٣/ ٤٤٢).

"والأظهر ما قدمناه من أن: أولئك، إشارة إلى الفريقين" [1]، ويؤيده قوله: والله سريع الحساب وهذا ليس مما يختص به فريق دون فريق، بل هذا بالنسبة لجميع الخلق، والحساب يعم محاسبة العالم كلهم، لا محاسبة هذا الفريق الطالب الحسنتين.) [2]

و قال أيضا: (وظاهر سياق هذا الكلام عموم الحساب للكافر والمؤمن... وقال الجمهور: الكفار لا يحاسبون، قال تعالى: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا، وظاهر ثقل الموازين وخفتها، وما ترتب عليها في الآيات الواردة في القرآن شمول الحسنات للبر والفاجر، والمؤمن والكافر.) [3]

و قد نوه أبو حيان أن الظاهر من الآية تقسيم المأمورين بالذكر بعد الفراغ من أداء المناسك، و الشاهد أنه أدخل (و لو على سبيل الجواز) الفريق الأول الذي أراد الدنيا فقط في الأمر الشرعي بذكر الله بعد انتهاء مناسكه.

و إظهاره معنيين لجملة (وما له في الآخرة من خلاق) يؤكدان على أنه لا يريد إلا الدنيا، يشيران بقوة على أن هذا الداعي غير مؤمن بالآخرة أو شاك فيها، و لو كان من الذين آمنوا بالآخرة فيدل على أن عمله قد حبط و ضل لأنه في الآخرة ليس له نصيب.

---

[1] يقول السمين الحلبي: (والمشار إليه بأولئك فيه قولان، أظهرهما: أنهما الفريقان: طالب الدنيا وحدها وطالب الدنيا والآخرة.) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٢/ ٣٤٣). و ابن عادل الحنبلي: (والمشار إليه ب «أولئك» فيه قولان: أظهرهما: أنهما الفريقان: طالب الدنيا وحدها وطالب الدنيا والآخرة) اللباب في علوم الكتاب (٣/ ٤٤٢).

[2] البحر المحيط في التفسير (٢/ ٣١١ - ٣١٢).

[3] البحر المحيط في التفسير (٢/ ٣١٣).

و قد اعتمد أبو حيان على قرائن دلالية لقوله أن (أولئك) تشير للفريقين، منها أن هناك قدر مشترك بينهما هو ما حكم به الله من أن النصيب الذي لهم هو مما كسبوا، و في معناه قد اشتركوا فإن النصيب من الكسب إن كان خيرا فهو خير و إن كان شرا فهو شر و هذا معنى عام متحقق في كل الناس لا يختص به أحد دون أحد فلما نخصص به و هو عام، و أن هذا هو إخبار من الله لما يحدث لكلا الفريقين. و القرينة الأخرى قوله تعالى (والله سريع الحساب) فهذا أيضا معنى عام لا يختص به فريق دون فريق من الناس و في هذا دلالة على أن الفريقين مقصودين في الإشارة

و إذا نظرنا أن قول الله (لهم نصيب مما كسبوا) على أنه وعد بالجزاء الحسن على ما عملوه من أعمال حسنة فيكون الدعاء من ضمن كسب الأعمال و بالتأكيد المناسك و الحج أيضا، فهذه عبادة و هذه عبادة و لا يوجد داع للتفريق أو تخصيص التعليق على أحدهما دون الآخر، و للتأكيد على هذا المعنى ذكر حديث إطعام الكافر بحسناته على أعماله في الدنيا أن هذا تمام جزائه على أعماله فلا يبقى له نصيب في الآخرة، ولنكتة الوعد يدل عليه آيات كثيرة قد نوه عليها أبو حيان كما سبق أن أشرنا إليها مرارا في البحث. من كان يريد حرث الآخرة، ومن كان يريد العاجلة، ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

و كل التعدد الاحتمالي لمعنى (من) في (مما كسبوا) و (ما) تؤكد على إثبات و اعتبار صفة الحسن و الصلاح في أعمال الفريقين و استحقاقها الجزاء بما عملوه، و أن الفريق الأول يماثل في حسن أعماله و ما كسبه الفريق الثاني و لذلك اتحدوا في تنصيب الجزاء على ما عملوه، و أن الفارق الوحيد بينهم هو في توقع الظرف الزمكاني لتحقيق المطالب، فالأول لأنه لا يريد إلا الدنيا فهو

دال على أنه شاك في الآخرة أو كافر بها أو على أقل الأحوال غافل عن جزاء الآخرة فنبه عليه، و الفريق الثاني يتوقع حسن الجزاء في الدنيا و الآخرة.

و الأظهر و الله أعلم أن (من) في (مما كسبوا) أنها للتبعيض لتتوافق مع دلالة التقيد في الإجابة على المشيئة و الإرادة الإلهية لا على مجرد إرادة المريد بدعائه، و أيضا لأنها تتضمن قاعدة الجزاء من جنس العمل فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، و مع احتمالية أن تكون (من) للتسبب فهذا يؤكد على أن حسن الأعمال و كسبها في حق الفريق الأول معتبر الحسن و استحقاق الجزاء و هذا محل الشاهد.

و ذكر سرعة الحساب بعد إفادة معنى الوعد بالتجزية على بعض ما كسبوا يناسب ظاهر معنى سرعة الحساب، لأن التبعيض يلزمه إرادة و مشيئة من الله تعالى تقابل إرادة الداعي لما يريده، و بعد تحقق بعض ما أراده الداعي على مقتضى المشيئة الإلهية مع إرادة الله لمن يعينه من الدعاة يؤدي إلى مقادير كثيرة ناتجة من مجموعة من الإرادات منها ما سيوقعه الله و منها ما يؤجله الله مع من يريده الله بإزاء كثير من الأعمال في كثير من الأوقات، و كل هذا يستدعي سرعة في الحساب لسرعة الجزاء و الوفاء و دقة الإحصاء لأن كل هذا سيوزن يوم القيامة، فكل المعاني التي ذكرت لسرعة الحساب و تدل على القدرة و الوفاء و الجزاء مناسبة تماما لهذا السياق و النظم.

- ابن عرفة: (أو يرجع إلى القبول والأجر. وتقرر أن القبول أخص، فمن الناس من يفعل العبادة فلا يجزيه ويخرجه من عهدة التكليف فقط ولا يثاب عليها كمن يصلي رياء **ومنهم** من

يفعلها بالإخلاص ونية فتقبل منه، ويثاب عليها في الدار الآخرة.) [1]

(قوله تعالى: أولئك لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ.... راجع للفريقين فمن طلب الدنيا لها وكذلك الآخرة.) [2]

فابن عرفة يميل لأن يكون كلا الفريقين من الذين آمنوا [3]، أو أن ذكر الفريق الأول كان له سبب معين و هو أن ينبه الذين آمنوا على أن لا يفعلوا ذلك، و في كلا التأويلين فهو يقتصر على أن محور الآية خاص بالمؤمنين بالتنبيه و التحذير، و لتدعيم السببية فقد رأى (اللف و النشر) بين الآيات لمناسبة أبعاضها في الدلالة المعنوية فذكر الآباء تسبب في قول من يقول ربنا آتنا في الدنيا، و أشد ذكرا يشير لقول من قال ربنا آتنا في الدنيا حسنة، فاعتُرِض عليه أن قوله تعالى (وما له في الآخرة من خلاق) تدل على كونه كافر، فأورد احتمالين لكون أن الذي ليس له في الآخرة من خلاق قد يكون هذا إخبارا من الله عن حاله في نفس الأمر (واو الحال التي ذكرها) أي حال دعائه، و قد يكون من المؤمنين و هو غافل عن ثواب الآخرة بدون أن يكون سبب ذلك شك أو إنكار أو تعمد، و هذا من ابن عرفة ليبقى تسويغ (اللف و النشر) على وجهه بدون نقد، و نحن لسنا بحاجة لتقريرات تأويلية تظهر نواح بلاغية و إنما ما يعنينا قوة ظهور المعنى و كثرة القرائن و احتفافها على المعنى الظاهر السالم من النقد أو الاعتراض أو الاضطراب على أقصى ما يكون ما لم يكن عليه في نفسه.

---

[1] تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (١/ ٢٤٦).

[2] تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (١/ ٢٤٧).

[3] و هناك من جوز ذلك من العلماء و لكنهم قلة، أي من جعلوا الفريق الأول من المؤمنين أو المسلمين.

و من ضمن ذكر تقريراته على السببية أي المعاني المستخرجة من وجود علاقة التسبب ما بين واقع الدعاء من الناس و بين ورود الآية بسبب ذلك، قوله الهام: (يرجع إلى القبول والأجر) فهو هنا يفرق بين القبول و الأجر، لأن القبول أخص من الأجر، أي كل قبول يلزم منه وقوع الأجر على سبيل الاستحقاق، و لكن لا يلزم من وقوع الأجر القبول، و أشار على هذا المعنى بالتمثيل أن من يصلي رياء فقد أوقع العمل على جهة إخلاء المسئولية من عهدة التكليف و لكن لا يثاب عليها، و هذا المعنى هو لب مسألتنا فنحن ندلل على أن وقوع العمل الموافق للشرع من الكافر أو المشرك يخرجه من عهدة التكليف و الإلزام و يتعلق به ما رتبه الشارع من أحكام تلزم هذا العمل على الظاهر من الأمر بدون أن نقحم قبول العمل أو رده أو إنالة الثواب عليه من عدمه أو حبطه أو إضلاله أو إبطاله في الدنيا و الآخرة، فكل هذه أوصاف أو علل للجزاء و الحساب و الميزان و لا دخل لها في أعمال و شرائع الدنيا فيما يخص المكلفين عموما أو ما يخص المسلمين من عموم المكلفين تجاه أعمال غيرهم من سائر الملل و النحل.

و قوله أن (أولئك) ترجع على الفريقين أي من أراد الدنيا فقط و من أرادهما جميعا، فقوله على كلا الاحتمالين (أن الفريقين مؤمنين – أن أحدهما كافر و الآخر مؤمن) فيه تقرير أن العمل قد لا يكون له في الآخرة نصيب من الأجر لأن صاحبه استوفاه في الدنيا كما أراد، و هو محل الشاهد من كلامه.

فالإرادة الإنسانية هي العلة في توقيع النصيب على الأعمال المكتسبة إما في الدنيا فقط أو في الدنيا و الآخرة، و من ذكر (المؤمن – الكافر) من العلماء فهو كناية عن بعض المعاني أو اختصارا و إيجازا عن بعض المعاني التي بينها قوة لزومية فقط و ليس حتمية أو قطعية، لأنه قد

رأينا أن بعضها قد يُسند للمسلم و المؤمن و هي من لزوم معنى الكفر في الكافر كنفي الخلاق و النصيب في الآخرة، فكون أن يدخل المؤمن و الكافر تحت نفي الخلاق و النصيب في الآخرة فهذا يعني إخراج اسم الفاعل (مؤمن – كافر) من العلة أو المناط الذي يعلق عليه الأحكام و الأوصاف العلية الشرعية، و من ثم يتصدر للإناطة و العلية هو العمل نفسه و ما يقارنه من إرادة محكومة بقدر إيماني متغير ما بين الدنيا فقط أو الدنيا و الآخرة.

و المسألة الأشد وضوحا و تداولا في الفقهيات و التفاسير هو الرياء و المنفعة الدنيوية بالأعمال الصالحة، فصفة الرياء و الانتفاع الدنيوي بالعمل الصالح جائز الوقوع من المسلم و المنافق و الكافر، فصفة الرياء واحدة إذا قارنت العمل فلا فرق بين مسلم و بين منافق و بين كافر إذا اجتمعوا كلهم على قصد الانتفاع بالعمل لأجل المنفعة الدنيوية و ليس الأخروية على تفاوت غير مؤثر في قبول و رد العمل، فقد يكون المسلم غير كافر بالآخرة و قد يشرك في قصده الدنيا مع الآخرة و لكن النتيجة واحدة أن العمل مردود على صاحبه و غير مقبول.

و كذلك نريد أن نقول أن الجزاء أو الثواب على الأعمال لا علاقة له باسم الفاعل (مؤمن – كافر – مشرك – منافق – كتابي) إلا بملحوظية معنى كل اسم في القصد من وراء العمل أو تضمين معنى كل اسم في شروط العمل و موانعه فقط، و قد وجدنا من العلماء أنه لا غرابة في أن يكون هناك عمل صالح من مؤمن أو مسلم يوصف في الآخرة بعدم الخلاق أو النصيب، سواء من خصص هذا المعنى على العمل فقط أو من جعله صفة لصاحبه، فالاثنان متفقين على توفر المعنى في العمل، لأنه قد أخل بأحد شروطه الثلاثة (موافقة الشرع – الإخلاص – إرادة الآخرة).

و على الجانب الآخر من بعض العلماء لا غرابة في تقرير الجزاء و الثواب على أعمال الكفار الصالحة و الحسنة و شبه اتفاق منهم أنهم يجازون عليها في الدنيا فلا تبقى لهم حسنة يجازون عليها يوم القيامة، و بعضهم من يقول أنها تخفف عنهم العذاب يوم الحساب، مع الوضع في الاعتبار أنهم يعنون بأعمال الكفار الحسنة التي لا دخل للنية فيها أي أنهم يستبعدون تصور وقوع أعمال صالحة منهم هي من قبيل العبادات لأنهم كافرون بالبعث و الحساب و الجزاء، و أنهم يشركون بالله في العبادة، فكل تصورهم عن هذه الأعمال أنها هي ذات النفع المادي للناس. أما لو أنهم تم وضع في حسبانهم أننا نتحدث عن نوعية من المشركين و الكفار يؤمنون بالآخرة و البعث و النشور و الحساب و الميزان و الجنة و النار و الصراط، و يوقعون كثير من أعمالهم الصالحة بنية التقرب و التعبد لله لتحصيل المنفعة في الدنيا و الآخرة بدون شرك فيها بل بكل إخلاص لله وحده لا شريك له أي أن الشروط الثلاثة متحققة فيها، و أن ما اقترفوه من شرك فهو عن جهل و غفلة لا عن علم و قصد كمشركي العرب.

- ابن التمجيد: (في أولئك وجهان: أحدهما أنه إشارة إلى الفريق الثاني وهم الداعون بالحسنتين... الوجه الثاني أن أولئك إشارة إلى الفريقين فإن لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا أو من أجل ما كسبوا أو مما دعوا حتى أن من اقتصر على طلب الدنيا فله نصيب منها ومن طلب الدنيا والآخرة فله نصيب منهما.) [1]

[1] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٥/ ١٤٣).

- القونوي: (**وإنما قال** تفصيل للذاكرين حاجا كان أو غيره، ولم يخص بالحجاج رعاية لعموم الناس، [(١)] **فحينئذ لا التفات لأن الناس لم يرد بهم ما أريد بضمير الخطاب. واختار الإمام وأبو حيان كونه** تفصيلا للداعين **المأمورين بالذكر.../ ... فالأولى أن يقال غير الكلام تعميما للمرام ويدخل فيهم الحاج دخولا أوليا...**

... مقل وهو كافر بقرينة **قوله (وما له في الآخرة من خلاق) أشار إليه المص بقوله لأن همه مقصور بالدنيا** وما هو إلا صفة للكافر المعرض **عن العقبى وفي المعالم وغيره أن المراد به المشركون كانوا لا يسألون في الحج إلا الدنيا...**

... قال بعضهم لا يستعمل الخلاق إلا فيما له خطر وهذا هو المراد هنا **وإلا فله في الآخرة حظ جسيم من العذاب العظيم.)** [(٢)]

---

(١) روح المعاني لمحمود الألوسي (٢/ ٩٠) قال: (وفيها تفصيل للذاكرين مطلقا حجاجا أو غيرهم كما هو الظاهر... المناسب لإبقاء الناس على عمومه والمطابق لما سيأتي من قوله سبحانه: ومن الناس من يعجبك إلخ ومن الناس من يشري نعم سبب النزول كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما طائفة من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيطلبون الدنيا وطائفة من المؤمنين يجيئونه فيطلبون الدنيا والآخرة وهذا لا يقتضي التخصيص). و من قال بالعموم محمد بن عمر الجاوي: (فَمِنَ النَّاسِ أي المشركين أو المؤمنين) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ٦٨).

قول الألوسي و من سبقه في ترجيحهم أن الناس للعموم، فلا ندخل كونهم مؤمنين أو كافرين، فنبني الأحكام على العلل و الأوصاف كما جاءت، فمن عمل عملا صالحا توسل به النفع في الدنيا فقط فإن الله يعطيه نصيبه في الدنيا و لكن لا يكون له في الآخرة من خلاق، سواء كان العامل كافر أو منافق أو مؤمن أو مرائي.

(٢) حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٥/ ١٤٠ – ١٤١).

و قال أيضا: (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (٢٠٢)

قوله: (إشارة إلى الفريق الثاني) لقربه ولإشعاره التعظيم لاختيار الصيغة الموضوعة للبعد وكلمة اللام تدل على النفع ولأن الفريق الأول قد بين حالهم بقوله (وما له في الآخرة من خلاق).

قوله: (وقيل إليهما) وجه التمريض ظهر مما ذكرنا في رجحان الأول. وجه الصحة مع الضعف أن لهم أيضا نصيبا من كسبهم وهو العقاب مع الحجاب، والنصيب ليس مختصا كالخلاق بالخير والثواب، وما نفي عنهم فيما مر النصيب من الخير في يوم الحساب فاللام حينئذ بمعنى على فيلزم عموم المجاز أو اجتماع الحقيقة والمجاز. والكسب استعماله في الخطيئة بطريق الاستعارة السخرية كما نبه عليه في قوله تعالى: (بلى من كسب سيئة) الآية. فيكون فيه أيضا عموم المجاز فليكن هذا أيضا وجه التمريض.) [١]

و القونوي في شرحه لكلام البيضاوي يقول أن تفصيل الذاكرين عام و الحجاج يدخلون دخولا أوليا، و قال أن الفريق الأول المقتصر على الدنيا هو الكفار أو المشركين بقرينة (وما له في الآخرة من خلاق) و بالنسبة لكلام البيضاوي كانت القرينة من قوله (همه مقصور على الدنيا) و من قصده التعميم في وصف دعاؤهم (اجعل إيتاءنا و منحتنا في الدنيا) لتأكيد قصور همهم على الدنيا فقط.

[١] حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٥/ ١٤٣).

و من دلالة لفظة الخلاق التي تتجه دلالتها نحو ما له خطر و حظ يتأكد أن المدعو به و نوعية الجزاء على ما اكتسبوا هي الحسن أي أن النصيب هو نصيبهم الموصوف بالحسن، و مناسبته لما بعده من قول (سريع الحساب) تؤكد على هذا، لأن المقام و السياق يتجه بالدلالة نحو الجزاء الحسن المنوط بالعمل الحسن، أي أن من تعجل بعمله الحسن ثواب و حرث الدنيا نؤته منها في الدنيا.

و بالنظر لأوجه التمريض أن (أولئك) تشير إلى الفريقين نجد أول ما ذُكر أنه القرب المكاني لأن (أولئك) قريبة جدا من ذكر الفريق الثاني و أن دلالة البعد الآتية من الصيغةأولئك للتعظيم، و أن اللام لتدل على النفع، و أن الفريق الأول قد بان حالهم بقوله (وما له في الآخرة من خلاق)، فيمكن أن يقال ردا على ما سبق، أن الربط المعنوي و الدلالي أولى و أهم من الموقع المكاني و هذا واضح لا يحتاج للتدليل عليه، ثانيا يمكن استعمال البعد الدلالي لإفادة معنى البعد المكاني فيكون من الأنسب أن يعود على ذكر الفريق الأول فيكون أولى من عوده بالإشارة على الفريق الثاني، ثم الدلالة المأخوذة من اللام بكونها تدل على النفع فهذا متحقق أيضا للفريق الأول كالثاني لاتحاد القدر المشترك المنوط به تعدي النفع بالدعاء و العمل الصالح أن يكون في الدنيا، و أخيرا قوله أن نفي الخلاق عنهم يدل على نفي النفع لهم فهذا صحيح و لكن باعتبار النص عليه يكون في الآخرة، و إنما نتكلم على النفع في الدنيا.

أما القرائن التي تعين المشار إليه بأنه هو الفريق الأول عديدة: فمنها ما دل عليه مفهوم التنصيص بعدم الخلاق لهم في الآخرة في سياق سؤالهم إتيان الخلاق في الدنيا، و أيضا أن سياق الدعاء جاء بعد قضاء المناسك و الحج و هو من العبادات و الأعمال الصالحة، و أيضا الدعاء

نفسه هو عبادة و لا سيما أنه دعاء لله وحده بأن يأتيهم في الدنيا، و أيضا المحكوم به ليس فيه ما يخصص فريق المؤمنين فذكر النصيب و كسب الأعمال و سرعة الحساب ليس فيها ما يخص فريق عن فريق فهو لكل الناس، و أيضا أن المؤمنين لا داع لأن يظهر لهم أن لهم نصيب مما كسبوا و هو أظهر مما ينوه عليه في مثل هذا المقام لفريق لا يريد إلا الدنيا مما يدل على كفره أو شكه في الآخرة مما يهيئ ذهن السامع ليستنتج أن من حق ذلك أن يعاقب و يحرم من أي منفعة على أعماله لكفره، فاقتضى العدل أن يؤكد على عدم بخسه أعماله و لا أن يحرم من لطف الله و إحسانه كما مر في الآيات الخاصة بثواب الدنيا و حرث الدنيا و توفية الأعمال، و بدلالة عموم قوله تعالى (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) الرحمن ٦٠.

و عندما جاء لتوضيح وجه الصحة مع الضعف فخصص نوعية النصيب بالعقاب و الكسب بالأعمال السيئة على جهة السخرية، و بالنظر لهذا نجد أولا تخصيص بدون مخصص فكيف تم معرفة أن النصيب هو عقاب، و ثانيا تخصيصه نوعية كسب الأعمال بالسيئة التي تستحق العقاب مع أن الآيات لم تنص أو تدل أو حتى تشير على ذلك، بل العكس هو الصحيح لأن سياق الآيات جاء في نوعية الأعمال الصالحة مثل الحج و المناسك و الدعاء، و تقريعا للفريق الأول الذي ضيع خلاقه في الآخرة بسؤاله الدنيا و إعراضه عن الآخرة، و لإثبات و تأكيد ذلك فقد أناله الله ما أراده في الدنيا ليحق عليه القول بنفي الخلاق عنه في الآخرة، و الدعاء و التوسل بالأعمال الصالحة لا يكون في مقام عقاب عليه أو تيئيس من المثوبة عليه و كأنها دعوة لتسوية الأعمال الصالحة بالسيئة في حق راغبي الدنيا و المعرضون عن الآخرة و هذا مناف لروح القرآن و تعاليمه بأنه دائما حريص كل الحرص و بكل الأساليب على أن يدعو و يحبب على

أعمال البر و الإحسان و الخير و الصلاح لكل الناس.

أما جعله الكسب دائما يكون في الربح و المنفعة كأن هذا المعنى هو حقيقته و أن ما دون ذلك فهو مجاز يخرج لغرض بلاغي، و لكن الحقيقة أن الكسب معناه خال عن تحميله صفة مدح أو ذم بل هو لمحض الوصف بصفة العمل للعامل المضمن قصد و تعمد و حرص ليخرج عنه ما تم عمله بدون عمد و قصد، أما تحميله صفة المدح و المنفعة في هذه الآية يجيء من قرينة الدعاء لما في الدنيا من متاع و أيضا من التوسل لله بالعمل الصالح، و من إضافة النصيب لهم على سبيل الإثابة على ما اكتسبوه.

- الشوكاني: (وقيل: إن **قوله: أولئك** إشارة إلى الفريقين جميعا، **أي:** للأولين نصيب من الدنيا **ولا نصيب لهم في الآخرة، وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا وفي الآخرة)** (١)

- السعدي: (وكل من هؤلاء وهؤلاء، لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم، **وهماتهم ونياتهم، جزاء دائرا بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه،** وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلما أو كافرا، أو فاسقا، **ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه، دليلا على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.)** (٢)

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٣٥). و تابعه فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٤١١).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣).

- ابن عاشور: (والمقسم إلى الفريقين جميع الناس من المسلمين والمشركين لأن الآية نزلت قبل تحجير الحج على المشركين بآية براءة، فيتعين أن المراد بمن ليس له في الآخرة من خلاق هم المشركون لأن المسلمين لا يهملون الدعاء لخير الآخرة ما بلغت بهم الغفلة، فالمقصود من الآية التعريض بذم حالة المشركين، فإنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة....

و «الخلاق» بفتح الخاء الحظ من الخير والنفيس... / وجملة وما له في الآخرة من خلاق معطوفة على جملة من يقول فهي ابتدائية مثلها، والمقصود: إخبار الله تعالى عن هذا الفريق من الناس أنه لا حظ له في الآخرة، لأن المراد من هذا الفريق الكفار...

وقوله: أولئك لهم نصيب مما كسبوا إشارة إلى الفريق الثاني، والنصيب: الحظ المعطى لأحد في خير أو شر قليلا كان أو كثيرا ووزنه على صيغة فعيل...) [(١)]

و قال أيضا: (وهذا وعد من الله تعالى بإجابة دعاء المسلمين.... وكسبوا بمعنى طلبوا، لأن كسب بمعنى طلب ما يرغب فيه. ويجوز أن يراد بالكسب هنا العمل وبالنصيب نصيب الثواب فتكون (من) ابتدائية.

واسم الإشارة مشير إلى الناس الذين يقولون: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة للتنبيه باسم الإشارة على أن اتصافهم بها بعد اسم الإشارة شيء استحقوه بسبب الإخبار عنهم بها قبل اسم الإشارة، أي أن الله استجاب لهم لأجل إيمانهم بالآخرة فيفهم منه أن دعاء الكافرين في ضلال.

[(١)] التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٧ – ٢٤٨).

وقوله: والله سريع الحساب تذييل قصد به تحقيق الوعد بحصول الإجابة، وزيادة تبشير لأهل ذلك الموقف، لأن إجابة الدعاء فيه سريعة الحصول، فعلم أن الحساب هنا أطلق على مراعاة العمل والجزاء عليه.) [1]

و تأويل الطاهر بن عاشور الذي حصر فيه الإشارة على الفريق الثاني فقط يمكن التشغيب عليه بما آل إليه فهمه من ذات الآية بقوله أن دعاء الكافرين في ضلال، فهو تأويل بعيد جدا عن السياق الخاص الذي نحن بصدده و عن السياق العام من آيات أخرى، و يكفي أن نبين ما المقصود من دعاء الكافرين الذي هو في ضلال و من خلاله يتضح وجه البعد و المجانبة في فهمه للآية.

يقول الله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ الرعد ١٤، فوصف دعاء الكافرين في هذه الآية بالضلال لأنه دعاء لغير الله تعالى بل دعاء لشركائهم الذين يشركونهم مع الله في العبادة، و الآية الأخرى ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ غافر ٥٠، فقد وصف بالضلال هنا لأنه لن يأتي بأي منفعة فهو في محل غير قابل للإجابة.

أما دعاء الكافرين أو المشركين في موضع البقرة هنا فهو دعاء خالص لله وحده بأن يتنعم عليهم من متاع الدنيا متوسلين للإجابة بأعمالهم الصالحة كالحج و المناسك و إخلاص الدعاء لله

---

[1] التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٩).

وحده، فشتان ما بين الدعائيين، ناهيك عن سيل الآيات التي تدل بدلالة نصية و صريحة على إجابة دعاء كل إنسان، و آيات خاصة بدعاء الكافرين و المشركين، و آيات خاصة بدعاء المريد للدنيا و زينتها و حرث الدنيا و العاجلة و ثواب الدنيا، و كلها تدل على إتيانهم بعض ما يريدونه على مقتضى مشيئة الله و إرادته، بل الأصرح من هذا كله هو توفيتهم أعمالهم في الدنيا التي يريدونها بدون بخس، و لما جعل الله الأعمال الصالحة سببا أو جنسا لتوصيف ما يتفضل به على عباده من عطاء و رزق و متاع، فقد وعد الكفار أن يؤتهم في الدنيا كما أرادوها بأعمالهم مقابل انتفاء الخلاق و النصيب في الآخرة التي كفروا بها أو شكوا فيها أو تعجلوا ثواب أعمالهم فيها.

و هو بهذا قد مهد لتأويله هذا بالتصريح على أن الفريق الأول هم الكفار بدون أن يشير لجواز أن يكون الموضع عام كما سبقه من العلماء كثيرون أو من صرح منهم أنه من المحتمل أن يكون منهم مؤمنين يريدون ببعض أعمالهم الدنيا، أو عمم و سكت عن التنويع، و لكنه أسس لتأويله بقوله أن هذا الفريق هم الكفار قولا واحدا، و حتى مع ذلك التصريح فليس فيه أي مسوغ أو دلالة على قصر المشار إليهم بـ(أولئك) بالفريق الثاني فقط، لأن تعميم المشار إليهم هو لتوكيد توفية ما كسبوه من أعمال في الدنيا لأن هذا هو محل إرادتهم التي أناط الله بها في كثير من الآيات توقيع ما لهم فيها على ما تقتضيه المشيئة و الإرادة الإلهية، و يكون هذا كالترسيخ من باب العدل و الإنصاف لأن لا يستوجبوا أي خلاق في الآخرة، ثم يزداد هذا الأمر وضوحا و تعزيزا بكون الله سريع الحساب.

الآية رقم ٥

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣١-١٣٤]

- في هذه الآيات ظاهر أنها تشير لفئة من الناس كفروا أو أبطنوا الكفر و تظاهروا بالإيمان أي بالأعمال الصالحة ظاهرا، و أنهم يريدوا ثواب الدنيا بأعمالهم، و قرينة ترجيح أن الثواب هنا هو ما ينتفع به أنه معلق بإرادة العامل، و كل إنسان مجبول على ما يظنه منفعة له، و تقيد هذا الثواب بالدنيا ظاهر في أنه في كل ما ينتفع به في الدنيا لأجل النفس و المال و الأولاد و كل ما يتعلق بهم، و الشاهد أن عمل المنافق أو الكافر الموافق للشرع ظاهرا يكون معتبرا لأن يستحق ثواب عليه، ثم يناط محل هذا الثواب في الدنيا أو الآخرة على حسب إرادته، و التي غالبا ما تكون منوطة بالإيمان بالله و بالآخرة، و لذلك قال فعند الله ثواب الدنيا و الآخرة أي أن عملكم الذي تريدوا به ثواب الدنيا إذا قارنتموه بالإيمان ستنالون به ثواب الآخرة أيضا لأن الله عنده الثوابين.

فالخلاصة المستدل عليها أن استحقاق الثواب من الله على عمل ما؛ لا يمنعه كون العامل له منافقا أو كافرا أو حتى مؤمنا في حال كونه يريد ثواب الدنيا ما دام العمل موافقا للشرع في ظاهره مفتقر للنية و القصد الآخروي أي ثواب الآخرة، ومنشأ هذه الإرادة إما تكذيب بالآخرة في حق الكافر و المنافق، أو شهوة دنيوية كما في حق المؤمن و المرائي.

و في هذه الآية توحيد مصدر استحقاق و توقيع الثواب بالله فقط، و عليه فإن أي ثواب يؤخذ في الدنيا فإنه من الله على وفق إرادة المريد بعمله في الدنيا، فكل دليل أناط ثواب عاجل أو منوط بالدنيا في وقوعه و استحقاقه من الله وحده فهو يتضمن باللزوم إقرار العمل و اعتباره و من ثم استحق ثوابا عليه و من ثم أوقعه الله عاجلا في الدنيا بحيث لا يكون لصاحبه نصيب و لا حظ في الآخرة.

- و الآية لا تعطي دلالة القصر على الإثابة من الله لمن يريد ثواب الدنيا و الآخرة معا، بل تدل على واحدية المثيب على الأعمال سواء في الدنيا أو في الآخرة، لأن المشركين الكافرين بالآخرة يطلبون ثواب الدنيا فقط على قدر إيمانهم بها لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فيغريهم الله بأن الذي يثيبهم في الدنيا كما يطلبون و يريدون هو نفسه من يثيب في الآخرة أيضا ليأخذهم للإيمان بالآخرة بأسلوب الإقناع و الترغيب.

- مقاتل بن سليمان: (من كان يريد ثواب الدنيا بعمله فليعمل لآخرته فعند الله ثواب الدنيا يعني الرزق في الدنيا وثواب والآخرة يعني الجنة [1] وكان الله سميعا بصيرا بأعمالكم) [2]

- الهواري: (مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أي: فعنده ثواب الآخرة لمن أراد الآخرة وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً وهو كقوله: مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا [الإسراء: ١٨-١٩].) [3]

- الطبري: (من كان يريد ممن أظهرَ الإيمان بمحمد ﷺ من أهل النفاق، الذين يستبطنون الكفر/ ... عَرَض الدنيا،... يعني: جزاؤه في الدنيا منها وثوابه فيها، وهو ما يصيبُ من المغنم [4] إذا شَهِد مع النبي مشهدًا، وأمنُه على نفسه وذريته وماله، وما أشبه ذلك. وأما ثوابه في الآخرة، فنارُ جهنم. فمعنى الآية: من كان من العاملين في الدنيا من المنافقين يريد بعمله ثوابَ الدنيا وجزاءَها من عمله، فإن الله مجازيه به جزاءَه في الدنيا من الدنيا، وجزاءه في الآخرة من الآخرة من العقاب والنكال. وذلك أن الله قادر على ذلك كله، وهو مالك جميعه، كما قال في

[1] تفسير الماوردي = النكت والعيون (١/ ٥٣٤).

[2] تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٤١٣). تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٨٢). و بنحوه: تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٤١٧). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٢١٠).

[3] تفسير الهواري (١/ ٢٧٥، بترقيم الشاملة آليا).

[4] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١١/ ٢٤٠) قال: (والمعنى أن هؤلاء الذين يريدون بجهادهم الغنيمة فقط مخطئون... لا يسعون في الجهاد ولا يجتهدون فيه إلا عند توقع الفوز بالغنيمة، وهذا كالزجر منه تعالى لهم عن هذه الأعمال.).

الآية الأخرى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [سورة هود: ١٥-١٦].) (١)

و في كلام الطبري دلالة صريحة بأن أعمال المنافق (الكافر حقيقة و الحابط و الباطل عمله في الدنيا و الآخرة) لها اعتبار شرعي و استحقاق ثوابي من الله و توقيع لهذا الثواب في الدنيا جزاء على أعماله التي توافق الشرع ظاهرا، و معلوم يقينا أن جزاء المنافقين في الآخرة هو الدرك الأسفل من النار، فمن كان هذا صفته في عمله و في آخرته و لم يمنعه الله ثوابا على عمل يوافق شرعه فالأولى من يؤمن بالله و بالآخرة و يعمل ما يراه موافقا لشرع الله يلتمس به الأجر و الثواب في الآخرة ممن يُحكم عليهم بالكفر و الشرك، و لا يُظن أننا أجرينا قياسا باستخراج علة

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٩/ ٢٩٩ – ٣٠٠). و ممن قال بأنها في المنافقين: مكي في الهداية الى بلوغ النهاية (٢/ ١٤٩٣) قال: (هذه الآية نزلت في المنافقين). الطوسي في التبيان في تفسير القرآن (٣/ ٣٥١ – ٣٥٢، بترقيم الشاملة آليا). الطبرسي ت ٥٤٨ هـ في تفسيره. و ابن الجوزي كأحد أقواله زاد المسير في علم التفسير (١/ ٤٨٣). قال القرطبي: (وهذا على أن يكون المراد بالآية المنافقون والكفار، وهو اختيار الطبري) تفسير القرطبي (٥/ ٤١٠) و نقله عن القرطبي ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٦٣). و كأحد الأقوال للخازن: (وقيل نزلت في المنافقين) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٤٣٦). و كأحد الأقوال أنها في المنافقين لأبي حيان في البحر المحيط في التفسير (٤/ ٩٣). و ابن كثير تعقب الطبري و قال على تفسيره بأن ثواب الآخرة بالنسبة للمنافقين هو نار جهنم: (فيه نظر) تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٨٣). و من قال بأنها في المنافقين البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٣٠).

قال الشوكاني: (وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركين والمنافقين) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠٣) و تابعه القنوجي في فتح البيان في مقاصد القرآن (٣/ ٢٦١).

و اضطرادها، بل الأدلة عامة و صريحة بأن الله يجازى كل نفس على أي عمل خير هو عمله في الدنيا، و أن كل نفس سيوزن لها أعمالها و أنها لا تظلم و مثل هذه الأدلة تقرر عمومية الاعتبار و الاستحقاق و الجزاء لأي نفس.

- الزجاج: (وقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

كان مشركو العرب لا يؤمنون بالبعث، وكانوا مُقِرينْ بأن اللهَّ خالقهم. فكان تقربُهم إلى الله عزَّ وجلَّ إنما هو ليُعْطِيهُمْ من خير الدنيا، ويَصرِفَ عنهم شَرها، فأعلم الله عزَّ وجلَّ أن خير الدنيا والآخرة عنده.) (١)

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ١١٧). و مثله معاني القرآن للنحاس (٢/ ٢١٠). نقل قوله السمرقندي في تفسيره بحر العلوم (١/ ٣٤٦). و قال الواحدي بعد نقل قول الزجاج: (. وهذا هو القول.) التفسير البسيط (٧/ ١٣٩)، و قال في الوجيز: (وهذا تعريضٌ بالكفَّار الذين كانوا لا يؤمنون بالبعث وكانوا يقولون: ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق) الوجيز للواحدي (ص: ٢٩٤). تفسير السمعاني (١/ ٤٨٨) فقال: (أراد به: الكفار...). و بلازم القول لابن عطية: (من كان لا مراد له إلا في ثواب الدنيا ولا يعتقد أن ثم سواه) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٢٢) و نقله عنه أبو حيان في تفسيره البحر المحيط في التفسير (٤/ ٩٣) و الثعالبي بدون عزو في تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٣١٢). و ابن الجوزي كأحد أقواله زاد المسير في علم التفسير (١/ ٤٨٣). تفسير القرطبي (٥/ ٤١٠) كأحد الأقوال. تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٤٣٦) قال: (نزلت في مشركي العرب)، و تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٣/ ٣٦٧)، و تفسير اطفيش - إباضي (٢/ ١٨٧، بترقيم الشاملة آليا) حيث قال: (ولا يؤمن بالآخرة)، و في تفسيره هميان الزاد قال: (بعمله كالمرأيين وكمشركي العرب) (٤/ ١٤٣).

و من كلام الزجاج أن إرادة ثواب الدنيا من صفات المشركين، و أن الآية تغريهم بأن يريدوا بأعمالهم الآخرة أيضا لأنهم كافرين بالبعث و الآخرة، فإن أراد أنهم لا يثابون على أعمالهم في الدنيا من دلالة هذه الآية فإن الآيات الأخرى صريحة في ذلك بأنهم يثابون في الدنيا و أنهم ليس لهم في الآخرة من حظ أو نصيب و أن لهم النار مثواهم، و بهذا يلتئم تأويله من هذه الآية (١٣٤ النساء) مع رؤية عمومية الاعتبار و الاستحقاق و الثواب لأي نفس، و إذا ضممنا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢] في الاستدلال فإنها تؤكد هذه الرؤية أيضا مع غيرها الكثير من الآيات، فحج أو اعتمار هؤلاء المشركين قد أكسبهم حرمة و اعتبار شرعي صريح و بقرينة الأمر بالتعاون على البر أيضا.

- ابن أبي حاتم: (... قال محمد ابن إسحاق قوله: من كان يريد ثواب الدنيا أي من كان منكم يريد الدنيا ليست له رغبة في الآخرة نؤته ما قسم له فيها من رزق، ولا حظ له في الآخرة.) [١]

- الماتريدي: (قال بعض أهل التأويل: "من كان يريد بعمله الذي يعمله عرَض الدنيا، ولا يريد به اللهَّ -...؛ فليس له في الآخرة من ثواب؛ لأنه عمل لغير اللهَّ،" [٢] وهو كقوله - عَزَّ

[١] تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٤/ ١٠٨٦).

[٢] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٣٤٦). تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١١/ ٤٠).

وَجَلَّ -: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ،....

وتحتمل الآية -غير هذا- وجوهًا كأنها أشبه من هذا:

أحدها: **أنهم كانوا يتخذون من دون اللهَّ آلهة يعبدونها؛ طلبًا للرياسة والعز والشرف؛ كقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهَّ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)، فأخبر أن العز والشرف ليس في ذلك؛ ولكن عند اللهَّ عز الدنيا والآخرة.**

والثاني: أنهم كانوا يعبدون الأوثان والأصنام، **ويقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهَّ زُلْفَى ويقولون: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهَّ؛ فأخبر أن ليس في عبادتكم هذه الأوثان دون اللهَّ - لكم زلفى، ولا ثواب، ولكن اعبد اللهَّ؛ فعنده الدنيا والآخرة./**

والثالث: **يحتمل: أن يكونوا عبدوا هذه الأصنام؛ لمنافع يتأملون بذلك في الدنيا والسعة في الدنيا؛ كقوله - تعالى -: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهَّ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ... الآية؛ فعلى ذلك قوله - عز وجل -: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهَّ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لا عند من تطلبون.**[1]

"**ويحتمل أن تكون الآية في** أهل المراءاة والنفاق، **الذين** يراءون **بأعمالهم** الصالحة **في الدنيا**"[2]؛

---

[1] و بمعناه قال عبد القاهر الجرجاني: (أي: فليطلبه بطاعة الله فإنّه عند الله دون من يطلبونه من الطّواغيت.) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر (١/ ٥٣٢).

[2] و من خصصها تقريبا بأهل الرياء الطيبي فقال: (جاهد أو تعلم العلم أو أنفق ماله أو عمل عملاً/ يريدُ به الغنيمة أو الصيت أو الرياء... فالآية عامة تقتضي أكثر من المذكور، وإنما خصصنا المذكورات بالذكر تأسياً بالحديث المشهور... كيف يُرائي المرائي وإن الله سميع بما يهجس في خاطره) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على

يريدون ثواب الدنيا لا غير، والله أعلم.)[1]

و كلام الماتريدي واضح و صريح أن المعني بالآية فيمن يريد بعمله ثواب الدنيا أنهم المشركين أو المنافقين و فرع على المنافقين المرائين بأعمالهم الصالحة، و استدل بعدد من الآيات على ذلك، أما الدليل على إدخال المشركين و المنافقين فيمن يريدون بأعمالهم ثواب الدنيا فمن آيات أخر كما سبق.

و الملفت من تأويل الماتريدي أنه أدخل أعمالهم السيئة التي هي عبادة غير الله فيما يلتمسون به ثواب الدنيا، و هذا واضح جدا أنه مُخرَّج على حسبانهم و ظنهم و ليس أنه في نفس الأمر أو حتى في صورته الظاهرة، لأن عبادة غير الله لا تتوافق مع صورة العمل الحسن فضلا عن تتوافق مع باطنه، و حاصل تأويل الماتريدي أنه جعل ثواب الدنيا إما متخيلا فقط في أذهان المشركين و بالآية يرشدهم لأن ثواب الدنيا و الآخرة عنده هو فقط، و بهذا فلا ثواب لهم بما عملوه من

الكشاف) (٥/ ١٨٦ – ١٨٧)، و من نص على العموم أيضا الشوكاني في فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠٣) قال: (وظاهر الآية العموم) و تابع الشوكاني القنوجي في فتح البيان في مقاصد القرآن (٣/ ٢٦١) قال: (ظاهر الآية العموم). و مثل الطيبي تقريبا القونوي في حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (٧/ ٣٢٥)، و المظهري جعلها في المرائين التفسير المظهري (٢ ق ٢/ ٢٥٨)، و كذلك أطفيش في تفسيره (٢/ ١٨٧). أما الحدادي جعلها في المنافقين و المرائين انظر روح البيان (٢/ ٣٠٠).

قال الصاوي: (فالواجب على المكلف أن لا يطلب بعمله الصالح إلا الآخرة) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ٤٠١، بترقيم الشاملة آليا).

[1] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٣/ ٣٨٣ – ٣٨٤). و نقله مختصرا أبو حيان في تفسيره البحر المحيط في التفسير (٤/ ٩٣).

الشرك، و جعل ثواب الدنيا واقع فعلا من الله للمنافقين و المرائين بأعمالهم الصالحة صورة، وتكون الآية لهم مرشدة أنهم كما طلبوا ثواب الدنيا فليطلبوا ثواب الآخرة لأن الله عنده الإثنين.

- النحاس: (روي أن أكثر المشركين كانوا لا يؤمنون بالقيامة وانما يتقربون الى الله ليوسع عليهم في الدنيا ويدفع عنهم مكروهها فأنزل الله من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) [1]

- الطبراني: (أي من كان يريد بعمله منفعة الدنيا، فليعمل ولا يقتصر على طلب الدنيا، فإن ثواب الدنيا واصل إلى البر والفاجر، والمؤمن والكافر،...، وفي الآية تهديد للمنافقين المرائين.... وقيل: معنى الآية: من كان يريد بعمله عوضا من الدنيا ولا يريد به وجه الله؛ أثابه الله عليه من عرض الدنيا ما أحبه؛ ودفع منه فيها ما أحب.) [2]

الفائدة: أنه جعل العمل من الكافر للدنيا داخل في ثواب الدنيا، و بالطبع فإن هذا العمل هو من كان صورته حسنة موافقة للشرع، و لذلك أردف المنافقين و المرائين في معنى الآية.

- الثعلبي: (من كان يريد بعمله الذي افترضه الله عليه عرضًا من الدنيا، ولا يريد به الله أثابه الله -عز وجل- عليه ما أحب الله من عرض الدنيا، أو دفع عنه فيها ما أحب الله، وليس له في

---

[1] معاني القرآن للنحاس (٢/ ٢١٠). الهداية الى بلوغ النهاية (٢/ ١٤٩٣) قال مكي: (وقيل: إن الآية نزلت في الكفار، وذلك أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، ويتقربون إلى الله ليوسع عليهم في الدنيا، ويدفع عنهم مكروهاً).

[2] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

الآخرة من ثواب، لأنه عمل لغير الله) [1]

الفائدة: توصيف العمل بانه مما افترضه الله على العامل، و هذا تمييز لنوعية العمل بأنه المكلف به شرعا، و لكنه يقع صورة فقط لأن باطنه لم يكن لوجه الله، و مع ذلك استحق عليه ثوابا في الدنيا، فالأولى لمن وقع ظاهرا و باطنا لوجه الله و أراد به فاعله ثواب الآخرة.

- الراغب الأصفهاني: (وبين بقوله: وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا أنه عارف بالأغراض، والمقاصد، **فهو يجازي كلا بحسب مقصده فالأعمال بالنيات** [2].../ وفي قوله: فَضْلُ اللَّهِ ثواب الدنيا **والآخرة تبكيت للإنسان حيث اقتصر على أدق السؤالين، مع كون** المسؤول **مالكا له ولا أشرف منه**، وحث على أن يطلب منه ما هو أعلى، وأفضل من مطلوبه، وأن من طلب خسيسا مع أنه يمكنه أن يطلب نفيسا فهو دنيء الهمة.) [3]

---

[1] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (١١/ ٤٠). تفسير البغوي - إحياء التراث (١/ ٧١١). الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (١/ ١٧٢) حيث قال: (عموم الأعمال المأمورة من عند الله).

[2] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٢٢). تفسير القرطبي (٥/ ٤١٠).

[3] تفسير الراغب الأصفهاني (٤/ ١٨٩). و بمعناه تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٥٧٤) و تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٠٢) و تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٤٠٣). و نقله أبو حيان في البحر المحيط في التفسير (٤/ ٩٣). و باختصار ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٦٣). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ٥١٢) و لكنه خصص الطالب بالمجاهد المريد الغنيمة. تفسير الجلالين (ص: ١٢٦). و بنحوه تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٢٤١)، و حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٣/ ١٨٦) و لكنه جعل المجاهد تمثيل و ليس حصر. روح المعاني لمحمود الألوسي (٥/ ١٦٦).

و هذا هو الغرض البلاغي من الآية ان الله يحث و يغري الطالب بأن يطلب الأهم و الأعظم و هو ثواب الآخرة الذي يجمع معه ثواب الدنيا [١]، فلما يطلب الفاني و يشري به الدائم ما دام المسؤول هو الله الذي عنده الثوابين، فهو يرشدهم للإيمان الحق الذي يكفل لهم نعيم الدارين، و ليس في الآية أي احتمالية على أن المقصود أن الله لا يعطي ثواب الدنيا لمن طلبها إلا مقرونا بثواب الآخرة.

و الفائدة أنه جعل ظاهر العمل كاف في الاعتبار و استتباع الثواب في الدنيا، و أن الأعمال بالنيات أي خارج نطاق معرفتنا بالأسباب فلا تدخل في المناطات و العلل و الأسباب و الشروط الشرعية فالأحكام تجري على الظواهر.

- أطفيش: (مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا: بعمله كالمرأيين وكمشركي العرب، اذ كانوا يقرون بالله، وأنه الخالق الرازق، وينكرون البعث، ويعملون أنواعا من البر كالصدقة والغرض، واغاثة الملهوف، ولا يرجون بها ثواب الآخرة، لأنهم أنكروا البعث، بل يطلبون من الله عوضها في الدينا من نفع ودفع ضر، وكمن يقصد بجهاده الغنيمة من الذين آمنوا، وكمن هاجر لامرأة أو دنيا يصيبها، وكالمنافقين الذين أضمروا الشرك، وكانوا يجاهدون للغنيمة ويفعلون أفعال الطاعة ليجزي لهم في الدنيا ما يجزى للمؤمنين. ...

ويجوز أن يكون المعنى من كان يريد ثواب الدنيا أعطاه منها، لأن عنده ثوابها وثواب الآخرة، فيكون كقوله: ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتيه منها وقوله: عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد)

---

[١] تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢١٢ – ٢١٣). تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٣/ ٣٦٧).

[1]

- ابن عاشور: (استعجال الناس لمنافع الدنيا على خيرات الآخرة، نبههم الله إلى أن خير الدنيا بيد الله، وخير الآخرة أيضا، فإن اتقوه نالوا الخيرين. ...

والمراد بالثواب في الآية معناه اللغوي دون الشرعي، وهو الخير وما يرجع به طالب النفع من وجوه النفع، مشتق من ثاب بمعنى رجع.

وعلى الاحتمالات كلها فجواب الشرط ب «من كان يريد ثواب الدنيا» محذوف، تدل عليه علته، والتقدير: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يعرض عن دين الله، أو فلا يصد عن سؤاله، أو فلا يقتصر على سؤاله، أو فلا يحصله من وجوه لا ترضي الله تعالى: كما فعل بنو أبيرق وأضرابهم، وليتطلبه من وجوه البر لأن فضل الله يسع الخيرين، والكل من عنده.) [2]

و قصر معنى الثواب هنا على أنه الثواب اللغوي بمعنى الخير أستشعر منه محاولة لاستبعاد المنافق و المرائي و المشرك من أن يلحقه وصف الإثابة على بعض أعماله: سواء كانت صالحة و حسنة أو يشوبها خلل الرياء و النفاق، و لكن حتى مع المعنى اللغوي فلا بد من سبب للثواب و بالطبع لا يكون أعمال سيئة حتى و لو كانت محسوبة كذلك من فاعليها، فلا بد إذن أن يكون سبب الثواب هو أفعال حسنة أي توافق الشرع، و لذلك قد نص هو على هذه الأسباب: (تقوى الله – عدم الإعراض عن دين الله – أن لا يكون من وجوه لا ترضي الله – أن تكون من وجوه البر) فإن كانت هذه هي الأسباب التي يستتبعها الثواب بمعنى الخير فلا مانع من ذلك التأويل.

---

[1] هميان الزاد إلى دار المعاد للقطب محمد اطفيش (٤/ ١٤٣، بترقيم الشاملة آليا).

[2] التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٣ – ٢٢٤).

الآية رقم ٦

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥-١٤٨]

الشاهد من الآية أن نجد معنى ثواب الدنيا، و هل يناله الكافر كالمؤمن أم أنه خاص بالمؤمن فقط؟، و هل إنالة ثواب الدنيا متوقف على من أراده فقط؟

و يجب أن ننبه على نكتة فيصلية في موضوع البحث، أن اعتبار العمل في الدنيا يكون بموافقة الشرع أي أن العمل يقع على شروط و موانع الشرع، و مسألة الإثابة عليه من عدمها ليس لها تأثير عل اعتبار أو عدم اعتبار العمل في الدنيا و على ظاهر الأمر، لأن الإثابة و الجزاء يخص العامل فقط في الآخرة، و لا يمكن الوقوف على عين العمل الذي وقع في الدنيا هل هو داخل في حسناته التي يجازى عليها أم أنها داخلة في القضاء من العباد في المظالم، أم أنها داخلة في الموازنة ما بين السيئات و الحسنات، أو أن العمل في ذاته مردود و لا يقبل لخلل الإخلاص، لأن الذي يخص المكلف في الدنيا هو ظواهر الأعمال و مدى شرعيتها و لا يكلف بثبوت الثواب على العمل كي يعتبره فيعلق عليه ما يخصه من تلازم شرعي فيما يخص الاحكام و الفقه.

نلاحظ أن الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ و هي الآية التي تسبق آياتنا تتحدث عن فئة قد تكون انقلبت على أعقابها أو تحدث نفسها بذلك، و الشاهد أن هناك تماثل ما بين من يريد ثواب الدنيا بهذه الفئة التي تنقلب على أعقابها، و يكون موضع الاستدلال أن ثواب الدنيا مكفول حتى للذين انقلبوا على أعقابهم، و الخلاصة أن هناك ثواب للدنيا و ثواب للآخرة، و أن كلمة ثواب تصلح لكل نفس على أعمالها و مقاصدها.

— و هذه الآيات قد سيقت في بيان أحوال صحابة رسول الله ﷺ في الجهاد، و الجهاد أو قتال الكفار و هو في ظاهرة أمر شرعي مطلوب أي عمل حسن و صالح، و على حسب الإرادة و القصد يتخالفان، فمنهم من يريد ثواب الدنيا، و منهم من يريد ثواب الآخرة، و بالرغم من أن بعضهم أي الذي يريد ثواب الدنيا قد أخل بتمام عمله الصالح و جعله مبتور ثواب الآخرة، و هذا على أحسن أحوال القاصد، أما لو كان من المنافقين فهو كافر بالآخرة فلا يريد إلا ثواب الدنيا فقط، و على كلتا الحالتين فقد استوجب ثوابه و قد كفل الله له إتيانه له.

و على احتمال أن هذا الثواب المراد من الدنيا كان من المنافقين و هم محبطين العمل في الدنيا و الآخرة، و مع ذلك فقد وعد الله لمن أراد منهم ثواب الدنيا أن يؤتيه منها، و الشاهد اعتبار عمله مع نقصانه بخلل أحد شروطه لأنه في ظاهره الصلاح و الحسن بموافقة الشرع، و استتباعه الثواب عليه، و لم يضره أنه من منافق أو مرائي أو أن العمل نفسه غير محقق لشروط الصحة فضلا على أنه محكوم عليه بالإحباط.

– و الآية تحتمل أن العمل بالنسبة للشرع فهو تام متحقق فيه كل ظواهر الشرع و لا ينقصه إلا النية بثواب الآخرة فقط لكي ينال ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، أما إذا اقتصر على ثواب الدنيا فلله أن يقدر له ما يشاء.

— و الآية بظاهرها تفيد العموم لكل الأعمال و كل الإرادات، و عليه فمن نص على عمومها أو مثَّل فقط بالجهاد أو من حقق المسألة من الشراح للمتون، فكل هؤلاء يمكن القول بناء على هذا التعميم مع المصرحين و المرجحين و الناقلين بأن الآية تخص المشركين و المنافقين، أن العمل الصالح الذي يعمله المشرك و المنافق يريد به ثواب الدنيا لو ألحق به إرادة ثواب الآخرة لتم له مراده، و هذا بين في اعتبار عمله و استحقاقه الثواب عليه في الدارين بإرادته ثواب الآخرة، فكأن المؤمن بالآخرة لو عمل عملا حسنا و أراد به ثواب الآخرة يناله في الآخرة، و لكن هل هذا يصح مع المشرك بالله و الكافر بكفر غير كفر الآخرة؟. و الجواب أن الله لم يعطه كما أراد و لكن قيد إتيانه في الدنيا و الآخرة بقوله تعالى منها أي أنه لن يكون كنوال المؤمن تام الإيمان، و لنا أن نتصور في الآخرة إنالة المشرك و الكافر على عمله الحسن الذي أراد به الآخرة أن يكون المقصود به فعالية حسناته في الحساب و الموازنة و يكون هذا القدر هو نصيبه من ثواب الحسنة أما ثوابها الذي هو التنعم فلن يكون من نصيبه لشركه و كفره.

و لذلك عندما جاء الحديث عن المؤمنين حقا الذين لم يسألوا ثوابا على جهادهم قال الله في حقهم بالنسبة لثواب الدنيا و الآخرة ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٤٨﴾﴾ فلاحظ أنه لم يقل هنا منها بل جعل تمام الثواب لهم في الدنيا و أحسن لما في الآخرة.

السياق التام لآيات بحثنا فنذكر سباقها و لحاقها:

فسباقها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢-١٤٤]

و لحاقها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢]﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا

قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١٥٦﴾ [آل عمران: ١٥٣-١٥٦]

— سياق هذه الآيات يتحدث عن طائفة من الذين آمنوا و قاتلوا و لكن فشلوا و تنازعوا و عصوا، و أهمتهم أنفسهم، و يريدون الدنيا، و يظنون بالله ظن الجاهلية، و يخفون في أنفسهم ما لا يبدون للنبي ﷺ، و بهذا يتضح جدا أن قوله تعالى وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا كان على هذه الطائفة، و يجب أن نتنبه أن الله وضعهم بإزاء الطائفة الأخرى التي مدحها بطرق متنوعة فوصفها (بالجهاد – الصبر – الشكر) و أنها تدعوا الله بقولهم اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فلم يكن في دعائهم أو من وراء دعائهم أو لم يخبرنا الله عنهم أنهم يريدون الدنيا أو حتى الدنيا مع الآخرة، و لكن الله أثابهم الله ثواب الدنيا و الآخرة معا، أو أن يكون هؤلاء ما أخبرنا الله عنهم أنهم يريدون ثواب الآخرة، و لكن تفضل الله عليهم بثواب الدنيا أيضا.

و الشاهد من الآية أنهم يريدوا بقتالهم الدنيا، و قتال المشركين و الكفار هو من الأعمال الصالحة، فكأنهم يريدوا بأعمالهم الصالحة ثواب الدنيا، و مع ذلك فقد وعدهم الله بثواب الدنيا، و محل الاستدلال هو ترتب الثواب على ظاهر العمل الصالح لأنه خلا من نية الآخرة أي فقد أحد شرطيه أو لا يكون شرطا أصلا من ناحية قبول العمل و استحقاقه مطلق الثواب، و كان بعض مشركي العرب يعملون بعض الصالحات بغرض تحصيل الثواب الدنيوي، و لكنهم قد يضيفوا على هذا كفرهم بالآخرة و البعث و الحساب، ولكن موضع الاستدلال هو

بالنسبة للعمل نفسه من خلال تحقق شرطيه، أي موافقة الشرع و الإخلاص لله، و الاختلاف أن في طائفة الذين آمنوا قد حققوا الشرط الأول و هو موافقة الشرع، و بالنسبة للشرط الثاني قد يكون متحققا بوجه و قد لا يكون بوجه آخر، فإذا شرطنا أن يكون إرادة الثواب يجب أن يكون في الآخرة فيكون ما أرادوه بثواب الدنيا مخلا بالشرط.

و لو اعتبرنا أنهم يقاتلون المشركين و الكفار من أجل الغنيمة فقط و أن هذا هو ثواب الدنيا، فيكون هذا خلل في صحة العمل لأنه يخرجه عن كونه في سبيل الله، خاصة أنهم كانوا في مقابلة الطائفة الأخرى التي تريد ثواب الآخرة، و من حيث الواقع فكلا الطائفتين سيأخذ حظه من الغنيمة على وفق الشرع، فيكون الفارق فارق مقاصدي فقط و هذا ما يبرر الشدة عليهم و إظهارهم بصورة غير ممدوحة، لان الذين أرادوا الآخرة فقد أعطاهم الله ثواب الدنيا أيضا، فتفاضلوا عن الطائفة الأولى في ثواب الآخرة.

فقد يكون قد بقي في هذه الطائفة بعض رواسب الجاهلية من عقائد و أخلاق، فهم ينظرون لأسباب الموت و مقدماته بالأمور الحسية و المباشرة، هذا ما يخص ظنهم بالله و بالموت، و ما يخص الاخلاق هو في الغنائم التي تنتج من القتال للفريق المهزوم لأن العرب لهم عوائدهم و تقاليدهم في مثل هذه الأمور، و لا يوجد في قتالهم إلا الثأر و الفخر أو الغارة و النهب و السلب و لا يوجد وراء ذلك أمور غيبية.

و من ألمح من المفسرين بأن هذا هو الرياء، أو الذين جمعوا رأيهم على أن من يريد ثواب الدنيا فليس له في الآخرة من نصيب، فالذي نستدل به من كلامهم أن العمل الذي هو رياء؛ أو الذي لا يكون له في الآخرة ثواب؛ و أن هذا العمل في الدنيا على موافقة الشرع بظاهر أمره؛ فإنه

معتبر شرعا و يترتب عليه ثواب في الدنيا غير منقوص لصاحبه

و يكون القاعدة المستخلصة مما سبق أن الحابط عمله (المنافق أو المرائي أو الدنيوي) لا يمنع حبوطه أنه لن يجازى عليه ثوابا حسنا، و يكون معناه حينئذ أنه يستهلك ثوابه كله في الدنيا على أعماله الحسنة فلا يبقى له ثواب الآخرة، و أن هذا الجزاء في الدنيا هو من إرادة العامل لهذا لا من حكم الله عليه، فعلى نيته و قصده و إيمانه بالنسبة للدنيا و الآخرة سيكون محل ثوابه، و بتجريد يكون عامل العمل الحسن و هو يعلم أن ثوابه من الله و العمل على وفق شرعه و يريد ثوابه في الدنيا سيناله ثواب الدنيا على قدر عمله و بمشيئة الله، سواء كان كافرا بالآخرة كبعض مشركي العرب عندما يحجون و يعتمرون و يسقون الحجيج و يقومون بخدمة البيت و زواره و غير ذلك، فإنهم كانوا ينتظرون ثواب أعمالهم في الدنيا بالأموال و الأولاد و الصحة و طول العمر.

- مما سبق نستطيع القول أن شروط العمل المقبول شرطان موافقة الشرع و الإخلاص لله فيه، و شروط التقبل ثلاثة موافقة الشرع و الإخلاص لله فيه و إرادة ثواب الآخرة، و أما شروط اعتبار العمل و اقراره و ترتب متعلقاته الشرعية و الفقهية يكون بشرط واحد و هو موافقة الشرع، و هذا هو محور بحثنا و دراستنا، و لا يشترط في الفاعل أن يكون مسلما أو مؤمنا لا على الحقيقة و لا على الظاهر من الأمر، فعلى الحقيقة لأن هذا ظاهر جدا في النصوص الشرعية أنها لا توقف صحة العمل و اقراره على حقيقة الإيمان، لأنه يقر المنافق و المشرك على أعماله الشرعية، و يترتب عليها الثواب أيضا فلا اشكال في هذا، أما من ناحية الظاهر فلأن حج و

هدي و قلائد المشرك المبتغي فضل الله و رضوانه بالحج قد وقعت حرمتها و حرمته و النهي عن اعاقته بل الأمر بالتعاون معه على ذلك و هذا في المشرك، و كذلك في المنافق المعلوم نفاقه فهذا لم يمنعه من إقرار و اعتبار أعماله الشرعية.

- و يحتمل أيضا القول أن هناك فارق بين ثواب الدنيا و بين الثواب في الدنيا، و كذلك ثواب الآخرة و بين الثواب في الآخرة، لأن ثواب الدنيا فهذا وصف للثواب و تمييز له بأنه ثواب الدنيا، أما قولنا الثواب في الدنيا فإن الدنيا هنا تقع ظرفا للثواب فقط، و يكون محل الشاهد أن هناك للعمل الواحد صورتين من الثواب، واحدة تكون في الدنيا و هي ثواب الدنيا، و أخرى تكون في الآخرة و هي ثواب الآخرة، و الصورتين مستقلتين في الماهية لاستقلال الظرفين، فالدنيا مختلفة تماما عن الآخرة، فما ينسب وقوعه و تحقيقه في الدنيا لا بد أنه مختلف تماما عما يتحقق وقوعه في الآخرة.

و على هذا فلا يصلح ثواب الدنيا أن يكون في الآخرة، و لا ثواب الآخرة أن يكون في الدنيا، و على القول أن الثواب على العمل هو ثواب واحد فقط و أن له ظرفين في تحقيقه أي الدنيا و الآخرة، فلا بد أن من استحق ثوابا في الدنيا أن يكون له استحقاق ثواب الآخرة و لكنه معلق على موته على دين الإسلام، فإن مات مسلما فله ثواب الآخرة على عمله الذي أخذ ثوابه في الدنيا، أما إذا مات كافرا فسيكون الكفر مانعا فقط من الإثابة أما الاستحقاق فباق كما هو يماثل في استحقاقه استحقاق المؤمن تماما، و هذا من عدل الله و رحمته و أن الله لا يظلم أحدا ولا يبخسه شيئا، فإذا بقى هذا الاستحقاق لما بعد المحاسبة و الموازنة و الميزان فسوف ينال

ثواب الآخرة، و لأن هذا مستحيل لأنه كافر و مشرك فلن يثقل معهما أي حسنة فهكذا يضيع الثواب في الآخرة لا أن حسنته و استحقاقه قد ظلمه الله فيه و لكنها لم تصمد مع سيئاته الأخرى.

هذه الفروق السابقة قد تساهم في إحكام وضبط التصور لدلالة و معنى الآيات، و بناء عليها يكون الثواب مغاير لاستحقاقه أو بمعنى أدق الثواب مغاير للحسنة، لأن الحسنة هي سببا أو علة أو مناط للثواب، أي لا ثواب إلا بالحسنة، و كما سبق فإن الثواب ثوابين: ثواب الدنيا و ثواب الآخرة و على قدر إيمان العامل ينال ثوابه[1]، فلو إيمانه بالدنيا فقط ينال ثواب الدنيا على قدر إيمانه بها، و من كان إيمانه بالآخرة فله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة، هذا في الثواب أي ما يناله الفاعل حسيا و معنويا فيدرك به التنعم و التلذذ و التطيب، أما الاستحقاق قائم و ما زال ساري المفعول للإثابة لو لم يمنعها مانع في الآخرة كالموت على الكفر أو الشرك.

---

[1] يقول الواحدي في البسيط: (أَعْلَمَ الله –تعالى– أَنَّهُ يُجازي كُلًّا على قَصْدِهِ وإرادته) (٦/ ٤٤).

- مقاتل بن سليمان: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها يعني الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة. [1].... / فآتاهم الله ثواب الدنيا يقول أعطاهم النصر والغنيمة في الدنيا وحسن ثواب الآخرة جنة الله ورضوانه فمن فعل ذلك فقد أحسن.) [2]

قد عين مقاتل صورة ثواب الدنيا بأنه هو الغنيمة و هذا في الذين يريدون ثواب الدنيا، أما ثواب الدنيا للفريق الآخر هو النصر و الغنيمة، و ثواب الآخرة يكون الجنة و بهذا فهو خاص بالمؤمنين.

- الهواري: (قوله: وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا هو مثل قوله: مَّن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ [الإسراء: ١٨] وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا يعني الجنة، يثاب على قدر عمله، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ أي المؤمنين..../

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ. أما ثواب الدنيا فالنصر الذي نصرهم على عدوّهم في تفسير الحسن. وقال بعضهم: الفتح والظهور والتمكين والنصر على عدوهم؛ وأما ثواب الآخرة فالجنة. وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ.) [3]

---

[1] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٩/ ٣١٣). التفسير البسيط (٦/ ٤٣). تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٤٢٤). زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٣١). تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٧). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ٢٧٢). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٧).

[2] تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٣٠٥ – ٣٠٦).

[3] تفسير الهواري (١/ ١٨٨ - ١٨٩ بترقيم الشاملة آليا).

أما الهواري فهو أشتد صراحة من مقاتل و جعل إرادة ثواب الدنيا كمن أراد العاجلة و ليس له في الآخرة إلا النار، و لكنه لم يذكر ماهية ثواب الدنيا لهؤلاء، و جعل الفريق المقابل له الذي يريد ثواب الآخرة بأنه هو الجنة و أن الشاكرين هم المؤمنين، و هذه الآية هي الهامة لأنها من خلالها سيظهر رؤية المفسر لمن أراد ثواب الدنيا، أما الآية الثانية فهي ظاهرة جدا في المؤمنين و أن سياقها في القتال و الجهاد و لذلك يسهل تفسير ثواب الدنيا بأنه النصر و التمكين و الظهور و الفتح و الغنيمة، و ثوابهم في الآخرة هو الجنة.

و لذلك سنقتصد في النقول بعد ذلك إلا من مزيد فائدة تتمثل في بيان من هو الذي أراد ثواب الدنيا و ماهية هذا الثواب، و على ماذا استأهل هذا الثواب أي نوعية العمل و صفته الشرعية الذي استحق الثواب في الدنيا أو ثواب الدنيا، و من صرح أنه هو الكافر أو المشرك أو المنافق أو كان لازم كلامه كمن ماثله بمريد العاجلة الذي ليس له في الآخرة إلا النار، و هو بهذا يثبت للكافر أعمالا تستحق ثوابا في الدنيا أو ثواب الدنيا، و هل المانع من أن يتعدى استحقاق الثواب للآخرة هو عدم إيمانه بثواب الآخرة فقط؟ أي أن المانع عدم إيمانه بالآخرة أو عدم إيمانه بثواب الآخرة و ليس المانع أنه لا يؤمن بالله.

و من يصرح من المفسرين أن الذي يريد ثواب الدنيا هو من الذين آمنوا أو من المؤمنين فيكون في هذه الحال أن عمله الذي استوجب له ثواب الدنيا سيكون مقبولا و معترفا به من الجماعة المؤمنة، و يتعلق به الأحكام الشرعية و الفقهية الأخرى، و أن الله لم يكلف الجماعة المؤمنة التحري أو المعرفة لمن أراد بعمله ثواب الدنيا أم الآخرة لأن هذا فوق الطاقة إن لم يكن مستحيل أصلا، و ما كان كذلك فلا يمكن تصوره علة أو مناط أو شرط أو قيد شرعي في اعتبار صحة

الأعمال شرعا، و على ذلك فالأعمال الحابطة أي التي لا ثواب عليها في الآخرة أو التي ليس لها ثواب الآخرة لا تعود على العمل في الدنيا بالبطلان أو الفساد ما دام ظاهره حسن شرعا، لأن الموانع أو المبطلات الثوابية في الآخرة لا يمكن العلم بها في الدنيا لأنها من الغيبيات.

- الطبري: (من يرد منكم، أيها المؤمنون، بعمله جزاءً منه بعضَ أعراض الدنيا، دون ما عند الله من الكرامة... يقول: نعطه منها، يعني من الدنيا،...، ثم لا نصيب له في كرامة الله التي أعدها لمن أطاعه وطلب ما عنده في الآخرة.... فخرج الكلامُ على الدنيا والآخرة، والمعنىُّ ما فيهما. كما: -

... عن" ابن إسحاق:ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، أي: فمن كان منكم يريد الدنيا، ليست له رغبة في الآخرة، نؤته ما قسم له منها من رزق، ولا حظ له في الآخرة، ومن يرد ثواب الآخرة نوته منها ما وعده، مع ما يُجرى عليه من رزقه في دنياه."[(1)) (2)]

فالطبري هنا قد جعل ثواب الدنيا مانع من ثواب الآخرة لمن أراده في الدنيا من المؤمنين، فمثل هذا العمل الذي تعين نفي ثوابه في الآخرة لا يقول أحد إنه لا اعتبار شرعي له في الدنيا من قبل المؤمنين الآخرين، أولا: لعدم علمهم بالنوايا و المقاصد، و ثانيا: لأن هذا العمل قد

---

(1) تفسير ابن المنذر (1/ 418).

(2) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (7/ 262).

انتفى في حقه ثواب الآخرة و مع ذلك فهو معتبر شرعا، و بمعنى آخر نفي ثواب العمل في الآخرة لا يعود على العمل بالبطلان في الدنيا على الأقل من منظور المكلفين تجاه هذا العمل و عامله من أحكام شرعية.

و قال الطبري أيضا: (القول في تأويل قوله: فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

... ثوابَ الدنيا، يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصرُ على عدوهم وعدو الله، والظفرُ، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد[1] وحسن ثواب الآخرة، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنةُ ونعيمُها) [2]

و لم يجعل الطبري ثواب الدنيا بالنسبة للمؤمنين الذين يريدون ثواب الدنيا إلا الرزق المقسوم لهم في الحياة الدنيا و لم يجعله النصر و التمكين مع أن الآية في سياق القتال و الجهاد، و المهم أنه جعل سبب الإثابة في الدنيا و الآخرة للفريق الثاني هو الأعمال الصالحة، و عليه إما أن نقول أن المؤمنين المريدين ثواب الدنيا لا ثواب لهم إلا الرزق المقسوم (و هذا مكفول للكافر و المؤمن على السواء) أو نقول أنهم يتساووا في ثواب الدنيا مع الآخرين و هو النصر و الغنيمة و التمكين لأنهم في نهاية الأمر جماعة واحدة و ما يسري على البعض يسري على الكل، فيكون

---

[1] تفسير ابن المنذر (١/ ٤٢٤).

[2] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٧/ ٢٧٥). و بمثله أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٢/ ٣٢٦) و قال أن هذا قول: (قتادة والربيع بن أنس وابن جريج). تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٢٢). و بمعناه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٤).

ثوابهم الدنيوي كان لأجل أعمالهم الصالحة أيضا و لكنهم لما اقتصروا على إرادة ثواب الدنيا فأعطاهم الله على ما أرادوا، و عليه يكون العمل الصالح الذي لا ثواب عليه في الآخرة لا يعود على العمل بالفساد و البطلان لأنهم أقروا عليه و نالوا به ما يستحق من غنيمة (أحكام شرعية) و أسقط عنهم الفرض و التكليف.

- الزجاج: (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا. أي من كان إنما يقصد بعمله الدنيا [(١)] أعطي منها، وكل نعمة فيها العبد فهي تفضل من اللهَّ إعطاء منه. ومن كان قصده بعمله الآخرة آتاه اللهَّ منها. وليس في هذا دليل أنه يحرمه خير الدنيا، لأنه لم يقل ومن يرد ثواب الآخرة لم نؤته إلا منها، واللهَّ عزَّ وجلَّ ذو الفضل العظيم. / وقوله عز وجل: فَآتَاهُمُ اللهَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ أي ظفَّرهم وغنمهُم. وَحُسْنُ ثَوَابِ الآخِرَةِ. المغفرة وما أعد لهم من النعيم الدائم.) [(٢)]

سنجعل تأويل الزجاج نموذج نردفه بكل من عمم المريد لثواب الدنيا فلم يعينه بكونه مؤمنا أو من الذين آمنوا أو كونه منافقا أو كافر، و أيضا أنه جعل مناط الإثابة هو العمل، و

---

(١) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ٣٢٣). الهداية الى بلوغ النهاية (٢/ ١١٤٤) قال: (من يرد بعمله أعراض الدنيا دون ما عند الله). زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٣١). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٤). فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٤٢). تفسير المراغي (٤/ ٩٠).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤٧٥ – ٤٧٧). و ممن عمم أيضا: تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٢/ ٥٠٠). تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٢٥٤). تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ١١٣). تفسير الجلالين (ص: ٨٦). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ١١٧). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ٢٩٤، بترقيم الشاملة آليا). فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٤٢).

جعل ثواب الدنيا مع الذين آمنوا في الآية الثانية هو الظفر و الغنيمة و الثواب الآخروي هو النعيم الدائم أي الجنة. و جعل ثواب الدنيا مع مريدي ثواب الدنيا هو كل ما تفضل الله به من نعم على العبد، و يضعف هذا التأويل مع العلم بأن الله يمد الكفار من عطاءه بلا سبب عملي منهم، و أن الله قد فضل بعض الناس على بعض في الرزق و ما إلى ذلك من نصوص.

- الماتريدي: (وقوله: وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا: أي: من أراد بمحاسن أعماله الدنيا نؤته منها. وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ: أي: من يرد بأعماله الصالحات ومحاسنه الآخرة نؤته منها. وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ: وهو كقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا على قدر ما قدر وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ؛ فكذلك هذا -أيضًا- والله أعلم.) [1]

آثر الماتريدي التعميم، و لكنه ألمح بإيراده الآية المستشهد بها أنه يلمح لكون مريدي الدنيا ليسوا بمؤمنين، و هناك قرينة تؤكد على ذلك أيضا انه عند وصف العمل في حال مريدي ثواب الدنيا لم يزد عن كونه عمل حسن، أما مع مريدي ثواب الآخرة فوصف العمل بأنه الصالحات و محاسنه، كأنه يخصص وصف صلاح الأعمال للمؤمنين فقط مريدي ثواب الآخرة، و مع مريدي ثواب الدنيا جعله عمل حسن فقط ليدلل على عدم تجاوزه في الثواب إلى الآخرة أو أنه من أعمال غير المؤمنين فلا يوصف بانه من الصالحات و يكفيه فقط أنه يكون من محاسن الأعمال فقط، و هذا تضمين أيضا للتفرقة ما بين القبول و التقبل و حتى و لو لم يصرح به بالعبارة.

---

(١) تفسير الماتريدي = **تأويلات أهل السنة** (٢/ ٥٠٠).

- الطبراني: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها؛ يعني من يرد **بعمله** وطاعته المدحة والرياء **لا يحرم حظه المقسوم له في الدنيا من غير أن يكون له حظ في الآخرة، يعني نؤته من الدنيا ما شاء مما قدرنا له** [١]**، نزل ذلك في الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة.)** [٢]

جعل العمل في أصل ظاهره طاعة، و لكن في باطنه رياء و مدحة، و مع ذلك أثبت له ثوابا و وقع به ما كلف به من القتال و الجهاد و استحق به الغنيمة.

※ الجصاص: (**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها قيل فيه من** عمل للدنيا **وفر حظه المقسوم له فيها من غير أن يكون له حظ في الآخرة روي ذلك عن ابن إسحاق** [٣]، وقيل: **إن معناه من أراد بجهاده ثواب الدنيا لم يحرم حظه** من الغنيمة، وقيل: من تقرب إلى الله بعمل النوافل وليس هو ممن يستحق الجنة بكفره أو "بما يحبط عمله جوزي بها في الدنيا من غير أن يكون له حظ

---

[١] **يقول** ابن الجوزي: (فصل: وأكثر العلماء على أن هذا الكلام محكم، وذهبت طائفة إلى **نسخه** بقوله تعالى: عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ والصحيح أنه محكم، لأنه لا يؤتى أحد شيئاً إلا بقدرة الله ومشيئته. ومعنى قوله تعالى:نُؤْتِهِ مِنْها أي ما نشاء، وما قدرنا له، ولم يقل: ما يشاء هو.) زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٣١). و قال نجم الدين الطوفي: (عام مخصوص بمن شاء الله-عز وجل-أن ينال ذلك، ووفق لأسبابه) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ١٤٦).

و قال ابن جزي: (ثواب الدنيا، مقيد بالمشيئة) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٦٦). و أبو حيان: (ثواب الدنيا مشروط بمشيئة الله تعالى) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٣٦٧). رشيد رضا: (وفي سورة الإسراء تفصيل وتقييد في هذه المسألة) تفسير المنار (٤/ ١٣٨).

[٢] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

[٣] تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ١١٣). تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ١١٧).

في الآخرة" [١] وهو نظير قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا.) [٢]

و هو كما سبق يثبت لعمله الصحة الشرعية و الترتب عليه استحقاق الغنيمة، اما في النقل الثالث و هو محل الشاهد من كلامه أنه أثبت للكافر تقرب إلى الله بالنوافل، و النوافل طاعات، فاستحق بها ثوابا في الدنيا لأجل المانع و هو كفره أو الحبط و لا يكون له في الآخرة ثوابا يناله على هذه الطاعات و القربات لله، و النكت التي في هذا الكلام: جواز صحة الطاعة و التقرب من الكافر لله، و استحقاقها الثواب عليها، ثم يكون المانع من الثواب في الآخرة هو الكفر أو حبط الأعمال فيكون ثوابه في الدنيا فقط، لأن النار ليست دارا لنيل الإثابة فيها فلا بد من هدر هذه الإثابة و لا بد من ذلك، و لكن هدر الثواب لا يهدر أصل الحسنة و دورها في الحساب و الموازنة فليتنبه لذلك.

و في قول الإحباط لمن يقول به بالفسق أو الكبائر، فالإحباط لا يمنع أو ينفي الجزاء الحسن على العمل الصالح، نرى أن الإحباط هو الجزاء على العمل الصالح في الدنيا لكي لا يجد له ثواب على عمله في الآخرة، و في هذا إثبات و تقرير لمبدأ العدالة لمن يؤول له الأمر في الآخرة

---

[١] يقول الطوسي: (من يرد ثواب الدنيا بالتعرض له بعمل النوافل مع مواقعة الكبائر جوزي بها في الدنيا من غير حظ في الآخرة لإحباط عمله بفسقه على مذهب من يقول بالإحباط) التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٣/ ٧).

[٢] أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٢/ ٣٢٥). تفسير الماوردي = النكت والعيون (١/ ٤٢٧ – ٤٢٨). التبيان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي (٣/ ٧، بترقيم الشاملة آليا). و بعضه في تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٢٨٦). البحر المحيط في التفسير (٣/ ٣٦٧).

لأن يكون من أصحاب النار، فيصدق عليه قول الله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ٧﴾ [الزلزلة: ٧]، و يكون موضع الاختلاف في رؤية الخير على العمل الحسن هل هو في الدنيا أم في الآخرة، فمن العلماء من يقول في الدنيا و منهم من يقول في الآخرة، و الإطلاق في أحد الدارين غير سديد فالأمر لله كله لأن الله علق هذا الجزاء على المشيئة و التبعيض، فلا أحد يعلم على أي عمل سيجازى في الدنيا أو في الآخرة، و كيفية هذا الجزاء و الثواب، و ما يعنينا أن من عمل خيرا فسيراه حتما.

- السمرقندي: (وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها قال الكلبي: يعني يرد ثواب الدنيا بالعمل الذي افترض الله عليه نُؤْتِهِ مِنْها يعني أعطاه الله ما يحب، وَمَا لَهُ في الاخرة من نصيب....

ومن الناس من قال: إن الرياء يدخل في النوافل، ولا يدخل في الفرائض، لأن الفرائض واجبة على جميع الناس. وقال بعضهم: يدخل في الفرائض ولا يدخل في النوافل، لأنه لو لم يأتِ بها لا يؤاخذ بها، فإذا أتى بهذا القدر ليس عليه غير ذلك. وقال بعضهم: كلاهما سواء، فالرياء يدخل في الفرائض والنوافل جميعاً. وهذا القول أصح لقوله تعالى: وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يراؤون النَّاسَ [النساء: ١٤٢].)[١]

و في حقيقة الأمر إرادة ثواب الدنيا أعم من الرياء، لأنه قد يكون العامل غير مرائي بعمله و لكن يريد منه ثواب الدنيا، و ذلك كحج المشركين فإنهم يبتغون به فضل من ربهم و رضوانا أي أنهم يخلصون الحج لله (هذا شيء و أن يقع في حجهم الشرك شيء آخر) و لكنهم لا يريدون

[١] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٢٥٤).

إلا ثواب الدنيا فقط و مع ذلك لا يراءون بالحج، و أما المرائي فإنه لا يريد إلا ثواب الدنيا مع تحقق عدم الإخلاص في عمله فبان الفرق بينهما، و يكون محل الشاهد أن الرياء بالأعمال المفترضة على الناس أي الفرائض و النوافل يوفون ثوابها في الدنيا علاوة على اقرارهم عليها بصحة وقوعها منهم و تبرئة الذمة التكليفية بهذه الأعمال.

- الثعلبي: (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا يعني: ومن يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها[1]، نُؤْتِهِ مِنْهَا ما يكون جزاء لعمله، نظيره قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ (الشورى: ٢٠) الآية.)[2]

- السمعاني: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها فإن قيل: نحن نرى من يريد الدنيا، فلا يؤتى؟ قيل: معناه: لا يمنع عنه ما قدر له من ثواب الدنيا بسبب كفره. ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها فإن قيل: وهل يؤتى ثواب الآخرة بمجرد الإرادة؟ قيل معناه: ومن يرد بالعمل، وهذا كما يقال: فلان يريد الجنة، أي: يعمل للجنة) [3]

هنا يجعل السمعاني العلاقة ما بين وقوع العمل و بين ثوابه لمن أراده في الدنيا ليست علاقة حتمية بل محكومة بالقدر و المشيئة، و جعل الكفر ليس مانعا من إلحاق الثواب على العمل إذا

---

[1] التفسير البسيط (٦/ ٤٣). تفسير البغوي - إحياء التراث (١/ ٥١٨). تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٠٥). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٤) البقاعي جعل المقابلة بإزاء مريدي ثواب الآخرة فقال: (لكونهم لم يطلبوا بعبادتهم غير وجه الله). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٧) قال: (بطاعته).

[2] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير (٩/ ٣١٣).

[3] تفسير السمعاني (١/ ٣٦٣).

شاء الله و قدر له، إنما يكون الكفر مانعا حتميا لإنالة الثواب على العمل في الآخرة، و لكن محل الفائدة و النكتة هنا أن مشيئة الله متعلقة بتوقيع الثواب على العمل و ليس باستحقاق العمل الثواب المقدر له أن يكون له في الدنيا، و بهذا قد يكون هناك ثواب لم يشأ الله ان يقع له على عمله في الدنيا فما هو مصير هذا الثواب في الآخرة؟ فلا بد أن الله لا يظلم و لا يبخس أحدا و لو كان مثقال ذرة من خير، و بالطبع هو ممنوع من ثواب الآخرة، فلا بد من استنفاعه بهذا الاستحقاق في الآخرة بحيث لا يكون ثوابا، و لا يوجد أفضل من مرحلة الحساب و الموازنة موضعا لاستنفاعه بهذا العمل.

- الراغب الأصفهاني: (**ولما كان** أكثر الأعمال مشتبه الصور، **وإنما يتميز الخبيث من الطيب** بالنيات، **ولهذا قال** – ﷺ: **الأعمال بالنيَّات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله** الخبر [1]. والمجاهد **في سبيل الله ثلاثة:**

إما **قاصد به الآخرة غير ملتفت إلى الدنيا،**/ وإما قاصد عرضا دنيويًّا مراعيا فيه حكم الله **على ما ورد الأمر في قوله:** (**وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**). وإما قاصد عرضاً دنيويًّا غير مراع فيه حكم الله **على ما دل عليه قوله:** **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا**

[1] و بمعناه تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥١٨) قال: (من كانت نيته من عمله مقصورة على طلب الدنيا، فلا نصيب له في الآخرة، والأعمال بالنيات). تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٣٧٩). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ٢٧٢).

يُبْخَسُونَ) (١)

قد صور الأصفهاني المسألة بتفصيل جيد لكي يُظهر تفاوت قاصد الدنيا بعمله و قاصد الدنيا من عمله و قاصد الآخرة بعمله، و هذا تقسيم محكم راعى فيه ظواهر الآيات، و جعل مثاله أو مصداق من مصاديقه هو الجهاد، و بتقعيده للأعمال الحسنة الشرعية بأنها واحدة في الصورة الظاهرة لأن ما يقارنها من قصد و نية يكون غيبا عنا، و أن الاحكام تتعلق بهذه الصورة في الدنيا سواء كان للإثابة على العمل أو من قبل الجماعة المؤمنة التي تتعامل مع العمل و العامل، ثم جعل الثواب على درجات ثلاثة على حسب نية العامل، فثواب في الدنيا و الآخرة و هذا لمن أراد بعمله الآخرة، و ثواب في الدنيا غير قادح في أصل ثواب الآخرة و هو من قصد الدنيا مراعيا فيها حكم الله، و ثواب في الدنيا فقط بدون ثواب في الآخرة و هذا الذي أراد الدنيا فقط غير مراعي حكم الله في العمل أي أنه لا يحتكم لأمر الله فيما يعمله أو يقصده، و هذا ما صرح فيه ابن عرفة أنه ارتد أو هم بالردة و مع ذلك جرى عمله مجرى الأعمال الشرعية في استحقاقاته و تبرئة الذمة منه مع أن المنافق عمله حابط في الدنيا و الآخرة.

و الشاهد هو التعامل مع صورة العمل الموافقة للشرع على الصحة و الاعتبار الشرعيان و

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٣/ ٨٩٤ – ٨٩٥). تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (١/ ٤٢٥) و لكنه كان أصرح من الراغب فقال ابن عرفة: (تضمنت الآية أنهم على ثلاثة أقسام مؤمن مجاهد في سبيل الله ثابت على دينه، وآخرون ارتدوا على أعقابهم وهموا بالردة، وآخرون اشتغلوا بالغنائم ومتاع الدنيا). أما البقاعي جعلهم قسمين و سمى مريد ثواب الدنيا (الفارون كفرا لنعمة الله... وختام الآية يدل على أن التقدير هنا: وسنردي الكافرين ولكنه طواه رفقاً لهم) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٤).

اقتضاء ما يترتب على العمل من أحكام شرعية و فقهية، بدون إقحام النية أو القصد أو حقيقة كفر العامل في مناط الاعتبار و القبول، و لا إقحام كون أعمال هذا العامل حابطة في الدنيا و الآخرة، أو أن الله لا يتقبلها، فكل هذا غير مانع للتعامل مع العمل ما دام موافقا للشرع على أنه صحيح و وقع موقعه التكليفي فتبرأ الذمة منه في الدنيا.

- الرازي: (واعلم أن هذه الآية وإن وردت في الجهاد خاصة، لكنها _""عامة في جميع الأعمال"[1]، وذلك لأن المؤثر في جلب الثواب، والعقاب المقصود والدواعي لا ظواهر الأعمال، فإن من وضع الجبهة على الأرض في صلاة الظهر والشمس قدامه، فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى كان ذلك من أعظم دعائم الإسلام، وإن قصد به عبادة الشمس كان ذلك من أعظم دعائم الكفر.) [2]

و هذا تصريح أن الثواب و العقاب مناطهما هو القصد و الداعي و ليس ظواهر الأعمال، إنما ظواهر الأعمال فهي مناط التكاليف الشرعية، و هذا الفصل بهذه الرؤية دقيق، فنحن المكلفون لا نشغل بالنا بتحقيق و استحقاق الثواب من عدمه، و لكن ما يعنينا هنا في الدنيا هو صورة العمل و ظاهره و ما يناط به من أحكام شرعية، و إذا كانت الصورة موافقة للشرع كما

---

[1] تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٧) قال: (وقيل: هي عامة في كل من أراد الدنيا دون الآخرة). فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٤٢).

[2] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٣٧٩). و بحرفه في تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ٢٧٢).

مثل هو بأن الساجد في صلاة الظهر إذا نوى بسجوده أن يكون للشمس فهو كفر و هذا غيب بالنسبة لنا، و مع ذلك فإن صلاته للظهر صحيحة و قد برئت ذمته التكليفية من قضاءها أو مطالبته بها مرة أخرى، و كما ذكر هو قبل كلامه هذا أن من يريد الدنيا لا بد و أن يصل إلى بعض مقصوده ثم استشهد بحديث إنما الأعمال بالنيات، و هذا الحديث لا يمكن تصور دلالته إلا في الأعمال التي صورتها صورة حسنة ثم النية بهذا لعمل هي التي تحدد وقوعه مستحقا به ثواب الآخرة أم الدنيا فقط.

- ابن القيم: (قال تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كان له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد ثم اختلفوا في معناها فقالت طائفة منهم ابن عباس من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب قالوا والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها. وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء فالآية في الكفار بدليل قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون قالوا المؤمن من يريد الدنيا والآخرة فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه نزلت في أهل القبلة. قال مجاهد هم أهل الرياء.

وقال الضحاك من عمل صالحا من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا. واختار الفراء هذا القول وقال من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس.

وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهذا لا يكون مؤمنا ألبتة فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإنما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله [1]وإنما أراد به الدنيا وزينتها فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة القارئ الذي قرأ القرآن ليقال فلان قارئ، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال

---

[1] قال البقاعي أيضا: (لكونهم لم يطلبوا بعبادتهم غير وجه الله) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٨).

هو جريء.) [1]

و الخلاصة أن ابن القيم رجح أن الآية في غير المؤمنين، و أن أعمالهم هي الأعمال البارة، بدليل مقابلته بغير المؤمن مع المؤمن العاصي، أن العاصي و الفاسق المؤمن مهما يأتي من معاصي فإن أعمال البر لا تكون إلا لوجه الله، و عليه فإنه يقصد أن أعمال البر ستكون من أجل الدنيا فقط لغير المؤمن الذي لا يؤمن بالحساب و الآخرة، و الدليل أيضا استشهاده بفهم معاوية للحديث فالأعمال المذكورة فيه كلها أعمال حسنة الصورة مثل قراءة القرآن و الصدقة و الغزو و كلها كانت للدنيا و زينتها فقط.

و على كل حال سواء كانت للأعمال الحسنة صورة من المنافق أو المرائي أو الكافر فكلها مما يقر عليها في أحكام الدنيا و يتعلق بها الاحكام الشرعية، و قد تعلق بها أيضا ثواب الدنيا، لأن الله في إثابته و المريد لثوابه لا يجوز أن يكون العمل و الثواب على أعمال سيئة في ذاتها أي صورة و معنى لأن هذا لا يطلب به ثوابا من الفاعل، ولا يعلق عليه ثوابا من الله بمقتضى وعده.

[1] مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية (٧/ ٢٠٨، بترقيم الشاملة آليا). و جعله كافر بالنعمة البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٤). و ابن عاشور جعل مريد ثواب الدنيا أنه لا يريد ثواب الآخرة: (أي من يرد الدنيا دون الآخرة... وليس المراد أن من أراد ثواب الدنيا وحظوظها يحرم من ثواب الآخرة وحظوظها) التحرير والتنوير (٤/ ١١٥).

- السبكي: (وإنما يحبط العمل بالكلية إذا لم يكن إلا الباعث الدنيوي وليس حبوط العمل حينئذ لتحريم الباعث الدنيوي لذاته بل لعدم النية الصحيحة فيتجرد العمل عن النية فيكون باطلا ويصير العامل به بلا نية كالمستخف بعبادة الله ممقوتا لتلبيسه وتزويره.) [1]

الشاهد أنه وصف العمل بالحابط و الباطل و مع ذلك سيكون له ثواب الدنيا، و سيتعلق به الأحكام الشرعية لوقوعه موافقا للشرع. و الفائدة الأخرى أن مناط الحبط و البطلان لم يرجع لاسم الفاعل بل لشروط توقيع الفعل خاصة الشرط الباطني، و السبكي هنا لم يجعل قصد الدنيا في حد ذاته حرام بل لطغيانه فلم يكن معه غيره، أي قصد ثواب الآخرة.

[1] تفسير السبكي من خلال كتابه (فتاوى السبكي) (ص: ٤٩، بترقيم الشاملة آليا).

الآية رقم ٧

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]

الآية فيها تضمين دلالي لزومي آت من تسبب أعمالهم (الاستكبار و الفسق) في إذهابهم طيباتهم في الحياة الدنيا بدلا من أن يستصحبوها معهم للآخرة على وجه الخلوص كالمؤمنين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢]، و عليه فقد استهلكوها كلها في الحياة الدنيا بمنعها بكفرهم أن تكون لهم في الآخرة، و الطيبات تحتمل أنها كانت جزاء و مقابل لأعمالهم الحسنة و البارة بغيرهم، أو أن الطيبات كانت لهم بموجب وجودهم في الحياة الدنيا كمكلفين تجاهها، أو أن الطيبات بالنسبة لهم كانت رصيدا لتغطي جزاء حسناتهم و تقيم الحجة عليهم بمقام الربوبية لأن الله لم يمنعها عنهم لأجل كفرهم و فسقهم و تكبرهم في الأرض بغير الحق، و على كل فالآية تقرر أن الجزاء على الأعمال كان له شقان: أحدهما في الحياة الدنيا و الأخر في الآخرة، و الذي في الحياة الدنيا قد ذهب بذهاب الطيبات فيها، أما الآخرة فلم يبقى فيها جزاء على أعمالهم إلا الأعمال السيئة فقط كالاستكبار و الفسق و لذلك ليس لهم جزاء إلا عذاب الهون فلن يروا طيبا في الآخرة كما كانوا يروا في الدنيا، لأن الكفر في الدنيا ليس مانعا من التمتع بالطيبات أما في الآخرة فإن الكفر مانع من التمتع بالطيبات بل هي محرمة عليهم ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا

عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٥٠﴾ [الأعراف: ٥٠].

و على ذلك يكون مدخل الآية في عنوان المبحث على أساس أن الطيبات له وجه من التجزية على أعمالهم الحسنة بدون أن ينتفي عن الطيبات الوجه التكليفي أيضا بأن يؤدوا حقوقها بالشكر عليها لله.

أي أن كل استكبار و فسق وقع منهم بتمتعهم بهذه الطيبات فلم يؤدوا حقها من التحليل و التحريم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و بما صدوا به عن سبيل الله و أفسدوا في الأرض و غير ذلك من أعمال، فالفارق بين الفريقين بالنسبة للطيبات و الزينة أن الكفار تكون لهم غاية و إرادة أما المؤمنون تكون لهم وسيلة فقط، أن الكفار لا يؤدون حقها من الشكر و المؤمنون يشكرون الله عليها، و الكفار يحللون و يحرمون ذواتها تارة و ما يتعلق بها من أحكام شرعية تارة أخرى، أما المؤمنين فالطاعة تكون لله وحده في التشريع و يؤدون حقوقها الشرعية المنوطة بها.

- قد يشعر معنى الآية أن الطيبات وجدت من الله للناس لأجل التعبد بها فيحققوا عبادته فيكون عباده، و معنى ذلك أن هذه الطيبات و الزينة تستوجب الشكر عليها و من يتمتع بها بدون هذا الشكر فهو مسئول عنها و مجازى على كفر هذه الطيبات و الزينة لأنها من النعم، و من هذه الحيثية نستطيع القول أن الكفار و المشركين إذا عملوا الصالح و الحسن مقابل هذه النعم فقد تكافأت في حقهم وجوب العقاب و استحقاق الجزاء لأنهم لا يريدوا إلا الحياة الدنيا

و حرثها، أما المؤمن فيزيد الله في حرث الآخرة و يضاعف له الحسنات بعد أن كافئ شكره نعم الله عليه فأدى ما عليه و استحق الفضل و اللطف بالزيادة و التضاعيف.

- و من دلالة إضافة الحياة للذين كفروا (حياتكم) يدل على أنها إرادتهم المحضة لهذه الحياة الدنيا و ما يؤكد ذلك الآيات ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ هود ١٥، و ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ الشورى ٢٠، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ الإسراء ١٨، ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة ٨٦، و ما في معنى هذه الآيات كثير.

- و الاستمتاع لا يلزم منه وقوع التمتع بل المعني به هو بيان شدة الحرص و الطلب بالقلب و الجوارح للحصول على المتاع من أجل التمتع به و قد يقع التمتع أو لا يقع حسب الشروط و الموانع، و هذا يؤكد بدوره أن المقصود بالذين أذهبوا طيباتهم هم الذين يريدوا الحياة الدنيا و حرث الدنيا و العاجلة.

- بعض صور الشكر الظاهرة و المستحقة من طيبات الكفار و المشركين: الزكاوات و الصدقات من الزروع و الثمار و الإبل و البقر و الغنم و غيرها، و صور هذا الشكر مثل إطعام المساكين و عابري السبيل و اليتيم و السائلين و اقراض المقرضين بدون ربا، و بزل الماعون و الإصلاح في الأرض

- وجه الآية في الاستدلال على تكليف الكفار هو التنويع في مستحقات العذاب ما بين الاستكبار و الفسق فيجب أن يتغايروا في معناهم، و يجب أن يكون أحدهم هو الكفر أو الشرك، و الثاني فيما هو دون ذلك من المعاصي، و يمكن أن يضاف إذهاب الطيبات كجزاء مستقل يوم القيامة للذين كفروا، لأنها ستكون خالصة للذين آمنوا، و الطيبات للذين آمنوا لها حقوق و أداء شكر فوجب أن تكون في حق الذين كفروا مضيعة الحقوق و أداء الشكر عليها للمنعم بها عليهم، و لذلك حكى مكي عن بعض العلماء أنهم لم يتصرفوا فيها كما أمرهم الله و أدوا حقوقها و شكرها في الإنفاق منها لوجه الله و غير ذلك من صور البر و الحسن (الترجمة العملية للكفر).

و من صور عدم الوفاء بالحقوق إزاء الطيبات من الرزق التي ذكرها القرآن كما في قوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ للهِّ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا للهِّ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِّ وَمَا كَانَ للهِّ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ الأنعام ١٣٦، ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ المنافقون ١٠، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ القيامة ٣١، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فصلت ٧، ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الماعون ٧، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الماعون ٣، ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ التوبة ٥٤، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِّ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التوبة ٣٤.

أي أن الجزاء بالعذاب مُصَرح به و مُسَبَّب عن الاستكبار و الفسق نصا، و بهذا فلا يدخل في مسببات العذاب الاستمتاع المجرد بالطيبات لأنه أمر مشترك بين كل الناس و خاصة أن الله حلله لكل الناس و نهى عن تحريمه بين المشركين و المؤمنين على السواء، و لذلك لم يصرح أن العذاب جزاء على الاستمتاع بالطيبات، و يساعد على هذا أن الإذهاب تعلق بالطيبات نفسها و لا أصرح و أبين من تفسيرها بالقرآن نفسه كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِّ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الأعراف ٣٢، أي أنهم استهلكوها في حياتهم الدنيا فلن يكون لهم في الآخرة منها نصيب و لا خلاق.

أما تعلق و تفسير العذاب بالطيبات فهو من جهة الحقوق المتعلقة بها و من جهة التوسل بها للطاعة و الإيمان بالله، فلما لم يؤدوا حقوقها و الشكر عليها لله وحده أشركوا بها و عصوا الله بها فاستعملوها في الصد عن سبيل الله و محاربة الله و رسوله و المؤمنون.

— و من أهم نكات و فوائد هذه الآية أن بعض المفسرين قد أشار بحجيتها على تكليف الكفار بفروع الشريعة،[1] و الأهم هنا هو إبراز كيفية و وجه الاستدلال على ذلك، فقد اعتمدوا على

[1] يقول الرازي: (واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، قالوا لأنه تعالى علل عذابهم بأمرين: أولهما: الكفر وثانيها: الفسق، وهذا الفسق لا بد وأن يكون مغايرا لذلك الكفر، لأن العطف يوجب المغايرة، فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات، والله أعلم.) تفسير

تنويع أسباب العذاب أي لم يكن في ألفاظ الآية مخاطبة بحكم شرعي فرعي للكفار أو تضمينا بما يؤدي لذلك من لفظ عام كالناس أو النفس أو غير ذلك، بل الدليل آتي من استحقاق العذاب على ما هو دون أو مغاير للكفر أو الشرك، و بهذه الحيثية الاستدلالية هناك حشد كبير من الأدلة الصريحة لفظا و ضمنا و لزوما بأن الكافر و المشرك سيعذب على ما هو دون الكفر و الشرك، و أدلة أخرى تثبت التفاوت في قدر العذاب على درجات الأعمال، و أدلة أخرى تثبت له بالتضمن أن من عمل خيرا سيراه و وضع الموازين و الحساب و الجزاء من جنس العمل، و أدلة توفية الأعمال و عدم البخس و نفي الظلم و غيرها.

☚ و لو قلنا أن المقصود من إذهاب طيباتهم هو تضيعهم صلاح الأعمال التي كانت من الممكن وقوعها في حياتهم الدنيا [1]، و أيضا التي وقعت منهم (الطيبات) حبطت و بطلت و ضلت بعظم أعمالهم الخبيثة كالاستكبار و الفسق، فلم يخرجوا من الحياة الدنيا بأي طيبات تدخر لهم في الآخرة، فلم يبقى من أعمالهم إلا الاستكبار و الفسق المستحق عذاب الهون، و هذا التأويل

الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٨/ ٢٣). اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٤٠٢). تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ١٢١ - ١٢٢). السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ١٣). تفسير اطفيش - إباضي (١٠/ ٩٣، بترقيم الشاملة آليا) حيث قال: (وهذا وأمثاله دليل على خطاب المشركين بالفروع كالأصول).

[1] يقول أبو حيان: (أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم، لكنكم لم تؤمنوا، فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا.) البحر المحيط في التفسير (٩/ ٤٤٤). و بمعناه في تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة (٤/ ٢٠). فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ٢٩٤).

شامل نواح عدة بيانية فالطيبات ستكون هي نفسها الأعمال الصالحة و الحسنة و إذهابها إما بتوفية الجزاء عليها في الدنيا أو بضلالها في غمرات الكفر و الفسق و السيئات يوم القيامة، و من الناحية الأخرى فالطيبات هي نفس المجزي به على الأعمال الصالحة و الحسنة و إذهابها بذهاب الحياة الدنيا نفسها، و في كلا الحالتين يجب أن يكون الإذهاب من تسببهم فإما بتضييع الحسنات مقابل الطيبات بإرادتهم أو بتضييع حسناتهم بسبب ما اقترفوه من الكبر و الفسق، لأن الله أسند الإذهاب لهم.

و النقاط التي سنتتبعها من كلام المفسرين هو كل ما من شأنه التدليل على أن سبب العذاب هو الأعمال السيئة و هذا فيه تضمين أنهم جوزوا على حسناتهم قبل استحقاقهم العذاب إما ان يكون هذا الاستيفاء في الدنيا أو في الآخرة بالحساب و الموازنة، و إن كان في الدنيا فيجب أن يكون له صلة بإذهاب الطيبات، و أي فائدة تتعلق بهذا المعنى أو تشير إليه سنوردها.

و لظهور سبب العذاب على استكبارهم و فسقهم فلن نكثر من نقله لأنه واضح جدا فلا مخالفة فيه. أما الذي سنهتم به هو التصريح أو التلميح أن إذهاب الطيبات كان جزاء على إرادتهم الحياة الدنيا بأعمالهم.

* الطبري: (... قال ابن زيد، في قول الله عزّ وجلّ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... إلى آخر الآية، ثم قرأ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ وقرأ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نزدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وقرأ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ... إلى آخر الآية، وقال: هؤلاء الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.)[1]

فالربط هنا واضح ما بين طيباتهم في الدنيا و بين إرادتهم الحياة الدنيا و حرث الدنيا و العاجلة، فكأن إعطائهم الطيبات في الدنيا كان له وجه توفية أعمالهم فيها.

- الطبراني: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا أي أذهبتم أموالكم، وقيل: قوتكم وشبابكم في لذاتكم في الدنيا، لا في طلب رضى الله، بل في وجوه محرمة، وانتقصتم بطيباتكم في الدنيا واستمتعتم بها (فـ) ليس لكم فاليوم ههنا حسنات، وإنما تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ...) [2]

أما مع الطبراني فالعلاقة ما بين الطيبات المتمثلة في المال و القوة و الشباب تم وصفها أنها آكلة لحسناتهم و لذلك جاؤوا يوم القيامة و استحقاق العذاب بدون أي حسنة، و هذا بدوره يشعر بأن الطيبات كانت جزاء أو ثواب أو حتى مقابل حسناتهم.

- السمرقندي: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ يعني: أكلتم حسناتكم فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بها

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ١٢١).

[2] تفسير القرآن العظيم المنسوب للإمام الطبراني.

يعني: انتفعتم بها في الدنيا. قوله: فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ ...) [(١)]

تعبير السمرقندي هنا ظاهر جدا في ابراز العلاقة الجزائية ما بين الطيبات و الحسنات و جعل استحقاقهم العذاب دال على هذه العلاقة و بقوة، لأن سبب عذابهم هو الكبر و الفسق المحض بدون أي حسنات لها فاعلية في دفع العذاب، أي استهلاك حسناتهم في الدنيا مقابل الطيبات ليس هو سبب العذاب بل مآله فقط.

- السمعاني: بعد ذكر أقوال أخرى (وقيل: أخذتم نصيبكم في الدنيا فلا نصيب لكم في الآخرة.) [(٢)]

فأخذ نصيبهم في الدنيا هو مقابل أعمالهم فأخذوه على هيئة الطيبات كما دلت على هذا الآيات الأخرى ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٢]، و قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

- ابن كثير: (وقال أبو مجلز: ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا وقوله عز وجل: فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون فجوزوا من جنس عملهم) [(٣)]

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٢٩٠).

(٢) تفسير السمعاني (٥/ ١٥٧).

(٣) تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٢٦٢).

- ابن عادل الحنبلي: (والمعنى أن ما قدر لكم من الطيبات والدرجات فقد استوفيتموه في الدنيا، فلم يبق لكم بعد استيفاء حضكم شيء منها.) [1]

- ابن عاشور: (والمعنى: استوفيتم ما لكم من الطيبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيبات بعدها لأنكم لم تعملوا لنوال طيبات الآخرة، وهو إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون فرتب عليه قوله: فاليوم تجزون عذاب الهون. فالفاء فصيحة. والتقدير: إن كان كذلك فاليوم لم يبق لكم إلا جزاء سيئ أعمالكم، وليست الفاء للتفريع ولا للتسبب.)[2]

فالأمر واضح و إن لم يصرح به أن الطيبات التي في الدنيا كانت لتوفيتهم ما قدر الله لهم و الله أعلمنا أنهم أرادوا و عملوا للدنيا و العاجلة و ثوابها، و وعدهم بتوفية أعمالهم فيها بدون بخس، فلم يبقى إلا أن تكون هذه الطيبات هي توفيتهم على أعمالهم للدنيا، و لذلك قال: (فاليوم لم يبق لكم إلا جزاء سيئ أعمالكم) أي أن توفيتهم على حسناتهم في الدنيا لم تبقي لهم أي حسنة حين تقدير العذاب عليهم، و سبب العذاب هو الكفر و الفسق الذي لا ينفع معه أي حسنة تدافعه بها، و لكي تتضح الصورة أكثر كي لا يحدث أي لبس أن حسناتهم ليس لها أي دور تأثيري في الآخرة نقول: أن توفيتهم بالطيبات الدنيوية على حسناتهم لأجل إرادتهم الحياة الدنيا أي أنهم كفروا بالآخرة، و كفرهم يمنع أي ثواب لحسناتهم في صورتها الآخروية، لأن مصيرهم الخلود في النار و أن الله حرمهم على الجنة فلا يبقى لهم حسنة بعد الحساب و

---

[1] اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٤٠٢). السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ١٢). القونوي في حاشيتا القونوي وابن التمجيد عَلَى البيضاوي (١٧/ ٤٧٧).

[2] التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٢).

الموازنة، فيتم تقدير جزاء عذابهم على محض السيئات فقط، و بهذا فنحن لم ننكر عليهم منافع حسناتهم التي في الدنيا بالطيبات، و لا منافع حسناتهم في الآخرة بتخفيف قدر استحقاق العذاب.

و الخلاصة أن صورة ثواب الدنيا على الحسنات كانت بالطيبات، و صورة ثواب الآخرة على حسناتهم كانت في الموازنة و الحساب، و بهذه الرؤية لا تعارض أو مخالفة ما بين النصوص. و بمعنى آخر أكثر تقاربا مع ألفاظ الآية أن الطيبات لها صورتان أحدهما في الدنيا و الثانية في الآخرة، و الكفار استعجلوا طيباتهم في الدنيا المسببة عن توفية أعمالهم في الدنيا كما أرادوا، و لكفرهم بالآخرة فلن ينالوا أيا من طيبات الآخرة لأنها ستكون محرمة عليهم بكفرهم، و من هنا نفهم إذهاب طيباتهم كلها في الحياة الدنيا بالصورة الدنيوية بدون أي بخس أو ظلم من الله لأن هذه محض إرادتهم و قدر إيمانهم بالحياة الدنيا و عدم إيمانهم بالآخرة.

و نحن رجحنا كون استيفائهم الطيبات مسببة بإرادتهم و بأعمالهم على جهة الجزاء أولا: لأن الله أسند إليهم إذهابها، و ثانيا الإخبار عن إذهابها بدون إدخالها في تسبب عذابهم في الآخرة لأنه مصرح بسبب العذاب (الكبر و الفسق)، و لو قلنا أن هذه الطيبات هي مقدرة بقدر الله أي على سبيل العطاء و الإمداد: فهو للكل الكافر و المؤمن بغير تسبب بشري لها، فلا يكون هناك معنى لإذهابها إلا من جهة ما يترتب عليها من واجبات و حقوق ضيعوها و هذا المعنى يستوجب عذاب و الله لم يجعل إذهابهم طيباتهم سببا في العذاب، فلا وجه سائغ لوصف إذهاب طيباتهم إلا على جهة الاستحقاق و التوفية.

الآية رقم ٨

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢]

و ارتباط هذه الآية بالتي قبلها أذهبتم طيباتكم لتقرير أن سبب إذهاب طيباتهم في الحياة الدنيا و حرمانهم منها في الآخرة هو بسبب عدم إيمانهم بالآخرة، و هذا المعنى لا يعارض ما قلناه سابقا أن إذهاب طيباتهم كان بإزاء توفيتهم أعمالهم في الدنيا أي ثواب الدنيا و حرث الدنيا لأن هذا الثواب و الحرث الدنيوي مسبب عن الأعمال لكلا الفريقين أعني المؤمنين و الكافرين، و لكن الفارق أن الله يعطي حرث الآخرة و يزيد فيه للمؤمن أما الكفار فقد أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا و يحرمون منها في الآخرة ثم تصبح خالصة للذين آمنوا فقط، لأنهم طلبوها و أرادوها بدعائهم و أعمالهم، فالتمتع بالطيبات في الحياة الدنيا مكفول لكلا الفريقين.

في الآية دلالة على أن زينة الله المخرجة للعباد و الطيبات من الرزق ستكون خالصة يوم القيامة للذين آمنوا في الحياة الدنيا، فدل ذلك على تشريكها مع غيرهم في الدنيا على نفس القدر من التمتع بها و الإباحة الشرعية، ثم يوم القيامة تحرم على الذين كفروا، و الآيات التي تدل على هذا كثيرة و من أهمها لدفع غرابة القول بتخصيص حال الإيمان الظرفي (الزمنكاني) المنوط به خلاص هذه الزينة و الطيبات بأنه الإيمان في الحياة الدنيا بلا معاينة العذاب أو حضور الموت، و هو مستمد من قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨]، و أيضا ﴿قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٠-٥٢]، و منه إيمان فرعون ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

و بتحريم هذه الطيبات من الرزق من قوله تعالى ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠]

أما الآيات التي تعدد الزينة من الذهب و الفضة و الحرير و اللؤلؤ و الطيبات من الفاكهة و الطير و اللحم و العسل و اللبن و الماء فهي أشهر من أن تذكر.

- أو يكون التأويل أن هذه الطيبات و الزينة بالنسبة للذين آمنوا يشوبها شائبة التحرج سواء في طلبها أو في التمتع بها و لكنها ستكون يوم القيامة خالصة من هذا التحرج أو الكد، بل تُنال بالتشهي و الطلب فقط.

- من المحتمل أن تكون هذه الطيبات و الزينة للذين آمنوا خالصة من التبعات الاستحقاقية بالتمتع بها في الحياة الدنيا يوم القيامة، أي لا يسألون عن تمتعهم بهذه الطيبات و الزينة التي أحلها الله للناس كلها، و جزئية السؤال عن التمتع بالطيبات و الزينة يوم القيامة من قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨] و ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]

أي كل استكبار و فسق وقع منهم بتمتعهم بهذه الطيبات فلم يؤدوا حقها من التحليل و التحريم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و بما صدوا به عن سبيل الله و أفسدوا في الأرض و غير ذلك من أعمال، فالفارق بين الفريقين بالنسبة للطيبات و الزينة أن الكفار تكون لهم غاية و إرادة أما المؤمنون تكون لهم وسيلة فقط، أن الكفار لا يؤدون حقها من الشكر و المؤمنون يشكرون الله عليها، و الكفار يحللون و يحرمون ذواتها تارة و ما يتعلق بها من أحكام شرعية تارة أخرى، أما المؤمنين فالطاعة تكون لله وحده في التشريع و يؤدون حقوقها الشرعية المنوطة بها.

- قد يشعر معنى الآية أن الطيبات و الزينة وجدت من الله للناس لأجل التعبد بها فيحققوا عبادته بها، و معنى ذلك أن هذه الطيبات و الزينة تستوجب الشكر عليها و من يتمتع بها بدون هذا الشكر فهو مسئول عنها و مجازى على كفر هذه الطيبات و الزينة لأنها من النعم، و من هذه الحيثية نستطيع القول أن الكفار و المشركين إذا عملوا الصالح و الحسن مقابل هذه النعم فقد تكافأت في حقهم وجوب العقاب و استحقاق الجزاء لأنهم لا يريدوا إلا الحياة الدنيا و حرثها و هذا هو عين معنى أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا، أما المؤمن فيزيد الله في حرث الآخرة و يضاعف له الحسنات بعد أن كافئ شكره نعم الله عليه فأدى ما عليه و استحق الفضل و اللطف بالزيادة و التضاعيف.

- مقاتل بن سليمان: (يقول: أشرك في الطيبات في الدنيا المؤمن والكافر، وهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة)[1]

- الفراء: (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا يقول: مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة.)[2]

- عبد الرزاق الصنعاني: (... عن الحسن في قوله تعالى (للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)، قال: «هي للمؤمنين خالصة في الآخرة لا يشاركهم فيها الكفار، فأما في الدنيا فقد شاركوهم»)[3]

- الهواري: (وقد خالطهم المشركون والمنافقون فيها في الدنيا، وهي للذين ءامنوا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ دون المشركين والمنافقين. قال بعضهم: من عمل بالإيمان في الدنيا خلصت له كرامة الله يوم القيامة.)[4]

- الطبري: (وقد شركهم في ذلك فيها من كفر بالله ورسوله وخالف/ أمر ربه، وهي للذين آمنوا بالله ورسوله خالصة يوم القيامة، لا يشركهم في ذلك يومئذ أحدٌ كفر بالله ورسوله وخالف أمر ربه.)[5]

---

(1) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٣٤).

(2) معاني القرآن للفراء (١/ ٣٧٧).

(3) تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني (٢/ ٣٨٢).

(4) تفسير الهواري (١/ ٤١٠، بترقيم الشاملة آليا).

(5) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩).

ثم تتوالى التفاسير على إقرار هذا المعنى فلا داع للإطالة بنقلها [1]، و اتفاقهم على هذا لا يمنع أن يكون هذه الطيبات له وجه جزائي على أعمالهم الحسنة في الدنيا لأن هذه إرادتهم، أما المؤمنين فلهم في الدنيا و الآخرة.

---

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٣٣)، تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٥/ ١٤٦٨)، تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٤٠٧)، معاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٨)، أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٤/ ٢٠٨)، تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٥١٢)، تفسير الماوردي = النكت والعيون (٢/ ٢١٩) ....

المحتويات

الفصل الثاني ٢

دخولهم في عموم الأعمال الحسنة و جزاؤها.................. ٢

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨].. ٤

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ۝٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠] ١١٣

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦] ١٣٢

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ۝١٥﴾ [الجاثية: ١٤-١٥] ١٤٢

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى۝٣٨ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى۝٤١﴾ [النجم: ٣٨-٤١] ١٦٠

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا۝١١ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا۝١٢ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا۝١٤ مَنِ اهْتَدَى

فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١١-١٥] ١٩٩

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٣-٨٤] ٢٢٠

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣٠-٣١] ٢٣٢

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٦٠] ٢٦٣

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝٢٩ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى۝٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى۝٣١ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى۝٣٢﴾ [النجم: ٢٩-٣٢] ٢٨١

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠] ٢٩٥

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا۝٢٩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا۝٣٠ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا۝٣١﴾ [الكهف: ٢٩-٣١] ٣٠٦

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۝٩٠﴾ [النمل: ٨٩-٩٠] ٣٣٦

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ۝٥٣ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٣-٥٦] ٣٥٩

الفصل الثالث ٣٦٣

تزيين سوء أعمالهم يقتضي وجود الحسن و يبين معنى الحبط ٣٦٣

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٧-٨]......................... ٣٦٧

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٧-٨]......................... ٣٧٤

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٧].. ٣٨١

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨] ٣٨٤

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨] ٣٩٢

الفصل الرابع ٣٩٧

جزاء أعمالهم الحسنة في الدنيا ٣٩٧

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦] ٤٠٠

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢١] ٤٧١

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ١٧-٢٠] ٤٩٧

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] ٥١٩

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
غَنِيًّا حَمِيدًا﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ
ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣١-١٣٤] ٥٦٠

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ
كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴿١٤٦﴾
وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥-١٤٨] ٥٧٢

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف: ٢٠] ٥٩٨

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢] ٦٠٩